جرجي زيدان

تاريخ التمدن الإسلامي

الجزء الثالث

تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الثالث

يبحث فى ثروة الدولة الاسلامية وثروة رجال حكومتها وخلفائها ، وأسباب تلك الثروة، وأسباب اضمحلالها، وثروة المملكة ومدنها وقراها

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

مقدمة (1)

العلم أعظم أركان الحضارة وأقوى أسبابها ، والبحث فى علوم الامم وآدابهم من أهم واجبات المؤرخين ، وخصوصا فى الاسلام ، لعلاقة العلوم الاسلامية بأحوال دوله وسياستها . ولذلك كانت أبحاث هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامى أهم أبحاث هذا الكتاب . ويزيد أهميته ارتباط تاريخ العلوم فى الاسلام بتاريخها قبله ، لأن المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما أنتجته عقول البشر ، من أول عهد المدنية الى ايامهم ، فى العقليات والنقليات ، فورثوا علوم الكلدانيين والفينيقيين والمصريين والفرس واليونان والهنود . فجرنا النظر فيما نقله العرب من علوم تلك الامم الى البحث فى تاريخ تلك العلوم عند كل منها . فكأن هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامى يشتمل على خلاصة تاريخ العلم والفلسفة والادب ، من أول عهد العمران الى ظهور الاسلام ، فضلا عن تاريخها فيه

وقد رسخ فى اعتقاد بعض الكتاب من الافرنج وغيرهم ، أن المسلمين او العرب قلما افادوا العلم ، لأنهم نقلوه عن اليونان ولم يزيدوا فيه شيئا من عند أنفسهم . وذهب آخرون الى أن نقلهم لم يقتصر على استبقاء علم اليونان كما كان ، بل هم شوهوا ما نقلوه فأضروا العلم وأفسدوه . وقد نشأ هذا الاعتقاد فى زمن التعصب ، وتوالى وتنوقل الى أوائل هذا العصر . ولم يتعرض لتحقيقه أو نقده أحد من العرب أو المسلمين

على أن المنصفين من مستشرقى الافرنج ذكروا للتمدن الاسلامى أفضالا على العلم أشاروا اليها باختصار . وقد توسع بعضهم فى تعدادها بكلام اجمالى ، اذا قراه العربى انشرح صدره ، فاذا أراد تحقيقه ذهب أكثر سعيه عبثا . ووجه التحقيق أن نجد تلك المآثر مثبتة فى كتب العرب القدماء ، لأنها المصدر الوحيد لتاريخ الاسلام والمسلمين والآداب الاسلامية . وأكثر ما كتبه الافرنج فى هذه الموضوعات مرجعه الى كتب العرب . فاذا رأينا فى كتب الافرنج مأثرة منسوبة الى العرب ولم نجد لها ذكرا فى كتبهم ضعفت ثقتنا فى صحتها .. اذ قد تكون منقولة عن بعض الرحلات الافرنجية فى

---

(1) التعليقات المؤشر عليها فى هذا الجزء بعلامة (*) هى تعليقات المراجع الدكتور حسين مؤنس تمييزا لها عن تعليقات المؤلف المشار اليها بالارقام

العصور الوسطى ، واكثرها يحتاج الى تمحيص ، كرحلة بنيامين التطيلى اليهودى التى وصف فيها القسطنطينية ومصر وسوريا وفارس الى حدود الصين فى القرن الثانى عشر للميلاد ، فقد ضمنها من الحوادث والاخبار ما يخالف التاريخ ، فضلا عما فيها من المبالغات والغرائب .. كتبها الرحالة المذكور باللغة العبرانية ، ثم نقلت الى اللاتينية فى القرن السادس عشر ، والى الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، والى الانجليزية فى القرن التاسع عشر (*)

ومن أمثلة ما جاء فيها أنه كان فى الاسكندرية على عهد الفاطميين عشرون مدرسة علميــة ، وفى القاهرة عدد عظيم من المدارس الكلية ، وسترى فى كلامنا عن تاريخ المدارس أنها لم تبن بمصر الا بعد انقضاء عصر الفاطميين. ومع ذلك فاننا نرى كتابنا ينقلون هذه الاخبار على علاتها فرحا بتعداد مآثر العرب ، ولو نقبوا عن أساسها لذهب فرحهم . وهذا ما نبهنا اليه صديقنا النعمانى العالم الهندى فى كتابه الذى نشرنا خلاصته فى مقدمة الجزء الثانى ، اذ اقترح علينا أن نذيل صفحات كتابنا هذا بالمصادر التى ننقل عنها ، وقد أخذنا باقتراحه . واصبحنا لكثرة ما يعرض لنا من أخطاء المؤرخين فى هــذا الصدد ، لا نثق الا بما يؤيد بالاسناد الى النصوص التاريخية أو بقرينة لا تقل قوة عنه

***

على أننا لا نرى بدا من تصديق كتاب الافرنج فيما هو متعلق بآدابهم أو تاريخهم ، كحكاية الساعة التى يقولون أن هارون الرشيد أهداها الى شارلمان مثلا ، وكقولهم ان عرب الاندلس علموهم صنع رقاص الساعة ، وقول الباحثين فى تاريخ الكيمياء مثلا أن العرب صنعوا المركب الفلانى أو اكتشفوا المادة الفلانية . وأما فيما خلا ذلك فلا بد من الرجوع الى المصادر العربية من كتب التاريخ والادب والعلوم وهى كثيرة ، وفيها فوائد مهمة تظهر بالمطالعة والامعان . ولا ينبغى لنا أن ننسى فضل جماعة المستشرقين فى نشر الكتب العربية ، التى لولاهم لضاعت أو ظلت فى زوايا الاهمال ، ونذكر منها على الخصوص كتابا كثير الفائدة فى هذا الموضــوع ، نعنى كتاب الفهرست لابن النديم ، والفضل فى نشره للمستشرق جوستاف فلوجل Gustav Flugel وقد علق عليه ملاحظات جزيلة الفائدة ومقابلات مهمة شغلت مجلدا كاملا

(*) نشرت رحلة بنيامين التطيلى بالعربية فى بغداد عام ١٩٤٠ وقام على نشرها عزرا حداد ، وقد رجعنا اليها فى الموضع الذى يشير اليه المؤلف ، فوجدناه يريد بالمدارس المساجد التى كان الناس يتدارسون فيها العلم منذ دخل العرب مصر ، ويريد بالمدارس الكلية حلقات البحث والدرس التى كانت تقام فى منازل الاعيان وكبار رجال الدولة . وربما كان الاصوب لهذا ترجمة عبارة « مدرسة علمية » بكلمة « مكتب » ، وهو الاسم القديم الذى كان يطلق على الموضع الذى يعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة والقرآن

فجعلنا معولنا فى استخراج الحقائق التاريخية التى بنينا عليها بحثنا فى هذا الكتاب على الكتب العربية بعد التمحيص والنقد . واستيفاء لأسباب البحث تصفحنا ما كتبه فى هذا الشأن أفاضل الافرنج وغيرهم ، فى الانجليزية والفرنسية والالمانية وغيرها . ووقفنا على كتاب فى اللغة الهندستانية (الاوردية) للنعمانى المشار اليه سماه « رسائل شبلى » ، ذكر فيه فصولا فى مدارس العرب ومارستاناتهم ومكتباتهم وكتبهم ذيلها بالاسناد ، وهو كتاب جليل . وبعد الاطلاع على آراء العلماء وأبحاثهم فى هذا الموضوع ، رجعنا الى المصادر العربية فتصفحناها بامعان وتدقيق ، فعثرنا فيها على ما أدهشنا من عظمة ذلك التمدن وخصوصا فى العلم والادب ، مما ستراه مفصلا فى هذا الجزء

موضوع هذا الجزء

وقد قسمنا الكلام فى موضوع هذا الجزء الى : علوم العرب قبل الاسلام ، وعلومهم بعده . . فذكرنا أولا خلاصة ما كان عند العرب الجاهلية من العلوم والآداب ، كالنجوم والانواء والميثولوجيا والكهانة والعرافة والطب والشعر والخطابة وأندية الادب والانساب والتاريخ ، وبحثنا فى مصادر تلك العلوم بحثا فلسفيا . وقسمنا الكلام فى علوم العرب بعد الاسلام الى ثلاثة أقسام : أولا ، العلوم التى اقتضاها الاسلام وسميناها العلوم الاسلامية . ثانيا ، العلوم التى كانت فى الجاهلية وارتقت فى الاسلام وهى الآداب العربية الجاهلية . ثالثا ، العلوم التى نقلت من اللغات الاخرى وهى العلوم الدخيلة

وقبل النظر فى هذه الاقسام قدمنا الكلام بمقدمات تمهيدية : (١) فى الاسلام والعلوم الاسلامية وكيف تدرج العرب فى وضعها واستلزم بعضها بعضا (٢) العرب والقرآن والاسلام وما كان من تأثير القرآن فى نفوس العرب واكتفائهم به دون سواه (٣) ما جر اليه ذلك الاكتفاء من احراق ما عثروا عليه من كتب الاقدمين وخصوصا مكتبة الاسكندرية (٤) فى الرومان والاسلام والعلم ، وان الذين يقابلون بين الرومان والعرب فى أسباب التمدن يظلمون العرب ، وانه يجب أن يقابل بين الرومان والاسلام (٥) ان حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم ، وما السبب فى ذلك (٦) تدوين العلم فى الاسلام وعلة امساك العرب عن تدوينه الى آخر القرن الاول للهجرة (٧) الخط العربى وتاريخه ، ووضع الحركات والاعجام وما الذى دعا الى ذلك

ولما فرغنا من هذه المقدمات انتقلنا الى البحث فى العلوم الاسلامية ، وقسمناها الى : العلوم الشرعية الاسلامية اى الدينية ، والعلوم اللسانية أو اللغوية ، والعلوم التاريخية . وابتدأنا من العلوم الشرعية بالقرآن وتاريخ جمعه وتدوينه وقراءته وتفسيره وتأثير أسلوبه فى النفوس . ثم الحديث وما

دعا الى وضعه واسناده وعدده . ثم الفقه ومصادره ، والفقهاء والرأى والقياس ومنزلة الفقهاء عند الخلفاء ، وكيف ترتبت تلك العلوم بعضها على بعض . ثم انتقلنا الى العلوم اللسانية وبينا أنها مما اقتضاه الاسلام ، وفصلنا الاسباب التى دعت الى وضع النحو ، وذكرنا تاريخ الادب واللغة فى البصرة والكوفة وبغداد وعلاقة ذلك بالسياسة . ونشرنا فصلا فى بلاغة الانشاء وتاريخها ومصيرها وأسبابها الفلسفية . ثم أتينا الى التاريخ والجغرافية ، فبينا الاسباب التى دعت الى وضعهما ومزيتهما فى اللسان العربى عما فى سائر الالسنة

ثم ذكرنا الآداب العربية الجاهلية ، وهى الخطابة والشعر وما كان للاسلام من التأثير فيهما ، وما نسبة الخطابة عند المسلمين الى خطابة الأمم الاخرى. وما كان من حال الشعر وطبقاته وأسلوبه ورواته وتأثيره فى الدولة وعدد الشعراء وأشعارهم

***

ثم تقدمنا الى العلوم الدخيلة التى نقلها المسلمون الى العربية . وتمهيدا لفهم الموضوع قدمنا الكلام فى تاريخ آداب الامم التى نقلت تلك العلوم عن ألسنتهم ، وأهمهم اليونان والفرس والهنود والكلدان . فذكرنا أولا تاريخ آداب اللغة اليونانية ، منذ اقتبس اليونان العلوم من الكلدان والمصريين والفينيقيين حتى وضعوا التاريخ والفلسفة والنجوم وغيرها الى زمن الاسلام، وتوسعنا خصوصا فى تاريخ الفلسفة وما مرت به من الادوار الى سقراط فأفلاطون فأرسطو وتاريخ مؤلفات أرسطو . ثم تاريخ مدرسة الاسكندرية فى عصريها اليونانى والرومانى الى الفتوح الاسلامية . ثم ذكرنا آداب اللغة الفارسية وما كان من تأثير آداب اليونان عليها فى مدرسة جنديسابور وغيرها . وبينا نحو ذلك فى آداب الهنود والسريان بأسباب متسلسلة مترابطة

ثم انتقلنا الى الكلام عن العرب والعلوم الدخيلة وما الذى حملهم على نقلها ، وأول من اشتغل فيها قبل الدولة العباسية . ثم اشتغال المنصور فى نقل كتب النجوم والطب عن الهند والفرس ، والاسباب التى حملته على نقلهما ، ثم المهدى والرشيد . وأسهبنا الكلام فى المأمون والفلسفة والمنطق وما الذى حمله على نقلهما . وأتينا بفصل خاص عن نقلة العلم فى العصر العباسى وملخص تراجمهم ، وجلهم من غير المسلمين وفيهم النصرانى واليهودى والصابى والمجوسى والسامرى ، وفيهم النقلة من اليونانى او من الفارسى أو الهندى أو النبطى . وفصل فى السوريين ونقل العلم بينا فيه

أن السوريين ما زالوا منذ القدم ينقلون العلوم بين الامم (*)

ثم تقدمنا الى ذكر الكتب التى ترجمت فى تلك النهضة بالتفصيل عن كل لغة على حدة ، باعتبار الموضوعات والمؤلفين ، وبازاء كل كتاب اسم ناقله . فذكرنا مانقل عن اليونانية فالفارسية فالهندية فالنبطية فالعبرانية فالقبطية، وهى تعد بالمئات . وقد نقلت بسرعة لم تتفق لأمة من الامم ، فذكرنا الاسباب التى ساعدت على تلك السرعة وفى جملتها محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين . ثم بحثنا فى انتشار العلوم الدخيلة فى المملكة الاسلامية ونبوغ الفلاسفة والاطباء فى الانحاء المتباعدة ، واشتغال الخلفاء والأمراء انفسهم بالعلم وتنشيط العلماء وتأليف الكتب لهم ، وما كانوا يبذلونه فى هذا السبيل . ثم بحثنا فى المؤلفين وكثرتهم والمؤلفات وتعدادها وضخامتها

ثم نظرنا فى تأثير التمدن الاسلامى فى هذه العلوم .. فبدأنا بالفلسفة وما ترتب عليها من علم الكلام وتاريخ تنقلها فى ممالك المشرق ، وما كان من اضطهاد الخلفاء لأصحابها بعد النهضة العباسية حتى تألفت الجمعيات السرية .. ومن جملتها جمعية اخوان الصفا ، وكيف انتقلت رسائلهم الى الاندلس وما كان من تاريخ الفلسفة هناك ، ثم تاريخ الطب الاسلامى والفرق بينه وبين الطب اليونانى أو الفارسى أو الهندى ، وانه جامع بينها كلها ، وأحصينا الاطباء المسلمين وتاريخ المارستانات فى الاسلام . ثم نظرنا فيما أدخله المسلمون من عند أنفسهم فى الطب وفروعه كالكيمياء والصيدلة والنبات وغيرها . ثم تاريخ النجوم أو الفلك فى الاسلام ، وتاريخ المراصد عندهم والفرق بين التنجيم والنجوم ، ومن نبغ من علماء الفلك فى الاسلام ، وما أحدثوه من الآراء الجديدة وآلات الرصد الجديدة ، وما يلحق بذلك من الرياضيات كالحساب والجبر والهندسة ، ثم تاريخ الفنون الجميلة وأن المسلمين لم يقصروا فيها كما ظن الاكثرون . وختمنا الكلام فى المدارس وتاريخ تأسيسها وأسبابه . ثم المكتبات عندهم وعدد ما حوته من الكتب ، مما يدل على فخامة العلم فى ذلك التمدن العجيب . وبذلنا الجهد فى تحقيق كل عبارة وتمحيص كل رأى ، بما يبلغ اليه الامكان ويأذن به المكان

ونغتنم هذه الفرصة للثناء على العلماء الافاضل الذين تلقوا خدمتنا بالرضا وذكروها بما هم أهله . ونخص منهم كبار المستشرقين فى أوربا ممن وصل اليهم كتابنا المذكور ، فقد جاءتنا كتبهم ورسائلهم بعبارات الاستحسان والتنشيط ، وكتب بعضهم التقاريظ فى المجلات الافرنجية . فاستحثنا ذلك على الاقتداء بهم فى خدمة هذه اللغة ، التى سبقونا الى احياء علومها وآدابها ومهدوا لنا سبيل البحث فيها . فنستأذن الذين تفضلوا منهم بالكتابة الينا

(*) المراد بالسوريين هنا السريان ، كما سنرى فى الفصل الخاص بذلك من الكتاب

ان ندون أسماءهم فى صدر هـذا الجزء اقرارا بفضلهم . وهـذه أسماؤهم بالترتيب الهجائى :

الاستاذ دى جويه	M. J. De Goeje	فى ليدن
الاستاذ ديرنبرج	H. Derenbourg	فى باريس
الاستاذ روزن	V. von Rosen	فى بطرسبرج
الاستاذ جولدتسيهر	I. Goldziher	فى بودابست
الاستاذ جويدى	M. Guidi	فى رومية
الاستاذ مرجليوث	D. S. Margoliouth	فى اكسفورد

علوم العرب قبل الإسلام

تمهيد فى جزيرة العرب واهلها

جزيرة العرب شحيحة المياه كثيرة الصحارى والجبال ، فلم يشتغل أهلها بالزراعة لجدب الارض . والانسان وليد الاقليم الذى ينشأ فيه ، وقد نشأ العرب على ما تقتضيه البلاد المجدبة من الارتزاق بالسائمة والرحيل فى طلب المرعى . فغلبت البداوة على الحضارة فيهم ، وانصرف أكثر هممهم الى تربية الماشية وهى قليلة بالنظر الى احتياجاتهم منها ، فنشأ بينهم التنازع عليها ، وجرهم التنازع الى الفزو ، واضطرهم الفزو الى الانتقال بخيامهم وانعامهم من نجع الى نجع ، ومن صقع الى صقع ، ليلا ونهارا . وجوهم صاف وسماؤهم واضحة ، فعولوا فى الاهتداء الى السبل على النجوم ومواقعها . واحتاجوا فى مطاردة أعدائهم الى استنباط الادلة للكشف عن مخابئهم ، فاستنبطوا قيافة الاثر ، والجأهم ذلك ايضا الى توقى حوادث الجو من المطر والاعاصير ونحوها ، فعنوا بالتنبؤ عن حدوث الامطار وهبوب الرياح قبل حدوثها ، وهو ما يعبرون عنه بالانواء ومهاب الرياح

ودعاهم الغزو من الناحية الاخرى الى العصبية لتاليف الاحزاب ، فاهتموا بالانساب التى يترابطون بها . والارتحال فى الفزو ونحوه يقتضى العناية بالسلاح والخيل ، ولو كانوا أهل حضارة لأتقنوا صنع السلاح ، وأما الخيل فبرعوا فى تربيتها وانتقائها ومعالجة أمراضها

والعرب اخوان الكلدانيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من أركان التمدن القديم .. فهم أهل ذكاء وتعقل ، لو سكنوا وادى الفرات أو وادى النيل لكان منهم ما كان من أولئك ، أو ما كان من جيرانهم التبابعة ، ولكنهم أقاموا فى بادية صفا جوها وأشرقت سماؤها ، فصفت اذهانهم وانصرفت قرائحهم الى قرض الشعر ، يصفون به وقائعهم أو يبينون به انسابهم أو يعبرون به عن عواطفهم . وقويت فيهم ملكة البلاغة ، فبرعوا فى القاء الخطب يستنهضون بها الهمم ، أو يدعون الى الحرب أو السلم أو للمفاخرة أو المنافرة .. ولولا ما فى فطرتهم من الذكاء والتعقل لما ظهر منهم أكثر مما ظهر من جيرانهم سكان صحراء العدوة الغربية من البحر الاحمر ، فانهم ما زالوا من حيث المدنية على نحو ما كانوا عليه منذ قرون . وشأن جاهلية العرب من هذا القبيل شأن جاهلية اليونان فى عصر هوميروس ، فلما تمدن العرب أتوا بمثل ما أتى به أولئك

على أن العرب لم يسلموا مما وقع فيه معاصروهم من الامم العظمى ، من الاعتقاد فى الكهانة والعرافة وزجر الطير وخط الرمل وتعبير الرؤيا ، مما ينجم عن جهل أسباب الحوادث مع رغبتهم فى تعليل بواعثها ، ولذلك فقد كثر عندهم الكهان والعرافون ونحوهم

فالعلوم التى كانت شائعة فى جزيرة العرب قبل الاسلام ضرورية باعتبار طبيعة ذلك الاقليم وطبائع أهله . وقد سميناها علوما بالقياس على مايماثلها عند الامم الاخرى فى عصر العلم ، والا فالعرب الجاهليون لم يتعلموها فى المدارس ولا قراوها فى الصحف ولا ألفوا فيها الكتب ، لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، وانما هى معلومات تجمعت فى محفوظهم بتوالى الاجيال بالاقتباس والاستنباط ، وتنوقلت فى الاعقاب وما زالت تنمو وتتزايد حتى بلغت عند ظهور الاسلام بضعة عشر علما ، بعضها من قبيل الطبيعيات والبعض الآخر من قبيل الرياضيات أو الادبيات أو الكهانة أو ما يتعلق بذلك ، ولو أردنا التوسع فى وصفها لضاق بنا المقام فنذكرها على سبيل الاختصار

واذا امعنا النظر فى مصادر تلك العلوم رأينا بعضها خاصا بالعرب وقد نشأ عندهم ، والبعض الآخر دخيل اقتبسوه من الامم الاخرى .. فالعلوم العربية هى الانساب والشعر والخطابة ، والدخيلة هى النجوم والطب والانواء والخيل ومهاب الرياح والميثولوجيا والكهانة والعيافة والقيافة وغيرها كما سترى فيما يلى :

١ ــ علم النجوم عند العرب

الكلدان أساتذة العالم فى علم النجوم ، وهم وضعوا أسسه ورفعوا أعمدته ، ساعدهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم واستواء آفاقهم ، فرصدوا الكواكب وعينوا أماكنها ورسموا الابراج ومنازل القمر والشمس ، وحسبوا الخسوف والكسوف بآلات فلكية منذ بضعة وأربعين قرنا ، وعنهم أخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من أهل التمدن القديم

وما زال الكلدان أو البابليون أهل دولة وسلطان الى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد ، فسطا عليهم الاشوريون فلم يؤثر ذلك شيئا فى آدابهم الاجتماعية لتشابه الشعبين لغة ودينا ، فلما كان القرن الخامس قبل الميلاد سطا عليهم الفرس وفتحوا بلادهم وبدلوا آلهتهم واستبدوا فيهم ، فثقل ذلك عليهم وضاقت الارض بهم ، فهاجر كثيرون منهم الى ما جاورهم من البلاد وخصوصا بلاد العرب ، لأنها كانت حمى المهاجرين من العراق ومصر والشام ، لامتناعها على الجنود بالصحارى الرمضاء ولسهولة الاقامة عليهم هناك لقرب لسان العرب من لسانهم

وكان فى جملة المهاجرين اليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم ، فتعلم العرب منهم أحكامها وأخذوا عنهم أسماءها ، وتعلموا منهم مواقع الابراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس ، وربما كان لهم علم بشىء من أحكامها من عند أنفسهم ، أو مما وصل اليهم من طريق الهند أو غيرها . ولكن يقال بالاجمال أن العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان ، وهم يسمونهم الصابئة ــ والصابئة ان لم يكونوا الكلدان أنفسهم فهم خلفاؤهم أو تلامذتهم (١) (*) وكان الصابئة كثيرين فى بلاد العرب ، ولهم مثل منزلة النصارى أو اليهود . فأخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته وأسمائه ، وان كان معظم أسماء السيارات لايرد الى أصله الكلدانى ، فربما كان له أسباب عارضة ضاعت اخبارها

على أن بعضها لايزال أصله الكلدانى ظاهرا فيه ، كالمريخ مثلا فانها تقابل « مرداخ » الكلدانية لفظا ومعنى . ولكن معظم تلك الاسماء قد ضاعت المشابهة اللفظية بينها وبقيت المشابهة المعنوية . فان « زحل » معناه فى العربية الارتفاع والعلو ، وهى نفس دلالة « كاون » اسم هذا السيار فى الكلدانية . وأما الابراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظا ومعنى ــ واليك أسماء الأبراج عند كليهما :

---

(١) مختصر تاريخ الدول لابن العبرى ٢٢٦

(*) الصابئة تسمية مبهمة يطلقها مؤلفو العرب على عباد النجوم وطوائف من عبدة الاصنام . والقرآن الكريم يضعهم بين أهل الكتب المنزلة ، مثلهم فى ذلك مثل النصارى واليهود . والاستعمال العربى العام يعطى فعل صبأ معنى الشرك والزندقة ، فاذا قالوا صبأ فلان فمعناه انه كفر . والتاريخ يعرف فرقتين تعرف كل منهما بالصابئة ، الاولى نصرانية يهودية ، تأخذ من هؤلاء شيئا ومن أولئك شيئا، وهم يعترفون من آباء الكنيسة المسيحية بيوحنا المعمدان ، والثانية صابئة حران وكانوا يعبدون النجوم وقد تسامح معهم المسلمون واعتبروهم ذميين من اهل الكتاب ، واولئك هم الذين كان لهم الاثر العظيم فى تاريخ العلم فى الاسلام . وقد تحدث عنهم الشهرستانى فى الملل والنحل ، وقال ان فيهم روحانيين وأنبياء منهم النبى عظيمون (وهو تحريف للفظ اجاثوديمون أى الشيطان الطيب) وهرمس الذى يذهب البعض الى انه ادريس او شيث . وهم يؤمنون بوجود اله خالق ، ولكنهم يقولون ان الانسان يصل اليه عن طريق الارواح ، وذهب الى ان منهم من يعبد النجوم مباشرة ومنهم يعبدها ممثلة فى «اشخاص» (أى تماثيل) . ومن صابئة حران ثابت بن قرة الذى اختلف مع قومه فى حران فهاجر الى بغداد وانشأ فيها جماعة صابئة بقيت حتى أيام الخليفة العباسى القاهر الذى اضطهدهم واضطر رئيسهم سنان بن قرة بن ثابت الى اعتناق الاسلام . وكان منهم بعد ذلك ابو اسحاق بن هلال الصابى كاتب الخليفة المطيع ، وقد حصل منه سنة ٨٧٢/٢٥٩ على أمان للصابئة فى بغداد وحران والرقة وديار مضر . وقد انتهى أمر صابئة حران حوالى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، وفى نهاية هذا القرن اختفى صابئة بغداد ايضا . ومن كبار رجالهم فى تاريخ الحضارة الاسلامية قرة بن ثابت الذى ذكرناه ،وكان مهندسا منجما ، وابنه سنان بن ثابت وكان متطببا فلكيا ، وثابت بن سنان وهلال بن المحسن وكانا مؤرخين ، وأبو جعفر الخازن الرياضى ، وابن وحشية صاحب كتاب الفلاحة النبطية ، وكان يعلن الاسلام

انظر :

الشهرستانى : الملل والنحل ، طبعة كيورتن ١٨٨٦ جـ ٢ ص ٢٠٢ ــ ٢٥١

الدمشقى : كتاب الجغرافية ، طبعة ميرن ، بطرسبورج ١٨٦٦ ص ٣٩ ــ ٤٨

المسعودى : مروج الذهب ، طبعة باريس ، جـ ٤ ص ٦١ ــ ٧١

D. Chwolsohn, Die Ssabier und der Ssabismus. (St. Petersbourg, 1856.2 vols.)

أسماؤها العربية	أسماؤها الكلدانية	أسماؤها العربية	أسماؤها الكلدانية
الحمل والكبش	امرا	الميزان	ماسانا
الثور	ثورا	العقرب	عقربا
الجوزاء أو التوامين	تامى	القوس أو الرامى	قشتا
السرطان	سرطان	الجدى	كديا
الاسد	اربا	الدلو	دولا
السنبلة	شبلتا	الحوت أو السمكة	نونا (*)

وأما منازل القمر والشمس فقد تبدل بعض أسمائها كما أصاب السيارات . ولكن العبرة بالاكثر فى قواعد هذا العلم ومصطلحاته ، فانها عند العرب كما كانت عند الكلدان تماما ، حتى لفظ « منازل القمر » فان هذا التعبير هو نفس ما كان يعبر به الكلدان عن هذه المنازل ، وقد أبدلته الامم الاخرى التى أخذت هذا العلم عن الكلدان بتعبير آخر ، الا العرب واليهود

ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة ، فقد رأيت أنهم عرفوا السيارات والأبراج ، وعرفوا عددا كبيرا من الثوابت ، ولهم فى ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجمين فى الامم الاخرى (١) وفى قدم أسماء تلك النجوم فى العربية دليل على قدم معرفة العرب بها وبمواقعها ، مثل : بنات نعش الكبرى والصغرى ، والسها ، والظباء ، والربع ، والرابض ، والعوائذ ، والذئبين ، والنثرة ، والفرقد ، والقدر ، والراعى ، وكلب الراعى ، والأغنام ، والرامح ، والسماك ، وعصا الضياع ، وأولاد الضباع ، والسماك الرامح ، وحارس السماء ، والأظفار ، والفوارس ، والكف المخضب ، والخباء ، والعيوق ، والعنز ، والجديين ، وغيرها

أما منازل القمر فقد قسموها الى ثمانية وعشرين قسما ، خلافا لما كان عند الهنود فانها ٢٧ قسما عندهم . وأراد العرب منها غير ما أراده أولئك ، اذ كان مرادهم منها معرفة أحوال الهواء فى الأزمنة ، وحوادث الجو فى فصول السنة ، لأنهم كانوا أميين فلم تمكنهم معرفتها الا بشىء يعاين فاستعانوا عليها بالكواكب ، كما سترى فى الكلام على الأنواء . واليك أسماء منازل القمر فى العربية ، وهى ٢٨ :

الثريا	الجبهة	الاكليل	سعد السعود
الدبران	الزبرة	القلب	سعد الأخبية
الهقعة	الصرفة	الشولة	الفرغ المقدم

(*) ويلاحظ أن النون فى العربية من أسماء الحوت
(١) القزوينى على هامش الدميرى ٥٠ ج ١

الهنعة	العواء	النعائم	الفرغ المؤخر
الذراع	السماك	البلدة	بطن الحوت
النثرة	الغفر	سعد الذابح	الشرطان
الطرف	الزبانيان	سعد بلع	البطين

وكان العرب اذا عدوا المنازل بدأوا بالشرطين ، لأسباب تتعلق باقليمهم . وقد بالغ المتعصبون للعرب فى صدر الدولة العباسية فى براعة العرب فى علم النجوم ، وفى جملة المتعصبين ابن قتيبة ، فقد قال فى كتابه «تفضيل العرب على العجم » أن العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساقطها (١) . ومع اعترافنا بما فى ذلك من المبالغة ، فاننا نستدل منه على توسع العرب فى هذا العلم

ولا غرابة فى اتقانهم معرفة النجوم ومواقعها ، فانها كانت دليلهم فى أسفارهم وأكثر أحوالهم ، فكانوا اذا سألهم سائل عن الطريق المؤدى الى البلد الفلانى قالوا : « عليك بنجم كذا وكذا » فيسير فى جهته حتى يجد المكان ، وربما استعانوا على ذلك أيضا بذكر مهاب الرياح يعبرون بها عن الجهات . ومن أمثلة ذلك أن سليك بن سعد سأل قيس بن مكشوح المرادى أن يصف له منازل قومه ثم هو يصف له منازل قومه ، فتوافقا وتعاهدا الا يتكاذبا . فقال قيس بن المكشوح : « خذ بين مهب الجنوب والصبا ، ثم سر حتى لا تدرى أين ظل الشجرة ، فاذا انقطعت المياه فسر أربعا ، حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق ، فانك ترد على قومى مراد وخثعم » . فقال السليك : « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها من أفق السماء ، فثم منازل قومى بنى سعد بن زيد مناة » . واشتهر فى جاهلية العرب فى اتقان النجوم جماعة ، منهم بنو مارية بن كلب ، وبنو مرة بن همام الشيبانى (٢)

٢ ــ الأنواء ومهاب الرياح

ويراد بالأنواء عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا ، مما يتعلق بالمطر والرياح ، ولكنهم كانوا ينسبون الظواهر المذكورة الى طلوع الكواكب أو غروبها ، ولذلك كان علم الأنواء فرعا من علم النجوم . وكانوا يسمون طلوع المنزلة نوءها أى نهوضها ، وسموا تأثير الطلوع بارحا وتأثير السقوط نوءا ، ومن طلوع كل واحدة منها الى طلوع التى تليها ثلاثة عشر يوما ، سوى الجبهة فان بين طلوعها وطلوع التى تليها ١٤ يوما . ومن أقوالهم فى ذلك :

(١) البيرونى ٢٣٨
(٢) البيرونى ٣٤١

والدهر فاعلم كلـه أرباع لـكل ربع واحد أسـباع
وكل سبع لطلـوع كوكب ونوء نجم ساقط فى المغرب
ومن طلوع كل نجم يطلع الى طلـوع ما يليـه أربع
من الليـالى ثم تسع تتبع

ثم اختلفوا فيها ، فزعم بعضهم أن كل تأثير يكون بعـد طلوع منزلة الى طلوع التى تتلوها فهو منسوب اليها . وزعم آخرون أن لطلوع كل واحـدة وسقوطها مقدارا من الزمن ينسب اليها يكون فيه ، فاذا انقضت تلك المدة لم ينسب اليها ما يكون بعدها. وكانوا اذا تحقق التأثير فلم يظهر منه شيء فى تلك الأزمنة قالوا : خوى النجم ، أو خوت المنزلة ـ يعنون بذلك مضت مدة نوء ولم يكن فيه مطر أو حر أو برد أو ريح (١) . ومن أمثالهم : « أخطأ نوءك » يضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها (٢)

وكانوا اذا أمطرت السماء نسبوا المطر الى تأثير النجم المتسـلط فى ذلك الوقت ، فيقولون مثلا : مطرنا بنوء المجرة ، أو هذا نوء الخريف ، مطرنا بالشعرى . وقالوا ان النوء سقوط نجم ينزل فى المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه فى الشرق من أنجم المنازل . ولذلك كانت الأنواء ٢٨ نوءا أو نجما ، كانوا يعتقدون أنها هى علة الامطار والرياح والحر والبرد . وفى أشعارهم أمثلة كثيرة تدل على علاقة أحوال الجو أو فصول السنة باقترانات الكواكب أو طلوعها ، وقد نظموها شعرا ليسهل حفظها على الناس لقلة الكتابة عندهم من ذلك قولهم :

اذا ما قارن القمر الثريا لثالثة فقـد ذهب الشتـاء

وقول الآخر :

اذا ما البدر تم مع الثريا أتاك البـرد أولـه الشـتاء

وقول الآخر :

اذا ما قارن الـدبران يوما لأربع عشرة قمـر التمـام
فقد حف الشتاء بكل أرض فوارس مؤذنـات باحتـدام
وحلق فى السماء البدر حتى يقلص ظل أعمـدة الخيـام
وذلك فى انتصاف الليل شطرا ويصـفو الجو من كدر الغمام

---

(١) البيرونى ٣٣٩ (٢) الميدانى ٢٠٢ ج ١

وقول الآخر :

اذا ما هلال الشهر أولَ ليـلة بدا لعيون النـاس بين النعائم
أتتك رياح القر من كل وجهة وطاب قبيل الصبح كوْر العمائم

وقول الآخر :

وقد برد الليل التمام بأهله وأصبحت العواء للشمس منزلا (١)

وكان عنـدهم لمطلع كلّ كوكب أو منزل وصـف يدل على تأثير ذلك فى الطقس على اعتقادهم ، ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم فى أعمـال البشر على ما كان عند الكلدان (٢) على انهم كثيرا ما كانوا يستدلون على المطر أيضا بألوان الغيوم وأشكالها ، فأقل الغيوم مطرا عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء ، ومن أقوالهم : « السحابة البيضاء جفل ، والحمراء عارض ، والسوداء هطلة » (٣)

وكان العرب فى حاجة الى معرفة مهاب الرياح للاهتـداء فى أسـفارهم ، ولذلك فقد وضعوا لها الأسماء . ولكنهم اختلفوا فى عدد جهاتها ، فحسبها بعضهم سـتة ، والبعض الآخر أربعة . فأصحاب القول الثانى يعـدونها (١) مهب الصبا من الشمال (٢) مهب الشمال من المغرب (٣) مهب الدبور من الجنوب (٤) مهب الجنوب من المشرق . ويزيد عليها أصحاب القول الاول : النكباء بجانب الشـمال ، والمحوة بجانب الجنوب . واليك قول ذى الرمة فى ذلك :

أهاضـيب أنواء وهيفان جـرّتا على الدار أعرافَ الجبـال الأعافر
وثالثـة تهوِى من الشام حرجف لهـا سـنن فوق الحصى بالأعاصر
ورابعة من مطلع الشـمس أجفلت عليهـا بدقعـاء المعـا فقـراقـر
تحَنَّنُها النُّكْبُ السَّوافى فأكثرت حنين اللّقاح القاريات العواشر (٤)

٣ ـ الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم أيضا ما يعبر عنه الافرنج بالميثولوجيا ، وهى عبارة عما كانوا يزعمون وقوعه بين الكواكب ـ أو هى الآلهة عندهم ـ من الحروب أو الزواج أو نحو ذلك مما يجرى على البشر على نحو ما ذكروه عن آلهة

---

(١) البيرونى ٣٣٦
(٢) Rawlinson's Ancient Monarchies, III. 425
(٣) الميدانى ١٠٩ ج ١ (٤) البيرونى ٣٤٠

اليونان (*) . فالعرب الهوا الأجرام السماوية وعبدوها ، وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه ، على اننا نستدل عليه من بعض ما وصل الينا من أسماء أصنامهم وعبادة بعض رجالهم . فاللات اسم للزهرة (**) وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعرى ، وكانوا يتناظرون فى افضلية بعضها على بعض ، قالوا : « وأبو كبشة أول من عبد الشعرى ، وكان يقول : الشعرى تقطع السماء عرضا ، ولا أرى فى السماء شمسا ولا قمراً ولا نجما يقطع السماء عرضا غيرها »

أما تشخيص تلك الأجرام وانزالها منزلة البشر فقد كان معروفا عند العرب . ومن الأقاصيص الميثولوجية التى كانوا يتناقلونها أن الدبران خطب الثريا وأراد القمر أن يزوجه منها ، فأبت عليه وولت عنه وقالت للقمر : ما أصنع بهذا السبروت الذى لا مال له ؟ فجمع الدبران قلاصه يتمول بها ، فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه ـ يعنون القلاص . وأن الجدى قتل نعشا فبناته تدور به تريده . وأن سهيلا ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو ، وضربها هو بالسيف فقطع وسطها . وأن الشعرى اليمانية كانت مع الشعرى الشامية ففارقتها وعبرت المجرة ، فسميت الشعرى العبور .. فلما رأت الشعرى اليمانية فراقها اياها بكت عليها حتى غمصت عيناها ، فسميت الشعرى الغميصاء (١)

ومن هذا القبيل تأليههم بعض المشاهير من الملوك أو القواد أو الأسلاف ، واعتبار البعض الآخر من نتاج الملائكة أو الجان . فعندهم مثلا أن بلقيس كانت أمها جنية ، وأن جرهما كان من نتاج الملائكة وبنات آدم . وكذلك كان

(*) الميثولوجيا يمكن ترجمتها بعلم الاساطير . واللفظ منحوت من لفظين اغريقيين : Mythos أى أسطورة ، و Logos اى بحث . وهذا العلم يتناول ، علاوة على ماذكره المؤلف ، دراسة الوثنية واسرارها وطقوسها وآلهتها وابطالها من البشر ، والاساليب الفنية التى لجأت وتلجأ اليها الشعوب فى تصوير هذه المعتقدات واولئك الابطال ، كالتماثيل والصور والاشعار والقصص وما الى ذلك . ويتناول علم الميثولوجيا كذلك دراسة الاساطير التى ابتكرها اهل الاديان حول ابطال العقيدة والقديسين والاولياء وكهنة البوذيين والهندوك ومن اليهم . وقد نشأ الاهتمام بهذه الناحية عن حقيقة مقررة ، وهى ان ايمان العوام عادة يأخذ صورا اسطورية ، وهذه الاساطير فى ذاتها تفسر الكثير من احوال الشعوب وحالتها العقلية واتجاهات تفكيرها وما الى ذلك . وليست كل الاساطير خرافات فارغة ، كما يظن ، بل منهما ما يعتبر جزءا من تكوين الشعب الذى أبدعها بحيث لا يمكن فهم تاريخ هذا الشعب الا اذا درست أساطيره ، كما هوالحال عندالیونان . ومن الشعوب ما كانت الاساطير عنده هى الدين نفسه ، كما هو الحال عند المصريين القدماء . ومنها ما تكون اساطيره رمزا على خلقه وتفكيره ، كما نرى فى حالة البوذيين ، لان حياة بوذا ماهى الا اسطورة رمزية حافلة بالمعانى . ومنها ما تكون أساطيرها تصويرا قصصيا لمثلها العليا ، كما هى الحال عند الالمان . وكانت الاساطير عند كل الشعوب معينا لا ينضب لاهل الفنون من نحاتين ومصورين وشعراء وقصصيين ، ولا زالت كذلك الى اليوم

انظر : (K.O. Müller, Prolegomena zur einen wissinschaftlichen Mythologie Goettingen, 1825)

(**) المراد هنا الالهة فينوس

(١) الميدانى ٣١٢ ج ٢

ذو القرنين عندهم أمه آدمية وأبوه من الملائكة (١) وأما أصل هذه الاعتقادات فاما هندى أو يونانى أو مصرى ، أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بأمثال ذلك (*).

٤ ــ الكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد ، وفرق بعضهم بينهما فقال ان الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة ، والعرافة بالأمور الماضية . وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب . على أن العرب كانوا يعتقدون فى الكاهن القدرة على كل شيء ، فكانوا يستشيرونه فى حوائجهم ، ويتقاضون اليه فى خصوماتهم ، ويستطبونه فى أمراضهم ، ويستفتونه فيما أشكل عليهم ، ويستفسرون منه رؤاهم ، ويستنبئونه عن مستقبلهم . وبالجملة فالكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين ، شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الأمم القديمة فى بابل وفينيقية ومصر وغيرها

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب ، جاءتهم من بعض الأمم المجاورة لهم ، والغالب فى اعتقادنا أن الكلدان حملوها اليهم مع علم النجوم . ويؤيد ذلك أن الكاهن يسمى فى العربية أيضا « حازى » أو « حزاء » ، وهو لفظ كلدانى معناه الاشتقاقى الناظر أو الرائى أو البصير ، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبى . وأما لفظ « الكاهن » فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الذين نزحوا اليهم على أثر ما أصابهم من النكبات فى أورشليم (بيت المقدس) ، وخصوصا بعد خرابها على يد الأمبراطور الرومانى طيطس سنة ٧٠ للميلاد، وقد أخذ عنهم العرب كثيرا من الآداب والعادات مما لايدخل فى بحثنا

وأما الكهانة فأصلها من عند الكلدان ، ولعل الذين حملوا علم النجوم الى العرب هم الكهنة الكلدانيون أنفسهم ، فكانت الكهانة فى جملة ما حملوه اليهم . ويؤيد ذلك ان العرب كانوا يطلقون لفظ الحزاء على الكاهن والمنجم (٢)

---

(١) الدميرى ١٨ ج ٢ (*) لا زالت المادة الخاصة بأساطير العرب فى الجاهلية مفرقة فى أصول كثيرة كالعقد الفريد لابن عبدربه ، والكامل لابى العباس احمد المبرد ، والاغانى لابى الفرج الاصفهانى ، وكتاب الاصنام للكلبى ، والاكليل للهمدانى ، والمحبر

واليك بعض الدراسات الحديثة فى الموضوع

J. Wellhausen, Reste arabischen Heidentums (2. éd. Berlin 1897)
D. Nielsen, Handbauch der altarabischen Altertumskunde

الجزء الاول وموضوعه Die Altarabische Kultur
(كوبنهاجن ١٩٢٧)

H. Lammens. Le Culte des Bétyles et les processions religieuses chez les Arabes préislamites. Beyrouth 1919

Gaudefroy - Demombynes, Le pèlerinage à la Mecque. Paris 1923

ولم يصدر الاستاذ جواد على الاجزاء الخاصة بأديان العرب فى الجاهلية بعد

(٢) السيرة الحلبية ٤٨ ج ١

على أن أهل بابل ما زالوا يتواردون على بلاد العرب الى ما بعـد الاسـلام والعرب يجلونهم لعلمهم وتعقلهم

فالعرب كانوا يعتقدون فى الكهنة العلم بكل شىء ، وان ذلك يأتيهم بواسطة الأرواح ، فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك الى استطلاع الغيب عن أفواه الملائكة . واذا كان من عبدة الأصنام اعتقد حلول الأرواح فى الأصنام وبوحها بأسرار الطبيعة للكهان والسدنة ، فيقول العرب أن الأصنام تدخلها الجن (أى الأرواح) وتخاطب الكهان ، وان الكاهن يأتيه الجنى بخبر السماء وربما عبروا عنه بالهاتف . ومن اقوالهم : « الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب »

فكل ما كان يصنعه الكاهن انما مصدره الغيب ، فاذا استطبه مريض من ريح أو صداع عالجه بالرقى ، واذا استشير فى معضـلة خط فى الرمل أو نفث فى العقد (*) ، واذا حكمه متخاصمان رمى لهما بالقداح ، واذا استطلع عن سرقة أخذ قمقمة جعلها بين يديه ونفث فيها ، ونحو ذلك من الحركات الوهمية ، واذا استفسر عن رؤيا تمتم وتظاهر باستطلاع الغيب

قلنا أن الكهانة أتت العرب من بين النهرين ، فالكهان القـدماء كانوا فى الغالب كلدانيين (أو صابئـة فى قولهم) وكان العلم كله عندهم ، ثم تعـدد الكهنة من اليهود وغيرهم ، ثم ما لبث العرب أنفسهم أن أخذوا ذلك عنهم ، فنشأ الكهان منهم . على أن بعض العرب اقتصروا فيما تناولوه على علم دون آخر ، فكان بعضهم يتعاطى الطب فقط ، وبعضهم تعبير الرؤيا أو القيافة أو القضاء

الكهان :

واشتهر فى بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان والكواهن ، أقدمهم شق وسطيح وحكايتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . فعندهم أن الأول كان شق انسان (أى نصفه) بيد واحدة ورجل واحـدة وعين واحـدة ، وأن سطيحا كان لحما يطوى كما يطوى الثوب ، لا عظم فيه غير الجمجمة ووجهه فى صدره . ويزعمون أن هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون ، الى غير ذلك من الأوهام . ومن الكهان الذين نبغوا فى النهضة العربية قبل الاسلام خنافر ابن التوأم الحميرى، وسواد بن قارب الدوسى. وفيهم من يعرفون بما ينسبون

(*) النفث هو النفخ دون ان يخرج معه ريق ، أما العقد فأصلها أن الساحر اذا أخذ فى قراءة الرقية اخذ خيطا ولا يزال يعقد عليه عقدة بعد عقدة وينفث فيها . وفى القرآن الكريم « ومن شر النفاثات فى العقد » والمراد الساحرات اللائى يعقدن العقد ويقرأن الرقى أثنـاء ذلك ، وقيل أن المراد بالنفاثات هنا بنات لبيد بن اعصم اليهودى اللائى حاولن سحر النبى صلى الله عليه وسلم

انظر : لسان العرب ، مادة نفث وتفسير الفخر الرازى ، حـ٨ص ٥٤٤

اليه من البلاد أو القبائل ، كقولهم : كاهن قريش ، وكاهن اليمن ، وكاهن حضرموت ، وغيرهم

ويقال نحو ذلك فى العرافين ، وأكثرهم ينسبون الى بلدانهم وقبائلهم ، كعراف هذيل وعراف نجد وأشهرهم عراف اليمامة ، شهره عروة بن حزام ببيت قاله فيه — وكذلك الشعراء يشهرون ممدوحيهم — وهو قوله :

أقول لعراف اليمامة داونى   فانك ان داويتنى لطبيب

وأما الكواهن من النساء فانهن عديدات ، منهن طريفة كاهنة اليمن وهى اقدمهن ، واليها ينسبون الانذار بخراب سد مأرب واتيان سيل العرم ، وزبراء بين الشحر وحضرموت ، وسلمى الهمدانية الحميرية ، وعفيراء الحميرية ، وفاطمة الخثعمية بمكة ، وزرقاء اليمامة . وغيرهن ينسبن الى القبيلة أو المدينة ، ككاهنة بنى سعد ، يزعمون أنها أقدم عهدا من شق وسطيح وأنها استخلفتهما (١) . وما زالت الكهانة فى العرب حتى جاء الحديث فى ابطالها وهو : « لا كهانة بعد النبوة » (٢)

وكان للكهان عند العرب لغة خاصة ، تمتاز بتسجيع معين يعرف بسجع الكهان ، مع تعقيد وغموض . ولعلهم كانوا يتوخون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتمل غير وجه ، كما يفعل بعض مشايخ التنجيم فى هذه الأيام ، حتى اذا لم يصدق تكهنهم جعلوا السبب قصور الناس فى فهم قول الكاهن. ومن أمثلة سجع الكهان ما يروونه عن طريفة كاهنة اليمن ، حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمر بن عامر ، فانها قالت لهم : « لا تؤموا مكة حتى أقول ، وما علمنى ما أقول الا الحكم المحكم ، رب جميع الأمم من عرب وعجم » . قالوا لها : « ما شأنك يا طريفة ؟ » . قالت : « خذوا البعير الشدقم ، فخضبوه بالدم ، تكن لكم أرض جرهم ، جيران بيته المحرم » (٣)

القيافة :

ومن قبيل الكهانة أيضا القيافة ، لكنها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منها على الاعيان ، وهى قسمان : قيافة الأثر ، وقيافة البشر . والأولى تختص بتتبع آثار الأقدام أو الحوافر أو الأخفاف ، والاستدلال من آثارها فى الرمال أو التراب على أصحابها . والفائدة من ذلك الاهتداء الى الفار من الناس أو الضال من الحيوان ، وقد أتقن العرب ذلك حتى فرق بعضهم بين أثر قدم الشاب والشيخ ، وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب . وأما قيافة البشر فهى الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما فى النسب والولادة وسائر أحوالهما ، وهى من قبيل الفراسة

---

(١) السيرة الحلبية ٣٦ ج ١   (٢) كشف الظنون ٣٣٩ ج ٢
(٣) الاغانى ١١٠ ج ١٣

وكانت القيافة شائعة فى العرب ثم اختصت بعض القبائل بها دون البعض الآخر ، واشهر العرب بقيافة الأثر بنو مدلج وبنو لهب . ولا تزال هـذه القيافة شائعة الى اليوم فى بعض قبائل نجد ، ويقال انهم بنو مرة وهم أعلم الناس بها ، حتى لقد يعرف أحدهم الانسان من أثره ، وربما نظر الى أثر بعير فقال : هذا بعير فلان ، وكثيرون منهم يميزون بين العراقى والشامى والمصرى والمدنى

والفراسة كانت شائعة فى العرب ، وكانت لهم فيها براعة يستدلون بهيئة الانسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه ومناقبه ، وهى من قبيل الذكاء وسرعة الخاطر وسجية طبيعية

ومن قبيل الكهانة تعبير الرؤيا ، وكان معروفا عند العرب ، وكانوا يفزعون الى الكهان فى تفسير الأحلام ، على أن كثيرين من غير الكهان كانوا يتعاطونها ، أشهرهم أبو بكر الصديق (١)

ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل ، وقد أغضينا عنهما لضيق المقام

٥ ــ الطب فى الجاهلية

الطب من جملة العلوم التى وضع أساسها الكلدان كهنة بابل ، وهم أول من بحث فى علاج الأمراض ، فكانوا يضعون مرضاهم فى الأزقة ومعابر الطرق، حتى اذا مر بهم أحد أصيب بذلك الداء فيعلمهم بسبب شفائه ، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها فى الهياكل ، ولذلك كان التطبيب عندهم من جملة أعمال الكهان . وعن الكلدان أخذت سائر الأمم القديمة وفى جملتها العرب ، وهو متشابه عند تلك الأمم فى مصر وفينيقية وأشور . ثم تناوله اليونان فأتقنوه ورتبوا أبوابه ، وعنهم أخذ الرومان والفرس . ونظرا لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئا من طبها أضافوه الى ما جاءهم به الكلدان ، والى ما استنبطوه من عند أنفسهم بالاختبار ، فتألف من ذلك ما عبرنا عنه « بالطب فى الجاهلية » ولا يزال كثير منه باقيا الى اليوم فى قبائل البادية . وكان للتطبيب عندهم طريقتان : الأولى ، طريقة الكهان والعرافين ، والثانية طريقة العلاج الحقيقية . فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر كما تقدم ، أو بذبح الذبائح فى الكعبة والدعاء فيها ، أو بالتعازيم أو نحو ذلك

وكان التطبيب بالرقى شائعا فى الأمم القديمة كلها ، وقد وجدوا فى الآثار المصرية كثيرا من العزائم (*) التى كانوا يصفونها لمعالجة المرضى : وجاء من أخبارهم أن كاهنهم كان اذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان أحدهما يحمل

(١) السيرة الحلبية ٢٩١ ج ١

(*) يستعمل المؤلف هنا لفظ العزائم بمعنى الرقى التى يتلوها الكاهن أو المتطبب . والعزايم لفظ مصرى دارج ، وفعله عزم بتشديد الزاى ومعناه قرأ الرقية

كتاب العزائم والثانى يحمل صندوق العقاقير الطبية ، وهم يعالجون بالاثنين جميعـا . وكانوا يوجهـون كلامهم فى العزيمة أو الرقى الى أحـد آلهتهم وخصوصا ايزيس وأوزيرس ورع ، ولهم عبارات يقولونها عند صنع الأدوية وعند مناولتها للمريض . فمن أمثلة العزائم التى كانوا يتلونها عند تناول الدواء : « هذا هو كتاب الشفاء لكلّ مريض ، فهل لايزيس أن تشفينى كما شفت حوريس من كل ألم أصابه من أخيه ست حينما قتل أباه أوزيرس ؟ فيا ايزيس أنت الساحرة الكبيرة ، اشفينى وخلصينى من كلّ شىء مكدر ردىء شيطانى ، ومن أمراض اللبسة والأمراض القاتلة والخبيثة بأنواعها التى تعترينى كما خلصت ابنك حوريس... » (١) وكان عندهم عزائم لاخراج الأرواح الشريرة التى تسبب الأمراض فى زعمهم . فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لأصنامهم ويرقون لاخراج الجان والشيـاطين . وكان اعتقادهم من هذا القبيل انهم اذا خافوا وباء نهقوا نهيق الحمار ، يزعمون أن ذلك يمنعهم من الوباء ، وأن دماء الملوك تشفى من الخبل

وأما معالجتهم بالعقاقير فشبيهة بما كان عند المصريين وغيرهم من الأمم القديمة ، فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة أو الأشربة وخصوصا العسل، فانه كان قاعدة العلاج فى أمراض البطن — على أن اعتمـادهم فى معالجـة الأمراض كان معظمه عائدا الى الجراحة كالحجامة والكى ، ومن أقوالهم : « كل داء حسم بالـكى آخر الأمر ، وآخر الطب الـكى » . وكثيرا ما كانوا يعالجون بالقطع أو البتر ، والغالب أن يكون ذلك بالنار ، فان النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد (المطهرات) عندنا . فاذا أرادوا فصـل عضو حموا شـفرة بالنـار وقطعوه بها ، كما فعلوا بصخر بن عمرو أخى الخنسـاء لما نتأت قطعة من جوفه مثل الكبد على أثر طعنة فأحموا له شفرة وقطعوها (٢)

وكانوا يعـالجون حول البصر بادامة النظر الى حجر الرحى فى دورانه ، ويزعمون أن العين تستقيم به . ومن معالجـاتهم التى نعدها اليوم خرافة ان المجروح اذا شرب الماء مات (٣) واذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماء حارا (٤)

الاطباء :

وأما الأطباء فقد كانوا فى أول الأمر من الكهنة ، ثم تعاطى الطب جماعة من العرب ممن خالطوا الروم والفرس وأخذوا الطب عنهم فاشتهروا بهذه

---

(١) بغية الطالبين ٢٥٨ (٢) الاغانى ١٣٧ ج ١٣
(٣) الاغانى ١٣١ ج ١٤ (٤) الاغانى ٣٢ ج ١٠

الصناعة ، وأكثرهم من أهل النهضة الأخيرة قبـل الاسـلام حوالى القرن السادس للميلاد ، على أن بعضهم أقدم من ذلك كثيرا ، وأقدم أطبائها لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم ، وفى أصله وزمن وجوده اختلاف (*) . يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حذيم ، ويضربون به المثل بالحذق فى الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك : أطب من ابن حذيم ، وفيه يقول أوس ابن حجر :

فهل لـكم فيهـا الى فانني بصير بما أعيى النطاسىّ حذيما

ومن أحدث أطباء الجاهلية الحرث بن كلدة توفى سنة ١٣ للهجرة ، وهو من بنى ثقيف من أهل الطائف ، رحـل الى أرض فارس وأخذ الطب من جنديسابور ، وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالا ثم عاد الى بلاده وأقام فى الطائف ونال شهرة واسعة ، وقد أدرك الاسلام وكان النبى يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيستوصفه ـ ومنهم ابن أبى رومية التميمى ، والنضر بن الحرث بن كلدة

(*) لقمان شخصية من أطرف شخصيات الفكر والتاريخ الادبى الاسلامى ، ومن أسف أن أحدا من باحثينا لم يعن بكتابة دراسة كاملة عنه ، ولاشك انه عاش قبل الاسلام بزمن طويل بدليل توافر الاشارة اليه فى القرآن الكريم بين أهل العصور الغابرة والامم البائدة ، وقد نسجت حوله الاساطير الكثيرة ، فجعلت منه بطلا جاهليا وسمته لقمان المعمر وذهبت الى أنه عمر طويلا جدا حتى بلغ عمره عمر سبعة نسور ، فكان يربى نسرا حتى يشيخ ويموت فى سن الثمانين فيأخذ غيره وهكذا حتى أخذ السابع ، وشاخ هذا الاخير واشرف على الموت ، وحاول لقمان ان يعالجه فلم ينفع فيه علاج ، ومات لقمان معه بعد ان عمر ٥٦٠ سنة ، وهذا النسر الاخير كان يسمى لبد ، ولهذا يقول الشاعر : « أخنى عليه الذى أخنى على لبد » . وهم يقولون ان لقمان كان من قوم عاد الذين عصوا نبيهم هودا فعاقبهم الله بالمحل ، وذهبت جماعة منهم الى مكة لتقرب القرابين لاصنامها ، وكان فيهم لقمان ، واكرمهم المكيون كرما انساهم امر قومهم ، ثم ذكروهم ، فسألوا الآلهة ان تمطرهم ، فجاءت سحابة سوداء امطرتهم سيلا أتى عليهم . ولقمان فى القرآن الكريم حكيم مؤمن ينصح ويهدى بحكمته ، وقد ادخل أصحاب الاسرائيليات فى تفسير الآيات التى ورد فيها ذكر لقمان قصصا كثيرا ، فزعم وهب بن منبه انه قرأ عشرة آلاف ورقة ليس فيها الا حكم لقمان ، واورد الميدانى فى امثاله حكما كثيرة للقمان ، وذكر بعضهم ان الله خير لقمان بين أن يكون نبيا او حكيما فاختار الحكمة ، وقالوا انه عاش حتى زمن النبى يونس عليه السلام . وفى العصور الاسلامية المتأخرة اصبح لقمان قصاصا تنسب اليه الحكايات ، حتى ليعد أيسوب العرب . وقد نشر جوزيف ديرنبورج مخطوطا يضم ٤١ قصة منسوبة الى لقمان ، وبين ان الكثير من هذه القصص مأخوذ من قصص ايسوب

انظر ـ علاوة على تفاسير القرآن فى الآيات التى ورد فيها ذكر لقمان ـ الثعالبى : قصص الانبياء ، القاهرة ١٣٢٥ ص ٢٢٠ـ٢٢٢

أبو حاتم السجستانى : قطعة خاصة بلقمان نشرها جولدتسيهر فى

Abhandlungen zur arabischen Filologie II, Leiden 1899

الدميرى : حياة الحيوان ، لفظتا نسر ولبد ،

René Basset, Luqman Berbère. Paris 1890

وقد نشر فيه رسالة صغيرة عنوانها : ذكر لقمان بن عاد

Joseph Horowitz, Koranische Untersuchungen, Berlin, Leipzig 1926

Joseph Derenbourg, Fables de Luqman le sage. Berlin - London 1850

Congbeare, Rendel Harris, Agnes Smith Lewis, The story of Ahikar. Cambridge 1913

وأكثر هؤلاء الأطباء تناولوا الطب من بلاد الفرس أو الروم ، وبعضهم أخذه عن الكهان أو الأحبار من الأديار ونحوها . وربما اخذوا عنهم شيئا من الفلسفة القديمة كما فعل النضر المذكور . والظاهر أن بعضهم كان يخصص نفسه للأعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح ، وأشهر جراحى الجاهلية ابن أبى رومية التميمى ، فقد كان جراحا مزاولا لأعمال اليد (١)

ونظرا لعناية العرب بخيولهم وابلهم كان بعض الأطباء يخصص نفسه لمعالجتها مما يعبرون عنه اليوم بالبيطرة . ومن بيطارة الجاهلية العاصى ابن وائل (٢)

٦ — الشعر فى الجاهلية

الشعر عند العرب الكلام المقفى الموزون ، وهذا فى الحقيقة تعريف النظم وليس تعريف الشعر . لأن النظم غير الشعر ، اذ قد يكون الرجل شاعرا ولا يحسن النظم ، وقد يكون ناظما وليس فى نظمه شعر — وان كان النظم يزيد الشعر طلاوة ووقعا فى النفس . فالنظم هو القالب الذى يسبك فيه الشعر . وأما الشعر بأعم معانيه فيصعب الاختصار فى تعريفه ، لما ينطوى تحته من أساليب التعبير وتأثيره فى النفس ، مما لايستطيع أن يؤثر تأثيره الكلام المرسل . والفرق بينهما اننا نعبر بالكلام المرسل عما نشاهده أو نستنتجه من أعمال الحياة بالقياس أو البرهان ، وأما الشعر فنعبر به عن شعورنا بالانفعالات النفسية بلا قياس ولا برهان . فالكلام المرسل « لغة العقل » ، والشعر « لغة النفس أو القلب » . وقال بعضهم : « الشعر صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة »

ولذلك فالشعر قديم لم تخل منه أمة من أمم العالم قديما ولا حديثا وهو مرآة آداب الناس وصحيفة أخلاقهم وديوان أخبارهم وسجل عقائدهم . لأن الانسان ارتقت نفسه وتحرك قلبه قبل أن يرتقى عقله وتتهذب مداركه ، فتكلم بالشعر قبل أن تكلم فى العلم ، ولذلك كان أقدم أخبار الناس من قبيل الخيال ، وأقدم المحفوظ من مدونات الأمم كتب الشعر ، وقد دونوا فيها مشاعرهم الدينية والأدبية أو الحماسية أو غير ذلك من صور الانفعالات النفسية . فالمهابهاراتا والراماياناة عند الهنود ، والالياذة والأوديسية عند اليونان ، والانيادة عند الرومان ، وبعض أسفار التوراة عند اليهود ، والشهنامة عند الفرس ، انما هى شعر حفظت فيها عادات تلك الأمم وأخلاقهم وأخبارهم ، وخصوصا من حيث العبادة والآلهة . وذلك طبيعى ،

(١) طبقات الاطباء ١١٦ ج ١ (٢) المعارف لابن قتيبة ١٩٤

لأن الشعر كما قلنا لغة النفس تعبر به عن انفعالها وتطلب به مشتهاها ، لا تقدم على ذلك برهانا ولا تطلب دليلا . والدين أكثر أعمالها حاجة الى التسليم والايمان العاطفى القلبى

الشعر العبرانى :

والشعوب السامية أكثر الأمم اعراقا فى عالم الخيال ، ولذلك كانوا أميل الناس الى اعتقاد التوحيد والتدين بما لايقع تحت الحواس ، ولهذا السبب ايضا كانوا أقرب الناس طبعا الى التصورات الشعرية ، وترى ذلك واضحا فيما خلفوه من الآثار الشعرية . وأقدم آثار الساميين من هذا القبيل التوراة ، وقد وجدوا التصورات الشعرية فى أقدم أسفارها . فما كلام « لامك » لامرأتيه « عادة » و « صلة » فى سفر التكوين (ص ٢٣٥٤) الا جزء من نشيد ضاع ولم يبق منه الا مطلعه ، وفى أصله العبرانى ما يدل على أنه شعر موزون ومقفى . فهو أقدم منظومات العبرانيين ، بل أقدم الشعر المقفى فى العالم على الاطلاق

وفى التوراة أمثلة كثيرة من التصور الشعرى ، كقول يشوع لموسى لما سمع جلبة الشعب عند نزول موسى من الجبل ولوحا الشهادة معه (خروج ٣٢ : ١٧) : « صوت حرب فى المحلة » فقال موسى : « ليس ذلك صياح ظفر ولا صياح هزيمة ، بل صوت غناء أنا سامع » . والمظنون ان هذه الفقرة بيت قديم تمثل به موسى فى تلك الحال . وقس عليه

وهناك أسفار كلها شعر ، كسفر أيوب ويقال أن أصله عربى ، وسفر أشعيا ومزامير داود وغيرها مما هو مشهور . وقد بلغ الشعر العبرانى أسمى درجاته فى أيام سليمان الحكيم ، لاستتباب الأمن وسعة الملك ورخاء العيش ، وهو العصر الذهبى عند اليهود مثل عصر المأمون عند العرب . وكان سليمان نفسه حكيما وشاعرا كما كان المأمون أيضا

الشعر العربى :

والعرب كالعبرانيين فى استعدادهم الفطرى لقرض الشعر والاستغراق فى عالم الخيال لأنهم ساميون مثلهم ، واللغة العربية أكثر استعدادا للتعبير الشعرى من العبرانية لما فيها من المترادف والمتوارد وأساليب المعانى والبيان . واذا اعتبرنا الاقليم والبيئة رأينا العرب أولى بالتصوير الشعرى من اليهود ، نظرا لانطلاقهم فى الصحارى واستقلالهم فى أحكامهم وأفكارهم وسائر أحوالهم . ولذلك كان شعرهم أكثره من قبيل الحماسة والفروسية ، وأما اليهود فالذل والانكسار والتدين هى الصفات المميزة لأشعارهم

على أن الغالب فى الشعر أن يكون منظوما ، وان اختلفت الأمم فى كيفية نظمه ، فاكتفى بعضهم أن يكون موزونا غير مقفى ، والبعض الآخر مقفى غير موزون ، أو مقفى وموزونا معا. والعرب يشترطون فى شعرهم الوزن والتقفية والا فهو ليس من قبيل الشعر عندهم ، خلافا لما هو عند اخوانهم السريان والعبران . فقد كان السريانيون القدماء ينظمون بلا قافية ، أى بلا التزام قافية واحدة ، كأفرام السريانى واسحق الانطاكى وغيرهما (١). والعبرانيون لم يكونوا يشترطون هذا ولا ذاك ، وربما اشترطوا القافية دون الوزن — ولذلك لما سمعوا آيات القرآن ، بما فيها من التصور الشعرى الدينى مع التزام القافية ، قالوا : هذا شعر ، بالقياس على الشعر فى لسانهم

ولا ريب أن للوزن والقافية رنة تزيد المعنى الشعرى تأثيرا فى النفس ، لا انها هى تجعله شعرا . فالخطابة تؤثر فى النفوس وتهيج العواطف ، وكلامها غير موزون ولا مقفى ، وهى من قبيل التصورات الشعرية . وسيأتى الكلام عليها

كيف توصلوا للنظم :

فالتصورات الشعرية فطرية فى العرب ، أما النظم فحادث عندهم . وربما صاغوا الشعر أولا بعبارات قصيرة تحفظ وتتناقل على سبيل الأمثال الحكمية ونحوها . والظاهر انهم قضوا أجيالا والنظم عندهم على سبيل الأمثال ، حتى اتفق لبعضهم وهو يقول المثل أنه جعله شطرين مسجوعين فى مثل واحد أو مثلين متآلفين ، فرأى فى ذلك رنة فترنم به وأخذه عنه الناس وجعلوا يتغنونه فى حدوهم وانشادهم وراء ابلهم — والغناء لسان طبيعى — فأعجبتهم رنة القافية والوزن ، فزادوا شطرا أو شطرين أو أكثر على قافية واحدة ، وهو الرجز فى ابسط أحواله . وظلوا دهرا طويلا يقول شاعرهم من الرجز البيتين أو الثلاثة اذا هاجت فيه قريحة الشعر لمفاخرة أو هجاء أو منافرة ، وكانوا كلما نبغ فيهم نابغة أدخل فى النظم تحسينا . وقد ذكروا ممن حسنوا نظم الرجز العجاج والأغلب العجلى (٢) ولم يعينوا زمنه

أما القصيد فأشهر من أطلق سراحه امرؤ القيس امام الشعراء وخاله المهلهل (*) من أهل القرن الخامس للميلاد . فالمهلهل يقولون انه أول من

---

(١) شعراء السريان ١ (٢)المزهر ٢٤٣ ج ١

(*) فى الاصل جده ، وصحتها خاله ، جاء فى « الشعر والشعراء » (نشر الشيخ أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٩٤٧) حـ ١ص ٣٥٦ : « وهو خال امرىء القيس وجد عمرو بن كلثوم أبو أمه ليلى »

قصد القصائد ، وامرؤ القيس أول من أطالها وتفنن فى نظمها وفتح الشعر وبكى ووصف ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا والقوة والسباع والظباء (١) (*) وأول من رقق النسيب وغير ذلك ، ولعله تنبه لهذا التفنن فى أثناء أسفاره فى بلاد الروم فسمع أشعارهم أو أشعار اليونان ، والنبيه تنفتق قريحته بالاختلاط ، فزاد اختباره فأدخلَ فى الشعر ما أدخله . وكان الشعراء الجاهليون قلما يدخلون بلاد الروم ، وانما كانوا يقفون على الحدود فى البلقاء عند بنى غسان أو فى الحيرة عند بنى لخم المناذرة الا قليلا منهم

فالعرب مطبوعون على الشعر (١) لأنهم ساميون أهل خيال من فطرتهم (٢) لأنهم سكنوا البادية وتعودوا الحرية والاستقلال ،(٣) لأن شؤونهم البدوية قضت بينهم بالتنازع والتنافر والتفاخر مما يشحذ الأذهان ويستحث البدائه (٤) لأن لغتهم تساعدهم على النظم

والعرب أمة قديمة ولذلك فلا بد أن تكون قد نظمت الشعر من قديم الزمان ، والحال أن أقدم ما وصل الينا من أشعارهم لا يتجاوز القرن الثانى قبل الهجرة ، فهل كان العرب قبل ذلك ينظمون ؟

الغالب فى اعتقادنا أنهم نظموا كما نظم العبرانيون ، ولا يبعد أن يكون سفر أيوب من بقايا شعرهم القديم ، وقد حفظ فى العبرانية وضاع أصله العربى . ولو لم يحفظ فى العبرانية لضاع كما ضاع غيره من منظومات العرب ، لجهلهم الكتابة ولانقطاعهم عن الأمم التى كانت تعرفها فى ذلك العهد

كثرة شعر العرب :

على أننا نكتفى فى الاستدلال على كثرة ما نظمه العرب باعتبار ما وصل الينا من أشعارهم فى نهضتهم الأخيرة قبل الاسلام ، فقد نظموا فى قرن واحد أو قرنين ما لم يجتمع عند أمم العالم المتمدن فى عدة قرون ، وخصوصا فى العصر الجاهلى . فالياذة هوميروس وأوذيسيته هما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد أبياتهما على ٣٠٫٠٠٠ بيت ، وكذلك مهابهاراتة الهنود ٢٠٫٠٠٠ بيت وراماياناتهم ٤٨٫٠٠٠ بيت (١) . وأما العرب فيؤخذ مما بلغنا من أخبارهم عما نظموه فى نهضتهم الأخيرة قبل الاسلام انه يربو على أضعاف

(١) الشعر والشعراء ٥٢

(*) النص عن ابن قتيبة : « قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يقول من فضله : انه أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى فى الدمن ، ووصف ما فيها ، ثم قال : دع ذا رغبة فى النسبة ، فتبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا واللقوة والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الاوصاف » حـ ١ ص٧٦ .. واللقوة ــ بفتح اللام وكسرها ــ العقاب السريعة الخفيفة الاختطاف . لسان العرب

(٢) Lit. Hist. of India, 213

أضعاف ذلك . فهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالأبيات ، فقد ذكروا أن أبا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار العرب (الجاهلية) ١٤٫٠٠٠ أرجوزة غير القصائد والمقاطيع (١) وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧٫٠٠٠ قصيدة (٢) على كل حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة . وكان الأصمعى يحفظ ١٦٫٠٠٠ أرجوزة (٣) وكان أبو ضمضم يروى أشعارا لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو (٤) ومع ما يظن فى ذلك من المبالغة فانه يدل على كثرة ما خلفه العرب من المنظومات . وخصوصا اذا اعتبرنا أن ما وصل الى رواة الشعر فى الاسلام انما هو بعض أشعار الجاهلية لأن كثيرين من رواة الشعر الجاهلى قتلوا فى الفتوح الاسلامية فضاع ما كان فى محفوظهم من الأشعار — قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (٥)

وزد على ذلك أن العرب نظموا الشعر الكثير وأبدعوا فيه ، وهم يكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شىء مما حمل اليونان أو الهنود أو غيرهم على النظم وانما اندفعوا اليه بفطرتهم . ولولا ذلك لتأخروا فى النظم حتى قامت دولتهم ونضجت قرائحهم ، كما حدث للرومانيين فان الشعر لم ينظم بلسانهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون . ولم يبلغ الشعر اللاتينى عصره الذهبى الا فى أيام أوغسطس وطيباريوس نحو القرن الثامن من تأسيس رومية (القرن الأول للميلاد) ثم أخذ فى التقهقر . ويقال نحو ذلك فى دول أوربا الحالية ، فان الشعر لم ينضج عندهم الا بعد نشوء دولهم وتقدمهم فى العلم والأدب

اقسام الشعر :

والشعر من حيث موضوعه ينقسم الى قسمين كبيرين : الأول ما يعبر به الشاعر عن عواطفه وعواطف ذويه . والثانى ما يصف به أحوال الآخرين . والأول هو الذى يسميه الافرنج Lyric أى الغنائى أو الموسيقى من Lyre أى العود ، ويدخل فيه حكاية كل ما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والرثاء والحماسة والفخر والانتقام . أو ما علمته بطول الاختبار والتعقل كالأمثال والحكم ونحوها . والثانى يشمل سائر ضروب الشعر ، ويدخل فيه الشعر القصصى الذى يسميه الافرنج Epic وهو عبارة عن نظم الحوادث والوقائع شعرا ، والشعر الوصفى والتمثيلى Drama . فأشعار الأمم السامية أكثرها من النوع الأول ، وخصوصا العبرانيون فانهم أرثى أهل الأرض وأبكاهم وأشكاهم . فالمزامير والمراثى ونحوها من قبيل العواطف ،

---

(١) ابن خلكان ١٢١ ج ١ (٢) النجوم الزاهرة ٤٢٠ ج ١
(٣) ابن خلكان ١٢١ ج ١ وطبقات الادباء ١٥١ (٤)الشعر والشعراء ٤
(٥) المزهر ٢٣٧ ج ٢

والأمثال الجامعة من قبيل الحكم . ويقال بالاجمال ان الخيال الشعرى منصرف فى العبرانيين الى الاحساس الدينى كالتعبد والشكوى والاستسلام

ويقال نحو ذلك فى العرب ، غير أن الخيال الشعرى فيهم منصرف الى ما تدعو اليه أحوالهم من المفاخرة والحماسة والتشبيب وذكر السيف والفرس . وقد عدوا من أشعارهم بضعة عشر نوعا معظمها من قبيل الشعر الغنائى ، الذى يعبر به عن العواطف ، كالغزل والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والزهد والرثاء والتهانى والوعد والتحذير والحماسة ، وبعضها من قبيل الوصف كالزهريات والخمريات ، وبعضها من قبيل العظة كالأدب والحكم . ولو تدبرت معانيها لرأيتها ترجع الى التعبير عن عواطف الشاعر أو عواطف قبيلته

وأما الشعر الوصفى أو القصصى فلا نقول انه معدوم فى العربية ولكنه قليل ، وخصوصا فى الجاهلية ، وأكثر ما عثروا عليه منه لا يخرج عن وصف بعض الأدوات أو الحيوانات أو بعض الوقائع القصيرة . وأما الشعر القصصى — على نحو ما فى الياذة هوميروس أو شاهنامة الفردوسى — فلا وجود له عندهم . ولا يدل ذلك على أنهم لم ينظموا مثلهما ، بل يغلب على ظننا أنهم نظموا كثيرا من أخبار حروبهم المشهورة بين قبائلهم ، ونظرا لعدم تدوينها ضاعت من محفوظهم الا قطعا بقيت الى زمن تدوين الشعر فى الاسلام ، تقتصر القصيدة منها على وصف وقعة أو بعض وقعة من تلك الحروب . والمقام لايساعدنا على زيادة البحث

وكان الشعر فطريا فى العرب ، يندر فيهم من لايستطيعه حتى المجانين واللصوص (١) ناهيك بالنساء فقد نبغ منهن جماعة كبيرة من الشواعر . ومن لم يستطع الشعر لم يفته الاجتماع فى المجالس العامة لسماعه أو تناشده . وكثيرا ما كانت النساء يعقدن المجالس لتناشد الأشعار وذكر الشعراء ونقد اقوالهم وبيان ما يتفاضل به بعضهم على بعض (٢) وكان أكثرهم ينظمون الشعر وهم اطفال لم ينظروا فى الأدب أو الشعر (٣) فمن شب ولم تنفتق قريحته عدوا ذلك نقصا فيه وعيبا على أهله

منزلة الشعر :

فكانوا يثيرون بذلك غيرة أبنائهم على اتقان الشعر ويحرضونهم على نظمه . لأن الشعراء كانوا حماة الأعراض وحفظة الآثار ونقلة الأخبار ، وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ، ولذلك كانوا اذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة أتت القبائل الاخرى فهنأتها به وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن

---

(١) البيان والتبيين ١٦٤ ج ٢ (٢) الاغانى ١٥٠ ج ١ (٣) ابن خلكان ٢٣ ج ٢

بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم أنه حماية لأعراضهم وذب عن احسابهم وتخليد لمآثرهم واشادة لذكرهم (١) وفى الواقع ان ما بقى لنا من أخبار عرب الجاهلية وآدابهم وعلومهم وأخلاقهم انما هو منقول عن أشعارهم

فمن شعرهم استخرج الناس أخبار أيامهم وحروبهم . ومنه ألف السجستانى « كتاب المعمرين » . ومنه استخرجوا أحوال الشعراء المتقدمين والفوا الكتب كابن قتيبة وغيره . ومن شعرهم استخرجوا وصف البلاد والجبال والأودية والوهاد . ومنه ألفوا ما ألفوه فى الحيوان والنبات ، ككتاب الحيوان للجاحظ ، والنبات لأبى حنيفة الدينورى (*) . ومن أشعارهم استطلعوا أديانهم فى أيام جاهليتهم ، وقس على ذلك كل ما عرفوه من عاداتهم وآدابهم فى الضيافة والفروسية والأعراس والمآتم وغيرها

وقد ذكروا شعراء حموا أعراض قبائلهم ببلاغة شعرهم ، كما حمى زياد الأعجم (**) قبيلة عبد القيس من لسان الفرزدق ، وكما حمى عتبة بن ربيعة بنى قصى ، وغيرهما كثيرون (٢)

المعلقات :

وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء أنهم عمدوا الى سبع قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب فى القباطى (التيل المصرى) بشكل الدرج الملتف وعلقوها فى أستار الكعبة وهى المعلقات ، ولذلك يقال لها المذهبات أيضا ، كمذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير (٣) وبعضهم يجعل المذهبات غير المعلقات . ونخبة أشعار الجاهلية ٤٩ قصيدة لتسعة وأربعين شاعرا تقسم الى سبعة مجاميع كل مجموع سبع قصائد تعرف بلقب خاص وهى : المعلقات ، والمجمهرات ، والمنتقيات ، والمذهبات ، والمراثى ، والمشوبات ، والملحمات (***) . وهى مجموعة فى كتاب « جمهرة أشعار العرب » لأبى زيد الانصارى

---

(١) المزهر ٢٣٦ ج ٢

(*) لم نعثر على كتاب النبات لابى حنيفة بن داود الدينورى المتوفى فى ٢٠ جمادى الاولى ٢٨٢/٤ يوليو ٨٩٥ ، ولكننا وجدنا قطعا منه فى كتاب المفردات لابن البيطار وأمالى الزجاجى ، وقد تعرض له بالنقد على بن حمزة البصرى فى كتابه « التنبيهات على أغلاط الرواة » ومن هذه القطع نستنتج أنه لم يكن كتابا فى النبات خاصة على مثال كتاب الجاحظ عن الحيوان ، وانما هو شرح لغوى لاسماء النباتات التى وردت فى أشعار الشعراء

(**) هناك خلاف فى اسمه ، فيقال أنه زياد بن سليمان ، ويقال زياد بن جابر مولى عبد القيس . انظر عنه : الاغانى، طبعة الساسى ، حـ ١٤ ص ٩٨ ــ ١٠٥ (٢) بلوغ الارب ٩١ ج ٣

(٣) العقد الفريد ٩٣ ج ٣

(***) أورد أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشى فى كتاب « جمهرة اشعار العرب » (بولاق ١٣٠٨ هـ) بيان هذه الانواع السبعة من الشعر الجاهلى ، ولكنه لم يفرق بين نوع ونوع ، وظاهر أن تقسيم الشعر الجاهلى الى سبعة أنواع فى كل نوع سبعة شعراء تقسيم مفتعل ، وهو نفسه خالفه عند التطبيق فقال مثلا أن المعلقات سبع ثم ذكر ثمانيا . انظر بيانها وأسماء أصحابها فى فهرس ذلك الكتاب

تأثير الشعر :

أما تأثير الشعر فى حماية الأعراض فسببه ما فطر عليه العرب من الحماسة والخيال فيتأثرون بالكلام البليغ ، وربما أقامهم البيت الواحد وأقعدهم . ولذلك كانوا يخافون هجو الشعراء ويفتخرون بمدائحهم ، حتى عمر بن الخطاب فانه كان اذا عرض عليه الحكم بين شاعرين كره أن يتعرض للشعراء واستشهد رجالا للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره (١) وقد اشترى أعراض المسلمين من الحطيئة بثلاثة آلاف درهم ليؤكد الحجة عليه (٢) وبلغ من شدة خوفهم الهجاء لئلا يبقى ذلك محفوظـا فى الأعقاب أنهم اذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق . وربما شدوا لسانه بنسعة (*) لئلا يهجوهم ، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص المحاربى حين أسره بنو تيم يوم الكلاب . وهو الذى يقول :

أقول وقد شدوا لسانى بنسعة ... أمعشر تيم أطلقوا من لسانيا
وتضحك منى شيخة عبشمية ... كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا (٣)

فكانوا يبذلون قصارى الجهد فى أن يمدحهم الشعراء . ومن مدحوه ارتفعت منزلته واذا كانت له بنات تزوجن ، كما فعل الأعشى الأكبر بالمحلق اذ مدحه الأعشى بقصيدة أنشدها فى سوق عكاظ فاشتهر وخطبت بناته . وكما فعل مسكين الدارمى فى انفاق الخمر السود بعد كسادها ببيتين وصف بهما مليحة عليها خمار أسود وهما :

قل للمليحة فى الخمار الأسود ... ماذا أردت بناسك متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه ... حتى قعدت له بباب المسجد

فرغب الناس فى لبس الخمر السود فاشتروا منها ما كان عند ذلك التاجر (٤) وسيأتى باقى الكلام على تأثير الشعر فى النفوس فى كلامنا عن العصر الاسلامى

ألقاب الشعراء :

وكان الشاعر يلقب بلفظ ورد فى بعض أشعاره . فعوف بن سعد بن مالك لقب بالمرقش لقوله :

الدار قفر والرسوم كما ... رقش فى ظهر الأديم قلم

(١) البيان والتبيين ٩٧ ج ١
(٢) فوات الوفيات ٩٩ ج ١
(*) النسعة ــ بكسر النون وسكون السين ــ سير مضفور يجعل زماما للبعير وغيره . لسان العرب ١٠/٢٣٠
(٣) البيان والتبيين ١٧١ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٤٤٦ ج ١

وجرير بن عبد المسيح الضبعى لقب بالمتلمس لقوله :

فهذا أوان العرض حتى ذبابه   زنابيره والأزرق المتلمـــس

وزياد بن معاوية الذبيانى لقب بالنابغة لقوله :

وحلت فى بنى القـين بن جسر   وقد نبغت لنـا منهم شـؤون

ويقال نحو ذلك فى سـائر ألقابهم ، كالمخرق وافنون وتأبط شرا واعصر والمستوغر والأعسر وطرفة وذى الرمة والمزرد وعويف وجران العود والعجاج وموسى الشهوات وابن قيس الرقيات وصريع الغوانى وغبار العسكر ومقبل الريح وغيرهم (١) (*)

وكانت قبائل العرب تتفاوت فى شاعريتها ، وأشعرها ربيعة ومنهم المهلهل والمرقشان الاكبر والاصغر وطرفة بن العبد وعمرو بن قميئة والحـارث بن حلزة والمتلمس والأعشى والمسيب الضبى ، ثم انتقل الشعر الى قيس ومنهم النابغتان وزهير بن أبى سلمى وربيعة ولبيد والحطيئة والشماخ وغيرهم . ثم اسـتقر الشـعر فى تميم ومنهم أوس بن حجر شـاعر مضر ويليهم هذيل وغيرها . وكان فى حمير جماعة من الشعراء (٢) . ومن الغريب أن العرب كانت تقر لقريش بالتقدم عليها فى كل شيء الا الشعر فانها كانت لا تقر لها به (٣) والظاهر أن اختلاط العرب بالأعاجم كان يفتق قرائحهم ويحملهم على النظم ، ولذلك كان أكثر القبائل شاعرية أقربهم الى العراق ، وأشعرهم من اختلط بالفرس ، وأشعر من كليهما من عاشر الفرس والروم

وبالجملة فقد كان الشعر شائعا فى العرب ، ولم تخل قبيلة من شاعر أو أكثر يحمى ذمارها ويصف عواطفها ، وكان الشعر عندهم مستودع الأخبار وخزانة الآداب والأخلاق ، ولذلك قيل : الشعر ديوان العرب . ومن قبيـل الشعر الأمثال ، فانها مرآة العادات والأخلاق والآداب وقد استخرج الناس كثيرا من آداب العرب الجاهلية من أمثالها

---

(١) لطائف المعارف ١٧
(*) مخرق هو عمرو بن المنذر
وافنون هو أفنون التغلبى
وتأبط شرا هو ثابت بن عمسل
وأعصر هو منبه بن سعد
والمستوغر هو مستوغر بن ربيعة
والمزرد هو مزرد بن ضرار أخو الشماخ
وعويف هو المعروف بعويف القواف
وجران العود ذهب اسمه اذ غلبت عليه هذه التسمية
والعجاج الراجز هو عبد الله بن رؤبة من بنى مالك بن سعد
وموسى الشهوات أو موسى شهوات هو موسى بن يسار مولى قريش
وابن قيس الرقيات هو عبيد الله بن قيس
وصريع الغوانى هو مسلم بن الوليد
(٢) بلوغ الارب ٩٣ ج ٣   (٣) الاغانى ٣٥ ج ١

٧ ـ الخطابة فى الجاهلية

الخطابة تحتاج الى خيال وبلاغة ، ولذلك عددناها من قبيل الشعر ، أو هى شعر منثور وهو شعر منظـــوم وان كان لكل منهما موقف . فالخطابة تحتاج الى الحماسة ، ويغلب تأثيرها فى أبناء عصر الفروسية وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية ، مما لايشترط فى الشعر . ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهليـــة اليونان من هـــذا الوجه ، لأن كليهما أهل شـــعر وخطابة وأهل اباء واستقلال. ولذلك أيضا كانت الخطابة رائجة عند الرومان، مع تأخر الشعر عندهم ، ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون فى الخطـــابة مع تقدمهم فى الشعر لغلبـــة الذل والضعف على طبـــاعهم ، فتحول خيالهم الشعرى الى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم الى نظم المراثى والحكم

أما العرب فقد قضى عليهم الاقليم بالحرية والحماســـة ، وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعرى ، فأصبح للبلاغة وقع شـــديد فى نفوسهم ، فالعبارة البليغة قد تقعدهم أو تقيمهم بما تثيره فى خواطرهم من النخوة . واقتضت المنازعات بينهم أن يتفاخروا ويتنافروا ، فاحتاجوا الى الخطابة فى الاقناع وتأليف الأحزاب ، وان غلب فى موضوعات خطبهم المفاخرة بالأحساب والآداب فى المجالس والأندية العامة والخاصة . وكانوا يخطبون وعليهم العمـــائم وهم وقوف فى أيديهم المخاصر ، ويعتمـــدون على الأرض بالقسى ويشيرون بالعصى والقنا ، وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم (١). ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة أن الغالب فى الشـــعراء أن يخطبوا ، والخطباء أن ينظموا ، فيكون الواحد شاعرا وخطيبا ، فاذا غلب عليه الشعر سموه شاعرا ، أو الخطابة سموه خطيبا . والقبائل التى كثر خطباؤها هى غالبا التى كثر شعراؤها . ومن أقوالهم فى تاريخ الشعر والخطابة أن عبـــد القيس بعد محاربة اياد تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطبـــاء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر القبائل ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا فى سرة البـــادية وفى معـــدن الفصـــــاحة (٢) ويدل ذلك على ما قدمنــــــاه من نتائج احتكاك الأفكار عند الاختـــــلاط بالأعاجم ، ولهذا السبب كثر الخطباء أيضا فى اليمن لاختلاطهم بالفرس ، وكان الفرس أهل خطابة مثل العرب

موضوعات الخطب :

وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة ، وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وانما كانت الخطابة فيهم قريحة مثـــــل الشعر ، وكانوا يدربون

---

(١) البيان والتبيين ٢٠ج٢ (٢) البيان والتبيين ٤٢و١٣٩ج١

فتيانهم عليها من حداثتهم (١) لاحتياجهم الى الخطباء فى ايفاد الوفود مثل حاجتهم الى الشعراء فى حفظ الأنساب والدفاع عن الأعراض . ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب فى الجاهلية ، فلما جاء الاسلام صار الخطيب مقدما لحاجتهم اليه فى الاقناع وجمع كلمة الأحزاب . ولكن نظرا لحاجة العرب الى الخطباء فى ارسال الوفود فقدكان خطيب القبيلة عندهم عميدها وزعيمها ، وهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن ألسنة

أما ايفاد الوفود فقد كان شائعا فى تلك العصور ، فكانت دول الروم والهند والصين والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة الملاقات أو للمفاخرة . ولم يكن للعرب دولة تستوفد من قبلها ، ولكن المناذرة ملوك العرب فى العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين يدى الأكاسرة ، وخصوصا كسرى أنوشروان فكان يميل الى مشاهدتهم . فاتفق مرة أن النعمان خاطبه فى ذلك فطلب اليه أن يريه واحداً منهم ، فاستقدم جماعة من خطباء العرب اختار من كل قبيلة اثنين أو ثلاثة هم فى الحقيقة حكماؤهم ووجهاؤهم ، ومنهم أكثر ابن صيفى ، وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم ، والحرث بن ظالم ، وقيس ابن مسعود من قبيلة بكر ، وخالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل من بنى عامر وغيرهم . فقدموا على كسرى وخطب كل منهم بين يديه خطابا ذكره ابن عبد ربه مفصلا فى الجزء الثالث من العقد الفريد

على أن عرب اليمن وشرقى جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عماله هناك ، وكان غيرهم من العرب يفدون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء ، كما فعل أبو سفيان والد معاوية

وكانوا يفدون على الأمراء من العرب وغيرهم ، كوفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة فى البلقاء . ووفود وجهاء قريش على سيف بن ذى يزن فى اليمن بعد قتله الحبشة ، فقد وفدوا عليه للتهنئة بالنصر وكان فى جملة خطباء ذلك الوفد عبد المطلب جد النبى (صلعم) . ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبى بعد أن استتب له الأمر ، فقد جاءه من كل قبيلة وجهاؤها وخيرة بلغائها لاعتناق الاسلام او للاستفهام أو غير ذلك . ومن هذا القبيل وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة ، كوفود جبلة بن الأيهم وعمرو بن معديكرب على عمر بن الخطاب ، ووفود أهل اليمامة على أبى بكر وغيرهم مما يطول شرحه

الخطباء :

وجملة القول أن الخطباء كانوا عديدين فى النهضة الجاهلية كالشعراء ،

---

(١) البيان والتبيين ٥٨و٩٨ ج ١

والغالب فيهم أن يكونوا أمراء القبائل أو وجهاءها أو حكماءها . وكان لكل قبيلة خطيب أو أكثر كما كان لها شاعر أو أكثر . وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة من بنى أياد ، أدركه النبى فرآه فى سوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول فى خطابه : « أيها الناس ، اجتمعوا فاسمعوا وعوا : من عاش مات .. ومن مات فات .. وكل ما هو آت آت » (١)

ومنهم سحبان وائل الباهلى الذى يضرب المثل بفصاحته فيقال : « هو أخطب من سحبان وائل » . وكان اذا خطب يسيل عرقا ، ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ . ومنهم جماعة كبيرة من حمير ، كدويد بن زيد ، وزهير بن خباب ، ومرثد الخير ، وغيرهم من سائر القبائل ، كالحارث بن كعب المذحجى ، وقيس بن زهير العبسى ، والربيع بن ضبيع الفزارى ، وذو الاصبع العدوانى ، وأكثم بن صيفى التميمى ، وعمرو بن كلثوم التغلبى وكثيرين غيرهم

وكانوا يتخيرون فى خطبهم الألفاظ المألوفة الرقيقة المعانى . وكانت خطبهم على ضربين : الطوال والقصار ، والقصار أكثر عددا لانهم كانوا يفضلونها لسهولة حفظها . وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها فى الأعقاب ويسمونها بأسماء خاصة ، كالعجوز اسم خطبة لآل رقية ، والعذراء خطبة قيس بن خارجة ، والشوهاء خطبة سحبان وائل (٢)

٨ ـ مجالس الأدب وسوق عكاظ

كان العرب يعقدون المجالس لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار والمسامرة أو البحث فى بعض الشؤون العامة ، وكانوا يسمون تلك المجالس الأندية ، ومنها نادى قريش ودار الندوة كانت بجوار الكعبة . على أنهم كانوا حيثما اجتمعوا على فراغ من العمل عمدوا الى المناشدة والمفاخرة والمسامرة ، وخصوصا فى المواسم المعبر عنها بالأسواق

الاسواق :

والمراد بالسوق مكان يجتمع فيه أهل البلاد أو القرى فى أوقات معينة ، يتبايعون ويتداولون ويتقايضون . ولا تزال أمثال هذه الأسواق تقام الى اليوم فى القرى أو فى البلاد البعيدة عن التمدن الحديث . على أن فى بعض المدن الكبرى ـ كالقاهرة مثلا ـ أسواقا تنعقد فى بعض أيام الأسبوع وتعرف بها ، كسوق السبت ـ أو السبتية ـ وسوق الثلاثاء أو الأربعاء ، فيجتمع اليها الناس من الضواحى للبيع والشراء

(١) البيان والتبيين ١١٩ ج ١
(٢) البيان والتبيين ١٣٢ ج ١

ومن هذه الأسواق ما ينعقد كل أسبوع ، ومنها ما لاينعقد الا مرة فى الشهر ، أو فى السنة ، ومنها ما ينعقد مرة كل بضع سنين . فان للهنود سوقا يقيمونها فى هردوار على ضفاف الكنج كل سنة ويبلغ عدد المجتمعين هناك فى الموسم ٣٠٠،٠٠٠ نفس . ويقيمون فى ذلك المكان حجا مرة كل ١٢ سنة يبلغ عدد الحجاج اليه نحو مليون نفس ، وهو أكبر أسواق العالم . وكانت أمثال هذه الأسواق كثيرة فى روسيا وبلاد الدولة العثمانية وفى ألمانيا وفرنسا وانجلترا وأمريكا . فقد كانت فى روسيا سوق تقام فى مدينة نوفكرود مرتين فى السنة يبلغ عدد الذين يؤمونها ١٢٠،٠٠٠ نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرقى أوربا ، ويقدرون قيمة ما يباع من البضائع فى أسواق روسيا بنحو ١٢٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل فى العام . وقس على ذلك سائر الأسواق الكبرى

وقد كان كثير من أمثال هذه الأسواق فى العالم القديم . لكن الأقدام لا تتزاحم فيها الا اذا كان الغرض من الاجتماع حجا دينيا . فاذا اجتمع الناس فى مكان الحج وتكاثروا احتاجوا الى من يبيعهم الأطعمة والأشربة وغيرها ، فتقام الأسواق لهذه الغاية ــ كذلك كان شأن العرب فى سوق عكاظ وغيرها من أسواق الجاهلية

أسواق العرب :

كان للعرب فى الجاهلية أسواق يقيمونها فى أشهر السنة وينتقلون من احداها الى الأخرى ، يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد . فاذا فرغوا من سوق انتقلوا الى سواها ، فكانوا ينزلون دومة الجندل فى أعالى نجد أول يوم من شهر ربيع الأول ، فيقيمون أسواقا للبيع والشراء والأخذ والعطاء ، ثم ينتقلون الى سوق هجر فيقيمون هناك شهرا ، ويرتحلون منها الى عمان فيقيمون سوقهم ، ثم يرتحلون الى حضرموت فعدن ، وبعضهم ينزل الى صنعاء فيقيمون أسواقهم ، ثم يرتحلون الى عكاظ فى الأشهر الحرم . وكانت لهم أسواق أخر فى صحار والشحر والمجنة وحباشة والمشقر وغيرها (١)

سوق عكاظ :

وأشهر أسواق العرب الجاهلية سوق عكاظ ، وهى مكان بين الطائف ونخلة . فكانت العرب اذا قصدت الحج أقامت بهذه السوق من أول ذى القعدة ، يبيعون ويشترون الى عشرين منه ، ثم يتوجهون الى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون الى أوطانهم . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده ، الا عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل ناحية . ومن كان له أسير

---

(١) نهاية الارب (خط)

سعى فى فدائه هناك ، ومن كانت له حكومة أرتفع الى الذى يقوم بأمر الحكومة فى أيام المواسم وهم أناس من تميم . ومن كان له ثأر على أحد ولم يعرف مكانه طلبه فى الموسم . أو أراد أحد أن يعمل عملا تعرفه العرب أو يستشهدها فيه عمله فى عكاظ (١) أو أراد أن يفاخر أحدا على مشهد من الناس فاخره هناك (*) . وكانوا يتفاخرون حتى فى كبر المصائب — ذكروا أن الخنساء لما أصيبت بمصابها المشهور أعلنت أنها أكبر العرب مصيبة ، فبلغ ذلك هند بنت عتبة وكانت تعتقد أنها أكبر مصيبة منها ، فأمرت بهودجها فسوم براية وشهدت الموسم بعكاظ فقالت : « اقرنوا جملى بجمل الخنساء» ففعلوا . فلما دنت منها قالت لها الخنساء : « من أنت يا أخية ؟ » قالت : « أنا هند بنت عتبة ، أعظم العرب مصيبة . وقد بلغنى أنك تعاظمين العرب بمصيبتك ، فبم تعاظمينهم ؟ » فقالت الخنساء : « بعمرو بن الشريد ، وصخر ، ومعاوية ابنى عمرو . فبم تعاظمينهم أنت ؟ » قالت : « بأبى عتبة ابن ربيعة ، وعمى شيبة بن ربيعة ، وأخى الوليد » قالت الخنساء : « أو سواء هم عندك ؟ » . ثم أنشدت تقول :

أبكى أبى عمرا بعين غزيرة ... قليل اذا نام الخلى هجودها
وصنوى لا أنسى معاوية الذى ... له من سراة الحرتين وفودها
وصخرا ، ومن ذا مثل صخر اذا غدا ... بسلهبة الأبطال قبا يقودها ؟
فذلك يا هند الرزية فاعلمى ... ونيران حرب حين شب وقودها

---

(١) الاغانى ٢ج١٣

(*) عكاظ واحة صغيرة تقع بين الطائف ونخلة ، وكانت تقام فيها السوق المعروفة من اول ذى القعدة الى العشرين منه كما يقول المؤلف ، ثم تنفض سوقها وينتقل الناس الى سوق ذى المجنة التى تستمر حتى نهاية ذى القعدة ، ومنها الى ذى المجاز من اول ذى الحجة الى الثامن منه ، ومنها ينتقل الناس الى مكة لحضور موسم الحج وكان اكبر المواسم والاسواق فى الجاهلية ، وكان العرب جميعا يحضرون سوق عكاظ الا بنو تميم . وقد ضاعت أهمية هذه الاسواق بعد الاسلام ، نظرا لما نها الاسلام عنه من المفاخرة والمنافسة بين القبائل . على ان لعكاظ ذكرا فى السيرة النبوية ، فعلى مقربة منها ، وعند واحة نخلة يقول المفسرون ان نفرا من الجن استمعوا للقرآن فآمنوا

وكان اجتماع الناس فى هذه الاسواق يسمى الموسم ، ولذلك تسمى الاسواق مواسم ايضا ، ويضاف اليها موسم عرفة وهو آخرها من حيث الترتيب الزمنى واهمها جميعا . ولم يكن ما يجرى فى هذه الاسواق خيرا كله ، بل كانت مصدر شر كثير بسبب التفاخر والتناقب بين القبائل ، وتزاحم الصعاليك من كل ناحية ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الموسم يجمع رعاع الناس » . وقد انتقل لفظ موسم الى لغات شتى منها السنسكريتية ، ومنها جاء لفظ Monsoun الانجليزى بمعنى الرياح الموسمية التى تجلب الامطار

انظر : معجم البلدان لياقوت ، مادة عكاظ

الازرقى : تاريخ مكة (طبعة فستنفلد) ص ١٢٩

البخارى : باب الحج

Wellhausen, Reste arabischen Heidentums (Berlin, 1897) p. 88 sqq.

G. Jacob, Altarabisches Beduinenleben (Berlin, 1897) p. 147-148

فقالت هند تجيبها :

أبكى عميد الأبطحين كليهما وحاميها من كل باغ يريدها
أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمى وشيبة ، والحامى الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب وفى العز منها حين ينمى عديدها (١)

فاذا كانت هذه حالهم فى المفاخرة بالمصائب ، فكيف بالأنساب والأحساب والشجاعة والفضل ؟ ولذلك كثر الخصام هناك وانتشبت عدة مواقع لامحل لذكرها هنا

وانما يهمنا فى هذا المقام أن العرب كانوا يغتنمون وقت الموسم واجتماع القبائل ، ويقيمون مجالس البحث والمناشدة والمفاخرة ، فينشد الشعراء ويخطب الخطباء فيختارون كبيرا من وجهائهم يجعلونه حكما فيما يختلفون فيه . وكان النابغة الذبيانى اذا أتى عكاظ فى الموسم ضربوا له قبة حمراء من أدم ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها (٢) ليحكم فيها. ويقال أنهم كانوا اذا أقروا على فضل قصيدة علقوها هناك أو فى الكعبة ، ومنها المعلقات السبع

وشأن العرب فى ذلك مثل شأن اليونان القدماء فى الجمناسيوم ، وهى أبنية كانوا يجتمعون فيها للألعاب البدنية ، وفيهم الفلاسفة والعلماء فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك ويتباحثون ويتناظرون ويتنافرون ، كما كان يفعل العرب فى عكاظ . ولا يخفى ما فى ذلك من تمحيص الحقائق واستحثاث القرائح ، فضلا عما كان يترتب على ذلك الاجتماع من تنقيح اللغة ونموها . فان قريشا كانوا يسمعون لغات القبائل فى أثناء تلك الاجتماعات ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ ، كالكشكشة والكسكسة والعنعنة والفخفخة والوكم والوهم والعجعجة والاستنطاء والشنشنة ، وغير ذلك من العيوب فى لغات الأمم الأخرى (٣)

٩ — الأنساب فى الجاهلية

الانساب :

كان للأنساب فى عصور الجاهلية عند الأمم القديمة شأن كبير ، وكان للناس عناية عظمى فى حفظ أنسابهم للتناصر على الأعداء أو التفاخر بالآباء . وقد بالغ اليونان فى ذلك حتى حفظوا أنساب آلهتهم وكيفية تسلسلها بعضها

---

(١) الاغانى ٣٥ ج ٤
(٢) الشعر والشعراء ١٩٧ (٣) المزهر ١٠٩ ج ١

من بعض ، ثم نسبوا انفسهم اليها ، فلم يكن فى جاهلية اليونان أسرة كبيرة من الأشراف ورجال السلطة الا وجعل نسبها يتصل ببعض تلك الآلهة . وقد نظم بعضهم الأشعار للتفاخر بذلك قبل المسيح ببضعة قرون . وكذلك كان الرومان فى أقدم أجيالهم ، فالطبقة التى تعرف عندهم بالبطارقة Patricii كانوا يدعون الانتساب الى آباء أعلى طبقة من البشر . ومن هذا القبيل انتساب اليهود الى الآباء الأولين والأنبياء وافتخارهم بذلك على سائر الأمم . وهم يمتازون فى هذا عن اليونان والرومان بأنهم يرجعون جميعا الى أب واحد — وهذا أيضا من قبيل ميلهم الفطرى الى التوحيد مثل سائر الأمم السامية

نسب العرب :

والعرب من حيث أنسابهم فرع من العبرانيين ، لأن العدنانيين منهم يرجعون فى أصل آبائهم الأولين الى اسماعيل بن ابراهيم ، والقحطانيين ينتسبون الى يقطان بن عابر ، وقد زادت عناية العرب فى الأنساب رغبة فى التناصر على الغرباء أو بعضهم على بعض . وقد رتبت أنساب العرب فى ست مراتب أو طبقات ، أولها الشعب ثم القبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالفصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، ثم القبيلة وهى ما انقسمت فيها أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر ، ثم العمارة وهى ما انقسمت فيها أنساب القبائل مثل قريش وكنانة ، ثم البطن وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم ، ثم الفخذ وهو ما انقسمت فيه أنساب البطن مثل بنى هاشم وبنى أمية ، ثم الفصيلة مثل بنى أبى طالب وبنى العباس (١)

وبالغ العرب فى الرجوع الى الاجداد حتى رجعوا بأسماء المدن الى أسماء بعض أجدادهم ، والغالب أن ينتهى النسب بأحد آباء التوراة ، فاذا سئل أحدهم مثلا عن الاندلس من بناها قال : « بناها أندلس بن يافث بن نوح » (٢) وكان النسابون يحفظون أسماء القبائل وما يتفرع منها حفظا دقيقا ، فاذا عرض لهم رجل فقال : أنا من بنى تميم مثلا فانسبنى ، فانه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العمائر والبطون والأفخاذ حتى ينتهى الى الفصيلة ، ومنها الى والد السائل أو اليه هو نفسه

وكثر النسابون فى الجاهلية ، ولم تخل قبيلة أو عمارة أو بطن من نسابة أو أكثر ، ومن أشهرهم دغفل السدوسى من بنى شيبان ، وعميرة أبوضمضم وابن لسان الحمرة من بنى تيم اللات ، وزيد بن الكيس النمرى والنخار بن

---

(١) الماوردى ١٩٤ (٢) ابن خلكان ١٤ ج ١

أوس القضاعى وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان وغيرهم (١) وظل النسب محفوظا فى صـدر الاسـلام ، واشتهر كثير من النسابين ، فلما آلت الدولة الى الموالى والمصطنعين صار الناس ينتسبون الى مواليهم ومصطنعيهم

١٠ ـ التاريخ

لم يكن عند عرب الجاهلية تاريخ من قبيل ما نفهمه من هذه اللفظة اليوم ، ولكنهم كانوا يتناقلون أخبارا متفرقة بعضها حدث فى بلادهم والبعض الآخر نقله اليهم الذين عاشروهم من الأمم الأخرى . فمن أمثال أخبارهم حروب القبائل المعروفة بأيام العرب ، وقصة سد مأرب ، واستيلاء أبى كرب تبان أسعد على اليمن ، وبعض من خلفه ، وملك ذى نواس ، وقصة أصحاب الأخدود ، وفتح الحبشة لليمن ، وقصة أصحاب الفيل وقدومهم الكعبة ، وحرب ذى يزن الحميرى الى آخر ما انتهى اليه أمر الفرس فى اليمن ، وقصة عمرو بن لحى وأصنام العرب ، وحكاية جرهم ودفن زمزم وتاريخ الكعبة الى أيام قصى بن كلاب ، وولاية الحج وأمر عامر بن الظرب ، ثم ما كان من غلب قصى على أمر مكة ، وقصة حلف المطيبين وحلف الفضول ، وحفر بئر زمزم وحرب الفجار وحديث بنيان الكعبة . غير أخبار عاد وثمود وغيرهما من العرب البائدة ، وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من أخبار التوراة ، وغير ذلك من الأخبار التى كان العرب يتناقلونها عند ظهور الاسلام

الخلاصة :

وجملة القول أن ما سميناه علوم العرب قبل الاسلام يبلغ الى بضعة عشر علما ، فلما جاء الاسلام أهمل بعضها كالكهانة والعيافة والقيافة ، وبقى بعضها عند أهله ونشأ ما يقوم مقامه فى عصر الحضارة ، كالنجوم والأنواء ومهاب الرياح والطب والخيل ، وارتقى الباقى واتسع عما كان فى الجاهلية ، كالشعر والخطابة والبلاغة ، وكان الاسلام مساعدا على ارتقائها بالقرآن الكريم

---

(١) بلوغ الارب ١٩٦ ج ٣ والبيان والتبيين ١١٨ ج ١

علوم العرب بعد الإسلام

نريد بها العلوم التى اشتغل بها المسلمون من أول الاسلام الى ابان التمدن الاسلامى ، وهى كثيرة يمكن حصرها فى ثلاثة مجاميع :

(١) العلوم التى اقتضاها الاسلام ، وهى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ ، ونسميها العلوم الاسلامية أو الآداب الاسلامية

(٢) العلوم التى كانت فى الجاهلية وارتقت فى الاسلام ، وهى الشعر والخطابة ، ونسميها الآداب الجاهلية أو الآداب العربية

(٣) العلوم التى نقلت الى العربية من اللغات الاخرى ، كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ، ونسميها العلوم الدخيلة أو الاجنبية

وقبل البحث فى هذه العلوم وعلاقتها بالتمدن الاسلامى ، نمهد الكلام بمقدمات لابد من تدبرها قبل الخوض فى الموضوع :

مقدمات تمهيدية :

١ ــ الاسلام والعلوم الاسلامية

كان العرب فيما ذكرناه من علومهم وأخبارهم وأطوارهم اذ جاءهم القرآن فبغتوا لما رأوه من بلاغة أسلوبه على غير المألوف عندهم . لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما . وهو منثور مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع ، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه فى لسانهم ، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والأحكام والأخبار . فلما دانوا بالاسلام أصبح همهم تلاوته وتفهم أحكامه ، لأنه قاعدة الدين والدنيا وبه تتأيد السلطة والخلافة ، ثم أشكل عليهم بعض ما فيه واختلفوا فى تفسيره فعمدوا الى ما أثر عن النبى (صلعم) من قول أو فعل أو استحسان أو استهجان يستوضحون بها ذلك الاشكال ، فأصبح همهم جمع الاحاديث ممن سمعها أو رواها عن سامعها بالاسناد المتسلسل ، فرأوا تباينا فى الروايات فاشتغلوا فى التفريق بين صحيحها وفاسدها ، فرجعوا الى درس الاسانيد واستطلاع أخبار أصحاب الحديث ، فجرهم ذلك الى درس طبقات المحدثين والاحوال التى تناولوا تلك الاحاديث فيها

ولما قامت دولتهم أخـذوا فى ضرب الأموال على البـلاد التى فتحوها أو غنموها ، وضرائبها تختلف شكلا ومقدارا باختلاف طريق الفتح ، بين أن يكون عنوة أو صلحا وأمانا أو قوة ، فبحثوا فى تحقيق أخبار الفتوح والمغازى وتدوينها . ولما فسدت الأحكام فى أيام بنى أميـة ، أكثر العلمـاء من ذكر المواعظ وايراد أخبار السلف من الصحابة ، وخصوصا الخلفاء الراشدين ، فاجتمع من ذلك تاريخ النبى والصحابة والتابعين

والنظر فى أحكام القرآن والسنة لابد فيه من فهم العبارة وتدبرها ، فنشأ من ذلك علم التفسير ، وباسناد نقله وروايته واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات . وباسناد السنة الى صاحبها والتفريق بين طبقات الحـديث والمحدثين تولدت علوم الحديث . ثم لابد من استنباط هـذه الأحكام من أصولها ، على وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هـذا الاستنبـاط ، وهو علم أصول الفقه ثم الفقه فالعقائد الايمانية ثم علم الكلام

ولما عمدوا الى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما ، أشكل على غير العرب اعرابهما لأن ملـكة اللغـة غير راسخة فيهم ، فاضطروا الى تدوين اللغـة وترتيب قواعدها وتعيين معانى الفاظها ، ولذلك كان أكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الأعاجم . وتعيين معانى الألفاظ وضـبط التلفـظ بها دعاهم الى البحث عن لغة قريش التى كتب بها القرآن ، وقد رأيت أن مرجع التحقيق فى ذلك الى الأشعار والأمثال ، فاشتغلوا فى الأسفار الى بادية العرب وخالطوا الأعراب ونقلوا أشعارهم وأقوالهم وأمثالهم ، ليدونوها ويرجعوا اليها فى التحقيق . فرأوا مشقة فى فهم معانى أشعارهم وأمثالهم الا بالاطلاع على أنسابهم وآدابهم ، فلم يكن لهم بد من درس ذلك كله ، وهو ما يعبرون عنه بعلم الأدب . واختلفوا فى فهم الأشعار ، ووجدوا فى روايتها اختـلافا وفى بلاغتها تفاوتا ، فعمدوا الى البحث فى طبقات الشعراء وأماكنهم وأشعارهم وأخبار قبائلهم

وكان الراحلون فى التقاط اللغـة والشعر من أفواه العرب فى مضـاربهم يقفون على سائر علومهم ، كالنجوم والأنواء والخيل والأنساب وغيرها ، فلما عادوا لتدوين اللغة دونوا أيضا كثيرا من تلك العلوم ، ولذلك كان أصحاب هذه العلوم غالبا من علماء اللغة ، وعثروا أيضا على الفاظ وأشعار ينـدر ورودها فألفوا النوادر

وجملة القول أن ما اشتغل به المسلمون فى صدر الاسلام من العلوم مرجعه الى القرآن ، فهو المحور الذى تدور عليه العلوم الأدبية واللسانية ، فضـلا عن الدينية ، ولذلك سميناها العلوم الاسلامية

٢ ـ العرب والقرآن والاسلام

كان الاسلام فى أول أمره نهضة عربيـة ، والمسـلمون هم العرب . وكان اللفظان مترادفين ، فاذا قالوا العرب أرادوا المسلمين ، وبالعكس . ولأجل هذه الغاية أمر عمر بن الخطاب باخراج غير المسـلمين من جزيرة العرب ، واصبح أهل الجزيرة كلهم مسلمين وهم عرب

وأساس الاسلام وقوامه القرآن ، ففى تأييده تأييد الاسلام أو العرب . وتمكن هذا الاعتقاد فى الصحابة ، لما فازوا فى فتوحهم وتغلبوا على دولتى الروم والفرس ، فنشأ فى اعتقادهم أنه لا ينبغى أن يسود غير العرب ، ولا يتلى غير القرآن ، وشاع هذا الاعتقاد خصوصا فى أيام بنى أمية ، وقد بالغوا فيه حتى آل ذلك فيهم الى نقمة سائر الأمم عليهم

أما فى الصدر الأول فقد كان الاعتقاد العام « ان الاسلام يهدم ما كان قبله » (١) فرسخ فى الاذهان أنه لا ينبغى أن ينظر فى كتاب غير القرآن ، لأنه جاء ناسخا لـكل كتاب قبله . وقد نهى الشرع الاسلامى يومئذ عن النظر فى الـكتب المنزلة غير القرآن ، لاتحاد الـكلمة واجتماعها على الأخذ به . ومن الاحاديث المـأثورة من هذا القبيل : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم ، والهنا والهكم واحد » . ورأى النبى فى يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب فى وجهه ثم قال : « ألم آتكم بها بيضاء نقية ؟ والله لو كان موسى حيـا ما وسعه الا اتباعى » (٢) . ومن الاحاديث التى شاعت فى ذلك العهد : « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم » (٣)

فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه ، ومحو ما كان قبله من كتب العلم فى دولتى الروم والفرس ، كما حاولوا بعدئذ هدم ايوان كسرى وأهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة ــ فلا غرو اذا قيل أن العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية أو غيرها من خزائن العلم القديم

٣ ـ احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها

أنشأ البطالسة فى القرن الثالث قبل الميلاد مكتبة فى الاسكندرية جمعوا اليها كتب العلم من أقطـار العالم المتمدن فى ذلك الحين ، وسيأتى خبرها . وتوالى على هذه المكتبة أحوال كثيرة فى أيام الرومان الى الفتح الاسـلامى ، وقد ضاعت بين احراق ونهب . والمؤرخون من العرب وغيرهم مختلفون فى كيفية ضياعها ، فمنهم من ينسب احراقها الى عمرو بن العاص بأمر عمر

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٧ ج ١ وروى ايضا : « الاسلام يجب ما قبله »
(٢) ابن خلدون ٣٦٤ ج ١ وكشف الظنون ٢٥ ج ١ وابجد العلوم ١٠٩
(٣) العقد الفريد ١٥٨ ج ١

ابن الخطاب ، ويستـــدلون على ذلك ببعض النصوص العربية ، واشهرها أقوال أبى الفرج الملطى وعبد اللطيف البغدادى والمقريزى وحاجى خليفة . ومنهم من يجل العرب عن ذلك ويطعن فى تلك الروايات ويضعفها . وقـد كنا ممن جارى هذا الفريق فى كتابنا « تاريخ مصر الحديث » منذ بضع عشرة سنة ، ثم عرض لنا بمطالعاتنا المتواصلة فى تاريخ الاسلام والتمدن الاسلامى ترجيح الرأى الاول ، لأسباب نحن باسطوها فيما يلى اجلاء للحقيقة فنقول :

أولا : قد رأيت فيما تقدم رغبة العرب فى صـدر الاسلام فى محو كل كتاب غير القرآن ، بالاستناد الى الاحاديث النبوية وتصريح مقدمى الصحابة

ثانيا : جاء فى تاريخ مختصر الدول لأبى الفرج الملطى عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما نصه : « وعاش (يحيى الغراماطيقى) الى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو ، وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ، ففتن به . وكان عمرو عاقلا حسن الاســتماع صحيح الفكر ، فلازمه وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوما : « انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها ، فمالك به انتفاع فلا نعارضك فيه ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به » . فقال له عمرو : « ما الذى تحتاج اليه ؟ » . قال : « كتب الحكمة التى فى الخزائن الملوكية » . فقال عمرو : « هذا ما لايمكننى أن آمر فيه الا بعد اسـتئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « .. وأما الكتب التى ذكرتها ، فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه ، فتقدم باعدامها » . فشرع عمرو بن العاص فى تفريقهـا على حمامات الاسكندرية واحراقها فى مواقدها ، فاستنفدت فى مدة ستة أشهر . فاسمع ما جرى واعجب » (١)

وليس فى نص هذه العبارة التباس ، ولكن الذين يجلون العرب عن احراق هذه المكتبة يطعنون فى هذه الرواية وينسبون قائلها الى التعصب الدينى ، وفى جملتهم جماعة كبيرة من مؤرخى الافرنج ، وقد ألفوا الرسائل والكتب فى تجريحها . وخلاصة أقوالهم : ان أبا الفرج المذكور هو أول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص ، وانه انما فعل ذلك تعصبا للنصرانية وتحقيرا للاسلام ، وانه من أهل القرن السابع للهجرة ، وكان أبوه يهوديا وتنصر ، وشب أبو الفرج على النصرانية وارتقى فى رتب الاكليروس

(١) كتاب مختصر الدول صفحة ١٨٠ من طبعة بوك (فى أوكسفورد) سنة ١٦٦٣ م . واما النسخة المطبوعـــة فى مطبعة الآباء اليســـوعيين فى بيروت فقد حذفت منها هذه الجملة كلها لسبب لا نعلمه

الى الأسقفية ، ثم ألف تاريخا فى السريانيــة استخرجه من كتب يونانيــة وفارسية وعربية وسريانية ، واستخلص من هــذا التاريخ كتابا فى العربية سماه مختصر الدول ـــ قالوا : « وهو أول كتاب ذكرت فيه هذه القصة ، وتناقلها عنه الافرنج الى هذه الغاية » . وان ما جاء فى هذا الشأن من أقوال عبد اللطيف البغدادى والمقريزى وحاجى خليفة من مؤرخى المسلمين لا تعتبر مصادر مستقلة ، لأن المقريزى نقل عن عبد اللطيف حرفيا ، وحاجى خليفة لم يذكر مدينة الاسكندرية وانما أشار الى أن العرب فى صدر الاســلام لم يعتنـــوا بشىء من العلوم الا بلغتهم وشريعتهم ، حتى قال : « ويروى انهم أحرقوا ما وجدوه من الكتب فى فتوحات البلاد». وان عبد اللطيف البغدادى ذكر حريق المكتبة فى عرض كلامه عن عمود السوارى بغير تحقيق . ويزعم أصحاب هذا الرأى أن مكتبة الاسكندرية أحرقها الرومان قبل الاســلام ، وانها لو أحرقها العرب لذكرها مؤرخو المسلمين وخصوصــا كتاب الفتوح والمغازى . اهـ

لا ننكر أن بعض هذه المكتبة احترق قبـل الاسلام ، ولكن ذلك لايمنـع احتراق باقيها فى الاسلام . أما النصوص التى وردت فى هذا الشأن فليس أبو الفرج أول من رواها كما توهم بعضهم . فان عبد اللطيف البغدادى طاف مصر وكتب عن مشاهدها وآثارها ، وذكر احراق العرب لهذه المكتبة قبل أن يولد أبو الفرج ببضع وعشرين سنة ، لأن أبا الفرج ولد سنــة ١٢٢٦ م (٦٢٢ هـ) وعبد اللطيف زار مصر فى أواخر القرن السادس للهجرة ، وهاك نص عبارته : « ورأيت أيضا حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقــايا صالحة ، بعضها صحيح وبعضــها مكســور ، ويظهر من حالها انها كانت مسقوفة ، والأعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها . وأرى انه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار المعلم التى بناها الاسكندر حين بنى مدينتــه ، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه » (١)

نعم ان عبارة البغدادى مختصرة ، وقد جاءت عرضا ، لـكنها تدل على وثوق قائلها بصحتها ، كأنه أخذها عن مصدر موثوق به ومعول عليه فى ذلك العصر ، كالذى أخذ عنه أبو الفرج

أما أبو الفرج فقد أتم كتابه « مختصر الدول » فى العربية فى أواخر حياته (توفى سنة ٦٨٤ هـ) . وهو ليس مختصر تاريخه السريانى الا من حيث أخبار الفتح ، لأنه يزيد على النسخة السريانية بأخبار كثيرة ، عن الاسلام والمغول وتاريخ علوم الروم والعرب وآدابهم . وأما السريانى فهو عبارة عن

(١) الافادة والاعتبار ٢٨

اخبار الفتح فقط ، فاغفال ذكر احراق المكتبة فيه لايدل على أنه دخيل فى النسخة العربية ، أو دسه فيه بعض المتأخرين كما توهم بعضهم ، وانما ذكر فى النسخة العربية لأنه يتعلق بآداب الروم والعرب التى أدخلها المؤلف فى هذه النسخة كما تقدم

***

وقد تبين لنا بالبحث والتنقيب أن أبا الفرج المذكور نقل تلك الرواية عن مؤرخ مسلم توفى قبله بنحو أربعين سنة ، وهو جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن ابراهيم القفطى ، وزير حلب المعروف بالقاضى الاكرم ، ولد فى قفط من صعيد مصر سنة ٥٦٥ وتوفى فى حلب سنة ٦٤٦ هـ . وللقاضى المذكور كتاب فى تراجم الحكماء ، عثرنا على نسخة منه خطية فى دار الكتب المصرية مكتوبة سنة ١١٩٧ هـ ، وقرأنا فيها فى أثناء ترجمة يحيى النحوى كلاما فى معنى كلام أبى الفرج وأكثر تفصيلا منه ، وفيه شىء عن تاريخ هذه المكتبة منذ انشائها ــ واليك نص قوله :

« وعاش (يحيى النحوى) الى أن فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى ، فأكرمه عمرو ورأى له موضعا ، وسمع كلامه فى ابطال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضا فى انقضاء الدهر ففتن به ، وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم يكن للعرب بها آنسة ما هاله . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوما : « انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاجناس الموصوفة الموجودة بها ، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه ، وأما مالا نفع لكم به فنحن أولى به ، فأمر بالافراج عنه » . فقال له عمرو: « وما الذى تحتاج اليه ؟ » قال : « كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية ، وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون اليها ولا نفع لكم بها » . فقال له : « ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ؟ »

فقال له يحيى : « ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك حبب اليه العلم والعلماء ، وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن ، فجمعت وولى أمرها رجلا يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم اليه بالاجتهاد فى جمعها وتحصيلها والمبالغة فى أثمانها وترغيب تجارها ففعل ، واجتمع من ذلك فى مدة خمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتابا . ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة : أترى بقى فى الارض من كتب العلم ما لم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة : قد بقى فى الدنيا شىء فى السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم .. فعجب

الملك من ذلك وقال له : دم على التحصيل . فلم يزل على ذلك الى أن مات. وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلى الأمر من الملوك وأتباعهم الى وقتنا هذا »

فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له : « لايمكننى أن آمر بأمر الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » وكتب الى عمر وعرفه بقول يحيى الذى ذكر واستأذنه ما الذى يصنعه فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « وأما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة اليها ، فتقدم باعدامها ». فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها فى مواقدها ، وذكرت عدة الحمامات يومئذ وانسيتها ، فذكروا أنها استنفدت فى مدة ستة أشهر . فاسمع ما جرى واعجب » (١) انتهى كلام ابن القفطى

وبمقابلة هذه الفقرة بكلام أبى الفرج يتضح لك أن أبا الفرج نقل قول ابن القفطى مختصرا . ولو قرأت الكتابين لعلمت أن أبا الفرج نقل كثيرا من زياداته العلمية فى كتابه العربى عن كتاب ابن القفطى ، ككلامه عن ثيادوق طبيب الحجاج (٢) فان العبارة منقولة عن تراجم الحكماء حرفيا

بقى علينا البحث فى المصدر الذى نقل عنه ابن القفطى ، والغالب أنه نفس المصدر الذى نقل عنه عبد اللطيف البغدادى ، لأنهما كانا متعاصرين وعبد اللطيف سابقه ، لأنه ولد سنة ٥٥٧ وتوفى سنة ٦٢٩ هـ . ولكن لسوء الحظ قد ضاعت تلك المصادر فى جملة ما ضاع من مؤلفات العرب . على أننا اذا تدبرنا ما ذكره ابن النديم فى كتاب الفهرست عن أخبار الفلاسفة الطبيعيين من حكاية انشاء مكتبة الاسكندرية ، يتضح لنا أن فى جملة المصادر التى نقلت عنها تلك الرواية تاريخا لرجل اسمه اسحق الراهب ، كان يبحث فى أخبار اليونان والرومان وآدابهما

ومن جملة ما نقلوه عنه خبر انشاء مكتبة الاسكندرية على يد زميرة ، وهاك نصه : « أن بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك فحص عن كتب العلم وولى أمرها رجلا يعرف بزميرة ، فجمع من ذلك على ما حكى أربعة وخمسين الف كتاب ومائة وعشرين كتابا ، وقال له : أيها الملك قد بقى فى الدنيا شىء كثير فى السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم » (٣) وهى نفس عبارة ابن القفطى ، فالظاهر

---

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) مختصر الدول طبعة بيروت ١٩٤

(١) الفهرست ٢٣٩

انه أخذ انشاء المكتبة عن اسحق المذكور ، وأخذ حريقها عن سواه . ولولا ما نقله ابن النديم عن اسحق الراهب من أمر الفلاسفة لما علمنا بوجوده ، وظنناه لم يقل شيئا كما ظننا المسلمين لم يذكروا شيئا عن حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو

فيؤخذ مما تقدم أن حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها أبوالفرج لتعصب دينى ، ولا دسها أحد بعده ، بل هو نقلها عن ابن القفطى وهو قاض من قضاة المسلمين ، عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والاصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدرا محتشما جمع من الكتب ما لا يوصف ، وكانوا يحملونها اليه من الآفاق ، وكانت مكتبته تساوى خمسين ألف دينار ، ولم يكن يحب من الدنيا سواها ، وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ، ولم يخلف ولدا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب . وله مؤلفات عديدة فى التاريخ والنحو واللغة ، وفى جملتها « كتاب أخبار مصر من ابتدائها الى أيام صلاح الدين.» فى ستة مجلدات (١) وكتاب « تراجم الحكماء » الذى نحن بصدده . وأن ابن القفطى وعبد اللطيف البغدادى أخذا عن مصدر ضائع

وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب ، والغالب انهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب ، فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ، أو لعل لذلك سببا آخر . وعلى أى حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبى الفرج

ثالثا : ورد فى أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر احراق مكتبات فارس وغيرها على الاجمال ، وقد لخصها صاحب كشف الظنون فى عرض كلامه عن علوم الاقدمين بقوله : « ان المسلمين لما فتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم، كتب سعد بن أبى وقاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه فى شأنها وتنقيلها للمسلمين ، فكتب اليه عمر (رضه) أن « اطرحوها فى الماء ، فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه ، وان يكن ضلالا فقد كفانا الله تعالى» فطرحوها فى الماء أو فى النار ، فذهبت علوم الفرس فيها » (٢)

وجاء فى أثناء كلامه عن أهل الاسلام وعلومهم : « انهم أحرقوا ما وجدوا من الكتب فى فتوحات البلاد » (٣) ولا بد من أصل نقل صاحب كشف الظنون عنه ، وقد أشار ابن خلدون الى ذلك بقوله : « فأين علوم الفرس

---

(١) فوات الوفيات ٩٦ ج ٢ (٢) كشف الظنون ٤٤٦ ج ١
(٣) كشف الظنون ٢٥ ج ١

التى أمر عمر (رضه) بمحوها عند الفتح ؟ » (١)

رابعا : ان احراق الكتب كان شائعا فى تلك العصور تشفيا من عدو أو نكاية فيه ، فكان أهل كل شيعة أو ملة يحرقون كتب غيرها ، كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية كانت لا تزال باقية الى أيامه (سنة ٢١٣ هـ) من مؤلفات المجوس ، وقد عرضت عليه فلما تبين حقيقتها أمر بالقائها فى الماء ، وبعث الى الاطراف ان من وجد شيئا من كتب المجوس فليعدمه (٢)

ولما فتح هولاكو التترى بغداد سنة ٦٥٦ هـ أمر بالقاء كتب العلم التى كانت فى خزائنها بدجلة ، وكانت شيئا لايعبر عنه ، مقابلة فى زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح بكتب الفرس وعلومهم (٣) وقال آخرون انه بنى بتلك الكتب اسطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضا عن اللبن (٤) والأرجح انه أغرقها انتقاما من أهل السنة

ولما فتح الافرنج طرابلس الشام فى أثناء الحروب الصليبية أحرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل ، وكان قد دخل غرفة فيها نسخ كثيرة من القرآن ، فأمر باحراق المكتبة كلها وفيها على زعمهم ثلاثة ملايين مجلد (٥) وفعل الاسبان نحو ذلك بمكتبات الاندلس لما استخرجوها من أيدى المسلمين فى أواخر القرن الخامس عشر

خامسا : ان أصحاب الأديان فى تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة واحراق كتب أصحابها من قبيل السعى فى تأييد الأديان الجديدة فأباطرة الروم حالما تنصروا أمروا بهدم هياكل الأوثان فى مصر واحراقها بما فيها من الكتب وغيرها . وكان خلفاء المسلمين اذا أرادوا اضطهاد المعتزلة وأهل الفلسفة أحرقوا كتبهم . والمعتزلة كثيرا ما كانوا يتجنبون ذلك تحت خطر القتل فيستترون ويجتمعون سرا والخلفاء يتعقبون آثارهم ويحرقون كتبهم . ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل مافعله السلطان محمود الغزنوى لما فتح الرى وغيرها سنة ٤٢٠ هـ ، فانه قتل الباطنية ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلاسفة والاعتزال والنجامة (٦)

سادسا : فى تاريخ الاسلام جماعة من ائمة المسلمين أحرقوا كتبهم من تلقاء أنفسهم ، منهم أحمد بن أبى الحوارى ، فانه لما فرغ من التعلم جلس للناس فخطر بقلبه يوما خاطر من قبل الحق فحمل كتبه الى شط الفرات

---

(١) ابن خلدون ٣٢ ج ١ (٢) Browne's Lit. Hist of Persia, 347
(٣) ابن خلدون ٥٣٧ ج ٣ و٥٤٣ ج ٥ (٤) ابن الساعى ١٢٧
(٥) Gibbon's Roman Empire II, 505 وابن خلكان ١٢٨ ج ٢
(٦) ابن خلدون ٤٧٨ ج ٤

فجلس يبكى ساعة ثم قال : « نعم الدليلَ كنت لى على ربى ، فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال » فغسل كتبه. وذكروا عن سفيان الثورى أنه أوصى بدفن كتبه ، وأن أبا عمرو بن العلاء كانت كتبه ملء بيت الى السقف ثم تنسك وأحرقها (١)

فيرجح مما تقدم أن العرب أحرقوا ما عثروا عليه من كتب العلم القديمة فى الصدر الأول تأييدا للاسلام ، فلما تأيد سلطانهم واشتغلوا بالعلوم عوضوا على العالم أضعاف ما أحرقوه ، كما سترى (*)

٤ – الرومان والاسلام والعلم

من جملة ما يرمى به العرب من المطاعن « أنهم حتى فى ابان تمدنهم لم يشتغلوا هم أنفسهم فى العلم ، وانما كان المشتغلون به الفرس وغيرهم من الأمم الخاضعة لسلطانهم ، بخلاف اليونان والرومان وغيرهما من دول التمدن القديم ، فقد كانوا هم أنفسهم يشتغلون بالعلم ، وقد وضعوا علوما تناقلها الناس عنهم ، وأما العرب فأكثر علومهم منقولة عن سواهم »

فأصحاب هذا القول يقابلون بين دولة الرومان ودولة العرب ، والصواب أن يقابلوا بين الرومان والاسلام . لأن العرب أسسوا دولة الاسلام كما أسس أهل رومية دولة الرومان ، ودخل فى دين الاسلام أمم كثيرة اختلطوا بالعرب

---

(١) كشف الظنون ٤٠ ج ١ والبيان والتبيين ١٢٣ ج ١

(*) لا تزال هذه المسألة موضع بحث العلماء ، وآخر من كتب فيها بارسونز Parsons فى كتابه الكبير عن مكتبة الاسكندرية الذى صدر سنة ١٩٥٦ وذهب فيه الى ان العرب احرقوا المكتبة مستندا الى عبارة القفطى الواردة فى النص . ومن الثابت ان المكتبة احترقت قبل دخول العرب مصر بزمن طويل ، فقد ذكر يوليوس قيصر فى كتابه عن « حربه الاسكندرية » ان المصريين لما حاصروه فى الاسكندرية اشتعلت النار فى سفن الاسطول الراسية فى المياه ، وامتدت الى المبانى المجاورة لها ومنها المكتبة فأحرقتها ، وقد اكد ذلك الاستاذ بول جراندور Paul Graindor فى كتابه «حرب الاسكندرية» الذى ألفه بالفرنسية ونشرته له جامعة القاهرة ، واستدل فيه بأقوال لمارسيلينوس ابيانوس وباولوس أوروزيوس تؤكد ان المكتبة لم تكن موجودة على أيامهما .. ثم ان علماء مصر فى اواخر العصر البيزنطى يحدثوننا عن الكتب والمكتبات فى مصر دون ان يشيروا الى مكتبة الاسكندرية ، ومن هؤلاء اسطفانوس الملقب بالفيلسوف وداميانوس المعروف بالبطرك دميان وغيرهما ، وقد روى ذلك بالتفصيل فى الجزء الثانى من كتاب « مختصر تاريخ مصر » Précis de l'histoire de l'Egypte والشواهد فيه كثيرة جدا على أن مكتبة الاسكندرية كانت خالية من الكتب قبل فتح العرب لمصر

وقد ذكر المؤلف أن الاصل فى نسبة احراق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص ترجع آخر الامر الى رواية القفطى المتوفى سنة ١٢٤٨/٦٤٦ ، وعلى الرواية تدور حول حديث بين عمرو ابن العاص ويوحنا النحوى ، وهى واضحة الاختراع ، لان يوحنا مات قبل دخول العرب مصر بثلاثين او اربعين سنة . واذا كان جريجوريوس ابو الفرج بن اهرون المعروف بابن العبرى قد أخذها من ابن القفطى ، فتكون روايته ايضا غير صحيحة

ثم ان مؤرخا نصرانيا هو يوحنا النقيوسى قد عاصر الفتح الاسلامى لمصر وكتب فيه ، ولم يشر الى احراق عمرو للمكتبة ، وكان اولى الناس بالاشارة الى ذلك لو كان الامر قد حدث فعلا . ولم يشر اليه ايضا قدامى مؤرخينا من امثال ابن عبد الحكم والبلاذرى واليعقوبى والطبرى

بقيت عبارة عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ١٢٣١/٦٢٩ ، والبغدادى لا يعول على كلامه فى التاريخ ، لانه كان يأخذ ما يسمعه من الناس ويثبته ضمن مشاهداته

فتألف منهم أمة الاسلام ، كما اختلطت شعوب الممالك التى فتحها أهل رومية وصارت أمة واحدة تعرف بأمة الرومان

فاذا قابلنا بين الاسلام والرومان رأينا المسلمين أكثر اشتغالا بالعلم والأدب من أولئك ، لأن كليهما نقلا العلم عن اليونان ، والمشتغلون به من الرومان لم يكونوا من أهل رومية ، كما أن المشتغلين به من المسلمين لم يكونوا كلهم من أهل جزيرة العرب . والسبب فى اجتماع شعوب المملكة الرومانية باسم الرومان ، وعدم اجتماع شعوب المملكة الاسلامية باسم العرب ، أن العرب فتحوا بلادا أهلها عريقون فى الحضارة ، فلم يمكن اندماجهم وضياع جنسياتهم ، وقد ساعد على ذلك تفرق المذاهب ، ومبالغة العرب فى تفضيل أنفسهم على سواهم من الأمم الخاضعة لسلطانهم

أما اليونان فلا جدال فى أنهم واضعو العلم والفلسفة ، لما فى فطرتهم من الاقتدار على ذلك — وان كانوا قد بنوا علمهم وفلسفتهم على أسس أخذوا بعضها من المصريين القدماء ، والبعض الآخر من الكلدان وغيرهم — لكنهم يعدون واضعين ، فهم يفضلون الرومان والعرب من هـذا القبيل . ولكنهم أضعف منهما فى انشاء الحكومات وسن الشرائع ، لأن اليونان لم يطل أمر دولتهم ولا نظموا حكومة ثابتة ، وانما كانوا دولا صغيرة متفرقة يتنازعون ويتنافرون ويتنافسون

ثم ان الرومان أخذوا العلم والفلسفة عن اليونان ، وقلما زادوا فيهما ، ولكنهم نظموا الحكومة ووضعوا الشرائع والقوانين ، ونظموا دولة عظيمة مما لم يستطعه اليونان . فالرومان أهل فتح وسلطان ، واليونان أهل تصـور وخيال . وأما العرب فقد جمعوا الحسنتين ، لأنهم أهل فتح وسلطان وأهل تصور وخيال . ولذلك فانهم أنشأوا دولة بعيدة الاطراف ، ووضعوا الشرائع والنظم (الفقه) ولم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله ، بل هم درسوه وزادوا فيه من نتائج قرائحهم وعقولهم ، وبما نقلوه من علوم الفرس والهند والكلدان وغيرهم ، فضلا عما وضعوه هم أنفسهم من العلوم الاسلامية واللسانية ، وما تفردوا فيه من قريحة الشعر . وليس هنا محل الافاضة فى ذلك

٥ — حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم

قد تقدم أن العلوم التى حدثت فى التمدن الاسـلامى صنـفان : العلوم الاسلامية ، والعلوم الدخيلة . فتغلب العلوم الاسلامية فى غير العرب من

المسلمين (*) سببه أن العرب قاموا بالاسلام وفتحوا الفتوح وهم أهل بادية أميون ، فانصرف همهم فى بدء الدعوة الى نشر دينهم وانشاء دولتهم مما لا يحتاج الى علم . وانما كانت حاجتهم من العلم الى القرآن ، يدعون الناس به الى الاسلام ، وكانوا يستظهرونه ويتناقلونه بالتلقين . ولم يمض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية وغيرها ، والمسلمون (العرب) يومئذ هم الجنـد الفاتح ، وكانوا قليـلين بالنظر الى ذلك الملك الواسع ، فضلا عمن قتـل منهم فى الحروب والفتن . ومع ذلك فقد كانوا مطالبين بحفظ تلك المملكة وحماية أهلها وتدبير شؤونها . فأصبح همهم الاشتغال بالرئاسة فى الجنـد والحكومة . ونظرا لفطرتهم الخيالية انصرفت قرائحهم الى الاشتغال بالشعر والخطابة والأمثال — وهى آدابهم فى جاهليتهم — وتحريض أبنائهم على اتقانها مع المثابرة على أسباب الرياضة البدنية بالفروسية والعناية بالخيل ، مما أعانهم على الفتح ونشر الدين ، وأصبحوا يخافون التحضر لئلا يذهب بنشاطهم وجامعتهم . وكأن رجلهم العظيم عمر بن الخطاب نظر الى مستقبل الاسلام من طرف خفى ، فمنعهم من الزرع والاشتغال بأسباب الحضارة . ولهذا السبب لما تفرق العرب فى الأمصـار وتعرضوا لأخطـار البحار ، كتب اليهم عمر أن يمارسوا السباحة أيضـا ، وهـاك نص كتابه : « أما بعـد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » (١)

ولما فسدت اللغة واختلفت القراءات ، وأزمع الخلفاء على جمع القرآن وتدوينه ، كان اكثر المتهافتين على حفظه من المسلمين غير العرب ، وهم الموالى وأكثرهم من الفرس ، وكانوا يومئذ أهل تمدن وعلم ، وكان العرب يعرفون لهم ذلك ، ومن الاحاديث النبوية : « لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » (٢) وكان الفرس من الجهة الاخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح ، فجعلوا يتقربون اليهم بالعلم على ما تتطلبه حال الاسلام — وهو فى أوائل دولتهم عبارة عن قراءة القرآن وحفظه وتفسيره وجمع الحديث واسناده وحفظه — لذلك كان أكثر الحفاظ والقراء والمحدثين والفقهاء والمفسرين من العجم ، واذا كان فيهم أحـد من العرب فالأغلب فيه أن يكون من القبائل الصغرى التى لا شأن لها فى الفتح ،

(*) أشار المؤلف الى ذلك اكثر من مرة ... وقد كان هذا الرأى القائل بأن معظم المشتغلين بالعلوم كانوا من غير العرب شائعا على ألسنة المستشرقين منذ زمن ، والواقع ان العرب اشتغلوا بالعلم بكافة فروعه من أول الامر ، حتى الفلسفة ، فقد كان اول فيلسوف فى الاسلام عربيا خالصا هو الكندى ، وسنعرض لهذه الناحية فيما سيلى بحثه من فروع العلم فرعا فرعا

(١) البيان والتبيين ٢١٣ ج ١

(٢) ابن خلدون ٤٧٨ ج ١

كالأصمعى فقد كان عربيا ولكنه كان من قبيلة باهلة الموصوفة بالخساسة وفيها يقول بعض الشعراء :

لو قيل للكلب يا باهلى عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

على أن الاكثرين كانوا من غير العرب ، فوهب بن منبه من أقدم رواة الحديث وأصحاب التفسير وهو فارسى الأصل ، ونافع القارىء ديلمى ، وقس على ذلك سائر العلماء ، فمن أكابر الفقهاء وأقدمهم الحسن بن أبى الحسن ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد ابنا جبير وسليمان بن يسار فى مكة ، وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح فى المدينة ، وربيعة الرأى وابن أبى الزناد فى قباء ، وطاووس وابنه وابن منبه فى اليمن ، ومكحول فى الشام ، وغيرهم فى أماكن أخرى ، وكلهم من الموالى أى المسلمين غير العرب (١)

ولما دعا فساد اللغة الى ضبط قواعدها وجمع ألفاظها ، كان العجم أحوج الى ذلك من العرب ، لاستغناء العربى بملكته الفطرية عن تعلم القواعد وحفظ الألفاظ ، فاشتغل الأعاجم بعلوم اللغة وكان أكثر علماء الأدب واللغة منهم ، كحماد الراوية وهو ديلمى ، والخليل وسيبويه والأخفش والفارسى والزجاج وغيرهم من الفرس أو من فى معناهم

اما العلوم الدخيلة وهى العلم والفلسفة فالمشتغلون بها العرب هم غير العرب وغير المسلمين ، لأن العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهند الى العربية ، استخدموا عارفى هذه الألسنة من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها ، وأكثرهم من النصارى كما سيجىء

فالعرب اشتغلوا عن العلم فى أول دولتهم بالرئاسة والسياسة للأسباب التى قدمناها ، وما زالوا هم أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها الى أوائل الدولة العباسية ، فتولد فيهم بتوالى الأجيال الأنفة من انتحال العلم لأنه صار من جملة الصناعات — وأهل الرئاسة يستنكفون من الصناعات والمهن — وكانوا اذا رأوا عربيا يشتغل فى اللغة أو التعليم عابوه وقالوا : « انه يشتغل بصناعات الموالى » ، ومن أقوالهم : « ليس ينبغى للقرشى أن يستغرق فى شىء من العلم الا علم الأخبار ، وأما غير ذلك فالنتف والشذر من القول » . ومر رجل من قريش بفتى من ولد عتاب بن أسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال : « أف لكم .. علم المتأدبين وهمة المحتاجين » (٢)

ولا بأس من اشتغال الموالى بالعلوم الاسلامية وهم مسلمون . على أننا لا نعد العرب الذين تحضروا فى الدولة العباسية عربا خلصا لاختلاطهم

---

(١) العقد الفريد ٧٤ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٥١ ج ١

بالموالى والمماليك بالمصاهرة والمعاشرة والمساكنة ، حتى الخلفاء فان أكثر أمهاتهم من غير العرب ، وسنعود الى هذا البحث فى جزء آخر

٦ - تدوين العلم فى الاسلام

قلنا فيما تقدم ان الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب ، لئلا تذهب بنشاطهم وبداوتهم . ولذلك منعوهم من تدوين الكتب ، لأن علومهم فى أوائل الاسلام كانت قاصرة على القرآن والتفسير ورواية الأحاديث ، ونظرا لقلة الاختلاف ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات الصحابة والتابعين ، لقرب عهدهم من صاحب الشريعة ، كانوا فى غنى عن تدوين تلك العلوم . ويستدل مما روى عن أبى سعيد الخدرى أنه استأذن النبى فى كتابة العلم فلم يأذن له ، وروى عن ابن عباس أنه نهى عن الكتابة وقال : « انما ضل من كان قبلكم بالكتابة » . وجاء رجل الى ابن عباس فقال : « انى كتبت كتابا أريد أن أعرضه عليك » فلما عرضه عليه أخذه منه ومحاه بالماء ، وقيل له : « لماذا فعلت ذلك ؟ » فقال : « لأنهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ ، فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم » (١) وان الكتاب يزاد فيه وينقص ويغير والمحفوظ لا يمكن تغييره

وكان هذا الاعتقاد فاشيا فى الصحابة والتابعين ، وتمسك به جماعة من كبارهم ، وكانوا اذا سئلوا تدوين علمهم أبوا واستنكفوا — ولعلهم كانوا يفعلون ذلك ليبقى الناس فى حاجة اليهم رأسا . سأل رجل سعيدبن جبير وهو من أعلام التابعين أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال : « لأن يسقط شقى أحب الى من ذلك » (٢)

فقضى العرب عصر بنى أمية وهم يشتاقون الى البداوة ، لأن دولتهم كانت عربية بدوية ، فانقضى القرن الأول وبعض القرن الثانى للهجرة والمسلمون يتناقلون العلم بالتلقين ، ويعتمدون على الحفظ ، ولم يدونوا غير القرآن لأسباب سيأتى بيانها . وكان أبو بكر قد توقف عن جمعه وتدوينه وقال : « كيف أفعل أمرا لم يفعله رسول الله ؟ » (٣)

أما ما خلا ذلك من التفسير والحديث والأشعار والأخبار والأمثال فقد كانوا يتناقلونها فى صدورهم ، وأكثرهم يقرأون ولكنهم لايكتبون ، وقد يكون بعضهم حافظا ومفسرا وهو لايقرأ ، كما كان شأنهم فى الجاهلية : يشعرون ويخطبون ولا يقرأون

فلما انتشر الاسلام واتسعت الأمصار ، وتفرقت الصحابة فى الأقطار

---

(١) كشف الظنون ٢٥ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١ (٣) الفهرست ٢٤

وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع الى الكبراء ، اضطروا الى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن ، واشتغلوا فى النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط ، وتمهيد القواعد والأصول وترتيب الأبواب والفصول ، فرأوا ذلك مستحبا فعمدوا الى التدوين ورجعوا الى حديث رواه انس بن مالك وهو قوله : « قيدوا العلم بالكتابة » (١) وقوله : « العلم صيد والكتابة قيد » (٢)

على أنهم ظلوا مع ذلك يستنكفون من التدوين بأيديهم ، فكانوا يستكتبون الكتاب أو يلقون دروسهم بطريق الاملاء . وذلك أن يتكلم المحدث أو الفقيه والتلميذ يكتب على الرق أو القرطاس أو الكاغد ، فيبدأ المستملى فى أول القائمة بقوله : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا فى يوم كذا » ويذكر التاريخ ، ثم يورد المملى باسناده سواء كان حديثا أو خبرا ، واذا كان فيه غريب يحتاج الى التفسير فسره ، وأورد أشعار العرب وغيرها بأسانيدها ، أو الفوائد اللغوية باسناد أو بغير اسناد على ما يختاره (٢) وهذا معنى قولهم « أمالى » المحدث فلان أو اللغوى ، أى ما أملاه من الفنون (*)

وظلوا — حتى بعد اشتغالهم بالتأليف — يحرضون الناس على الحفظ والتعويل على السماع ، وكان أحوج العلوم الى ذلك علم الدين ثم الشعر ، لما فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشى وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه . لأن الكتابة فى القرون الأولى للاسلام كانت بلا نقط ، فلا تفرق فى شعر الهذليين اذا أنت قرأته بين « شابة » و « سابة » وهما موضعان . ولا تثق بمعرفتك فى تمييز أمثالهما مما تتشابه صوره بدون اعجام . وقرىء يوما على الاصمعى فى شعر ابن ذؤيب : « بأسفل ذات الدير أفرد جحشها » فقال اعرابى حضر مجلس القارىء : « ضل ضلالك أيها القارىء .. انما هى ذات الدبر (بالباء) وهى ثنية عندنا » فأخذ الاصمعى

---

(١) البيان والتبيين ١٦١ ج ١ (٢) كشف الظنون ٢٦ ج ١ (٣) المزهر ١٦٢ ج ٢

(*) عبارة عبد الرحمن جلال الدين السيوطى هنا لاتحتمل معنى الاستنكاف من التدوين بالايدى ، فهو يقول فى كلامه عن طرق اخذ اللغة وحملها : « ... وتؤخذ تلقنا من ملقن ، وتؤخذ سماعا من الرواة الثقات ، وللمتحمل بهذه الطرق عند الاداء والرواية صيغ أعلاها أن يقول : أملى على فلان ، أو أمل على فلان » (المزهر ، طبعة محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، من القاهرة ـ بدون تاريخ ـ الطبعة الثانية حـ ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٥) . وقد كان الاملاء طريقة من طرق التأليف فى ذلك العصر المبكر ، ولكنها كانت أقل طرقه شيوعا ، والمعروف أن أوائل المؤلفين من العرب كتبوا كتبهم بأيديهم ، فابن اسحاق والمدائنى والبلاذرى وابن عبد الحكم والجاحظ وأبو حنيفة الدينورى وغيرهم انما كتبوا كتبهم بأنفسهم . وقد كانت العادة أن يقرأ الاستاذ كتابه على تلاميذه بعد تأليفه ، والكثير منهم كانوا يقيدون مايسمعون ، حتى اذا انتهوا من السماع قرأوا على الشيخ مافى دفاترهم فأقره فتعتبر هذه نسخة من الكتاب ، ومن هنا لايستغرب أن تقرأ عند ابن عبد الحكم مثلا قوله « قال ابن عبد الحكم » وليس معنى ذلك أنه أملى الكتاب على الناس استنكافا من الكتابة بيده بل معناه ان هذه النسخة هى سماع احد تلاميذه عليه

بذلك فيما بعد . ومن يرى شعر المعذل (*) فى وصف الفرس :

من السح جوالا كأن غلامه يصرف سبدا فى العنان عمردا

اذا كان بلا تنقيط ولا يقرأ « سيدا » بالياء ، لانصراف الذهن الى السيد وهو الذئب ؟ وقد أخطأ فى ذلك أكثر الذين قرأوا هذا البيت (١)

فظل المسلمون زهاء قرن وليس عندهم كتاب مدون غير القرآن ، مع أن الكتابة كانت شائعة يومئذ . وقد نبغ جماعة من مفسرى القرآن ورواة الحديث وعلماء النحو واللغة وناظمى الشعر ورواته ، وانما كانت الكتابة العربية مستخدمة لكتابة القرآن أو الرسائل الى القواد ، ولتدوين الحساب فى دفاتر الحكومة بعد أن انتقلت الدواوين الى العربية . أما سائر العلوم فكانت تتناقل بالسماع وتحفظ فى الصدور ، وربما دون بعضها فى صحف غير مرتبة . وأما تأليف الكتب فلم يكن معروفا عندهم

واختلف مؤرخو المسلمين فى أول من صنف الكتب فى الاسلام ، فقال بعضهم انه ابن جريج البصرى المتوفى سنة ١٥٥ هـ (٢) وقال غيرهم غير ذلك ، ولم يخرجوا على أى حال عن أواسط القرن الثانى للهجرة ، وان أول مادون ــ بعد القرآن والتفسير ــ الحديث . ولكننا رأينا من ألف قبل ذلك بنصف قرن ، وأن أول ما دونوه من العلوم بعد القرآن التفسير . وأقدم ما علمنا به من التفاسير تفسير مجاهد بن جبير المتوفى سنة ١٠٤ هـ (٣) . ثم اشتغلوا فى تدوين التاريخ وخصوصا المغازى ، وأقدم ما وصل الينا خبره من كتبهم فى هذا الموضوع كتاب ألفه وهب بن منبه صاحب الأخبار والقصص المتوفى سنة ١١٦ هـ وهو من أبناء الفرس المولدين باليمن . فألف كتابا فى الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وأشعارهم وقصصهم (**) ، قال ابن خلكان انه شاهده بنفسه وأثنى عليه (٤) . ثم كتاب المغازى لمحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٤١ هـ (٥) . ثم ألف المسلمون فى الحديث والفقه فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، فصنف ابن جريج بمكة

(*) هو المعذل (بتشديد الذال وكسرها) بن غيلان ، أنظر عنه : الاغانى ٥٤/١٢ ــ ٧٤/٢٠ ــ ٧٥

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠

(٢) ابن خلكان ٢٨٦ ج ١

(٣) كشف الظنون ٣١٤ ج ١ وابن الاثير حوادث سنة ١٠٢

(**) يبدو ان وهب بن منبه من اصل فارسى ، ويقول ياقوت انه توفى فى صنعاء سنة ٧٣٢/١١٤ وكان يتولى قضاءها ، ولم نعثر على كتابه « التيجان فى ملوك حمير » الا برواية محمد بن عبد الملك بن هشام ، وقد أضاف اليه هذا الاخير كثيرا حتى ليمكننا ان نعده من تأليفه . والكتاب موجود فى مخطوطة بالمتحف البريطانى ، ملحق رقم ٥٧٨ ، وهناك نسخة اخرى فى حيدر أباد برقم ١٣٤٧

(٤) ابن خلكان ١٨٠ ج ٢

(٥) كشف الظنون ٣٠١ ج ٢ وابن خكان ٤٥٢ ج ١

وسعيد بن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة . والف أبو حنيفة في الفقه والرأى في الكوفة ، وصنف الأوزاعى في الشام ، ومالك جمع الموطأ بالمدينة ، وغيرهم (١) ثم تكاثرت التآليف بعد ذلك كما سيأتى

٧ ـ الخط العربى

تاريخه

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة الا قبيل الاسلام ، مع أنهم كانوا محاطين شمالا وجنوبا بأمم من العرب خلفوا نقوشا كتابية كثيرة . وأشهر تلك الأمم حمير في اليمن كتبوا بالحرف المسند، والأنباط في الشمال كتبوا بالحرف النبطى ، وآثارهم باقيــة الى الآن في ضواحى حوران والبلقاء . والسبب في ذلك أن الحجازيين أو عرب مضر كانت البداوة غالبة على طباعهم ، والكتابة من الصناعات الحضرية

على ان بعض الذين رحلوا منهم الى العراق أو الشام قبيل الاسلام تخلقوا بأخلاق الحضر ، واقتبسوا الكتابة منهم على ســبيل الاستعارة ، فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطى أو العبرانى أو السريانى . ولــكن النبطى والسريانى ظلا عندهم الى ما بعد الفتوح الاسلامية ، فتخلف عن الأول الخط النسخى (الدارج) وعن الثانى الخط الكوفى نسبة الى مدينــة الكوفة . وكان الخط الكوفى يسمى قبل الاسلام الحيرى نسبة الى الحيرة ، وهى مدينة عرب العراق قبل الاسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها

ومعنى ذلك أن السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة أقلام من الخط السريانى ، في جملتها قلم يسمونه « السطرنجيلى » كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس (٢) فاقتبسه العرب في القرن الأول قبل الاسلام ، وكان من أسباب تلك النهضة عندهم ، وعنه تخلف الخط الكوفى وهما متشــابهان الى الآن

واختلفوا فيمن نقله الى بلاد العرب ، والأشهر أن أهل الأنبــار نقلوه ـــ وذلك أن رجلا منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندى أخو أكيدر بن‌عبدالملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هذا الخط من الأنبار وخرج الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان والد معاوية ، فعلم جماعة من أهل مكة فكثر من يكتب بمكة من قريش (٣) عند ظهور الاســلام ، ولذلك توهم بعضهم أن أول من نقل الخط الى العرب سفيان بن أمية

والخلاصة على أى حال أن العرب تعلموا الخط النبطى من حوران في أثناء

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٧٨ ج ١   (٢) اللمعة الشهية ١٧   (٣) المزهر ١٧٧ ج ٢

تجاراتهم الى الشام ، وتعلموا الخط الكوفى من العراقَ قبل الهجرة بقليل ، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الاسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معا : الكوفى لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه السطرنجيلى يستخدم عند السريان لكتابة الأسفارالمقدسة النصرانية ، والنبطى لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية . ومما يدل على تخلف القلم الكوفى عن السطرنجيلى — فضلا عن شكله — أن الألف اذا جاءت حرف مد فى وسط الكلمة تحذف ، وتلك قاعدة مطردة فى الكتآبة السريانية ، وكان ذلك شائعا فى أوائل الاسلام ، وخصوصا فى القرآن فيكتبون « الكتب » بدل « الكتاب » ، و « الظلمين » بدل « الظالمين »

فجاء الاسلام والكتابة معروفة فى الحجاز ، ولكنها غير شائعة ، فلم يكن يعرف الكتابة الا بضعة عشر انسانا ، أكثرهم من كبار الصحابة وهم : على ابن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله ، وعثمان وابان ابنا سعيد بن خالد بن حذيفة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وحاطب ين عمرو بن عبد شمس ، والعلاء بن الحضرمى ، وأبو سلمة بن عبد الأشهل ، وعبد الله ابن سعد بن أبى سرح ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبو سفيان بن حرب وولده معاوية ، وجهيم بن الصلت بن مخرمة . ثم تعلم غيرهم من الصحابة ، ومنهم خرج كتاب الدواوين للخلفاء الراشدين وكتاب الرسائل وكتاب القرآن . فكتبوا القرآن بالكوفى أيام الراشدين وأيام بنى أمية ، وفى أيامهم تفرع الخط المذكور الى أربعة أقلام ، اشتق بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان أكتب أهل زمانه ، وكان يكتب لبنى أمية المصاحف . ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان فى أوائل الدولة العباسية فزاد على قطبة ، وزاد بعده اسحق بن حماد وغيره ، فبلغ عدد الأقلام العربية الى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلما وهى : (١) قلم الجليل (٢) قلم السجلات (٣) قلم الديباج (٤) قلم أسطورمار الكبير (٥) قلم الثلاثين (٦) قلم الزنبور (٧) قلم المفتح (٨) قلم الحرم (٩) قلم المدمرات (١٠) قلم العهود (١١) قلم القصص (١٢) قلم الحرفاج . وفى أيام المأمون تنافس الكتاب فى تجويد الخط ، فحدث القلم المرصع ، وقلم النساخ ، وقلم الرياسى نسبة الى مخترعه ذى الرياستين الفضل بن سهل ، وقلم الرقاع ، وقلم غبار الحلية (١)

فزادت الخطوط على عشرين شكلا ، وكلها تعد من الكوفى . وأما الخط النسخى أو النبطى فقد كان شائعا بين الناس لغير المخطوطات الرسمية ، حتى اذا نبغ ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ أدخل فى الخط المذكور تحسينا

---

(١) كشف الظنون ٤٦٦ ج ١

جعله على نحو ما هو عليه الآن وادخله فى كتابة الدواوين . والمشهور عند المؤرخين أن ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفى الى صورة القلم النسخى ، والغالب فى اعتقادنا أن الخطين كانا شائعين معا من أول الاسلام : الكوفى للمصاحف ونحوها ، والنسخى (أو النبطى) للرسائل ونحوها كما تقدم . وأن ابن مقلة انما جعل الخط النسخى على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف (*) . وقد شاهدنا فى معرض الخطوط العربية القديمة فى دار الكتب الخديوية (دار الكتب المصرية الآن) عقد نكاح مكتوبا فى أواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤ هـ على رق مستطيل فى أعلاه صورة العقد بالقلم الكوفى المنتظم ، وتحتها خطوط الشهود بالقلم النسخى بغاية الاختلال — فابن مقلة حسن هذا الخط تحسينا وأدخله فى كتابة المصاحف

ثم تفرع الخط النسخى المذكور بتوالى الأعوام الى فروع كثيرة ، وأصبحت الأقلام الرئيسية فى اللغة العربية اثنين : الكوفى ، والنسخى . ولكل منهما فروع كثيرة ، اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة أقلام وهى : الثلث والنسخى والتعليقى والريحانى والمحقق والرقاع . واشتهر من الخطاطين جماعة كبيرة الفوا فيه الكتب والرسائل ، بعضها فى أدوات الخط كالأقلام وطرق بريها وأحوال الشق والقط والدواة والمداد والكاغد وغير ذلك (١) وما زال الخط يتفرع الى اليوم ، ولن يزال الى ماشاء الله عملا بسنة الارتقاء

الحركات :

وكان القرآن فى أول الاسلام محفوظا فى صدور القراء ، لا خوف من الاختلاف فى قراءته لكثرة عنايتهم فى تناقله وضبط الفاظه ، حتى دونوه وكثر أهل الاسلام ، فمضى نصف القرن الأول للهجرة والناس يقراون القرآن بلا حركات ولا اعجام . وأول ما افتقروا اليه الحركات ، وأول من رسمها أبو الأسود الدؤلى واضع النحو العربى المتوفى سنة ٦٩ هـ فانه وضع نقطا تمتاز بها الكلمات أو تعرف بها الحركات ، ولذلك توهم بعضهم انه وضع الاعجام . والحقيقة انه وضع نقطا لتمييز الاسم من الفعل من الحرف ، وليس لتمييز الباء من التاء أو الجيم من الحاء ، والأرجح انه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه فى العراق ، وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف أو تحته لتعيين لفظه أو تعيين الكلمة الواقع هو فيها اسم هى أم فعل أم حرف . مثل قولهم : « كتب » ، فيمكن أن تكون اسما جمع كتاب ،

(*) يؤيد ذلك ما يقوله القلقشندى فى صبح الاعشى جـ ٣ ص ١١

(١) كشف الظنون ٤٦٧ ج ١

أو فعلا ماضيا معلوما أو مجهولا ، وكان عندهم أيضا نقط هى حركات وضعها يعقوب الرهاوى قبيل ذلك الزمن (١) وهى عبارة عن نقط كانت ترسم فى حشو الحروف ، ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيد ذلك أنه لما أراد التنقيط أتوه بكاتب فقال له أبو الاسود : « اذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، واذا ضممت فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف » (٢) . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط ، والغالب أن يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا فى دار الكتب المصرية مصحفا كوفيا منقطا على هذه الكيفية ، وجدوه فى جامع عمرو بجوار القاهرة وهو من أقدم مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون . فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحته كسرة ، وبين يدى الحرف ضمة كما وصفها أبو الأسود

الاعجام :

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والأنباط خاليا من النقط — ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط الى اليوم — فالاعجام حادث فى العربية وهو قديم فيها ، والظاهر أن المسلمين بعد أن استخدموا الحركات المذكورة رأوا التصحيف قد تكاثر، والتبس الناس فى القراءة لتكاثر الأعاجم من القراء ، والعربية ليست لغتهم فصعب عليهم التمييز بين الأحرف المتشابهة فى شكلها ، كالجيم والحاء والسين والشين والباء والتاء والثاء ، فانتبه لذلك الحجاج أمير العراق فى أيام عبد الملك بن مروان — قال ابن خلكان : « ففزع الحجاج الى كتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض ، فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفرادا وأزواجا ، وخالف بين أماكنها ، فعبر الناس بذلك زمانا لايكتبون الا منقوطا . ولكن مع استعمال النقط أيضا كان يقع التصحيف ، فأحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط بالاعجام » (٣) وفى عبارة ابن خلكان هذه التباس ، لايفهم المراد بها ولا ما الفرق بين التنقيط والاعجام وهما واحد ، ولا يعقل أن يكون المراد بالنقط الحركات لأنهم انما عمدوا اليها لكثرة التصحيف ، أى اختلاف القراءة باختلاف النقط . فالظاهر أن النقط المذكورة هى من قبيل الاعجام لتمييز الحروف المتشابهة ، ولكن نصرا هذا لم ينقط الا بضعة حروف مما

(١) اللمعة الشهية ٢١ (٢) الفهرست ٤٠ (٣) ابن خلكان ١٢٥ ج ١

يكثر وروده ويخشى الالتباس فيه ، ثم رأوا القراءة لا تضبط الا بتنقيط كل الحروف كما هى الآن ، وهذا ما عبروا عنه بالاعجام

وقد شاهدنا فى معرض الخطوط فى دار الكتب المصرية كتابة عربية على صفحة من البردى (البابيروس) مؤرخة سنة ٩١ هـ وفيها اعجام ، لكنه قاصر على الصور المشابهة للباء للتمييز بين الباء والياء والتاء ، وصورة حرف الشين لتمييزه من السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد — وشاهدنا أجزاء من مصاحف أخرى مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط حمراء للحركات ونقط سوداء للاعجام . وقد تجد خطوطا قديمة منقطة ومحركة وخطوطا حديثة بلا تنقيط ولا تحريك

فيؤخذ من ذلك أن العرب استخدموا الحركات والاعجام من أواسط القرن الاول ، ولكنهم ظلوا مع ذلك يكرهونهما الا حيث يريدون التدقيق بنوع خاص كالمصاحف ونحوها . أما فيما خلا ذلك فكانوا يفضلون ترك النقط ، لاسيما اذا كان المكتوب اليه عالما . وقد حكى أنه عرض على عبد الله ابن طاهر خط بعض الكتاب فقال : « ما أحسنه لولا كثرة شونيزه (أى نقطه) » . ويقال : « كثرة النقط فى الكتاب سوء ظن فى المكتوب اليه » . وقد يقع بالنقط ضرر ، كما حكى عن جعفر المتوكل أنه كتب الى بعض عماله : « أن احص من قبلك من الذميين وعرفنا بمبلغ عددهم » فوقع على الحاء نقطة فجمع العامل من كان فى عمله منهم وخصاهم فماتوا غير رجلين (١)

ولذلك ظل الكتاب فى أثناء التمدن الاسلامى مخيرين بين الاعجام وعدمه ، والغالب عدم الاعجام . وقد حدث بسبب ذلك التباس فى كثير من الاحوال ، وخصوصا فى أسماء الاماكن الغريبة أو الالفاظ الغريبة ونحوهما (٢) . وكان الأدباء يستحسنون الاعجام فى كتب العلوم ، ويستهجنونه فى المراسلات . ولذلك استحسنوا مشق الخط فى المكاتبات ، لأنهم لفرط ادلالهم فى الصنعة وتقدمهم فى الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء الابانة تقصيرا (٣)

ادوات الكتابة :

أما أدوات الكتابة فقد وفينا الكلام عنها فى الجزء الاول من هذا الكتاب . وظلوا يكتبون الى أواخر دولة الأمويين على الجلود والرقوق دروجا ، فكانت دفاتر الحكومة عبارة عن لفائف من الجلد . فلما أفضى الأمر الى العباسيين

---

(١) كشف الظنون ٤٦٨ ج ٢
(٢) راجع كتابنا تاريخ اللغة العربية
(٣) ادب الدنيا والدين ٥٢

وقام أبو العباس السفاح بالأمر واستوزر خالد بن برمك ، غير خالد الدفاتر من الأدراج الى الكتب . فظلت أعمال الحكومة تدون فى كتب من الجلد ، الى أن تصرف جعفر بن يحيى البرمكى بالوزارة فى أيام الرشيد فاتخذ الكاغد (الورق) فتداوله الناس من بعده ، وظلوا مع ذلك أجيالا يكتبون على الجلود والقراطيس والورق الصينى والتهامى والخراسانى (١) فضلا عن الكاغد يصنعونه كراريس أو دفاتر ، وكان بعضهم يفضل الرقاع للكتابة عليها ، كالفارابى مثلا فقد كانت كتاباته أكثرها على الرقاع (٢)

---

(١) الفهرست ٤٠

(٢) ابن خلكان ٥٧ ج ٢

العلوم الشرعية الإسلامية

هى العلوم التى اقتضاها الاسلام والتمدن الاسلامى على ما تقدم ، وتقسم الى ثلاثة أقسام : (١) العلوم الشرعية وهى العلوم الدينية الاسلامية (٢) العلوم اللسانية وهى التى اقتضاها الاسلام ضمنا ، فاحتاجوا اليها فى ضبط قراءة القرآن أو تفسيره أو تفهمه وتفهم الحديث (٣) التاريخ والجغرافيا

١ ــ العلوم الشرعية الاسلامية

القرآن ــ جمعه وتدوينه :

لا غرو اذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه ، لأن عليه يتوقف دينهم ودنياهم ، وأول أسباب حفظه تدوينه . والقرآن لم ينزل مرة واحدة ، وانما نزل تدريجا فى أثناء عشرين سنة على مقتضى الأحوال ، من أول ظهورالدعوة الى وفاة النبى ، بعضه فى مكة وبعضه فى المدينة . فكان كلما تلا آية أو سورة كتبوها على صحف الكتابة فى تلك الأيام ، وهى الرقاع من الجلود ، والعريض من العظام كالاكتاف والاضلاع ، وعلى العسب وهى قحوف جريد النخل ، واللخاف وهى الحجارة العريضة البيضاء . فتوفى النبى (صلعم) سنة ١١ هـ والقرآن اما مدون على أمثال هذه الصحف ، أو محفوظ فى صدور الرجال ، وكانوا يسمون حفظته « القراء »

وكان أكثر الناس عناية فى تدوينه على عهد النبى على بن أبى طالب ، وسعد بن‌عبيد بن‌النعمان ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن‌جبل ، وثابت بن زيد ، وأبى بن‌كعب وغيرهم . فلما قام أبوبكر بالأمر وارتد بعض أهل جزيرة العرب عن الاسلام ، بعث جندا لمحاربتهم فقتل من الصحابة فى تلك الحروب جماعة كبيرة ، وخصوصا فى غزوة اليمامة فقتل فيها وحدها ١٫٢٠٠ من المسلمين فيهم ٧٠٠ من القراء . فلما بلغ ذلك الى أهل المدينة فزعوا فزعا شديدا ، وخصوصا عمر بن الخطاب رجل الاسلام والمسلمين ، فأشار على أبى بكر بجمع القرآن لئلا يذهب منه شىء بموت أهله ، فتوقف أبو بكر وقال : « كيف أفعل أمرا لم يفعله رسول الله ولم يعهد الينا فيه عهدا ؟ » ، فما زال به عمر حتى أقنعه بجمعه . فأحضر أبو بكر زيد بن ثابت لأنه كان من كتبة الوحى ، فجمع ما كان مدونا عند الصحابة ، وربما وجد السورة الواحدة مكتوبة عند اثنين أو ثلاثة أو أكثر ، وقد لايوجد من السورة

الاخرى الا نسخة واحدة ، كسورة التوبة فانه لم يجد منها الا نسخة واحدة عند أبى خزيمة الانصارى (١) فجمعه من تلك المحفوظات ومن صدورالرجال وسلمه الى أبى بكر ، فظلت الصحف عنده حتى توفى سنة ١٣ هـ ، فلما تولى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ٢٣ هـ فانتقلت الى بيت ابنته حفصة من أزواج النبى (صلعم)

وفى أيام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون فى مصر والشام والعراق وفارس وافريقية ، وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن ، وقد رتبها كل منهم ترتيبا خاصا ، فعول أهل كل مصر على من قام بينهم من القراء . فأهل دمشق وحمص مثلا أخذوا عن المقداد بن الأسود ، وأهل الكوفة أخذوا عن ابن مسعود ، وأهل البصرة عن أبى موسى الأشعرى (٢) وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب — ومع شدة عناية القراء فى حفظ القرآن وضبطه لم يخلوا من الاختلاف فى قراءة بعض سوره

واتفق فى أثناء ذلك أن حذيفة بن اليمان كان فى جملة من حضر غزو أرمينية وأذربيجان ، فرأى فى أثناء سفره اختلافا بين المسلمين فى قراءة بعض الآيات ، وسمع بعضهم يقول لبعض : « قراءتى خير من قراءتك » . فلما رجع الى المدينة أنبأ عثمان بذلك وأنذره بسوء العقبى ان لم يتلاف الأمر ، الى أن قال : « أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » فبعث عثمان الى حفصة أن : « أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك » فأرسلتها . فدعا عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأمرهم أن ينسخوا القرآن ، ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء ، وقال لهم : « اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء فاكتبوه بلسان قريش ، فانما أنزل بلسانهم » ففعلوا ذلك (٣) سنة ٣٠ هـ ، وكتبوا أربعة مصاحف بعثها عثمان الى الأمصار الأربعة : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام (٤) واثنين أبقاهما فى المدينة : واحد لأهلها ، وواحد لنفسه وهو الذى يسمونه « الامام » ، ثم أمر بجمع كل ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف (٥) وأمر باحراقه

فأصبح المعول فى المصاحف على ما كتبه عثمان ، واشتغل المسلمون فى الأمصار باستنساخ تلك المصاحف ، فنسخوا منها شيئا كثيرا فى مدة قليلة

---

(١) الفهرست ٢٤ (٢) ابو الفدا ١٧٦ ج ١

(٣) الفهرست ٢٥ (٤) نفح الطيب ٣٨٧ ج ١

(٥) ابو الفدا ١٧٦ ج ١

ذكر المسعودى فى عرض كلامه عن واقعة صفين بين على ومعاوية ، وما كان من ظهور على وما أشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف : « ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف » (١) وليست هذه كل مصاحف المسلمين فاعتبر هذا العدد ، وبين كتابة مصحف عثمان وواقعة صفين سبع سنين

ومع تشديد الصحابة فى التعويل على مصحف عثمان دون سواه ، فقد ظل عند بعض المسلمين نسخ من مصاحف أخرى أشهرها مصحف على . ويعتقد الشيعة أن عليا أول من خط المصاحف عند وفاة النبى ، وتنوقل مصحفه فى شيعته وبقى عند أهل ابنه جعفر . وقد ذكر ابن النديم فى كتاب الفهرست أنه رأى عند أبى يعلى حمزة الحسينى مصحفا بخط على يتوارثه بنو حسن (٢) ـ ومنها مصحف عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ولكل منها ترتيب خاص فى سوره (٣).

على أن الخلفاء والأمراء كانوا يبذلون جهدهم فى جمع الكلمة على مصحف عثمان والتشديد فى اعدام ما سواه ، وفى جملة مساعيهم أن الأمراء كانوا يكتبون نسخا من ذلك المصحف يضعونها فى المساجد ليتلوها الناس ويرجعوا اليها فى تصحيح ما بين أيديهم من المصاحف الخاصة . وربما كتب الأمير عدة مصاحف وفرقها فى الأمصار ، ولكنهم كانوا يعدون قبول مصحف الأمير فى الجامع اقرارا بسيطرته عليهم . وكان الحجاج فى مقدمة من كتب المصاحف من الأمراء وفرقها فى الأمصار ، فبعث منها مصحفا الى مصر والوالى عليها يومئذ عبد العزيز بن مروان فغضب وقال : « أيبعث الى جند أنا فيه بمصحف ؟ » وأمر فكتبوا له مصحفا آخر بالغ فى ضبطه ، وأعلن بعد الفراغ من كتابته أن من وجد فيه حرفا خطأ فله راس أحمر (*) وثلاثون دينارا . فوجد فيه أحد قراء الكوفة لفظة « نجعة » بدل « نعجة » فنال الجائزة (٤)

قراءة القرآن :

كان للقراءة شأن عظيم فى أول الاسلام ، لقلة الذين يقرأون يومئذ ، فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن « قراء » تمييزا لهم عن سائر المسلمين لأنهم كانوا أميين . وقد تقدم أن السبب الذى حمل عثمان على جمع القرآن

(١) المسعودى ٢٠ ج ٢
(٢) الفهرست ٢٨
(٣) الفهرست ٢٦
(*) أى جمل احمر ، والمراد بالاحمر اللون البنى الداكن ، وكانت الجمال التى لها هذا اللون اندرها واحسنها ، ولهذا يقولون : « حمر النعم »
(٤) القريزى ٢٥٤ ج ٢

وكتابته ما بلغه من اختلاف الصحابة فى قراءته . على أنه لم يمض على ارسال مصاحفه الى الأمصار زمان قصير ، حتى أصبح لأهل كل مصر قراءة خاصة يتبعون فيها قارئا يثقون بصحة قراءته ، وتنوقل ذلك واشتهر . ثم استقر منها سبع قراءات معينة تواتر نقلها بأدائها ، واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها ، فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة ، ويعدها بعضهم عشرا

وأصحاب هذه القراءات هم : نافع بن أبى رؤيم ، ويزيد بن القعقاع فى المدينة ، وعبد الله بن كثير فى مكة ، وأبو عمرو بن العلاء ، ويعقوب الحضرمى فى البصرة . وعبد الله بن عامر فى الشام ، وعاصم بن أبى النجود ، وحمزة ابن حبيب الزيات ، وعلى الكسائى، وخلف البزاز فى الكوفة. واشتهر غيرهم كثيرون فى أقطار العالم الاسلامى ، وفيهم من يقرأ قراءات غريبة ، وخصوصا بعد أن ظهرت الفرق الاسلامية وتشعبت الآراء فى التفسير والفقه . والخلفاء يشددون فى مقاصة أولئك الشاذين خوف التفرقة ، كما كانت تفعل رؤساء النصرانية فى القرون الأولى للميلاد . ولكن الاسلام كان أقرب الى اطلاق حرية الفكر والقول وخصوصا فى أوائله ، فلم يكن أحدهم يتردد فى ابداء ما يخطر له ولو كان مخالفا لرأى الخليفة ولذلك كثرت الفرق الاسلامية يومئذ ، وتعددت مذاهب أصحابها فى القراءة (*) والتفسير والفقه وفى كل شىء ، حتى ذهب بعضهم الى أن سورة يوسف ليست من القرآن لأنها قصة من القصص ، والقائلون بذلك العجاردة (١) وذهبت طائفة أخرى الى اثبات حكم من أحكام الالهية فى السيد المسيح وأنه هو الذى يحاسب الخلق (٢) وظل بعضهم يقرأون القراءات الغريبة الى أواسط الدولة العباسية ، وفى جملتهم يعقوب العطار المتوفى سنة ٣٥٤ هـ فاستحضره الخليفة واستتابه بحضرة القراء والفقهاء ، وكتب محضر توبته وأشهد عليه من حضر (٣)

(*) أوفى مرجع لدراسة القراءات هو « الاتقان فى علوم القرآن » لعبد الرحمن جلال الدين السيوطى ، القاهرة ١٢٧٨ جـ ١ ص ٩٦ وما يليها . وهو يجعل القراءات ثلاثة أنواع : (١) القراءة الشرعية التى انعقد عليها اجماع الصحابة وحفظت بالتواتر ، وهى القراءات السبع التى أشار اليها المؤلف . (٢) القراءة الشاذة وقد أقرها الصحابة ولكنها لم تصل الينا بالتواتر ، وهما قراءتا ابن مسعود وابن أبى ، وقد حرمت سنة ٣٢٣/٩٣٥ (٣) قراءة شاذة تعد فى حكم البدع ، وهى المنسوبة الى خلف وابى عبيد وابن سعدان ، وأصحابها يذهبون الى ترك طريقة القراءة للاختيار ، وقد حرمت هذه القراءة سنة ٣٢٢/٩٣٤ وحرمت كذلك قراءة يعقوب بن مقسم العطار

انظر ، بالاضافة الى « اتقان » السيوطى ، رسالة على بن اسماعيل الحسن الى عبد المسيح بن اسحاق الكندى التى نشرها ميور فى لندن ١٨٨٢ — ١٨٨٥ ص ٧٩ — ٨٣

A. Jeffery, Materials for the text of the Quran (Leiden, 1937)

(١) الشهرستانى ٩٥ ج ١
(٢) الشهرستانى ٤٢ ج ١
(٣) طبقات الادباء ٣٦١

وأشهر من قرأ القراءات الشاذة ابن‌شنبوذ البغدادى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فانه تفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها فى المحراب ، ذكرها ابن النديم وابن خلكان فعلم به ابن مقلة الوزير سنة ٣٢٣ هـ فقبض‌عليه واعتقله أياما ، فلم يكن ذلك ليرجعه عن قراءته ، فأمر بجلده واستتابه فتاب وقال انه قد رجع عما يقرأه وانه لايقرأ الا بمصحف عثمان بن عفان بالقراءة المتعارفة التى يقرأ بها الناس وكتب محضرا بذلك (١)

والقراءات العشر التى ذكرنا أصحابها كلها جائزة عند المسلمين . وعند الأئمة أن الجميع على صواب ، فقد يختار الاقليم الواحد قراءة واحدة أو قراءتين أو أكثر ، وقد تقرأ كل القراءات فى اقليم واحد (٢)

وكانوا يرجعون فى اثبات صحة القراءة الى الاسناد المتسلسل ، كقولهم قرأ يعقوب بن اسحق على سلام ، وقرأ سلام على عاصم ، وقرأ عاصم على أبى عبد الرحمن ، وقرأ أبو عبد الرحمن على على بن أبى طالب ، وقرأ على على النبى (٣)

تأثير القرآن :

ان قراءة القرآن وحفظه من أول واجبات المسلمين ، وخصوصا فى أوائل الاسلام ، فانطبعت أوامره ونواهيه فى أفئدتهم ، وارتسمت عباراته على السنة أدبائهم ، وأصبح هو المرجع فى الشرع والدين واللغة والانشاء وفى كل شيء . فاقتبسوا أساليبه فى خطبهم وكتبهم ، وتمثلوا بآياته فى مؤلفاتهم ، وظهرت آدابه وتعاليمه فى أخلاقهم وأطوارهم ، مع تباعد الأمم التى اعتنقت الاسلام فى أصولها ولغاتها وبلادها . واستشهدوا بأقواله ونصوصه فى‌علومهم اللسانية ، فضلا عن العلوم الشرعية . فقد كان فى كتاب سيبويه وحده ٣٠٠ آية من القرآن ، وأصبح أهل البلاغة لا تروق لهم الكتابة أو الخطابة الا اذا رصعوها بشيء من آى القرآن ، كما سترى فى باب الخطابة فى الاسلام ، وفى باب البلاغة من اقتباس الآيات وادخالها فى عبارات الخطب والرسائل والتوقيعات

على انهم كانوا ، لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وقراءته وتفهمه ، لو ذكر الرجل حرفا أو كلمة انتبه السامع للآية كلها ، ولذلك كثيرا ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف ويعمل بها وقد تخفى على كثيرين

ومما يحكى من هذا القبيل أن السلطان محمود الغزنوى الشهير ، بعث الى

---

(١) ابن خلكان ٤٩٠ ج ١
(٢) المقدسى ٣٩ ونفح الطيب ١٠٤ ج ١
(٣) ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢

الخليفة يطلب أن يذكر اسمه فى الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه فى سكة الذهب والفضة (أى ينقش اسمه على الدنانير والدراهم) . فامتنع الخليفة من ذلك . فبعث اليه كتابا فيه تهديد ووعيد ، وقال فى جملته : « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » . فبعث اليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة الا ألفا ممدودة ، وفى وسطه لام ، وفى آخره ميم ، والصلاة ، والحمدلة . فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستانى ، ففكر فى ذلك وقال : « عندى شرحه » فقال : « اذكر ولك ما تريد » فقال : « بعث اليهم السلطان يهددهم بالفيلة ، فبعثوا له هذا الكتاب وفيه ألف ولام وميم اشارة الى قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الى آخر السورة » فارتاع السلطان لذلك ووقع فى قلبه الخوف والندم وعاد الى أحسن الاحوال من الرضى والأدب (١)

ويحكى أيضا أن المأمون غضب على عبد الله بن طاهر ، وشاور أصحابه فى الايقاع به ، وكان قد حضر المجلس صديق له فكتب اليه كتابا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ياموسى » فلما فضه ووجد ذلك تعجب ، وما زال يطيل فيه النظر حتى علم انه يريد « يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » (٢)

وابلغ من ذلك حكاية سديد الملك وتشديد نون « ان » وقد ذكرناها فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، وفى اعادتها هنا تكرار

وقد عنى المسلمون فى كتابة القرآن وحفظه عناية ليس بعدها غاية ، فكتبوه على صفائح الذهب والفضة ، وعلى صفائح العاج ، وطرزوا آياته بالذهب والفضة على الحرير والديباج ، وزينوا بها محافلهم ومنازلهم ، ونقشوها على الجدران فى المساجد والمكاتب والمجالس ، ورسموه بكل الخطوط وأجملها على كل أصناف الرقوق والجلود والكواغد بالأدراج والكراريس والرقاع بأصناف المداد وألوانها وملأوا بين الكلام بالذهب . وكان الخلفاء والأمراء والسلاطين يتبركون بكتابة المصاحف بأيديهم ويختزنونها فى المساجد أو نحوها . وفى دار الكتب الخديوية (المصرية) بالقاهرة أمثلة كثيرة من المصاحف المخطوطة بمعظم الأشكال المذكورة من القلم الكوفى الخالى من الشكل والاعجام الى اتمام الاعجام والشكل وما بينهما

---

(١) ترتيب الدول ٦٩

(٢) الدميرى ١٢٦ ج ١

وقد ضبطوا عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه ، وعدوا ما فيه من الألفات والباءات الى الياءات (١) (*)

تفسير القرآن :

كان العرب عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة أو آية فهموها وادركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها ، لأنها بلسانهم وعلى أساليب بلاغتهم ولأن اكثرها قيلت فى أحوال كانت كالقرائن تسهل فهمها ، واذا أشكل عليهم شىء منها سألوا النبى (صلعم) فكان يبين لهم المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ . فحفظ أصحابه عنه ذلك وتناقلوه فيما بينهم ، وعنهم أخذ من جاء بعدهم من التابعين وتابعى التابعين

ولما صار الاسلام دولة واحتاجوا الى الأحكام والقوانين كان القرآن مصدر استنباطها ، فزادت العناية فى تفسيره وأصبح القراء والمفسرون مرجع المسلمين فى استخراج تلك الأحكام أو هم الفقهاء لأول عهد الاسلام . وكانوا يتناقلون التفسير شفاها الى أواخر القرن الأول . فكان أول من دون التفسير فى الصحف مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ (**) ثم أشتغل فيه سواه وهم كثيرون حتى انتهى ذلك الى الواقدى سنة ٢٠٧ والطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وغيرهما

وقد رأيت أن العمدة فى التفسير على النقل بالتواتر والاسناد منذ أيام النبى (صلعم) فالصحابة فالتابعين ، والعرب يومئذ أميون لا كتابة عندهم . فكانوا اذا تشوقوا الى معرفة شىء مما تتوق اليه نفوسهم البشرية ، من أسباب الوجود وبدء الخليقة وأسرارها ، سألوا عنه أهل الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى المقيمين بين ظهرانيهم ، وأكثرهم من حمير باليمن الذين أخذوا بدين اليهودية (٢) وكانوا قد أسلموا لكنهم ظلوا على ما كان عندهم

---

(١) الكشكول ١٧٥

(*) وفى العصر الحديث وضعت الفهارس المفصلة لالفاظ القرآن الكريم لفظا لفظا ، بحيث تكفى معرفة لفظة من الآية للعثور على الآية كاملة ورقمها فى سورتها ، واول من فعل ذلك على أسلوب منهجى محكم جوستاف فلوجل المستشرق الالمانى ، ثم تبعه العلامة المصرى فؤاد عبدالباقى فوضع المعجم المفهرس لالفاظ القرآن وهو أدق معجم لآيات القرآن الكريم ، وقد طبع فى القاهرة وهو معروف . وحدث بعد اختراع الطباعة ان كانت تقع أخطاء مطبعية فى بعض طبعات القرآن الكريم ، فقام الازهر الشريف باصدار طبعة محكمة استعان فى عملها بالمصحف العثمانى المطبوع فى الاستانة ، وعلى هذه الطبعة معولنا اليوم . ولابد لكل من أراد طبع القرآن الكريم أن يعرض طبعته على مشيخة القارىء فى الازهر حتى تقرها ، فاذا أقرتها أجازت له نشره

(**) هو غير أبى بكر بن مجاهد التميمى البصرى المتوفى سنة ٩٣٦/٣٢٤ وكان فقيها معاصرا للوزيرين ابن مقلة وعلى بن عيسى ، وكان له دور سياسى هام اذ ذاك ، وهو الذى حدد القراءات الشرعية الجائزة وابطل القراءات الشاذة غير الجائزة ، كالقراءات المنسوبة الى على بن مسعود وأبى بن كعب وعلى بن ابى طالب . انظر عنه : الجزرى : الغاية فى القراءات ، جـ١ ص ١٣٩ والصوفى : اخبار الراضى والمتقى بالله ، طبعة هيوراث ، ص ٦٢ – ٦٣

(٢) ابن خلدون ٣٦٧ ج ١

من التقاليد المتناقلة شفاهاً أو كتابة ، مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية — فكانوا اذا سئلوا عن شيء أجابوا بما عندهم من أقاصيص التلمود والتوراة بغير تحقيق . فامتلأت كتب التفسير من هذه المنقولات (المعروفة بالاسرائيليات)

ومن أشهر أولئك اليهود كعب بن مانع المعروف بكعب الأحبار ، أسلم فى خلافة عمر بن الخطاب (١) ، وعبد الله بن سلام بن الحارث أسلم عند هجرة النبى الى المدينة (٢) . ناهيك بمن كان هناك من أهل الأديان الأخرى كالصابئة والمجوس وغيرهم ، وكان بعضهم من ذوى المقامات الرفيعة ، فكان المسلمون يسألونهم أيضا وهم يجيبونهم مما عندهم . وأشهرهم وهب ابن منبه (*) فانه فارسى الأصل ، جاء جده الى اليمن فى جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة ، فأقاموا هناك وتناسلوا وصاروا يعرفون بين العرب بالأبناء أى أبناء الفرس ، ومنهم أيضا طاوس بن كيسان التابعى الشهير

وكان آباء وهب المذكور على دين الفرس (المجوسية أو الزردشتية) فلما أقاموا بين اليهود باليمن أخذوا عنهم آداب اليهود وتقاليدهم ، واختلطوا

---

(١) اسد الغابة ٢٤٧ ج ٤ (٢) أسد الغابة ١٧٦ ج ٣

(*) لوهب بن منبه مكان عظيم فى تاريخ الفكر الاسلامى ، فهو مفسر ومؤرخ وقصاص . ولد فى ذمار فى اليمن سنة ٣٤ هـ ، وكان له ثلاثة اخوة اشتغلوا بالعلم أيضا ويعدون فى جملة التابعين ، وهم همام وغيلان ومعقل . وهناك روايات تقول ان وهبا ولد يهوديا ثم أسلم ، ولكن اقرب الآراء الى الصحة هو انه ولد على الاسلام . وقد تولى قضاء صنعاء على ايام الوليد بن عبد الملك ، ويقال انه كان قبل ولايته القضاء يعبر الرؤى ، اذ يرى تفسيرها فى نومه ، فلما ولى القضاء انقطع عنه ذلك ، وقد اشتهر بنسكه حتى يقال انه قضى اربعين سنة لاينام الا على الارض ، وكان يصلى العشاء بوضوء الصبح . وقد سجن فى آخر ايامه وأمر القاضى يوسف بن عمير الثقفى بضربه اسواطا ، فمات تحت الضرب سنة ١١٠ أو ١١٤ هـ . وكان عمله بكتب اليهود والنصارى واسعا حتى أصبح موضوع مبالغات ، روى عنه انه قال : « قرأت من كتب الله تعالى المنزلة اثنين وسبعين كتابا » . وقد اعتمد عليه ابن سعد فى كل ماروى من « احاديث الانبياء والعباد واحاديث بنى اسرائيل » . وقد حفظ لنا علمه وكتبه نفر من تلاميذه أهمهم عبد المؤمن وادريس ، وكان الاخير ابن أخته ، وهو أهم رواته ، وقد ضاعت كتبه ، فلم تصل الينا الا فقرات منها فى كتب من جاء بعده ، وأهمها : « كتاب المبتدا والسير » و « قصص الانبياء» و «قصص الاخيار » و «كتاب الملوك المتوجة من حمير واخبارهم وقصصهم واشعارهم » وهو الذى نقله ابن هشام الكلبى باسم «كتاب التيجان» ، وينسب اليه كتاب فى « المغازى » ، وينسب اليه ابن النديم فى الفهرست كتابا يسمى « حكمة وهب » ويقال انه جمع عشرة آلاف حكمة من حكم لقمان ، وينسب اليه أيضا «كتاب زبور ابن داود ترجمة وهب بن منبه»

انظر : ابن قتيبة : كتاب المعارف ج ١ ص ٨ وما يليها و ص ٢٣٣ و ٣٠١

ابن سعد : الطبقات ، طبعة سخاو ح ٥ ص ٣٩٥ — المسعودى : مروج الذهب ، طبعة باريس ، الفهرس — يا قوت : معجم الادباء ، ح ٢٣٢/٧ — ابن حجر العسقلانى : التهذيب ١٦٦/١١

بالحبشة هناك فتعلموا شيئا من النصرانية ، وكان وهب يعرف اليونانية (١) فاطلع على آداب اليونان وغيرهم ، فنشأ وهو ذو اطلاع واسع فى أخبار الأمم وأحوال الأنبياء وقيام الدنيا وسير الملوك ، ومن أقواله أنه قرأ من كتب الله ٧٢ كتابا ، فكان للعرب ثقة كبرى فيه ولم يسألوه عن شىء الا أفاض فى الجواب عليه مما يحفظه

فكانت كتب التفسير فى القرون الأولى محشوة بالأخبار ، وفيها الغث والسمين مما نقل اليها من الأديان الأخرى التى كانت شائعة قبلها فى جزيرة العرب أو حولها . كما أصاب النصرانية عند أول ظهورها ، اذ دخلها كثير من عادات الأمم الوثنية ومعتقداتهم وتقاليدهم ، مع سهر الآباء الأولين على تخليصها من ذلك

فلما نشأت العلوم اللسانية واشتغل المسلمون بها واطلعوا على كتب المنطق والفلسفة ، تعودت عقولهم على طلب الدليل والقياس ، فأعادوا النظر فى تلك التفاسير ونظروا فى مروياتها ومحصوها وسبروها بمسبار العقل . وأشهر من فعل ذلك منهم ابن عطية والقرطبى وجار الله الزمخشرى صاحب الكشاف وغيرهم (*)

---

(١) المسعودى ١٠٩ — ٢

(*) لم تتقدم الدراسات القرآنية فى العالم العربى فى العصر الحديث عما كانت عليه فى العصور الوسطى ، فلا زال اعتمادنا على « الاتقان » للسيوطى ، والبحر المحيط لابى حيان (القاهرة ١٣٢٨ ، ثمانية مجلدات) وانوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى المعروف بتفسير البيضاوى (وقد طبع فى القاهرة مرات متعددة ، وقام على نشره فلايتشر فى لايبتسيج عام ١٨٤٦) وكتاب المصاحف لابن ابى داود (طبعة جفرى ، لايدن ١٩٣٧) وغاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى (طبعة القاهرة ، وقد طبعه ايضا برجستريسر Bergstraesser فى الاستانة عام ١٩٣٥) ونشر نفس المستشرق فى القاهرة سنة ١٩٣٤ كتاب المختصر فى شواذ القراءات ، والجامع لاحكام القرآن للقرطبى (طبعة دار الكتب المصرية) وبغية الوعاة فى طبقات النحاة للسيوطى ، وغير ذلك من الاصول العربية القديمة للدراسات القرآنية ، بالاضافة الى الكتب العامة كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى وأسد الغابة لابن الاثير . ولم يؤلف المعاصرون شيئا ذا أهمية ، فيما عدا تفسير الامام محمد عبده والجواهر فى تفسير القرآن (٢٥ جزءا فى ١٣ مجلدا ، القاهرة ١٩٣٠)

أما المستشرقون فكانت لهم عناية عظيمة بالدراسات القرآنية ، وهم لايهتمون بهذه الدراسة حبا فى العلم وانما كان هدفهم — ولازال — العثور على مطاعن أو وجوه من التشكيك فى النص الكريم وقراءاته وتفسيراته وما الى ذلك ، ولهذا ، ينبغى قراءة ماكتبوه فى كثير من الحذر . على أن الكثيرين منهم أقاموا دراستهم على أساليب منهجية لم يجر عليها المسلمون المحدثون فى تآليفهم ، فيما عدا كتيب صغير للاستاذ عباس محمود العقاد . وتجد خلاصة دراسات المستشرقين فى مادة القرآن فى دائرة المعارف الاسلامية وفى المواد المتعلقة به مثل مواد : كتاب ، تفسير ، تواتر ، قراءة ، آية ، سورة وما الى ذلك . ونفس المواد فى مختصر دائرة المعارف الاسلامية المعروف فى الالمانية باسم Handworterbuch des Islam فهو خاص بالمواد المتعلقة بالاسلام . وتجد كذلك خلاصة طيبة للدراسات المستشرقين فى كتاب :

Régis Blachère, Introduction au Coran (Paris, 1947)

وكذلك فى ترجمته الفرنسية للكتاب الكريم ، وقد نشرها فى باريس بعنوان « القرآن Le Coran » وقد أورد فى « المقدمة » ثبتا كاملا بدراسات المستشرقين حول القرآن ، انظر ص XLII (٤٢) — LIX (٥٩) . ولم يجد على هذه القائمة شىء كثير ، فيما عدا الترجمة الانجليزية لابن اسحاق ، وقد نشرها ألفريد جيوم ، وترجمة انجليزية للقرآن نشرها آربرى ، وهناك أيضا فى كتاب جودفروا ديمومبين المسمى « محمد » فصول عن القرآن الكريم

وكتب التفسير كثيرة جدا ، ذكر منها صاحب كشف الظنون نيفا وثلثمائة تفسير ، وقال انه ذكر بعضها وكانت أكثر من ذلك كثيرا (١)

الحديث

لما اشتغل المسلمون فى تفهم معانى القرآن كان فى جملة ما افتقروا اليه فى تفهمها أقوال النبى (صلعم) وهو ما عبروا عنه بالأحاديث النبوية ، وأقدم من سمعها الصحابة وحفظوها ، فكانوا اذا أشكل عليهم فهم آية واختلفوا فى تفسيرها أو حكم من أحكامها استعانوا بتلك الأحاديث على استيضاحها. فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة فى الأرض ، وعندكل منهم بعض الأحاديث ، وقد يتفرد بعضهم بأحاديث لم يسمعها سواه ، فأصبح طالب الحديث اذا كان من أهل دمشق مثلا لا يستوفيه الا اذا رحل فى طلبه الى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والرى ومصر وغيرها ، وكذلك المقيم فى أحد هذه البلاد فانه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطلبه من البلاد الاخرى ، وهذا ما يعبرون عنه بالرحلة فى طلب العلم . على ان الارتحال فى طلب العلم لم يكن من مستحدثات الاسلام ، ولكنه كان شائعا من قديم الزمان بالنظر الى قلة أسباب النشر وقلة نسخ الكتب وصعوبة وصولها الى النواحى فى تلك العصور ، ثم حرص الناس على السماع من الشيوخ مباشرة . فكان المؤرخ أو الجغرافى مثلا يرحل فى طلب التاريخ أو الجغرافيا الى أقاصى البلاد ، كما فعل هيرودوتس واسترابون وغيرهما . ولذلك كان المسلمون يرحلون فى طلب العلوم غير الحديث أيضا . وكان النصارى فى العصر الاسلامى يرحلون الى بلاد الروم لاتقان ديانتهم (٢)

وضع الاحاديث :

نشأت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان ، واختلف المسلمون فى الخلافة وادعاها غير واحد ، فانصرفت عناية كل حزب من أحزابهم الى استنباط الأدلة واستخراج الأحاديث المؤيدة لدعواهم ، فكان بعضهم اذا أعوزهم حديث يؤيدون به قولا أو يقيمون به حجة اختلقوا حديثا من عند أنفسهم . وتكاثر ذلك فى اثناء تلك الفوضى ، فكان المهلب بن أبى صفرة مثلا يضع الأحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج (٣) وهو مع ذلك معدود من الأتقياء والنبلاء ، مع علمهم بما كان يضعه من الأحاديث ، لأنهم كانوا يعدون

---

(١) كشف الظنون ٣٠٢ ج ١

(٢) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ٢ (٣) ابن خلكان ١٤٦ ج ٢

ذلك خدعة فى الحرب . وأمثال المهلب كثيرون ، كانوا يضعون الحديث لأغراض مختلفة (*)

وتسابق الناس خصوصا الى وضع الأحاديث فى أثناء البحث فى شروط الخلافة ، نظرا لما رأوه من تأثير الحديث فيها من أول عهدها . اذ مات النبى وانقسم أصحابه فى طلب الخلافة الى قسمين : المهاجرين والأنصار ، وكل منهما يعتقد الأحقية فى الخلافة لحزبه ، واشتد عزم الأنصار على الثبات فى المطالبة ، وعظمت الفوضى حتى روى أبو بكرالحديث « الأئمة من قريش » (١) فكان فى ذلك فصل الخطاب. فقس على ذلكحاجة أصحاب الفرق والأحزاب وغيرهم الى الأحاديث ، ناهيـك بحاجتهم اليها فى اثبات الأحكام الشرعيـة الخاصة بالبلاد المفتوحة وأهلها وغير ذلك كأوصاف المهدى المنتظر وشروط ظهوره ووضع الأحكام والقوانين ، وفى كل باب من أبواب الادارة والقضاء . ولما أراد المأمون تحليل زواج المتعة لم يرجعه عن عزمه الا حديث رووه له فى تحريمه (٢)

فلا غرو بعد ذلك اذا رغب أهل المطامع فى اختلاق الأحاديث ، وقد ذكروا من واضعى الحديث جماعة أشهرهم أربعة ، وهم : ابن أبى يحيى فىالمدينة ، والواقدى فى بغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سـعيد بالشام (٣) . وكثيرا ما كان أولئك الوضاع يعترفون عند مسيس الحاجة بما اقترفوه ، كما فعل ابن أبى العوجاء ، وكان محدثا فى الـكوفة فأمر أميرها محمد بن سليمان بقتله سنة ١٥٣ هـ فلما أيقن أنه مقتول قال : « والله لقد وضعت أربعة آلاف حديث حللت بها الحرام وحرمت الحلال .. والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم» (٤). ومنهم أحمد الجويبارى وابن عكاشة الكرمانى وابن تميم الفريابى ، فقد ذكر سهل بن السرى أنهم وضعوا من عند أنفسهم نحو عشرة آلاف حديث (٥) ولنحو هـذا السبب نشأت الفروق بين أحاديث السنة والشيعة (**)

فلما هدأت الفتنة وعمد المسلمون الى التحقيق ، كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت ، فاشتغلوا فى التفريق بينها وبين الصحيح ، فألفوا كتبا كثيرة فى الحديث ، وميزوا صحيحه من فاسـده وجعلوه مراتب . ولهم فى ذلك ألفـاظ اصطلحوا عليهـا لهـذه المراتب ، كقولهم : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والمرسل ، والمنقطع ، والمعضل ، والشاذ ، والغريب ، وغير ذلك

(*) شرح هذه الناحية شرحا مستفيضا الاستاذ احمد أمين فى كتاب « ضحى الاسلام »
(١) الشهرستانى ١٢ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢١٨ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٢١٣ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٣ ج ٦ (٥) تحذير المسلمين ٤

(**) وقد قرر البيضاوى فى أنوار التنزيل أنه كان يخترع الاحاديث التى تحبب الناس فى حفظ القرآن وتعظيم أجر الحافظين .

من ألقابه المتداولة بينهم . وبينوا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو اجازة وتفاوت رتبها (١)

اسناد الحديث :

وترتب على أهمية الحديث فى الدين والدنيا تعرضه للوضع والتحريف كما رأيت ، فاحتاج الى العناية فى تحقيقه ، ولم يكن ذلك ميسورا فى العصور الأولى الا بالحفظ ، والرجوع بالمحفوظ الى المصدر الأصلى الذى أخذ عنه بالتسلسل وهو « الاسناد » ، كأن يقال : « حدثنا فلان ، أو أخبرنا فلان ، أو أملى على فلان ما هو كذا وكذا » . فلما بعدت الرواية جعلوها متسلسلة فقالوا : « حدثنا فلان عن فلان أنه سمع فلانا يقول كذا وكذا » . وترتب على تصحيح ذلك وضبطه النظر فى طبقات المحدثين للتفريق بين الثقات وغيرهم ، فجعلوهم طبقات : ومنهم الصحابة ، فالتابعون ، فتابعو التابعين ، فالعلماء البالغون الى رتبة الاجتهاد ، فالمشتغلون فى جمع الأحاديث وحفظها ، فالناقدون للأحاديث ، فالشارحون وغيرهم (٢) وألفوا كتبا كثيرة فى طبقات المحدثين والرواة

وكان أهل الامصار يختلفون فى طرق اسنادهم ، فطريقة أهل الحجاز أعلى مما لسواهم وأمتن فى الصحة ، لاستبدادهم فى شروط النقل من العدالة والضبط . وسند طريقة الحجاز بعد الصحابة الامام مالك عالم المدينة المتوفى سنة ١٧٩ هـ ثم أصحابه مثل الشافعى وابن حنبل وأمثالهم .. ومالك أول من دون الحديث فى كتاب الموطأ ، رتبه على أبواب الفقه ، وقيل ان ابن جريج أول من ألف فيه . ثم عنى الحفاظ فى طرق الاحاديث وأسانيدها ، وجاء محمد بن اسماعيل البخارى امام المحدثين فى عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها وألف كتابه « الصحيح » ، ثم ألف مسلم بن الحجاج النيسابورى « المسند الصحيح » فسمى كتاباهما الصحيحين وصار مرجع الناس اليهما . ثم جاءت طبقة أخرى من المحدثين جمعوا بين هذين أو بينهما وبين الموطأ ، فاجتمع من ذلك الكتب الستة المشهورة للمؤلفين الآتية أسماؤهم : وهم البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ــ ٨٧٠ م ، ومسلم المتوفى بنيسابور سنة ٢٦١ هـ ــ ٨٧٥ م ، وأبو داود المتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥ هـ ــ ٨٨٨ م ، والترمذى المتوفى بترمذ سنة ٢٧٩ هـ ــ ٨٩٢ م ، والنسائى توفى سنة

---

(١) ابن خلدون ٣٦٨ ج ١ (٢) ابجد العلوم ٨٦

٣٠٣ هـ — ٩١٥م ، والدار قطني المتوفى ببغدادسنة ٣٨٥هـ — ٩٩٥ م (١) (*)

ولما صار الحديث علما مدونا انصرفت العناية الى الاسناد المتسلسل فى تحقيق السماع ، اى تعلم تلك الكتب أو بعضها ، كأن يقول أحدهم : سمعت الحديث (أى تعلمته) من فلان وهو تعلمه من فلان الى البخارى أو غيره . وهاك تسلسل اسناد ابن خلكان فى كيفية سماعه صحيح البخارى ، قال : « سمعت صحيح البخارى بمدينة أربل فى بعض شهورسنة احدى وعشرين وستمائة ، على الشيخ الصالح أبى جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم ابن عبد الله الصوفى ، بحق سماعه فى المدرسة النظامية ببغداد ، من الشيخ أبى الوقت المذكور فى شهر ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، بحق سماعه من أبى الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداودى فى ذى القعدة سنة خمس وستين وأربعمائة ، بحق سماعه من أبى محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسى فى صفرسنة احدى وثمانين وثلثمائة ، بحق سماعه من أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف بن مطر الفربرى سنة ست عشرة وثلثمائة ، بحق سماعه من مؤلفه الحافظ أبى عبد الله محمد ابن اسماعيل البخارى ، مرتين : احداهما سنة ثمان وأربعين ومائتين ،

---

(١) الدميرى ٥٢ ج ١

(*) ويضاف اليهم ابن ماجه المتوفى سنة ٨٨٣/٢٧٣ وبعضهم يجعله مكان الدارقطنى . وأعظم هذه الكتب مكانة هما صحيحا البخارى ومسلم ، ويطلق عليهما معا اسم الصحيحين ، ويطلق على الكتب الاربعة الباقية عادة كتب السنن ، وقد وضعت بعد هذه الاصول كتب أخرى لها مكانها من التقدير ، ولكنها لم تبلغ الى درجة الصحاح الستة ، ومن ذلك سنن عبد الله الدارمى المتوفى عام ٨٦٨/٢٥٥ . ولم تسلم الصحاح الستة مع ذلك من النقد ، فقد أخرج الدارقطنى مثلا ٢٠٠ حديث من صحيح مسلم ذهب الى أنها ضعيفة

وقد وضع أحمد بن حنبل مسندا يعتبر من امهات كتب الحديث ، ولكنه لايعد فى الصحاح نظرا لترخصه فى قبول الاحاديث . وقد ألفت بعد هذه المجموعات كتب أخرى ليس فيها من جديد غير التبويب والتنظيم ، ومن ذلك مسند البغوى المسمى مصابيح السنة (توفى ٥١٠/ ١١١٦) ، وعلى أساس هذا الكتاب ألف ولى الدين التبريزى كتابه « مشكاة المصابيح » وهو تفسير واختصار له ، ومن كتب الاحاديث الموثوق فيها التى ألفت فى الازمنة المتأخرة « جامع الجوامع » و « الجامع الصغير » للسيوطى . . وقد وضعت تفاسير وشروح كثيرة للصحاح ، أهمها تفسير ابن حجر (توفى ١٤٤٨/٨٥٢) والقسطلانى (توفى ٩٣٢/ ١٥١٧) والنووى (توفى ١٢٧٧/٦٧٦)

أما الشيعة فلهم مسانيد خاصة بهم ، تورد الاحاديث التى تؤيد مذهبهم والتفسيرات التى يرونها مطابقة لوجهة نظرهم ، وأهم الاصول التى يعتمدون عليها : الكافى لمحمد بن يعقوب الكليثى (توفى ٩٣٩/٣٢٨) وكتاب « من لا يستحضره الفقيه » لمحمد بن على بن بابويه القمى (توفى ٩٩١/٣٨١) و « تهذيب الاحكام » و « الاستبصار فيما اختلف فيه الاخبار » لمحمد الطوسى (المتوفى ١٠٦٧/٤٥٩) و « نهج البلاغة » لعلى بن طاهر المعروف بالشريف المرتضى (توفى ١٠٤٤/٤٣٦) وينسب ايضا الى أخيه رضى الدين البغدادى

ولم يؤلف المسلمون فى العصر الحديث شيئا ذا بال عدا اصدار طبعات مصححة موثوق فيها من الاصول القديمة كمسند ابن حنبل الذى ينشره الشيخ شاكر . وربما كان أهم ما ألف أخيرا كتاب « مفتاح كنوز السنة » الذى وضعه الاستاذ فؤاد عبد الباقى ، وهو فهرس دقيق لالفاظ الحديث أنشأه على أصل وضعه المستشرق فانسنك . وقد تخصص فى دراسة الحديث اثنان من كبار المستشرقين ، أولهما فانسنك المذكور وجولدتسيهر.

والثانية سنة اثنتين وخمسين ومائتين . رحمهم الله تعالى أجمعين » (١).

وتطرق المسلمون فى طريقة الاسناد من الحديث الى غيره من العلوم النقلية كالتاريخ والأدب كما هو مشهور ، وتتبعوا طريقة الاسناد المتسلسل فى كثير من العلوم الاسلامية ، مما لم يسبق له مثيل فى البلاد الاخرى أو الأمم الاخرى . فهم اذا ذكروا عالما فى علم فيها ، أسندوا تعلمه الى أستاذه وأستاذ أستاذه الى واضع ذلك العلم ، كقول ابن خلكان فى ترجمة فخرالدين ابن الخطيب : انه اشتغل فى الاصول على والده ضياء الدين ، ووالده على القاسم سليمان بن ناصر الانصارى ، وهو على امام الحرمين أبى المعالى ، وهو على الاستاذ أبى اسحق الاسفراينى ، وهو على الشيخ أبى الحسن الباهلى ، وهو على شيخ السنة أبى الحسن الاشعرى ، وهو على أبى على الجبائى أولا ثم رجع عن مذهبه ونصر مذهب أهل السنة والجماعة

عدد الاحاديث :

لما تكاثرت الأحاديث للأسباب التى قدمناها أصبحت تعد بمئات الألوف. فقد ذكروا أن أحمد بن حنبل روى مليون حديث ، منها ٠٠٠ر١٥٠ بالأسانيد والمتون (٢) وان يحيى بن معين المرى قال : كتبت بيدى ٠٠٠ر٦٠٠ حديث ، قال راوى هذا الخبر : واظن المحدثين كتبوا له بأيديهم ٠٠٠ر٦٠٠ و ٠٠٠ر٦٠٠ وخلف من الكتب مائة قمطر (٣) وان مسلما صاحب المسند الصحيح استخرجه من ٠٠٠ر٣٠٠ حديث مسموعة (٤) وان الامام البخارى قال : صنفت كتابى الصحيح من ٠٠٠ر٦٠٠ حديث (٥) وقس على ذلك مما يدل على كثرة فاحشة . أما الذى صح منها فانه أقل كثيرا ، وبعضهم بالغ فى الاقلال ، وهم أصحاب الرأى ، وشيخهم أبو حنيفة فلم يصح عنده الا ١٧ حديثا ، ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث ، والبخارى اشتمل صحيحه على ٩٢٠٠ حديث منها ٣٠٠٠ مكررة ، وأحمد بن حنبل فى مسنده ٠٠٠ر٥٠ حديث (٥) وقس على ذلك

الفقه

مصدره :

لما صار الاسلام دولة احتاج أمراؤه الى ما يقضون به بين رعاياهم فى أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية ، فرجعوا الى القرآن والحديث . فاستخرجوا منهما شريعة نظموا بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم . وذلك طبيعى فى الدول الكبرى ، فاليونان قلما عنوا بوضع الشرائع والاحكام

(١) ابن خلكان ٣٠٦ ج ١
(٢) ابن الساعى ٦٦ (٣) ابن خلكان ٢١٥ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٩١ ج ١
(٥) ابن خلكان ٤٥٦ ج ١ (٦) ابن خلدون ٣٦٩ و ٣٧١ ج ١

الدولية أو القضائية ، لأنهم لم يكونوا أهل دولة كبرى الا زمنا قصيرا فانصرفت قرائحهم الى الفلسفة وفروعها . وأما الرومان فقد اتسعت مملكتهم كما اتسعت مملكة العرب ، وامتد سلطانهم وقويت شوكتهم فلم يكن لهم بد من وضع الشرائع ، لكنها لم يتم نضجها عندهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة عشر قرنا على يد جستنيان صاحب القانون المشهور سنة ٥٣٣ م ، وهى عبارة عن عادات واعتبارات واعتقادات تجمعت بتوالى الأحقاب من الشعب اللاتينى والصابنى وغيرهما ممن دانوا لرومية بالتدريج حتى صارت شريعة كاملة على عهد جستنيان المذكور (*)

وأما المسلمون فانهم استخرجوا أحكامهم من القرآن والحديث ، وقد علمت ما كان لهم من العناية فى حفظهما ودرسهما من أول الاسلام ، ولذلك لم يمض على المسلمين قرنان والثالث حتى نضجت شريعتهم وتكون فقههم ، وهو من أفضل شرائع العالم . وقد أسرعوا فى ذلك مثل سرعتهم فى تأسيس دولتهم ونشر دينهم

قلنا أن القرآن أساس الفقه الاسلامى ، وكان المسلمون على عهد النبى يتلقون الاحكام منه وهو يبينها لهم شفاها ، فلم يكن ذلك يحتاج الى نظر أو قياس . فلما توفى رجع الصحابة الى القرآن والسنة ، فأصبح القراء أول فقهاء المسلمين أو حاملى شريعتهم ، وكانوا يرجعون اليهم فى الافتاء والاحكام لقلة الذين يقرأون فى الصدر الاول . فلما عظمت أمصار الاسلام وذهبت الأمية من العرب وكمل الفقه وأصبح صناعة ، بدلوا باسم الفقهاء العلماء

الفقهاء :

فأول الفقهاء المسلمين الصحابة الاولون ، وأولهم الخلفاء الراشدون ، ثم عبد الرحمن بن عوف وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وسلمان الفارسى وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعرى (١) ثم انتقلت الفتوى والفقه الى التابعين واشتهر منهم سبعة فى المدينة ، وهم : سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن وقاسم وعبد الله وعروة وسليمان وخارجة ، وقد جمعهم بعض

(*) الشعب الصابنى المذكور هنا هو شعب السبينيين Sabini وهو ثانى الشعوب التى أخضعها اللاتينيون فى شبه جزيرة ايطاليا ، والأول هوشعب الاترسكيين Etrusci وقد أخذ اللاتين عن هذين الشعبين الكثير من حضارتهم التى عرفت بالحضارة الرومانية فيما بعد ، وقد وجد السبينيون فى شبه الجزيرة قبل اللاتين ، وكانت لهم حضارة زاهرة ، مثلهم فى ذلك مثل الاتروسكيين . أما قوانين جستنيان فقد أصدرها فى ثلاث مجموعات ، آخرها المختصر الذى يسمى بمدونة جستنيان ، وقد ترجمها الى العربية المرحوم عبد العزيز فهمى ونشرها قبل وفاته بقليل بعنوان « مدونة جستنيان »

(١) الدميرى ٥١ ج ١

العلماء فى هذين البيتين :

الا كل من لا يقتــدى بأئمــة فقسمته ضيزى عن الحق خارجة
فخذهم : عبيد الله ، عروة ، قاسم ، سعيد، سليمان، أبوبكر، خارجة (١)

وبعض المؤرخين يحسبهم عشرة مع تبديل بعض الأسماء (٢) وعنهم انتقل الفقه والافتاء فى العالم الاسلامى

وفى أوائل الاسلام كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علما واحدا ، ثم أخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض عملا بناموس الأرتقاء ، فلما استقل الفقه سموا أصحابه الفقهاء كما تقدم ، وكان لهم تأثير كبير فى الدولة لما يترتب على الافتاء من الأمور الهامة ، كالعزل والتنصيب والقتل والعفو

ففى أيام بنى أمية كان المرجع فى الفقه والافتاء الى أهل المدينة ، فكان الخلفاء لايقطعون أمرا دونهم . وقد علمت مما فصلناه فى الجزئين الماضيين من هذا الكتاب ما كان من تعصب بنى أمية للعرب واحتقارهم غير العرب من المسلمين وغيرهم ، وأهل المدينة مع تحيزهم لأهل البيت وانكار الخلافة على بنى أمية كان الأمويون يسعون فى ارضائهم واكرامهم ، وخصوصا أهل الورع من الخلفاء كعمر بن عبد العزيز فانه كان لا يقطع أمرا مهما الا بعد مشورتهم . فلما أفضى الأمر الى بنى العباس ، وأراد المنصور تصغير أمر العرب واعظام أمر الفرس لأنهم أنصارهم وأهل دولتهم ، كان من جملة مساعيه فى ذلك تحويل أنظار المسلمين عن الحرمين ، فبنى بناء سماه القبــة الخضراء حجا للناس ، وقطع الميرة عن المدينة ، وفقيه المدينة يومئذ الامام مالك الشهير ، فاستفتــاه أهلها فى أمر المنصــور فأفتى لهم بخلع بيعتــه فخلعوها وبايعوا محمد بن عبد الله من آل على . وعظم أمر محمد هــذا وحاربه المنصور ولم يتغلب عليه الا بعد العناء الشديد . فرجع أهل المدينة الى بيعة المنصور قهرا ، وظل مالك مع ذلك ينكر حق البيعة لبنى العباس ، فعلم أمير المؤمنين يومئذ وهو جعفر بن سليمان عم المنصور بذلك ، فغضب ودعا بمالك وجرده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه (٣)

الرأى والقياس :

وكانت علوم القرآن قد انتشرت فى العراق وفارس ، ونبغ من أبنائهما من درس الفقه والفتيا ، ولكنهم ما زالوا عيالا فيهما على أهل المدينة ، لأنهم أوثق الناس بحفظ الحديث وقراءة القرآن . وكان الحديث قليلا فى العراق على الخصوص . وكان المسلمون غير العرب هناك أكثرهم الفرس ، وهم

---

(١) ابن خلكان ٩٢ ج ١ (٢) ابو الفداء ٢٠٩ ج ١
(٣) ابن خلكان ٤٣٩ ج ١

أهل تمدن وعلم ، فعمدوا الى استخدام القياس العقلى فى استخراج أحكام الفقه من القرآن والحديث ، فخالفوا بذلك أهل المدينة لأنهم كانوا شديدى التمسك بالتقليد . فكان من جملة مساعى المنصور فى تصغير أمر المدينة وفقهائها ، وخصوصا مالك بعد أن أفتى بخلع بيعته ، أنه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس ، وكان كبيرهم يومئذ أبا حنيفة النعمان فى الكوفة ، فاستقدمه المنصور الى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه . وكان أبو حنيفة لايحب العرب ولا العربية ، حتى انه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالى به (١) ولذلك كان الربيع حاجب المنصور يقاومه ، لأن الربيع ينتسب الى العرب وكان يكره الفرس ، وابنه الفضل هو الذى سعى فى قتل البرامكة

فلما نصر المنصور أبا حنيفة وأصحابه ، وهم المعروفون بأهل الرأى أو القياس ، ازداد مالك تمسكا برأيه وتبعه فقهاء الحجاز وهم أهل الحديث . وانقسم الفقهاء الى قسمين : أهل الحديث ، وأهل الرأى . وزعيم الاول مالك وأنصاره من أهل الحجاز ، وأصحاب الشافعى وأصحاب سفيان الثورى وأصحاب أحمد بن حنبل وغيرهم من أهل التقليد ، وعرفوا بأصحاب الحديث لأن عنايتهم مبذولة فى تحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ، ولا يرجعون الى القياس الجلى أو الخفى ما وجدوا خبرا أو أثرا . ويدلك على شدة تمسكهم بذلك قول الشافعى : « اذا وجدتم لى مذهبا ووجدتم خبرا على خلاف مذهبى فاعلموا أن مذهبى ذلك الخبر »

وزعيم أصحاب الرأى أبو حنيفة النعمان وأصحابه فقهاء العراق ، ومنهم محمد بن الحسن وأبو يوسف القاضى وزفر بن هذيل والحسن بن زياد وابن سماعة وأبو مطيع البلخى وعافية القاضى وغيرهم ، وقد سموا أهل الرأى لأن عنايتهم اتجهت الى تحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الأحكام عليها ، وهم يقدمون القياس الجلى على آحاد الأخبار (٢)

وجاء بعد مالك من أصحاب مذهبه محمد بن ادريس المطلبى الشافعى ، فرحل الى العراق وخالط أصحاب أبى حنيفة وأخذ عنهم ، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب خالف فيه مالكا فى كثير من مذهبه . ثم جاء بعده أحمد بن حنبل وكان من علية المحدثين ، وقرأ أصحابه على أصحاب الامام أبى حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر . ووقف التقليد فى الامصار عند هؤلاء الاربعة ، وتولد منهم مذاهب الاسلام الاربعة وهى : الحنفى ، والمالكى ، والشافعى ، والحنبلى

---

(١) ابن خلكان ١٦٥ ج ٢
(٢) الشهرستانى ١٦٠ ج ١

وللفقه فروع وشروح يضيق المقام عنها هنا ، فنترك الكلام فيها وفى غيرها من فروع العلم الى تاريخ آداب اللغة العربية (*)

منزلة العلماء عند الخلفاء

يراد بالعلماء ، فى عرض الكلام عن العلوم الاسلامية ، علماء الحديث والقرآن

(*) كان الفقه أول الامر مقابلا للعلم ، وكان هذا الاخير مقصورا على القرآن الكريم والروايات، والروايات هنا هى ماحدث به الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما الفقه فكان مقابلا لما عرف بعد ذلك بالاجتهاد فى استخراج الاحكام حيث لايوجد نص صريح من القرآن والسنة ، ولهذا فقد كان للفقه معنى الرأى ، وهما يستخدمان أول الامر بمعنى واحد ، وقد فرق النووى فى « تهذيب الاسماء واللغات » تفرقة واضحة بين العلم والفقه . وفى تفسير مجاهد للآية الكريمة « ومن يؤت الحكمة » أن الحكمة هى القرآن والعلم والفقه (تفسير الطبرى ، ج ٣ ص ٥٦) ، وعندما أوصى هرون الرشيد فائده هرثمة بن أعين امره بأن يستعين فيما اشكل عليه « بأولى الفقه فى دين الله وأولى العلم بكتاب الله » (طبرى : تاريخ ، طبعة أوروبا ٣/٧١٧) . وقد شرح الفرق بين العلم والفقه اجناتس جولدتسيهر شرحا وافيا ، وهذا تفسير قولهم مثلا ان عبدالله بن عمر «كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه» . ويتضح ذلك بصورة اجلى فى قولهم ان عبدالله بن عباس كان أعلم بالحديث وأفقه رأيا (أو أثقف رأيا) ويوصف زيد بن ثابت بأنه كان « فقيها فى الدين عالما فى السنة » . أما سعيد بن المسيب فكان يوصف بأنه « فقيه الفقهاء وعالم العلماء » والمعنى واضح ، فالعلم هو العلم بكتاب الله وسنة رسوله ، والفقه هو استخراج الاحكام . ومن هنا فان الذهبى يقول فى طبقات الحفاظ ان اباثور كان «أحد أئمة الدنيا فقها وعلما» . وكان الناس اذا استفتوا عطاء بن رباح فى أمر فأفتاهم سألوه ان كانت فتواه علما أو رأيا ، وكان اذا أسند الفتوى الى علم قال انها علم ، والا فهى رأى . وليس معنى ذلك أن الناس كانوا يقللون من أهمية الرأى اذ الواقع ان الفتوى كانت لها قيمتها سواء أكانت رأيا أم علما ، وقد اصبح «رأى» السابقين من الصحابة والتابعين وتابعيهم أساسا من الاسس الفقهية ، يقاس عليه وتستخرج منه الاحكام

ولم يكن الرأى مجرد تفكير خالص ، بل كان لابد أن يعتمد على نوع من القياس ، فلما كثرت الآراء والحلول وأضيفت الى مجموع الاحكام الصريحة بلفظ القرآن وصحيح السنة ، كثرت كذلك الحالات التى يمكن القياس عليها ، وأخذت دعائم القياس وأصوله تثبت وتتحدد حتى أصبح منهجا واضح المعالم . فهناك قياس صحيح وقياس غير صحيح ، فالقياس الصحيح ماأجمع العلماء والفقهاء على صحته ، ولما كان الاجماع ضروريا لاثبات صحة الحديث ، فقد أصبح ضروريا أيضا لاثبات صحة القياس ، وبهذا دخل عنصر جديد بين عناصر التشريع ، وهو الاجماع فأصبحت عمد استخراج الاحكام اربعة : القرآن ، والسنة ، والقياس ، والاجماع . وهذه هى أصول الفقه ، وقد نشأ عنها علم أصول الفقه ، أما الفقه نفسه ، فقد ظل خاصا باستنباط الاحكام من هذه الاصول أو تفسيرها ، ويطلق لفظ فقيه على المتمكن من أصول الفقه أو العارف بالفقه أو بهما معا

ومادام الفقه هو استنباط الاحكام من الاصول أو هو تفسير هذه الاصول ، فمن الطبيعى ان تنشأ فيه مذاهب ، وطبيعى أيضا ألا يكون الخلاف فى الاصلين الاولين وهما القرآن والسنة ، بل فى الثالث والرابع وهما القياس والاجماع : لان القرآن والسنة ظل يطلق عليهما اسم العلم ، فيقال عن عبد الله بن المبارك أنه « دون العلم فى الابواب والفقه » (الذهبى : تذكرة الحفاظ ١/٢٥٠) وعن أبى ثور انه : « صنف الكتب وفرع على السنن » (نفس المصدر ٢/٩٥). والمراد بالكتب هنا ما أثر عن المفسرين والمحدثين الاول من تفسيرات وشروح ، فيقال ان فتاوى الزهرى كانت تقع فى ثلاثة كتب ، وفتاوى الحسن البصرى كانت تقع فى عشرة أسفار ، وأقدم ماعثرنا عليه من هذه الكتب مخطوطة تسمى « مجموعة زيد بن على » (توفى ١٢٢/٧٤٠) ، وقد نشرها المستشرق الايطالى أ. جريفينى سنة ١٩١١

بيد أن أول واوسع كتاب فى الفقه على مذهب السنة هو موطأ مالك بن أنس (٩٧/٧١٥ — ١٧٩/٧٩٥) وهو كتاب حفيل يعتبر كتاب أصول وكتاب فقه فى آن واحد ، وهو تشريع كامل يعتمد على القرآن والسنة وقياس أهل المدينة واجماعهم ، ورأى مالك انما هو خلاصة هذين الاخيرين

والفقه . وقد علمت ما كان من منزلة هذه العلوم فى الخلافة ، فلا عجب بعد ذلك اذا رأيت الخلفاء يكرمون الفقهاء وأصحاب الحديث والزهاد والعلماء ، وقد رأيت أن بنى أمية كانوا يستشيرون فقهاء المدينة فى الامور الهامة .

وقد حاول نفس المحاولة عبد الرحمن الاوزاعى فى الشام ، ولكن تشريعه لم يبلغ من الكمال والدقة المنهجية مابلغه تشريع مالك

أما فى العراق فلم يتقيد أصحاب الرأى برأى أهل المدينة واجماعهم ، وانما أطلقوا مجال الرأى ، وصاحب مدرستهم حماد بن ابى سليمان المتوفى ٧٣٨/١٢٠ ، وفى هذه المدرسة نشأ أبو حنيفة النعمان فوضع أصول المذهب الحنفى ومنهجه ، ثم جاء تلميذاه أبو يوسف القاضى (توفى ٧٩٥/١٨٢) ومحمد بن الحسن الشيبانى (توفى ٨٠٤/١٨٩) فأكملا المذهب وثبتا اصوله ، والى أبى يوسف يرجع الفضل فى تطبيق اصول الفقه على مسائل الادارة والاموال كما نرى فى كتابه المعروف بكتاب الخراج ، وقد توسع الحنفيون فى الرأى حتى قرروا لفقهائهم حق الاستنباط ، فى حين أن الرأى عند المالكية ينتهى عند مالك ، وقد اعترف مالك « بالمصلحة » — وتسمى عند المالكية الاستصلاح — كأساس من أسس مذهبه ، ولكن أبا حنيفة توسع فى ذلك توسعا جعل المالكية ينفرون من منهج الاحناف ، وقد أخمل مذهب أبى حنيفة مذهب سفيان الثورى (توفى ٩٧٨/١٦١) كما أخمل أيضا مذهب عبد الرحمن الاوزاعى فى الشام

وقد اتجه عدد عظيم من الاحناف اتجاها آخر بمذهبهم ، فبدلا من ان يفيدوا مما كان مذهبهم يسمح به من حرية واسعة فى استعمال الرأى حتى يجعلوه رمزا على الحرية الفكرية وبابا مفتوحا امام الاجتهاد ، نجدهم يفهمون حرية الرأى على أنها توسع فى الفروض الشكلية لمسائل فقهية نادرة الحدوث أو مستحيلة او تافهة تدل على سخف فى التفكير ، وكان من عادتهم أن يضعوا المسألة فى صورة صيغة : « أرأيت لو وقع لرجل كذا وكذا ؟ » حتى كثرت « أرأيت » فى كتبهم ومجالسهم وسماهم الناس الارأيتيين ، ونفر الكثيرون من هذا الاتجاه حتى قالوا : « لاتقاعد أصحاب أرأيت ، أرأيت » ورويت احاديث لسنن الدارمى وأبى داود تستنكر هذا الاتجاه ، ثم ان فقهاءهم كانوا يعمدون الى تأييد آرائهم بأحاديث موضوعة ،حتى كثرت الاحاديث كثرة بالغة ، وكاد يبطل استعمال القياس ، مادام هناك لكل مسألة حديث خاص بها .

وكان لابد من وضع حد لهذا الاتجاه ، كان لابد من العودة الى أصول الفقه لضبطها وتثبيت قواعدها واحكام طرق استخراج الاحكام من الاصول وطرق القياس . كان لابد من انتهاج سبيل وسط بين أهل الرأى (الحنفيين) وأهل الحديث (المالكيين) ، وهذا هو مافعله محمد بن ادريس الشافعى المتوفى ٨٢٠/٢٠٤ فقد كان أصوليا راسخ العلم ومنهجيا فى تفكيره ، وكتابه « الام » يعتبر أحسن كتب أصول الفقه على الاطلاق ونموذجا بديعا للتفكير الاسلامى العلمى الذى لايتطرف ولا يجمد . وهو ينكر « الاستحسان » ويجعل مكانه « الاستصحاب » أى قياس مسألة قديمة مجمع عليها على مسألة جديدة ، وتطبيق حكم الاولى على الثانية . فى حين أن الاستحسان هو اقرار شىء لمجرد أنه « حسن » نافع للناس ، وقد وضع الشافعى الاستصحاب ليحل ايضا محل « استصلاح » المالكية ، وهو اقرار شىء لانه فى صالح الناس

ومن ناحية أخرى ، ظهر اتجاه جديد يعارض ذلك كله ، ويرجع بالفقه الى القرآن والسنة وحدهما ، فلا يسمح بالقياس الا فى حالة المشابهة التامة ، ولا يجعل للرأى الا مجالا ضيقا جدا ، وهذا هو مانادى به أحمد بن حنبل المتوفى ٨٥٥/٢٤١ . وظهر بعد ذلك مذهب يضيق المسألة اكثر من ذلك ، فلا يأخذ الا بظاهر المعنى للآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وقد قال بذلك داود بن على الاصفهانى المتوفى ٨٣٣/٢٧٠ وأصحابه يسمون الظاهرية أو أهل الظاهر . وقد ظهر من الشافعيين من يؤيدون مذهب الظاهر ويقربون بينه وبين مذهبهم ، ومن أولئك يحيى بن أكثم المتوفى ٨٥٦/٢٤٢

انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « فقه » بقلم جولدتسيهر والمراجع المعطاة

هذا بالاضافة الى الاصول العربية المعروفة لأئمة الفقهاء الذين ورد ذكرهم فى كلامنا ، ونضيف اليها الملل والنحل للشهرستانى ، والفصل فى الملل والاهواء والنحل لابن حزم ، واحياء علوم الدين للغزالى ، ومقدمة ابن خلدون

وانظر أيضا كتب الاستاذ محمد أبو زهرة عن مالك وأبى حنيفة ، وكتاب الاستاذ أمين الخولى : « مالك ، ترجمة محررة »

وكثيرا ما كان أهل التقوى من الخلفاء يسألون العلماء عن شروط العدل ليجروا عليه ـ كتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن البصرى يسأله عن صفة الامام العادل فأجابه جوابا وافيا (١) فلما وصله الكتاب وقع منه بمواقع وعظه ومحل يقظه »

وقد يحمل ذلك على مبالغة هذا الخليفة (يريد عمر بن عبد العزيز) فى التقوى والورع فما قولك بالمنصور المشهور بالشدة والحزم والدهاء ، اذ دخل عليه عمرو بن عبيد بعد مبايعة المهدى فقال له المنصور: « يا أبا عثمان، هذا ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين » فقال عمرو : « أراك قد وطدت له الأمور وهى تصير اليه وأنت عنه مسئول » فاستعبر المنصور وقال : « عظنى يا عمرو » فوعظه (٢) ولما مات عمرو رثاه المنصور بأبيات (٣) . ناهيك بحكاية المنصور وهو يطوف بالكعبة ليلا اذسمع ذلك العابد يشكو ظهور البغى والفساد ، ولما سأله المنصور عمن يعنى صرح له أنه يعنيه هو وحكومته ووعظه عظة شديدة لم يستنكف المنصور من سماعها (٤) وقس على ذلك عظات الاوزاعى وابن السماع وسفيان الثورى وشبيب بن شيبة للمنصور والمهدى والرشيد (راجع كتاب الثورى للرشيد فى الجزء الثانى من هذا الكتاب) . وكثيرا ما كان الواعظ يبكى الخلفاء لأنهم كانوا يجلون العلماء ويكرمونهم ، حتى تسابقوا الى احترامهم بما لا يصدر الا من خادم الى مولاه ، فقد صب الرشيد الماء على يدى أبى معاوية الضرير وهو يغسل (٥)

وكان الاكرام فى أول الأمر للفقهاء والمحدثين خاصة ، ثم أطلق على أصحاب سائر العلوم الاسلامية كالنحاة واللغويين ، فقد كان الرشيد يجلس الكسائى ومحمد بن الحسن على كرسيين ويأمرهما الا ينزعجا لنهضته (٦) ولما مات هذان فى الرى فى يوم واحد قال الرشيد : « دفنت الفقه والعربية فى الرى » (٧) . وقد تنازع الأمين والمأمون ولدا الرشيد فى حمل نعال أستاذهما الفراء وتقديمها اليه ، حتى اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة (٨)

واكرام الخلفاء للعلماء اقتضى اكرام العامة لهم ، فلما توفى ابن حنبل مشى فى جنازته ٨٠٠,٠٠٠ رجل و ٦٠,٠٠٠ امرأة (٩) وناهيك بهذا الاكرام . ولما سار أبو اسحق الشيرازى من قبل الخليفة المقتدى الى السلطان ملك شاه تنافس أهل البلاد فى لقائه والتمسح بأطرافه والتماس البركة من ملبوسه ومركوبه (١٠)

---

(١) العقد الفريد للملك السعيد ٥٣
(٢) المسعودى ١٧٣ ج ٢
(٣) ابن خلكان ٣٨٥ ج ١
(٤) العقد الفريد ٢٨٧ ج ١
(٥) الفخرى ١٧٥
(٦) المزهر ٢١١ ج ٢
(٧) ابن خلكان ٤٥٤ ج ١
(٨) طبقات الادباء ١٣٠
(٩) ابن خلكان ١٧ ج ١
(١٠) ابن خلدون ٤٧٤ ج ٣

٢ ـ العلوم اللسانية

النحو :

النحو بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه . لأن الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق اذ بدونه لا يحسن التعبير عن أفكاره ، أما اذا أراد أن يتعلم لسانا غير لسانه فدرس قواعد النحو يسهل عليه تناوله . ولذلك فالأمة قد تقضي قرونا متطاولة وهي تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل أن تدون قواعد النحو وتجعله علما. فاليونان لم يبدأوا بضبط قواعد لسانهم الا في القرن الخامس قبل الميلاد ، وأول من بدأ بذلك منهم بروتغوراس Protogoras المتوفى سنة ٤١١ ق.م . فتكلم في المذكر والمؤنث وبعض الأسماء ، ثم بروديكوس Prodichos وقد عاصره وتكلم في المترادفات ، ثم جاء أرسطو وغيره واتموا علم النحو اليوناني وله تاريخ يشبه تاريخ النحو العربي . وكذلك فعل الرومان في نحو اللغة اللاتينية ، فانهم لم يدونوا قواعده الا في القرن الأول قبل الميلاد في زمن بومبيوس ، وقد دونه عالم اسمه ديونيسيوس تراكس D. Tarrax اقتداء باليونان

فاليونان نبغ فيهم الشعراء والخطباء والأدباء والفلاسفة قبل تدوين قواعد النحو في لسانهم . فنظم هوميروس الياذته وأوذيسيته وهو لم يتعلم قواعد النحو فلم يضره ذلك شيئا ، لأن اللغة كانت ملكة فيه ، وألف اشيلوس Aeschylos الروايات التمثيلية وسحر اليونان ببيانه ، ونبغ الفلاسفة فريسيدس واناكسيمندر وطاليس Tales وكتب هيرودوتس الرحالة تاريخه الشهير قبل وضع النحو . وكذلك الرومان فقد نبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والأدباء قبل تدوين النحو

وضع النحو العربي وواضعه :

وهكذا العرب فقد نظموا الشعر وألقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو ، لأن ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم . على أنهم اضطروا الى ضبط تلك القواعد وتدوينها بأسرع مما اضطر اليه اليونان والرومان ، التماسا للدقة في ضبط معاني القرآن ، فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة الى النحو . ويغلب على ظننا أنهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان ، لأن السريان دونوا نحوهم وألفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس للميلاد ، وأول من باشر ذلك منهم الأسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب المتوفى سنة ٤٦٠ م (١) فالظاهر أن العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فأعجبهم ، فلما

(١) شعراء السريان للقرداحي ١٨

اضطروا الى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأن اللغتين شقيقتان . ويؤيد ذلك أن العرب بدأوا بوضع النحو وهم فى العراق بين السريان والكلدان ، وأقسام الكلام فى العربية هى نفس أقسامه فى السريانية

أما استعجال العرب فى تدوين النحو فانه تابع لاستعجالهم فى الفتح ونشر الدين ، لأن الفتوح دعت الى الاختلاط بالأعاجم ، والاختلاط دعا الى فساد اللغة فأصبح الناس يهملون الاعراب . لأن العرب كانوا عند ظهور الاسلام يعربون كلامهم على نحو ما فى القرآن ، الا من خالطهم من الموالى والمتعربين فان هؤلاء كانوا حتى فى أيام النبى (صلعم) يخطئون الاعراب ، وقد ذكروا رجلا لحن بحضرة النبى فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » . وقال أبو بكر : « لأن أقرأ فأسقط أحب الى من ان أقرأ فألحن » (١) . ولكن اللحن لم يكثر الا بعد الفتوح وانتشار العرب فى الآفاق ، فتذمر العمال مما كانوا يسمعونه من اللحن وخصوصا فى قراءة القرآن ، فأحسوا بحاجة شديدة الى ضبط قواعد اللغة

أما واضع علم النحو أو مدونه فهو بالاجماع أبو الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ هـ وكان من سادات التابعين ، صحب على بن أبى طالب وشهد معه واقعة صفين ، ثم أقام فى البصرة وكأنه تعلم لغة السريان أو اطلع على نحوها فرغب فى النسج على منواله ، فعرض ذلك على والى العراقين يومئذ زياد ابن أبيه فأبى (٢) لأسباب تقدم بيانها . حتى اذا جاءه رجل يشكو اليه أمرا فسمعه يقول : « أصلح الله الأمير ، توفى أبانا وخلف لنا بنون » فاستنكف زياد من سماع ذلك اللحن فبعث الى أبى الأسود أن يضع ما كان قد نهاه عنه
وقيل بل السبب فى وضعه أن بنت خويلد الأسدى دخلت على معاوية وقالت : « ان أبوى ماتا وتركا لى مالا » (بالامالة) وبلغ ذلك عليا فرسم لأبى الأسود باب « ان » وباب الاضافة وباب الامالة . ثم سمع أبو الأسود رجلا يقرأ : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بخفض رسوله ، فصنف باب العطف والنعت . ثم ان بنته قالت له يوما : « يا أبت ما أحسن السماء » على طريق الاستفهام ، فقال : « نجومها ». فقالت : « انما أتعجب من حسنها » . فقال : « قولى : ما أحسن السماء .. افتحى فاك » . وقالت له يوما : « ما أشد الحر » على لفظ الاستفهام على نحو ما جرى فى الجملة الماضية ، فصنف باب التعجب (٣)

واختلف المؤرخون فى هذه الروايات وذكروا غيرها ولكن الفحوى واحد ، فهم مجمعون على أن أبا الأسود وضع النحو لمثل الأسباب التى قدمناها ، وهو يقول انه تلقى ذلك عن على بن أبى طالب . فوضع علم النحو أوالشروع فيه على الأقل ثابت لأبى الأسود ، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم صاحب

(١) المزهر ١٩٩ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٤٠ ج ١
(٣) مفتاح السعادة (خط)

الفهرست مما شاهده بعينه فى عرض كلامه فى خزانة كتب أطلعه عليها أحد جماعى الكتب ، فكان فى جملة ما فيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصرى وورق صينى وورق تهامى وجلود أدم وورق خراسانى ، وبينها أربعة أوراق قال : « أحسبها من ورق الصين ؛ ترجمتها : هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه ، بخط يحيى بن يعمر . وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوى ، وتحته : هذا خط النضر بن شميل . ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر » (١)

على أن ما وضعه أبوالأسود من القواعد لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة ، فعمد الى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع ، أو الفعل من الاسم ، فوضع علامات كانت عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجر ، أو يميزون بها الفعل من الاسم ، كما تقدم فى كلامنا عن تاريخ الخط العربى

فالعرب كانوا يعرفون الاعراب قبل علم النحو ، كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض ، وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم ، حتى اختلطوا بالأعاجم وأسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن ، فاضطروا الى ضبطها وكانوا أكثر المسلمين اشتغالا فى ذلك . بدأ بعلم النحو أبو الأسود وأتمه من جاء بعده من أهل البصرة والكوفة . وأول من أخذ عنه عنبسة بن معدان المهرى ، وأخذ عن هذا ميمون الأقرن ، وأخذ عنه عبد الله الحضرمى ، وأخذ عنه عيسى بن عمر ، وأخذ عنه الخليل بن أحمد امام علم العروض واللغة ، ومنه أخذ سيبويه أمام علم النحو (٢) فتنوقل النحو فى هؤلاء من الواحد الى الآخر ، وهو ينمو ويرتقى عملا بناموس الارتقاء ، وألفوا فيه الكتب لكنه نضج فى أيام سيبويه (توفى سنة ١٨٠ هـ) فألف فيه كتابه الشهير ، وأصبح كل من ألف فى النحو عيالا عليه وعلى كتاب العين الآتى ذكره . وكانوا اذا قالوا : « الكتاب » أرادوا كتاب سيبويه ، وكان الناس يتهادونه كأفخر التحف (*)

(١) الفهرست ٤٠ (٢) ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢

(*) ظاهر ان نسبة وضع النحو الى أبى الاسود الدؤلى على هذه الصورة التى ترويها الكتب القديمة أقرب الى القصص . ورأى المؤلف فى أثر الاتصال بين السريان والعرب فى أصل النحو العربى رأى سليم أيدته بعض الابحاث التى قام بها علماء اللغة فى العصر الحديث ، ومن رأينا أن دراسة أصول علم النحو العربى لايستطيعها الا من ألم باللغات السامية الماما صحيحا ، وعرف كذلك الفارسية واللاتينية ولغات الهند ، وقد كتب المستشرقون أبحاثا طويلة فى هذا الموضوع ، والظاهر أنهم أقدر على الكلام فى هذه الناحية لعلمهم باللغات وفقه اللغة المقارن ، وقد أوجز بروكلمان فى تاريخ الآداب العربية وجوه النظر المختلفة ، وأورد المراجع التى لابد من الرجوع اليها :

انظر :

Brockelmann, Gesch. der Arabischen Literatur, Suppelement I, pp. 155-158

وانظر مقال الزا ليختنشتتر Ilse Lichtenstaedter فى دائرة المعارف الاسلامية عن «النحو»وكتاب:

Flügel, Die Grammatischen Schulen der Araber

الأدب واللغة

لما أخذ المسلمون فى تفسير القرآن احتاجوا الى ضبط معانى الفاظه وتفهم اساليب عباراته ، فجرهم ذلك الى البحث فى أساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم وأمثالهم ، ولا يكون ذلك سالما من العجمة أو الفساد الا اذا أخذ عن عرب البادية الذين كانت قريش فى الجاهلية تتخير من ألفاظهم وأساليبهم فعنى جماعة كبيرة من المسلمين بالرحلة الى بادية العرب والتقاط الأشعار والأمثال وسؤال العرب عن معانى الألفاظ وأساليب التعبير ، وسموا الاشتغال بذلك مع ما يتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الأدب

والقبائل التى نقلوا عنها العربية قيس وتميم وأسد ، وعن هذه القبائل الثلاث أكثر ما أخذ من اللغة ، وعليها عول الناقلون فى الغريب وفى الاعراب والتصريف ، ثم قبيلة هذيل وبعض كنانة وبعض طى ، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر القبائل ولا أخذوا شيئا عن الحضر ولا من البدو الذين كانوا يسكنون البرارى المجاورة للأمم الاخرى . فلم يأخذوا من لخم وجذام لمجاورتهما أهل مصر ، ولا من قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون العبرانية والسريانية ، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين يخالطون الهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب وقد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم . والذين نقلوا اللغة وأساليبها عن القبائل المذكورة وأثبتوها فى الكتب وصيروها علما هم أهل البصرة والكوفة فقط (١) وكان أكثر المشتغلين فى جمع اللغة وآدابها العجم لحاجتهم الى ذلك أكثر من العرب

علماء الادب بالبصرة والكوفة :

ومن أقدم المشتغلين فى جمع اللغة والأدب وأوسعهم حفظا ورواية أبو عمرو ابن العلاء التميمى المتوفى بالكوفة سنة ١٥٤ هـ وهو من مواليد مكة ، وكانت كتبه عن العرب الفصحاء تملأ بيته الى قريب السقف (٢) وقال مع ذلك : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير »

ونبغ فى العراق جماعة كبيرة من طلاب الأدب واللغة فى القرن الثانى للهجرة ، أشهرهم أربعة فى عصر واحد وهم : أبو زيد ، وأبو عبيدة ،

(١) المزهر ١٠٥ ج ١ (٢) ابن خلكان ٣٨٦ ج ١

والأصمعى ، والخليل . وكان العلم كله عندهم ، والثلاثة الأول أخذوا عن أبى عمرو المذكور اللغة والنحو والشعر والقراءة (١)

فأبو زيد كان من الأنصار توفى سنة ٢١٤ هـ وهو من رواة الحديث ثقة فى اللغة وأخذ عنه سيبويه . وأبو عبيدة كان أعلم الجميع بأيام العرب واخبارهم وأجمعهم لعلومهم ، ومن أقواله : « ما التقى فرسان فى جاهلية أو اسلام الا عرفتهما وعرفت فارسيهما » توفى سنة ٢٠٩ هـ ، والأصمعى غلبت عليه اللغة وحفظ الشعر ونقده ، توفى سنة ٢١٣ هـ

وأما الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠ فانه أسبقهم جميعا وقد لقبوه بسيد علم الأدب ، لأنه أول من دون اللغة على حروف المعجم فى كتابه المشهور بكتاب العين ، سماه بذلك لأنه رتبه على الحروف باعتبار مخارجها : من الحلق، فاللسان ، فالاسنان ، فالشفتين . وبدأ بحرف العين ، وهاك ترتيبه : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ص ض س ر ط د ت ظ ذ ث ز ل ن ف م و ا ى . فكأن الخليل حذا بذلك حذو الهنود فى ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية ، فانهم يبدأون بأحرف الحلق حتى ينتهوا الى الاحرف الشفوية (٢)

وكان من عادات العرب أن يسموا الكتاب بأول لفظ من ألفاظه ، ككتاب الجيم للهروى وهو كتاب رتبه على حروف المعجم بدأ به بحرف الجيم (٣) وكتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى (٤) ومن هذا القبيل كتاب الغين فى الحروف ، وكتاب الميم ونحوهما . ويستفاد من ملاحظة ترتيب الحروف فى كتاب العين أن الجيم كانوا يتلفظون بها كالكاف الفارسية ، وان كثيرا من الأحرف تختلف عما تنطق به الآن (*)

وكان الحفاظ والرواة يدققون فيما يأخذونه عن العرب من شعر أو مثل أو غير ذلك ، وما يسمعونه من معانيها ، لأن عليها يتوقف تفسير القرآن . فانهم اتبعوا فى نقل اللغة طريقة الاسناد المتسلسل ، كما كانوا يفعلون فى رواية الحديث ، وعنى الناس بحفظها مثل عنايتهم بحفظه ، لاعتبارهم أن ناقل اللغة يجب أن يكون عدلا كما يشترط فى ناقل الحديث ، لأنها واسطة تفسيره وتأويله . على أنهم لم يستطيعوا ذلك تماما

وازدهرت علوم الأدب فى القرن الثانى وبعض الثالث الهجريين فى البصرة

---

(١) المزهر ٢٠٢ ج ٢ (٢) William's Sanskrit Grammar, 15

(٣) طبقات الادباء ٢٦٠ (٤) ابن خلكان ٦٥ ج ١

(*) انظر كتاب « تاريخ المعاجم العربية » للدكتور حسين نصار ، مجلدان ، القاهرة ١٩٥٥ — ١٩٥٦

والكوفة ، ونبغ فيهما النحاة والرواة والحفاظ والأدباء والشعراء . والبصرة متقدمة فى ذلك ، وأهل الكوفة يأخذون عن أهل البصرة ، وهؤلاء يستنكفون أن يأخذوا عن أهل الكوفة لاعتقادهم أنهم غير محققين . ولم يعلم ان احدا من البصريين أخذ عن أهل الكوفة الا أبو زيد الانصارى (١) على أن الشعر كان فى الكوفة أكثر وأجمع منه فى البصرة ، ولكن كثيرا منه مصنوع . واشهر علماء الكوفة الكسائى (٢) المتوفى سنة ١٨٢ هـ يليه فى النحو تلميذه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وعلى الاحمر اللحيانى وغيره ، كما اشتهر فى البصرة سيبويه ومن ذكرناهم من النحاة واهل الأدب

علماء الادب فى بغداد :

وما زال هذان المصران مصدر العلوم الاسلامية حتى بنيت بغداد وانتقل العلم اليها ، وغلب ورود أهل الكوفة الى بغداد لقربهم منها . وكان العباسيون يكرمونهم لأنهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة ، فقدمهم الخلفاء على أهل البصرة واستقدموهم اليهم ووسعوا لهم ، ورغب الناس فى الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات وتركوا الاصول واعتمدوا على الفروع . واشتهر منهم فى عصر الفراء عبد الله بن سعيد الاموى ، وابوالحسن الأخفش الكوفى ، وأبو عكرمة الضبى ، وأبو عمرو الشيبانى وغيرهم

وآل الأمر بعد نضج علم الأدب فى العصر العباسى الى أربعة هم أركانه وأعمدته ، دونوا علمهم فى كتب شهيرة هى : (١) كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة (٢) كتاب الكامل للمبرد (٣) البيان والتبيين للجاحظ (٤) كتاب النوادر للقالى . وهذه الكتب هى مصادر علم الأدب عند العرب الى الآن ، وأكثر ما ألف بعدها نقل عنها (٣) (*)

ولما قدم العباسيون أهل الكوفة ارتقوا فى عين أنفسهم وارادوا مسابقة أهل البصرة ومفاخرتهم ، فقامت المجادلات بين البلدين فى مسائل كثيرة فى النحو والأدب واللغة ، اشهرها مسألة الزنبور والنحلة التى انتشبت نارها بين سيبويه من البصرة والكسائى من الكوفة . وكان الكسائى يعلم الأمين ابن الرشيد ، فكان الأمين ينصره كأن على انتصار أحد النحويين يتوقف انتصار أهل بلده جميعا . ولا بأس من ايراد خلاصة المسألة ليظهر مقدار

---

(١) طبقات الادباء ١٧٥ (٢) المزهر ٢٠٦ (٣) ابن خلدون ٤٨٦ ج ١

(*) يضاف الى ما ذكره المؤلف عن ابن خلدون : الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والمزهر فى علوم اللغة وانواعها للسيوطى ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، ومعجم الادباء لياقوت ، ومقدمة ابن خلدون . وقد درس هذه الناحية المرحوم احمد امين فى « فجر الاسلام » دراسة وافية

اهتمام الخلفاء بالمسائل العلمية . وذلك أن الكسائى كان مقيما فى بغداد يعلم الأمين ، واتفق أن سيبويه قدم اليها من البصرة ، فجمع الأمين بينهما فى مجلس فتناظرا فى أمور كثيرة من جملتها مسألة الزنبور . فذكر الكسائى من أمثال العرب مثلا رواه على هذه الصورة : « كنت أظن الزنبور أشد لسعا من النحلة فاذا هو اياها » فقال سيبويه : « ليس المثل كذلك ، بل : فاذا هو هى » وتحاورا طويلا ، واتفقا على مراجعة عربى خالص لايشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر . وكان الأمين شديد العناية بالكسائى لكونه معلمه فاستدعى عربيا وسأله ، فقال كما قال سيبويه ، فقال له : « نريد أن تقول كما قال الكسائى » فقال : « لسانى لايطاوعنى على ذلك فانه ما يسبق الا الى الصواب » فقرروا معه أن شخصا يقول : « قال سيبويه كذا وقال الكسائى كذا فالصواب مع من منهما ؟ » فيقول العربى : « مع الكسائى » فقال : « هذا يمكن » . ثم عقد لهما المجلس واجتمع أئمة هذا الشأن ، وحضر العربى وقيل له ذلك فقال : « الصواب مع الكسائى وهو كلام العرب» فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائى ، فخرج من بغداد وقد حمل فى نفسه لما جرى عليه وقصد بلاد فارس

ويدل ذلك على عناية أهل الدولة بالمسائل الأدبية ، وان كانت فى الواقع لا تخلو من غرض سياسى . على أنهم كانوا يهتمون بالآداب من أيام بنى أمية ، فقد ذكروا أن عبد الملك بن مروان كان يعقد المجالس للمذاكرة ، فقال مرة لبعض أهل مسامرته : « أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه ؟ » أراد أن يعدد أعضاء بدنه فيذكر عضوا أوله حرف الألف ثم عضوا أوله حرف الباء وهكذا الى الياء ، فقام سويد بن غفلة فعدها ، فقام أحد الحاضرين فعدها فى جسد الانسان مرتين (١) فأجاز الاثنين

وكانت علوم اللغة فى أول أمرها مشتركة مختلطة ، ثم تميزت وتشعبت فصارت علوما عديدة ، كل منها مستقل عن الآخر ، كالنحو والصرف واللغة والمعانى والبيان والاشتقاق والعروض والقوافى وأخبارالعرب وأمثالهم والجدل وغيرها ، وقد يطلقون عليها علم الأدب ، ولكل منها تاريخ وشروح هى من شأن تاريخ آداب اللغة (*)

بلاغة الانشاء

البلاغة فى الانشاء مما اقتضاه القرآن ، لأنه مثال البلاغة والفصاحة عند

---

(١) الكشكول ١٥٥

(*) استوفى ذلك السيوطى فى كتابه « المزهر فى علوم اللغة وانواعها » ، حققه محمد احمد جاد المولى وعلى محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، فى مجلدين ، طبعة الحلبى ، القاهرة ، بدون تاريخ

العرب ، يتخذونه نموذجا فى خطبهم ورسائلهم وانشائهم ، واذا لم يقصدوا الى الاقتباس منه عمدا فشيوع حفظه بينهم أكسبهم ملكة البلاغة ، مع ما كانوا فيه من أسباب الحماسة والأنفة فى ابان دولتهم . فدخلت لغة العرب بعد الاسلام فى طور جديد من البلاغة والفصاحة ، ظهر فى عبارتها على اختلاف طرق تأديتها خطابة أو كتابة . أما بلاغة الخطابة فسيأتى الكلام عليها . وأما الكتابة فينظر فيها من عدة وجوه ترجع الى كتابة الرسائل وكتابة الكتب

انشاء الرسائل :

فالرسائل كانت عبارتها عندهم مثل عبارة الخطابة ، من حيث التفنن فى اساليب الخيال بالتهديد أو الوعيد أو النصح أو الاستنهاض أو الاستعطاف أو نحو ذلك من المعانى . وكانوا فى أوائل الاسلام يتوخون الاختصار فيها على قدر الامكان ، عملا بالحديث القائل : « أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لى الكلام اختصارا » . فكانوا يجمعون المعنى الكبير فى اللفظ القليل ، حتى تكاد ترى المعنى مجردا من اللفظ . وكان لتلك الرسائل تأثير مثل تأثير الخطب البليغة ، كأنهم استعاضوا بعد زمن الفتح ببلغاء الكتاب عن بلغاء الخطباء

ومن أمثلة الرسائل المختصرة البليغة أن عمر بن الخطاب كتب الى عمرو ابن العاص أمير مصر ، وكان الحجاز فى ضنك عام الرمادة : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص . سلام عليك ، أما بعد فلعمرى يا عمرو ما تبالى اذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى .. فياغوثاه ثم يا غوثاه ! » فكتب اليه عمرو : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص . أما بعد فيالبيك ثم يا لبيك ! قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندى . والسلام عليك ورحمة الله »

ومن أمثلة تأثير المكاتبة البليغة أن عبد الملك بن مروان بنى بابا فى بيت المقدس باسمه ، وأمر الحجاج فبنى بابا باسمه هو ، فاتفق أن صاعقة وقعت فاحترق بها باب عبد الملك فقط ، فعظم ذلك عليه وتشاءم منه فكتب الحجاج اليه : « بلغنى أن نارا نزلت من السماء فأحرقت باب أمير المؤمنين ولم تحرق باب الحجاج ، وما مثلنا فى ذلك الا كمثل ابنى آدم اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » فسرى عن عبد الملك بذلك

وكان الخلفاء يختارون كتابهم من البلغاء ، ويتوخون جهدهم فى الاختصار مع البلاغة ، ومن أمثلة ذلك أن المأمون استكتب كاتبه عمرو بن مسعدة كتابا الى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فكتب : « كتابى اليك

كتاب واثق بمن كتب اليه ، معنى بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية »

وكثيرا ما كانوا يجيبون على الكتاب بعبارة مختصرة ، وخصوصا اذا أرادوا التهديد أو نحوه ، كما أجاب الرشيد نقفور ملك الروم ، وكان قد كتب اليه ينذره بقطع ما كان يحمله الروم الى بغداد من الأموال ، ويطلب اليه ارجاع ما كان قد قبضه منها الى أن قال : « وافتد نفسك بما تقع به المصادرة ، والا فالسيف بيننا وبينك » . فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب ، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب بعد البسملة : « قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ! » . وأجاب مثل ذلك الجواب يوسف بن تاشفين للاذفونش ملك الافرنج لما هدده بكتاب ، فكتب يوسف على ظهر الكتاب : « الذى يكون ستراه »

التوقيعات :

ويعد من هذا القبيل أيضا التوقيعات ، وهى ما كان يوقعه الخلفاء على ما يرفع اليهم من القصص بما يشبه (التأشير) فى دواوين هذه الايام ، وكانوا يتفننون فى التوقيع تفننا بديعا . ويغلب أن يجعلوا أجوبتهم آيات من القرآن ، أو جملا من الحديث ، أو أشعارا مشهورة . ومن أمثلة ذلك أن سعد بن أبى وقاص كتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه فى بنيان يبنيه ، فوقع عمر فى أسفل الكتاب : « ابن مايكنك من الهواجر وأذى المطر » . ووقع عثمان بن عفان فى قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بوجأ أعناقهم : « فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون » . وكتب سلمان الفارسى الى على بن أبى طالب يسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة ، فوقع على جوابه : « يحاسبون كما يرزقون »

وكتب عبد الله بن عامر الى معاوية فى أمر يعاتبه فيه ، فوقع فى أسفل الكتاب : « بيت أمية فى الجاهلية أشرف من بيت حبيب فى الاسلام ، فأنت تراه » . وكتب اليه ربيعة بن عسل اليربوعى يسأله أن يعينه فى بناء داره بالبصرة باثنى عشر ألف جذع ، فوقع فى أسفل الكتاب : « أدارك فى البصرة أم البصرة فى دارك ؟ ! » . وكتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسى منهم ، ويستأذنه فى قتل أشرافهم ، فوقع له : « ان من يمن السائس أن يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المتألفون » . ووقع عبد الملك فى كتاب ابن الأشعث :

فما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا وينوى من سفاهته كسرى

ووقع عمر بن عبد العزيز الى عامل شكاه الناس : « كثر شاكوك وقل

شاكروك ، فاما اعتدلت واما اعتزلت ، والسلام » .(١) وكتب اليه بعض عماله يستأذنه فى بناء مدينة فوقع على الكتاب : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم »

***

وقس على ذلك سائر توقيعات بنى أمية وبنى العباس ، وهى كثيرة وكلها بليغة ، كتوقيع المهدى لعامله على خراسان لأمر جاء عنه : « أنا ساهر وأنت نائم .. » . وتوقيع الرشيد الى عامله على مصر : « احذر أن تخرب خزانتى وخزانة أخى يوسف ، فيأتيك من لا قبل لك به ومن الله أكثر منه » . وتوقيع المأمون الى ابن هشام فى أمر تظلم فيه : « من علامة الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من تحته ، فأى الرجلين أنت ؟ »

وكان الأمراء والوزراء أيضا يوقعون مثل توقيعات الخلفاء فيما يرفع اليهم من القصص . فتظلم أحدهم الى زياد بن أبيه من بعض عماله بكتاب فوقع له : « أنا معك » . ووقع الحجاج فى كتاب أتاه من صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعة أهلها وما يقاسي من مداراتهم : « ما ظنك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه ؟ ! » . ووقع جعفر بن يحيى فى قضية محبوس : « ولكل أجل كتاب » . ووقع لآخر : « الجناية حبسته والتوبة تطلقه » . وقد اقتبس العرب التوقيع على هذه الصورة من الفرس لأنهم سبقوهم الى ذلك

وما زال الاختصار عمدة البلاغة فى رسائلهم ومكاتباتهم ، حتى تحضروا واختلطوا بالفرس بالمصاهرة والمعاشرة فاقتبسوا منهم التفخيم والمبالغة والتوسع . وقد بدأوا بذلك من أوائل القرن الثانى للهجرة . وأول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات فى فصول الكتب وفتق أكمام البلاغة عبد الحميد الكاتب المشهور المتوفى سنة ١٣٢ هـ وهو من أهل الشام (٢) غير عربى . وسار الكتاب بعده على خطته وقلدوه وتوسعوا فى طريقته ، فنبغ جماعة من مشاهير البلغاء فيهم الوزراء والأمراء وأكثرهم من غير العرب ، ومنهم يحيى بن خالد البرمكى فارسى ، والفضل بن الربيع من الموالى ، والفضل بن سهل فارسى ، والصاحب بن عباد من الطالقان ، وابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ وهو من أهل خراسان ، وعماد الدين الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ هـ من أهل أصبهان وهو أكثرهم توسعا واطنابا

انشاء الكتب :

ونريد بها الكتب المؤلفة فى الموضوعات الأدبية أو العلمية أو التاريخية أو نحوها ، وهى تختلف بلاغة وفصاحة باختلاف موضوعاتها . وكتب الأدب أحوج الى البلاغة لما تقتضيه الموضوعات الأدبية من التخيلات الشعرية

---

(١) المسعودى ١٢١ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٣٠٧ ج ١

والـكنايات ونحوها . والغـالب فى كتاب الأدب أن يطـالعوا آداب العرب ويخالطوهم ويحفظوا أساليبهم فى أشعارهم وخطبهم وأقوالهم ، فتحصـل فيهم ملكة البلاغة العالية ، ولذلك كان الفقهاء وأهل العلوم الطبيعية قاصرين فى البلاغة لاستغناء هذه العلوم عن الخيال ، فيتعودون التعبـير بعبـارات بسيطة بعيدة عن أساليب الأدباء . واذا حاولوا الكتابة فى الأدب أو نظم الشعر جاء كلامهم ضعيفا ركيكا

فلغة الكتاب ، قبل انتشار الفقه ونقل العلوم الطبيعيـة الى العربيـة ، كانت أقرب الى البلاغة مما صارت اليه بعد ذلك ، لأنها كانت مصوغة على مثال القرآن وهو عنوان البلاغة ، لكنه أقرب الى التعبير الشعرى منه الى الـكلام المرسل . فالذين حذوا حذوه فى صدر الاسلام أجادوا فى الخطب والمراسلات ، لافتقارهما الى ذلك الأسلوب بما فيه من أسباب التـأثير فى النفوس . فلما أقدم المسلمون على تأليف الكتب ، وكان معظم المؤلفين من الفرس اصطبغت بلاغة العربية بشىء من أسلوب الفرس فنشأ عنها الـكلام المرسل المتناسق . وأحسن أمثلته عبارة ابن المقفع فى كتاب كليلة ودمنة ، فانها لا تزال عنوان البلاغة والسهولة الى هذا اليوم

ابن المقفع :

كان ابن المقفع عريقا فى الفارسية عالما بآدابها متمكنا من أساليبها لأنها لغته ولغة آبائه . وكان يعرف اللغتين الفهلوية واليونانية ، وقـد نشأ فى البصرة فى النصف الأول من القرن الثانى للهجرة وهى حافلة بالأدباء والشعراء ، فبرع فى اللغة العربية وآدابها وكان سليم الذوق ذا قريحة انشائية . فلما أقدم على نقل كتاب كليلة ودمنة من الفارسية الى العربية جاءت عبـارته شاملة للبلاغة والسهولة ، وقد سار على نهجه من جاء بعده لأنه اقدم من حفظ انشاؤه فى الموضوعات الأدبية باللغة العربية (توفى سنة ١٤٣ هـ) (*)

على أن سائر كتاب الأدب نحو ذلك العصر قلما أنشأوا شيئا من عنـد أنفسهم ، لأن أكثر ما كانوا يكتبونه قطع كانوا يروونها عن أهل البـادية أو

(*) ألف عن ابن المقفع الدكتور عبد اللطيف حمزة كتابا قيما نشر فى القاهرة سنة ١٩٣٦ ، وهو خير مرجع عربى عن هذا الاديب الكبير الى الآن . وكان ابن المقفع يكنى بأبى عمر ، ثم سمى بعد ذلك عبد الله وكنيته ابو محمد . وكان أبوه روزبه بن دادويه فارسيا على المجوسية ثم أسلم ، وكان يتولى بعض الاعمال الخراجية للحجاج ، ثم اتهمه بتضييع الاموال وحبسه وعذبه. وقد نشأ ابنه عبد الله فى خدمة الدولة ولقى مصرعه على يد سفيان بن معاوية المهلبى فى خبر معروف ، وقد رمى بالزندقة واتهم بأنه رغم اسلامه كان يبطن المزدكية سنة ٧٥٧/١٣٩ على أصح الآراء . ولابن المقفع ـ علاوة على ترجمته المعروفة لكليلة ودمنة ـ ترجمة لكتاب فارسى آخر نقله باسم « سير ملوك العجم » وقد احتفظ ابن قتيبة بقطع منه فى « عيون الاخبار » ، وله أيضا « الدرة اليتيمة » فى آداب صحبة الملوك ، طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٣ ، وله أيضـا كتاب « الادب الصغير » القاهرة ١٩١٢ ، وقد ترجمه O. Rescher الى الالمانية ونشره فى ستوتجارت سنة ١٩١٥ . ونشر له أحمد زكى باشا كتاب « الادب الكبير » سنة ١٩١٣

انظر : الفهرست لابن النديم ، طبعة أوروبا ، ١١٨/١
ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ترجمة ١٨٦
البغدادى : خزانة الادب ، حـ ٤٥٩/٣
محمد كرد على : رسائل البلغاء ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩١٣ ص ٦ وما يليها
بروكلمان : تاريخ الآداب العربية ، ١٥٢/١

عن بلغاء الخطباء بنصها ، وربما وصلوا بينهـا بفقرات لا تتجاوز قولهم : حدثنا فلان ، أو أخبرنا فلان ، أو خطب فلان فقال كذا وكذا ، وكتب فلان الى فلان كذا وكذا ، مما لايعد من قبيل الانشاء المرسل . حتى ما كتبه أركان علم الأدب فى أواسط القرن الثالث للهجرة ، كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم ، فان كتبهم عبارة عن قطع من أقوال العرب أو مروياتهم منقولة بالاسناد الى أصحابها ، وشأنهم فى ذلك شأن كتاب المغازى والفتوح والسير والأخبار والأشعار، كحماد والأصمعى وأبىعبيدة ومحمد بناسحق، فانهم كانوا يقولون ويسندون أقوالهم الى الرواة ، وأكثرهم من أهل البادية. ويقال نحو ذلك فيما جمع بينهذه الفنون، ككتاب العقد الفريد لابنعبد ربه ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهاني وغيرهما ، فانها عبارة عن أخبار مسندة الى أصحابها ، ويندر فيها الكلام المرسل من عند المؤلف

فكتاب كليلة ودمنة أقدم ما وصل الينا من الانشاء المرسل من لغة رجل واحد . وهو عالم من علماء الفرس وقد نقل الكتاب عن لغة الفرس ، ونظرا الى ما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب فى عصره أو ما بعده من كتب الأدب ، يغلب على ظننا انه اكتسب ذلك من تأثير أساليب اللغات الاخرى التى كان يعرفها الكاتب ، أو لاقتدار خاص فى الكاتب نفسه على مثل ذلك الأسلوب . وقد قل من جاء بمثله بعده ولم يأت أحد بأحسن منه ، مع ما بلغ اليه العلم من الرقى فى العصر العباسى وما نبغ فيه من علية الكتاب المشاهير ، مما يدلك على أن الانشاء قريحة خاصة مثل قريحة الشعر لا تتقيد بالزمان أو المكان الا قليلا (*)

(*) الدراسات عن كتاب كليلة ودمنة كثيرة جدا فى كل اللغات تقريبا ، انظر مثلا المادة التى كتبها عنه بروكلمان فى دائرة المعارف الاسلامية

ونكتفي بأن نذكر هنا المحاولات التى قام بها أدباء ومؤلفون من العرب لانشاء كتب على شاكلته . فقد ألف ابن الهبارية « كتاب الصادح والباغم » ، وابن الهبارية هو نظام الدين ابويعلى محمد بن محمد وكان من شعراء القرن السادس الهجرى (توفى ١١١٥/٥٠٩) وهو قصص شعرى نحا فيه منحى كتاب بيدبا من الوعظ وارسال الحكم . وقد نظم ابن الهبارية كتاب كليلة ودمنة فى كتابه المعروف باسم « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » وقد طبع على الحجر فى بومباى ١٣٠٧ .

وألف عبد الله بن ظفر الصقلى المتوفى ١١٦٨/٥٦٥ أو ١١٧٢/٥٦٨ كتاب « السلوان المطاع » وهو مجموع من الحكايات والتواريخ ساقها على ألسنة الحيوان (طبع فى القاهرة ١٢٧٨ وفى تونس ١٢٧٩ وبيروت ١٣٠٠ هـ) وترجم الى التركية ، وترجمه الى الايطالية ميكيلى أمارى . وكذلك ألف امير طبرستان الاصبهبذ مرزبان كتابا من هذا الطراز بالفارسية ، ثم ترجم كتاب فيما بعد الى العربية بعنوان « روضة العقول » . وكذلك ترجم ابن عربشاه كتابا فارسيا من ذلك الطراز ونظمه شعرا فى كتاب « فاكهة الخلفاء ومفاخرة الظرفاء »

أنظر :

V. Chauvin, Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux arabes etc. II Kalilah (Liège-Leipzig, 1897)

J. Hertel, Das Panactantra, seine Geschichte und seine Verbreitung (Leipzig-Berlin 1914)

وتاريخ الفكر الاندلسى لجنذالذ بالنثيا (ترجمة حسين مؤنس ـ القاهرة ١٩٥٥) ، الفهرس ، مادة كليلة ودمنة

وما زالت الكتب تؤلف بالاسناد والرواية ، حتى كثرت المؤلفات العربية في كل فن أو علم ، وعمد الكتاب الى التلخيص والاختصار في القرن السادس أو السابع ، فأخذوا يحذفون الاسانيد أو يختصرونها الا لأسباب خاصة كما سترى في باب التاريخ

السجع :

ولما نضج التمدن الاسلامي وكثر فيه الأدباء والشعراء ، وأصبح الشعر شائعا على ألسنة الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكثر تمثلهم به وتناشدهم اياه ، ألف الناس التلذذ برنة القافية ، فاستحسنوا ادخالها أولا في المراسلات وهو التسجيع ، وقد كان في أول أمره مقبولا لقلته وحسن وقعه ، حتى أدخلوه في الكتب وكتبوا به المقامات في أواخر القرن الرابع . وأول من فعل ذلك بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ولعله اقتبس نسقها من أحمد بن فارس الرازي المتوفى سنة ٣٩٠ هـ (١) وعلى منواله نسج الحريري ولكنه تباعد عن السهولة والطلاوة . وشاعت هذه المقامات واستحسنها الناس فزادتهم رغبة في الاسجاع ، فتكاثر التسجيع في القرون الاسلامية الوسطى حتى مجته الأسماع وعاد الى نحو ما كان عليه في أيام الكهان

والتسجيع في الكتب انبى على السمع مما في الرسائل ، وخصوصا فيما لا يحتاج الى تنميق أو اطناب أو رنة أو خيال ككتب التاريخ والعلم . فمن يطالع كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ، أو الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الاصبهاني المتقدم ذكره ، أو تاريخ آل سلجوق لعماد الدين أيضا ير ثقل الأسجاع على الأسماع في التاريخ وان حسنت أحيانا في الرسائل والخطب

على أن معظم مشاهير الكتاب في كل العصور لم يكتبوا الا مرسلا ، وقد أجادوا كابن خلدون وابن الأثير والمسعودي وغيرهم . وقد كتب غير واحد منهم في تقبيح السجع حتى في المراسلات ، ونسبوا ذلك الى ضعف ملكة الانشاء (٢)

٣ — التاريخ والجغرافية

التاريخ :

بقي الانسان أحقابا لم يدون فيها التاريخ ، لأنه لم يكن يعرف الكتابة ، ولأن أحواله لم تكن تستدعي التدوين لسذاجتها ، مع انصراف همه في تلك

(١) ابن خلكان ٣٥و٣٩ ج ١ (٢) ابن خلدون ٤٩٨ ج ١

العصور الى ضروريات الحياة . على أنه ما لبث أن أصيب بطوارق الحدثان ، فحفظ أكثرها تأثيرا فى أحوال معائشه ، كالطوفان والقحط والحرب ونحوها، وتنوقلت تلك الاخبار فى أعقابه أدهارا ، وهى تتعاظم وتتكيف على ما تطلبه طبيعة الانسان من التلذذ باستماع الغريب ، واجتهاد الراوى فى التأثير على السامع بما يلقيه من الاخبار المنمقة المستغربة . فوصلت أخبار الأوائل الى زمن التاريخ وهى أشبه بالخرافات منها بالحقائق . واتخذ بعضها وجهة دينية ، والبعض الآخر وجهة حماسية ، واصطبغ بعضها صبغة شعرية أو خيالية ، ويختلف ذلك باختلاف الأمم والعصور . فنشأ من ذلك كله مايعرف بالخرافات القديمة ، كالميثولوجيا اليونانية فى الالياذة ، وأخبار الهنود فى المهابهاراتة ، وأخبار الفرس القدماء فى الشاهنامة ، وأخبار القبائل البائدة التى كان العرب يتناقلونها . فان ما ينسبونه الى عاد وثمود وطسم وجديس من الحوادث المستغربة لا يخلو من أصل تاريخى تعاظم وتضاعف على مر الايام ، وكذلك حديث سيل العرم وبلقيس وغيرهما

ويلى ذلك طبقة من الاخبار أقرب الى التاريخ من تلك ، كالمهاجرات القديمة والحروب القديمة ، ومنها أيام العرب وحروبهم قبل الاسلام ، وعام الفيل ونحوها مما أشرنا اليه فى باب علوم العرب قبل الاسلام . فجاء الاسلام وليس عند العرب من قبيل التاريخ غير أنسابهم وشذرات من تلك الاخبار والخرافات ، ولا علم لهم بأحوال الأمم الاخرى الا ماله علاقة بهم ، غير ما كانوا يسمعونه من حوادث التوراة والتلمود من أحبار اليهود أو قسس النصارى ، ولا يخرج ذلك كله عن أخبار متقطعة يقتصر الخبر منها على حادثة أو واقعة لا علاقة لها بالحوادث الاخرى

فالعرب قبل الاسلام كانوا يعدون من أضعف الأمم المتمدنة فى التاريخ . فلما ظهر الاسلام اشتغلوا بالفتوح والحروب ، حتى اذا استتب لهم الأمر وفرغوا من الفتح تدرجوا فى وضع التاريخ مثل تدرجهم فى سائر العلوم الاسلامية . وقد عددنا التاريخ من هذه العلوم ، لا لأنه خاص بالاسلام بل لأن الاسلام دعا الى وضعه كما سترى

قد تقدم فى كلامنا عن « حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم » أن العرب كانوا يتنزهون عن الاشتغال بالعلم ، الا الاخبار فانهم كانوا يشتغلون بها ويعنون بحفظها وسماعها وتناقلها ، وخصوصا أخبار الفرسان والشجعان والفصحاء والخطباء والشعراء ، لما فى ذلك من بواعث القدوة واستنهاض الهمم وترويض النفوس

وكان أكثر الخلفاء دهاء وسياسة أكثرهم رغبة فى استماع الاخبار . فمعاوية بن أبى سفيان داهية بنى أمية كان يجلس لأصحاب الاخبار فى كل

ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل ، فيقصون عليه أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها فى رعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكائدها. ثم ينام ثلث الليل ويقوم فيأتيه غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فيقرأون عليه ما فى تلك الكتب من سير الملوك وأخبار الحروب ومكايدها وأنواع السياسيات (١) والغالب فى اعتقادنا أن تلك الكتب باليونانية أو اللاتينية ، وفيها أخبار أبطال اليونان والرومان كالاسكندر ويوليوس قيصر وهنيبال ، وأن الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية لأن العرب لم يدونوا الكتب الا بعد زمن معاوية

وسماع أخبار العظماء يستنهض الهمم الى الاقتداء بهم ، ولذلك كان أكبر القواد العظام الراغبين فى العلا ، من العرب وغير العرب ، يستتلون أخبار من سبقهم من مشاهير القواد ، واذا وقع أحدهم فى مشكلة سياسية تدبر ما حدث من أمثالها قبله تسهيلا لابداء حكمه فيها . يقال ان المنصور لما هم بقتل أبى مسلم الخراسانى تردد بين أن يمضى قتله أو يشاور فيه ، لما كان لأبى مسلم من السعى الحميد فى قيام الدولة العباسية . فتزايد بلباله حتى أرق ، فلما أصبح استدعى اسحق بن مسلم العقيلى وقال له : «حدثنى حديث الملك الذى أخبرتنى عنه فى حران » ، فقص عليه الحديث وخلاصته أن سابور ملك الفرس أنفذ وزيره الى خراسان يدعو أهلها الى طاعته ، فمضى وسعى فى تحبيب الناس به ودعاهم الى طاعة نفسه . فلما استفحل أمره صمم سابور على قتله عند رجوعه اليه بأعيان خراسان ، فلما رجعوا بغتهم فلم ينتبهوا الا ورأس الوزير بين أيديهم ، فاضطروا الى طاعة سابور فلما سمع المنصور تلك الحكاية بما فيها من المشابهة بحكاية أبى مسلم أطرق مليا ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا　　وما علم الانسان الا ليعلما

واستقر رأيه على قتل أبى مسلم ، وقتله (٢) . وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل اذا دخل شهر رمضان أحضرت له كتب التواريخ والسير ، وجلسوا يقرأون عليه أحوال العالم ، فأصبح علم التاريخ من علوم الملوك وأصحاب السيادة ، وكان من الأمثال الشائعة فى أوائل الاسلام قولهم : «علم الملوك النسب والخبر ، وعلم أصحاب الحروب درس كتب الايام والسير ، وعلم التجار الكتابة والحساب » (٣)

فلما ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد الوزراء بأمور الدولة ، أصبح همهم منع الخلفاء من مطالعة التاريخ أو السير ، خوفا من أن يتفطنوا

(١) المسعودى ٥٢ ج ٢　(٢) البيان والتبيين ١٥٥ ج ٢　(٣) العقد الفريد ١٥٠ ج ١

الى أشياء لايحب الوزراء أن يفطنوا لها — قيل ان المكتفى طلب من وزيره كتبا يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة ، فجاءوه ببعض الكتب وفيها شيء مما جرى فى الايام السالفة ، من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحيل فى استخراج الأموال . فلما رآه الوزير غضب وقال لنوابه : « والله انكم أشد الناس عداوة لى .. أنا قلت لكم حصلوا له كتبا يلهو بها ويشتغل بها عنى وعن غيرى ، فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء ويوجد له الطريق الى استخراج الأموال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها .. ردوها وحصلوا له كتبا فيها حكايات تلهيه وأشعار تطربه » (١) ففعلوا

مصادر التاريخ الاسلامى :

للتاريخ الاسلامى مصادر كثيرة تدرج فيها على مقتضى الأحوال ، واليك تمثيل ذلك :

لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الأحاديث احتاجوا الى تحقيق الأماكن والأحوال التى نزلت فيها الآيات أو قيلت فيها الأحاديث ، فعمدوا الى جمع السيرة النبوية لأنها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها . وأول من دونها على المشهور محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥١ ، ألفها للمنصور . على أننا رأينا فى كشف الظنون أن محمد بن مسلم الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ ألف كتابا فى المغازى (٢) وقد توفى قبل ابن اسحق ببضع وعشرين سنة . ولكن يؤخذ من ترجمتهما فى وفيات الأعيان أنهما كانا متعاصرين. ويقال أيضا ان أول من صنف المغازى والسير عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٣ هـ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤ (٣) وعلى أى حال فان هذه السير ضاعت ، وأقدم ما وصل الينا منها سيرة عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ فى كتابه المعروف بسيرة ابن هشام ، وهى منقولة عن ابن اسحق المذكور وقد طبعت غير مرة

ولما اشتغل المسلمون فى ضرب الخراج على البلاد ، اختلفوا فى بعضها : هل فتح عنوة أو صلحا أو أمانا أو قوة ، وفى شروط الصلح أو الأمان . فاضطروا الى تدوين أخبار الفتح باعتبار البلاد ، فألفوا كتبا فى فتح كل بلد على حدة ، كفتوح الشام للواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وكتابه مشهور لكنه مملوء بالمبالغات بما يشبه الحكايات . وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وفتوح بيت المقدس ونحوها . ثم جمعوا فتوح البلاد معا فى كتاب واحد كفتوح البلدان للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وهو

---

(١) الفخرى ٥ (٢) كشف الظنون ٣٩و٣٠١ ج ٢ (٣) كشف الظنون ٤٧٠ ج ٢

أوثق كتب الفتح وأشملها وأقدم ما بين أيدينا منها ، الا الواقدى (*)

الطبقات والمغازى :

وقد رأيت فيما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والأدب ، أن العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم الى البحث فى أسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومتينها ، فجرهم ذلك الى النظر فى رواة تلك الأسانيد وتراجمهم وسائر أحوالهم ، حتى أصبح من شروط الاجتهاد فى الفقه معرفة الأخبار بمتونها وأسانيدها ، والاحاطة بأحوال النقلة والرواة : عدولها وثقاتها ومطعونها ومردودها ، والاحاطة بالوقائع الخاصة بها فقسموا رواة كل فن الى طبقات ، فتألف من ذلك تراجم العلماء والأدباء والفقهاء والنحاة وغيرهم ، مما يعبرون عنه بالطبقات ، ومنها : طبقات الشعراء ، وطبقات الأدباء ، وطبقات النحاة ، وطبقات الفقهاء ، وطبقات الفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والأطباء ،

(*) اذا استثنينا ما ينسب الى وهب بن منبه من الكتب عن تاريخ اليمن ، لانكاد نجد بين أيدينا مؤلفا خاصا بتاريخ العرب قبل الاسلام ، وكل مالدينا روايات واخبار ضمنها مؤرخو الاسلام فيما بعد كتبهم ، اعتمدوا فيها على روايات تنسب الى وهب تارة والى عبيد بن شرية تارة أخرى . فمحمد بن اسحاق مثلا أتانا بالكثير من روايات عبيد ، فى حين أورد محمد بن عبد الملك بن هشام معظم كتاب « التيجان » لوهب بن منبه . أما فيما يتصل بأخبار عرب الشمال ، وهى التى تعرف فى مجموعها بأيام العرب ، فقد أتتنا فى صور شذرات متفرقة معظمها فى كتب الادب ، كالكامل للمبرد والعقد الفريد لابن عبد ربه والاغانى للاصفهانى وعيون الاخبار لابن قتيبة . والكثير جدا من هذه الاخبار ينسب الى أبى عبيدة معمر بن المثنى التيمى ، وهو مولى فارسى ولد عام ٧٢٨/١١٠ وكان عالما بالانساب واخبار العرب ، وان رمى بالشعوبية والخارجية ، وقد ألف نحو مائة كتاب أورد لنا ابن النديم فى الفهرست طرفا منها

أنظر عنه :

Flügel, Die Grammatischen Schulen der Araber, pp. 68 sqq.
Goldziher, Muhammedanische Studien, 1, 194 sqq.
Brockelmann. Gesch. der Ar. Lit. I, 103

وقد توفى عام ٨٢٤/٢٠٩

ويشبه ابا عبيدة ثلاثة من اوائل الرواة ، وهم هشام بن محمد الكلبى المتوفى سنة ٨١٩/٢٠٤ وهو صاحب « كتاب الاصنام » ومعول ابن سعد فيما يروى من أخبار العدنانيين ، وابو مخنف لوط بن يحيى الازدى المتوفى ٧٧٤/١٥٧ ويقال انه ألف نيفا وثلاثين كتابا وقد أورد الطبرى جانبا كبيرا من رواياته (انظر فهرست ابن النديم ٩٣/١ وابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ١٧٥/٢) وعوانة بن عبد الحكم وقد نقل عنه الطبرى كثيرا

ومؤلفات هؤلاء جميعا تعتبر مقدمات لعلم التاريخ عند العرب ، اما مولد هذا العلم ففى كتب المغازى ، واول من كتب المغازى ابان بن عثمان وعروة بن الزبير . فأما ابان فهو حفيد الخليفة عثمان بن عفان ، وقد شهد الحروب بين على ومعاوية ، وحضر معركة الجمل وتوفى ١٠٥/ ٧٢٣ — ٧٢٤ ، وقد كتب مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عنه ابن سعد فى الطبقات . واما عروة بن الزبير بن العوام الاسدى ، فقد حفظ لنا معظم الروايات المتعلقة بأصول الاسلام بحسب رواية المدينة ، وقد ولد بين سنتى ٢٣ و ٢٩ هـ وتوفى بين سنتى ٩١ و ٩٩ ، أى انه شهد معظم أحداث القرن الهجرى الاول ، وقد اعتزل الناس بعد مقتل أخويه مصعب وعبد الله وفرغ للكتابة والتأليف . ونظرا لصلته القوية بعدد كبير من الصحابة فان أخباره التى يرويها على أعظم جانب من الاهمية ، والكثير من تأليفه مكتوب فى صورة خطابات بعث بها الى الوليد بن عبد الملك ، وقد روى عنه أخباره محمد بن مسلم الزهرى وأبناؤه — أبناء عروة — محمد وعبد الله وعثمان ويحيى وهشام ، والاخير منهم خاصة ، ثم سليمان بن يسار وابن أبى مليكة ، ومعظم أخباره وارد عند ابن اسحاق وابن سعد والطبرى . واخبار أبى مخنف وأبان بن

حتى الندماء والمغنين وغيرهم ، وألفوا فى كل باب غير كتاب . ولذلك كان المسلمون أكثر أمم الارض كتبا فى التراجم لأفراد الرجال

وأقدم كتب الطبقات التى وصلت الينا كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن سعد المعروف بكتاب الواقدى المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وهو كبير ربما دخل فى بضعة عشر مجلدا ، ويحتوى على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء الى

عثمان وعروة بن الزبير تعطينا صورة الاحداث كما يرويها أهل المدينة ، ولهذا يعرفون بمدرسة الرواة المدنيين . واخبارهم كلها شذور متفرقة مؤيدة بالاسناد ، وقد يروون الخبر اكثر من مرة ، كل مرة باسناد مختلف ، أى أنهم ساروا على طريقة المحدثين

وأول من جمع الاخبار المتعلقة بموضوع واحد واوردها على نسق هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، فقد نقل عنه الطبرى قطعا من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مسلسلة فى نسق تاريخى ، ومثال ذلك كلامه عن حديث الافك

ويعتبر منهج الزهرى الاساس الذى بنى عليه الجيل التالى من مؤرخى السيرة والمغازى ، واعظمهم جميعا محمد بن اسحاق بن يسار المتوفى ٧٦٨/١٥١ ، وكتابه يعين تطورا حاسما فى تاريخ التأريخ عند العرب ، فهو كتاب تاريخ بمعنى الكلمة . بدأ سيرة الرسول بمقدمة طويلة عن تواريخ الرسل قبله ، ثم تاريخ نسب الرسول ، فتحدث عن بنى اسماعيل ثم قريش ثم أجداد الرسول واحدا واحدا ، ثم أرخ للرسول . وكتابه ينقسم الى ثلاثة أقسام كبيرة : المبتدأ ، والمبعث ، والمغازى . وقد ضاع أصل كتاب ابن اسحاق ، فلم نجد منه الا أوراقا عثر عليها جروهمان فى أوراق البردى المصرية ، ولكن كثيرين صاغوا كتابه صياغة جديدة ، وأهم هؤلاء عبد الملك بن هشام صاحب السيرة المعروفة ، وهى سيرة محرفة مبتسرة ومعدلة كما يقول هو نفسه فى فاتحتها . غير أننا نجد الكثير مما حذفه ابن هشام عند الطبرى وابن سعد . وقد جمع رواياته كلها ــ بما فيها ما أورده ابن هشام ــ ألفريد جيوم وترجمها الى الانجليزية فى مجلد ضخم صدر سنة ١٩٥٧ . وقد توفى ابن هشام حوالى ٨٣٣/٢١٨

وكان ابن اسحاق من أهل العراق ، ولهذا جمع فى روايته الكثير مما تحصل له فى وطنه الاصلى ، وأخذ عن الكثيرين من الرواة الذين عاشوا فى العراق ، ومن هنا فان روايته تمثل ــ الى حد ما ــ مايسمى بالمدرسة العراقية . وقد حاول بعض المستشرقين أن يلتمسوا عنده نزعات شعوبية لا عربية ، ولكن ذلك غير صحيح ، فان ابن اسحاق وان كان مولى الا أنه يكتب عن روح عربى خالص

وبعد ابن اسحاق وابن هشام يتسع أفق التاريخ ويتحدد منهجه ، ومن هنا نرى فى الجيل التالى مؤرخين بمعنى الكلمة ، حقيقة انهم ينهجون منهج المحدثين فى الاسناد ، ولكن مفهوم التاريخ على أنه حوادث مرتبط بعضها ببعض ، وعلى ان هدفه هو الوصول الى حقيقة ماحدث ، يتحددان بصورة واضحة ، فنجد محمد بن عمر الواقدى مؤرخا ثابت القدم (٧٤٧/١٣٠ـ٢٠٧/ ٨٢٣) يروى تاريخا مسلسلا ترتبط فيه المقدمات بالنتائج ، ولم يقتصر الواقدى على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل اتجه الى تأليف تاريخ عام من بدء الخليقة الى زمن الرشيد ، وقد ضاع جزء كبير من تاريخه ، ولم تبق الا المغازى ، ومن حسن الحظ أن تلميذه محمد بن سعد المتوفى ٨٤٤/٢٣٠ ــ ٨٤٥ احتفظ لنا فى كتابه « الطبقات الكبرى » بقطع كبيرة من تاريخه

وكتاب محمد بن سعد يعين لنا ميلاد فرع جديد من فروع التاريخ الاسلامى قدر له أن يزدهر فيما بعد ، وهو « الطبقات » أى تراجم الرجال وتقسيمهم طبقات بحسب أجيالهم ، ولاشك أن انشاء ابن سعد لهذا الكتاب يعين خطوة واسعة فى طريقة تأليف التاريخ ، فان مثل هذا الكتاب يقتضى جمع أشتات المعلومات الخاصة بكل رجل ورواياتها على نسق متصل مع الاشارة الى ما يكون قد ورد منها فى تراجم الآخرين . ثم انه بعد ان فرغ من تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم كتب فصولا كاملة عن نواح تتصل بشخصيته الكريمة : « صفة اخــــلاق النبى » و « علامات النبوة » وما الى ذلك ، أى أنه أتبع السيرة بدراسة لشخصية الرسول

وقد قدر لمدرسة العراقيين أن تكون نقطة البدء لما كتب فيما بعد من التواريخ العامة للاسلام ، فان مدرسة المدينة يقتصر دورها على المغازى أى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وما تقدمه من اخبار ، وربما استمر المدنيون عمدتنا فيما يتصل بأحداث عصر الراشدين ، فقد كانت المدينة عاصمة الدولة وكان المشتغلون بالتاريخ من أهلها من كبار الشخصيات كما رأينا ، ممن يظن أنهم كانوا يطلعون أيضا على أوراق رسمية

أيام المؤلف (١) وكان هذا الكتاب مشتتا فى مكتبات العالم ، ومنه الجزء الثانى فى دارالكتب الخديوية (المصرية) بمصر ، وقد علمنا ونحن نخط هـذه الحروف أن جمعية ألمانية شرعت فى طبعه وأصدرت الجزء الأول منه (*) .

انظر :

A. Grohmann, Allgemeine Einfuhrung in die arabische Papyri, Wien 1934, pp. 27-30

وقد بدأت رواية العراقيين معتمدة على نفر من رجال مدرسة المدينة ومنهم أبو مخنف ، وقد حفظ لنا روايته هشام الكلبى ، وهى رواية تمثل وجهة نظر العراقيين فى الصراع بين على ومعاوية ، ويقابل هذه الرواية رواية عوانة بن عبد الحكم ، وقد رواها هشام الكلبى ايضا ، وهى تأخذ جانب معاوية (انظر عن مراجع عوانة مقدمة Wellhausen, Das arabische Reich)

ورواية سيف بن عمر المتوفى ١٨٠/٧٩٦ تمثل اتجاه التميميين ، فى حين ان رواية ابى مخنف تمثل رأى الازد ، وروايات هؤلاء جميعا قصصية تستطرد فى ذكر ما قامت به القبائل من ادوار فى الفتوح ، وخير من يمثل هذا الاتجاه القبلى الشعبى ابو عامر بن شراحيل بن عمرو (١٩/ ٦٤٠ - ١١٠/٧٢٨) وهو محدث يقال انه سمع من ٥٠٠ صحابى وشيخ ، ولكن احاديثه حافلة بالمادة التاريخية ، وقد رواها الطبرى وابن قتيبة

وابتداء من القرن الثالث الهجرى يدخل التأريخ الاسلامى فى عصر جديد ، فقد ادخلت صناعة الورق فى بغداد واصبح من الممكن تدوين الكتب بدلا من الاعتماد على الرواة . ويمكن القول ان عصر الرواة ينتهى عند الشعبى ، وبعد ذلك يبدأ عصر التدوين ، ويقترن ذلك بأعمال المدائنى (على بن محمد المتوفى ٢٢٥/٨٤٠) فقد كتب كتبا كثيرة فى التاريخ ، واخباره كلها مؤيدةبالاسناد ولكنها مدونة فى نسق تاريخى ، وعماده الاساسى على أبى عبيدة . وقد ولد المـدائنى فى البصرة ١٣٥/٧٥٢ وألف كتباكثيرة فى شتى الفنون ، حتى روى صاحب الفهرست اسماء ٢٣٩ من مؤلفاته ، واهم مؤلفاته « كتاب اخبار الخلفاء الكبير » الذى يؤرخ لهم حتى زمن المعتصم ، وقد اعتمد عليه الطبرى اعتمادا عظيما . انظر عنه

Wüstenfeld, Die Geschichtschreiber der Araber .

وفى عصر المدائنى اصبح التاريخ علما له اصول وقواعد ، فابتعد عن القصص ، ولم يعد داخلا فى اختصاص القصاص ، وابتعد أيضا عن الحديث ، ولم يعد من بضاعة رجال الحديث . ومن هنا فاننا نجد انفسنا امام مؤرخين متوفرين على التأريخ مثل البلاذرى صاحب كتابى « فتوح البلدان » و « انســاب الاشراف » (توفى ٢٧٩/٨٩٢) وكان تلميذا لابن ســعد والمدائنى وأبى حنيفة الدينورى المتوفى ٢٨٢/٨٩٥ وابن واضح اليعقوبى (توفى ٢٨٤/٨٩٧) وابن قتيبة توفى (٢٧٦/٨٨٩) وحمزة الاصفهانى (توفى ٣٦٠/٩٧٠) وابى الحسن المسعودى (توفى ٣٤٥/ ٩٥٦) حتى بلغ التأريخ الاسلامى قمته على يد الطبرى ، محمد بن جرير (توفى ٣١٠/٩٢٣) وعبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم (توفى ٢٥٧/٨٧١) وغيرهما . وقد وصلنا بهذا الى دور التأريخ الاسلامى الصحيح ، والقصة بعد ذلك طويلة لا يتسع لها المجال

انظر :

F. Wüstenfeld, Die Geschichtschreiber der Araber (Gottingen, 1882)
D.S. Margoliouth, Lectures on Arabic Historians, Calcutta 1930
J. Horovitz, The Earliest Biographies of the Prophet (in Islamic Culture, Heyderabad 1928)

وقد ترجمه الى العربية الدكتور حسين نصار باسم « كتب المغازى الاولى واصحابها » القاهرة ، ١٩٥٤ . وانظر ايضا كتابه « نشأة الكتابة الفنية عند العرب » (القاهرة ١٩٥٦)

Lévi Provençal, Les Historiens des Chorfa (Paris, 1922)

ومادة تاريخ بقلم هـ.ا.ر. جب فى ملحق دائرة المعارف الاسلامية

Rosenthal, History of Moslem Historiography (New-Haven 1953)

وهو ترجمة للاعلان والتوبيخ للسخاوى وتعليق ضيف عليه

(١) ابن خلكان ٥٠٧ ج ١

(*) نشره ادوارد سخاو E. Sachau فى لايدن فى ثمانية مجلدات من عام ١٩٠٤ الى ١٩١٧ ، ثم نشر بعد ذلك المجلد التاسع وهو يضم الفهارس . ونشر منه مجلد واحد يحوى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فى القاهرة سنة ١٩٢٥ . وينسب الى ابن سعد ايضا قصيدة مازالت مخطوطة فى دار الكتب المصرية عنوانها القصيدة الحلوانية فى افتخار العـدنانيين على القحطانيين . فهرس الدار ٢٨٣/٣

ثم طبقات الشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وقد طبع فى ليدن فى هذا العام بعناية الاستاذ دىخويه المستشرق الهولندى الشهير (*) . ثم ألف الناس طبقات كثيرة فى أزمنة مختلفة ، ومنها استخرجوا كتب التراجم الكبرى ، كوفيات الأعيان ، والوافى فى الوفيات ، وفوات الوفيات ، وغيرها مما سيأتى ذكره ، غير التراجم الدخيلة فى تواريخ البلاد ، كتاريخ دمشق لابن عساكر فى ثمانين مجلدا ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى فىنحوذلك وفيهما تراجم كثيرة

وكان طلاب الأدب الراحلون فى جمع اللغة والشعر من أفواه أهل البادية يلتقطون أخبار العرب ووقائعهم وحوادثهم ويدونون ذلك فى كتب الادب كما تقدم . ناهيك بالأخبار المستخرجة من تلك الاشعار ــ قال ابن يونس : « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس » (١)

ولما استبد بنو أمية بالخلافة واعوجوا فى أحكامهم عن سبل الخلفاء الراشدين ، كثر تحدث الناس بأخبار الراشدين وتذكر أعمالهم المؤسسة على العدل والرفق ــ وذلك طبيعى فى هذه الأحوال . ثم ألف بعضهم كتبا فى تاريخ الخلفاء الراشدين ، ثم فى الخلفاء على الاجمال ، وأقدمهم الدينورى المتوفى سنة ٢٨١ هـ ، ويقال نحو ذلك فى تأليف تراجم الوزراء ، وتواريخ عمال الشرطة وتواريخ الأذكياء والبخلاء والعشاق وغيرهم

التواريخ العامة:

فانقضى القرن الثانى للهجرة ونصف الثالث وكتب التاريخ عند المسلمين الطبقات والمغازى والسير والفتوح على ماتقدم . أما التواريخ العامة مثل تواريخ الأمم أو البلاد قديما أو حديثا فلم يشتغلوا بها الا بعد ذلك ، وأقدم من كتب فى التاريخ العام ابن واضح المعروف باليعقوبى ، وكتابه مطبوع فى جزئين : جزء فى التاريخ القديم كاليهود والهنود واليونان والروم والفرس وغيرهم ، والثانى فى تاريخ الاسلام من ظهوره الى أيام المعتمد العباسى الذى تولى الخلافة سنة ٢٥٦ هـ . ويليه ابن جرير الطبرى المفسر الشهير المتوفى سنة ٣١٠ هـ وتاريخه كبير مرتب على السنين ينتهى الى حوادث سنة ٣٠٢ هـ . وقد ألف الفرغانى عليه ذيلا ينتهى الى سنة ٣١٢ هـ ، وكلاهما مطبوع . ثم المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ صاحب « مروج الذهب » وفيه وصف البلاد والبحار والحيوانات وغيرها ، فضلا عن التاريخ ، وهو مبوب حسب الدول أو الأمم ومطبوع . وللمسعودى كتاب سماه « أخبارالزمان » قد ضاع ولم يقف له أحد على أثر ، ولكن يظهر مما ذكر عنه فى مروج

(*) عنوان الكتاب « الشعر والشعراء » لابى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفى ، وقد أعاد نشره بعد دى خويه الاستاذ احمد محمد شاكر فى طبعة متقنة فى مجلدين ، القاهرة ١٣٦٤ ــ ١٣٦٥

(١) البيان والتبيين ١٢٤ ج ١

الذهب أنه مطول جدا . يليه حمزة الأصفهانى صاحب « تاريخ سنى ملوك الارض » فرغ من تأليفه سنة ٣٥٠ هـ

وظل الناس على هذه التواريخ وقليل غيرها الى القرن السابع للهجرة ، اذ انقضت الدول الاسلامية العربية : العباسية فى العراق ، والفاطمية فى مصر ، والأموية فى الاندلس . وقامت دول الاتراك والاكراد والبربر ، فانتقل الناس الى عصر جديد ، فعمدوا الى تدوين تاريخ العصر المنقضى ، فاستعانوا بالكتب التى تقدم ذكرها فاختصروا مطولها وبوبوا مشوشها وجمعوا بين موضوعاتها وأضافوا ما لم يدركه أصحابها . والفوا عدة تواريخ مطولة ، أشهرها وأوعاها وأضبطها كتاب « الكامل » لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ فقد ضمنه تاريخ الطبرى كله بعد حذف الأسانيد واختصار النصوص المطولة ، وزاد عليه ما حدث بعده وما حدث فى زمن الطبرى فى الاندلس وغيرها . ورتب ابن الاثير كتابه على السنين ، مثل كتاب الطبرى ، فجاء ١٢ مجلدا كبيرا ، وهو مطبوع . وجاء بعده أبو الفداء صاحب حماه ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، فأخذ الكامل فلخصه وأدخل فيه كثيرا من أخبار الادباء والعلماء ، وتوسع فى أخبار العرب الجاهلية وأبقاه على حوادث السنين ، فجاء فى ثلاثة مجلدات ، وهو مطبوع ومنشور . وجاء بعده عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ فاختصر تاريخ أبى الفداء

ثم نبغ العلامة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ والعرب قد ذهبت دولهم تمام الذهاب واتضحت عبرة التاريخ . وكان ابن خلدون عالما دقيق النظر صحيح القياس ، فألف تاريخه المشهور ورتبه على الدول بدل السنين ، وأفاض خصوصا فى أخبار المغرب والاندلس مما لم يسبقه اليه أحد . ويمتاز هذا التاريخ عما سبقه بمقدمة فلسفية لم ينسج أحد على مثالها قبلها ، حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة . وفى شهرتها ما يغنى عن وصفها

ونهج بعض المؤرخين فى تآليفهم منهجا آخر ، فجعلوا مؤلفاتهم بأسماء المدن فضمنوا كتبهم وصف تلك المدن وتراجم الذين عاشوا فيها . وأطول المؤلفات من هذا الصنف تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ فى ثمانين مجلدا وقد تقدم ذكرهما ، وكلاهما لم يطبعا ، والثانى أكثر وجودا من الاول . ومن هذا القبيل خطط مصر للكندى ثم للقضاعى ثم للمقريزى ، وهذه الاخيرة مشهورة ومثلها أخبار مصر القاهرة لأبى المحاسن والسيوطى

التراجم والمعجمات :

وأما التراجم فكانت فى القرون الاولى تدون فى الطبقات ، باعتبار المهن أو العلم الذى يجمع كل طبقة كما تقدم . فلما نضج العلم وأخذ العلماء فى الترتيب والتبويب ، نبغ جماعة من المؤرخين استخرجوا من الطبقات وغيرها كتب التراجم ورتبوها على حروف المعجم ، وأشهر تلك الكتب

« وفيات الأعيان » لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، ثم « فوات الوفيات » لصلاح الدين بن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ استدرك فيه ما فات ابن خلكان ذكره ، وكلاهما مطبوعان ومشهوران. وكتاب «الوافى فى الوفيات» لصلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وهو كبير لكنه لم يوجد مجموعا فى مكتبة واحدة ولا جمعوه بعد ، فهو لم يطبع ومنه أجزاء متفرقة فى مكتبات أوربا (*) . ومثله كتاب « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ فى ٤٠ مجلدا ، وهو مشتت (**) . وفى تراجم أهل الاندلس كتب كثيرة منها كتاب « الصلة » لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ وكتاب «المعجم» لابن الأبار وغيرهما (***)

ومن هذه المعجمات التاريخية ما هو خاص بفئة من الناس أو طبقة من طبقاتهم ككتاب « أسد الغابة » فى أخبار الصحابة لابن الأثير صاحب الكامل، وهو فى خمسة أجزاء كبيرة وخاص بالصحابة ، وهو مطبوع ومنشور . و « تراجم الحكماء » لابن القفطى غير مطبوع (****)

(*) لا زالت مخطوطات كتاب الوافى بالوفيات متفرقة فى المكتبات ، وقد نشر مقدمته عمار Amar فى المجلة الاسيوية الفرنسية سنة ١٩١١ — ١٩١٢ ، مجلدات ١٧ — ١٨ — ١٩ . وقد نشر المستشرق جابريلى Gabrieli فهرسا كاملا لمواده جمعها من شتى المخطوطات واحصى ترجماته بأربعة عشر ألفا

(**) سبط ابن الجوزى ، هو شمس الدين ابو المظفر يوسف قزدغلو وكتابه المسمى « مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان » يعتبر تاريخا عاما من بدء الخليقة الى عصره . لم تنشر منه الا قطعة تضم الحوادث من عام ٤٩٥ الى ٦٥٤ ميلادية ، نشرها J.R. Jewett فى شيكاغو سنة ١٩٠٧ ونشرت منه فقرات عن حوادث السنوات من ٤٠٠ الى ٥٣٢ فى مجموع مؤرخى الحروب الصليبية المعروف باسم
Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, III. p. 65 sqq.

(***) نشر كتابا ابن الابار وابن بشكوال المشار اليهما فى السلسلة المعروفة باسم Bibliotheca Arabico-Hispana وهى تضم مايلى :
ابن بشكوال : كتاب الصلة ، مجلد ١ و ٢ مدريد ١٨٨٢ — ١٨٨٣
الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس ، مجلد ٣ مدريد ١٨٨٥
ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ، مجلد ٤ — ٥ ، مدريد ١٨٨٦
ابن الابار : كتاب التكملة ، مجلد ٥ و ٦ مدريد ١٨٨٧ — ١٨٩٠
ابن خير ، فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وانواع المعارف ، مجلد ٩ و ١٠ ، مدريد ١٨٩٤ — ١٨٩٥

وقد قام على نشر هذه المكتبة الحافلة بالتراجم المستشرقان الاسبانيان كوديرا وريبيرا . وقد طبع الاستاذ العطار الحسينى كتاب الصلة لابن بشكوال وكتاب تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى معتمدا على طبعة مدريد

أنظر عن هؤلاء جميعا : تاريخ الفكر الاندلسي لجنذالد بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ، الفهرس

(****) طبع فيما بعد . وقد أورد المؤلف اسماء اعلام المؤرخين ، فرأيت أن أوردهم هنا مع بيان اهم طبعات مؤلفات كل منهم :

ابن الاثير ، على بن احمد بن أبى الكرم — « الكامل فى التاريخ » :

— نشره C.J. Tornberg فى لايدن فى ١٤ مجلدا ١٨٥١ — ١٨٧٦ وجعل له عنوانا لاتينيا هو :
Chronicon quod perfectissimum inscribitur

— وطبع فى بولاق فى ١٢ مجلدا سنة ١٢٧٤

— وطبع أخيرا فى القاهرة طبعة غير متقنة ولا مفهرسة ، سنة ١٩٣٠ فى عشرة مجلدات

الاصفهانى ، أبو ألفرج — « الاغانى » :

— طبع فى بولاق طبعة جيدة فى ٢١ جزءا سنة ١٢٨٥ ، وعمل فهرسا مفصلا لهذه الطبعة المستشرق الايطالى أجنازيو جويدى ، وترجم الفهرس الى العربية محمد مسعود ، ونشره الساسى فى القاهرة سنة ١٣٢٣

على أن كثيرا من التراجم والاخبار التاريخية منتشر فى كتب الأدب،ككتاب الأغانى والعقد الفريد والكشكول والمستطرف والبيان والتبيين . وقد تجد فصولا تاريخية مهمة فى كتب العلم الطبيعى ، ككتاب حياة الحيوان للدميرى فان فيه فصولا تاريخية قلما نعثر عليها فى كتب التاريخ

ـ تعيد دار الكتب المصرية طبعه منذ سنة ١٩٠٣ وصدر الجزء الخامس عشر ، ولم تتم الطبعة الى الآن

أوتيخا ، سعيد بن البطريق ـ « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » :

ـ طبع فى بيروت سنة ١٩٠٩

البغدادى : ابو على احمد بن على ـ « تاريخ بغداد او مدينة السلام » :

ـ طبع فى القاهرة فى ١٤ جزءا سنة ١٣٤٩/١٩٣٦

البلاذرى ، احمد بن يحيى بن جابر ـ « فتوح البلدان » :

ـ نشره M. J. de Joeje فى لايدن سنة ١٨٦٦

ـ ترجمه الى الانجليزية فيليب حتى ، ونشر الترجمة بعنوان
The origins of the Islamic State. 2 vols. New-York, 1916.

ـ ترجمه O. Rescher الى الالمانية ونشره فى مجلدين ، لايبسيك ١٩١٧ ـ ١٩٢٣

ـ نشر فى القاهرة مرات متعددة نشرات غير علمية وبدون فهارس

البلخى ، ابو زيد بن سهل ـ « كتاب البدء والتاريخ » ،وينسب ايضـا الى مطهر بن طاهر المقدسى :

ـ نشر فى باريس سنة ١٨٩٩ ـ ١٩٠٧ فى ستة مجلدات

البيرونى ، ابو الريحان محمد بن احمد ـ « الآثار الباقية عن القرون الخالية » :

ـ نشره مع ترجمة انجليزية ادوارد سخاو فى لايبسك ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩

حاجى خليفة ، مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب شلبى ـ « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » :

ـ نشره G. Fluegel وطبع فى لايبسك سنة ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨ وترجمه الى الالمانية ونشر الترجمة سنة ١٨٥٨

ـ طبع فى الاستانة سنة ١٣١٠ ـ ١٣١١ فى ٤ مجلدات

ـ طبع فى بولاق ١٢٧٤

الجهشيارى ، ابو عبد الله محمد بن عبدوس ـ « الوزراء والكتاب » :

ـ نشر فى القاهرة سنة ١٩٣٨ نشرة علمية محققة مفهرسة بعناية مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى

ابن خلدون ، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد ـ « العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الاكبر » :

ـ طبع فى بولاق (بما فى ذلك المقدمة) فى ٧ أجزاء ، ١٢٤٨

ـ أعيد طبعه مع المقدمة فى بيروت فى اجزاء صـغيرة كثيرة سنة ١٩٥٦ باشراف أسعد داغر طبعة غير محققة ، ولكنها مفهرسة

ـ طبعت المقدمة فى القاهرة طبعات كثيرة

ـ طبعها طبعة جيدة الاب لويس شيخو فى بيروت سنة ١٨٨٦

ـ نشر الجزئين ٤ و ٦ الخاصين بالبربر البارون دى سلان M.J. De Slane فى مجلدين فى الجزائر سنة ١٨٤٧ ـ ١٨٥١ وترجمه الى الفرنسية بعنوان
Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale Paris, 1862

ـ نشر المقدمة وترجمها الى الفرنسية Etienne Quatremère بعنوان Les Prolegomènes بيروت ١٨٨٦

ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم ـ « وفيات الاعيان » :

ـ نشر فى بولاق ١٢٨٣ هـ .

ـ ترجمه دى سلان ونشر الترجمة فى باريس ١٨٤٢ ـ ١٨٤٨

ـ نشر فى المطبعة اليمنية بالقاهرة سنة ١٣١٠ واعاد طبعه محيى الدين عبـد الحميد فى ستة مجلدات مع فهارس . القاهرة

ويمتاز التاريخ عند العرب على سواه عند سائر الأمم التى تحضرت قبلهم بكثرة ما كتبوه من التراجم ، وأكثره بشكل القواميس وهم السابقون فى ذلك وعنهم أخذ أهل العالم تأليف المعجمات التاريخية . فعندهم من قواميس التراجم بضعة صالحة ، هى كنوز فى التاريخ والجغرافية والأدب

الدينورى ، أبو حنيفة احمد بن داود ــ « الاخبار الطوال » :
ــ نشره W. Guirgass فى لايدن ١٨٨٨
ــ نشر فى القاهرة نشرة غير محققة بدون تاريخ

السيوطى ، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن ابى بكر :
ــ « تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائمين بأمر الامة » ، نشر فى القاهرة سنة ١٣٥١
ــ « الاتقان فى علوم القرآن » ، نشر فى كلكتا ١٨٥٢ ــ ١٨٥٤ وأعيد نشره فى القاهرة مرارا ١٢٧٨ ــ ١٣٠٧ ــ ١٣١٥
ــ « حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة » ، نشر فى القاهرة فى مجلدين سنة ١٣٢٧

الشابشتى ، ابو الحسن على بن محمد ــ « كتاب الديارات » :
ــ نشرته فى دمشق المستشرقة سورديل تومين سنة ١٩٥٣ ، وترجمته ونشرت الترجمة الفرنسية سنة ١٩٥٦

الشهرستانى ، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم ــ « الملل والنحل » :
ــ طبع فى القاهرة فى ٥ مجلدات ١٣١٧
ــ أعيد نشره نشرة علمية فى القاهرة سنة ١٩٥٦

ابن طباطبا ، محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ــ « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » :
ــ نشر فى القاهرة ١٩٢٣ واعيد طبعه مرارا

الطبرى ، ابو جعفر محمد بن جرير ــ « تاريخ الرسل والامم والملوك » :
ــ طبعه دى غويه فى لايدن فى ١٠ مجلدات مع فهارس ، لايدن ١٨٨١
ــ طبع فى القاهرة مرارا طبعات غير محققة

ابن عبد ربه ، شهاب الدين احمد ــ « العقد الفريد » :
ــ طبع فى القاهرة مرارا ، واحسن طبعاته طبعة أحمد أمين وآخرين فى ٧ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٠ ــ ١٩٤٧

ابن عذارى المراكشى ــ « البيان المغرب فى اخبار افريقية والمغرب » :
ــ نشر الجزءان ١ و ٢ راينهارت دوزى ، لايدن ١٨٤٨ ــ ١٨٥١
ــ نشر الجزء الثالث ليفى بروفنسال سنة ١٩٣٢
ــ نشر الجزء الرابع امبروزيو هويثى فى مدريد سنة ١٩١٤ بعنوان « تاريخ الموحدين »
ــ بدأ فى اعادة طبعه على مخطوطات جديدة ليفى بروفنسال وج.س. كولان فى لايدن ونشرا الجزئين ١ و ٢
ــ طبع فى بيروت طبعة غير محققة فى مجلدين

ابو الفدا ، اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه ــ «المختصر فى اخبار البشر » :
ــ نشر فى الاستانة فى أربعة اجزاء سنة ١٢٨٦
ــ أعيد طبعه فى القاهرة ١٣١٥

ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم :
ــ « كتاب المعارف » ، القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤
ــ « عيون الاخبار » ، ٤ اجزاء ، القاهرة ١٣٤٣ ــ ١٣٤٨

قدامة ، ابو الفرج بن جعفر :
ــ « نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتاب » نشره دى غويه فى ليدن ١٨٨٩
ــ « نقد النثر » ، حققه طه حسين وعبد الحميد العبادى ، القاهرة ١٩٣٤
ــ عثرت على اجزاء اخرى من « كتاب الخراج » وتبين من المقدمة أن الكتاب كان فى أصله أشبه بموسوعة لعمال الدواوين والكتاب ، وان كتاب نقد النثر جزءمنه

القفطى ، جمال الدين على بن يوسف بن ابراهيم ــ « اخبار العلماء بأخبار الفقهاء » :
ــ نشره Lippert فى لايبسيك ١٩٠٣

والعلم . فوفيات الأعيان معجم يزيد عدد الترجمات فيه على ٨٢٠ ترجمة مرتبة على أحرف الهجاء ، غير ما جاء عرضا فى أثناء الكلام على الآخرين . ومن مزاياه أنه يضبط الاعلام من أسماء الرجال والاماكن ، ويذكر سنى

— اعيد نشره فى القاهرة سنة ١٣٢٦
القلقشندى ، ابو العباس احمد — « صبح الاعشى فى صناعة الانشا » :
— طبعته دار الكتب المصرية فى ١٤ مجلدا ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧
الكتبى ، محمد بن شاكر بن احمد الحلبى — « فوات الوفيات » :
— نشر فى القاهرة ١٢٩٩ فى جزئين
— اعاد نشره محيى الدين عبد الحميد فى مجلدين ، القاهرة ١٩٥٠
الكندى ، ابو عمر محمد بن يوسف — « كتاب الولاة وكتاب القضاة » :
— نشره Rhuven Guest فى لندن ١٩١٧
ابن تغرى بردى ، ابو المحاسن جمال الدين بن يوسف — « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » :
— تنشره دار الكتب المصرية منذ سنة ١٩٢٩ فى عدة أجزاء
— نشر W. Popper ثلاثة أجزاء (٥ — ٧) منه فى مطبوعات جامعة كاليفورنيا ١٩٠٩ — ١٩٣٦
المسعودى ، ابو الحسن على — « مروج الذهب ومعادن الجوهر » :
— طبع فى القاهرة فى جزئين سنة ١٣٤٧
— نشره نشرة علمية مع ترجمة فرنسية المستشرق Barbier de Meynard ، باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧
— « كتاب التنبيه والاشراق » ، نشره دى غويه فى لايدن سنة ١٨٩٣
ترجمه الى الفرنسية كارادى فو ونشره فى باريس ١٨٩٦
— اعيد نشره فى القاهرة سنة ١٩٢٧
المقريزى ، تقى الدين احمد بن على — « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار »
— نشر فى القاهرة سنة ١٢٧٠ فى جزئين
— بدأ نشره نشرة علمية G. Wiet فى القاهرة سنة ١٨١١ ولم يتمه
— « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، نشر منه مجلدين فى القاهرة الدكتور محمد مصطفى زيادة وهو يواصل نشره
— ترجم كاترمير قطعة كبيرة من السلوك ونشرها فى باريس ١٨٣٧ — ١٨٤٥
— « اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا » ، نشره فى القاهرة الدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٧
— « اغاثة الامة بكشف الغمة » ، نشره الدكتوران الشيال وزيادة ، القاهرة ١٩٤٦
ابن النديم ، محمد بن اسحاق — « كتاب الفهرست » :
— نشره Fluegel فى لايبسك ١٨٧١
— نشر فى القاهرة ١٣٤٨
ياقوت ، شهاب الدين ابو عبد الله الرومى :
— « معجم البلدان » ، نشره فى ستة مجلدات فى لا يبسيك ١٨٦٦ — ١٨٧٣ المستشرق فستنفلد
— نشر فى القاهرة فى ١٠ اجزاء سنة ١٩٠٧
— « معجم الادباء » (ارشاد الاريب الى معرفة الاديب) ، نشره مارجوليوث فى القاهرة ١٩٠٧ — ١٩٣١
— نشره احمد فريد رفاعى فى القاهرة سنة ١٩٣٨ فى ٢٠ جزءا
اليعقوبى ، احمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح :
— « تاريخ اليعقوبى » ، نشره Houtsma فى لايدن ١٨٨٣
— « كتاب البلدان » نشره Juynbull ، ليدن ١٨٦١ وترجمه الى الفرنسية G. Wiet ونشره فى القاهرة ١٩٣٧
أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم — « كتاب الخراج » :
— بولاق ١٣١٢
— نشره فى القاهرة سنة ١٣٤٦ الشيخ محمد محمود شاكر
وقد اقتصرنا هنا على من ذكرهم المؤلف او من سيذكرهم فيما يلى من فصول الكتاب

الوفاة والولادة ، ويضمن التراجم كثيرا من الفوائد الأدبية والعلمية مما يندر في سواه . ويقال نحو ذلك في قواميس التراجم الاخرى ، كفوات الوفيات وفيه أكثر من ٤٥٠ ترجمة لم يذكرها ابن خلكان ، وكتاب الوافي في الوفيات، وأسد الغابة في أخبار الصحابة ، وكتاب تراجم الحكماء . غير كتب التراجم المرتبة على غير الهجاء ، ككتب الطبقات للشعراء والفقهاء والأطباء ، ومن أحسنها كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ، فانه جامع تاريخ الطب والأطباء والعلم والعلماء والفلسفة والفلاسفة عند اليونان والفرس والهنود والكلدان ، فضلا عن العرب والمسلمين ، وهو مرتب بحسب العصور والبلاد ، ناهيك بما يتخلل ذكر مؤلفاتهم ووصفها من العادات والآداب الاجتماعية وغيرها ، وهو مطبوع ومشهور

عدد كتب التاريخ :

فالمسلمون الفوا في التاريخ كتبا لا تحصى ، وما من أمة قبل العصر الحديث بلغت في هذا العلم ما بلغ اليه المسلمون . فان كتب التاريخ الواردة أسماؤها في كشف الظنون فقط تزيد على ١٣٠٠ كتاب ، غير الشروح والاختصارات وغير ما ضاع من تلك الكتب وأهمل ذكره وهو كثير جدا . يدلك على ذلك ما تراه في مقدمات بعض كتب التاريخ أو الجغرافية ، اذ يذكر المؤلف كتبا عديدة نقل عنها أو اعتمد عليها في تأليف كتابه ، فاذا بحثت عنها رأيت أكثرها ضاع ولم يرد ذكره في كتب الفهارس ككشف الظنون أو غيره . فالمسعودي ذكر في مقدمة كتابه « مروج الذهب » عشرات من الكتب التي كانت شائعة في أيامه ، وقد نقل عنها ولم يذكر منها صاحب كشف الظنون الا القليل . فلو بقيت الكتب التي ألفها العرب في التاريخ كلها لزادت على بضعة آلاف ، وفيها كتب كبيرة يدخل الواحد منها في أربعين مجلدا أو خمسين أو ثمانين ، ومنها في عشرة أو خمسة أو أقل أو أكثر

ومن كتب التاريخ العام ما هو مرتب أحسن ترتيب باعتبار السنين ، كالطبري وابن الأثير وأبي الفداء ، أو باعتبار الأمم أو الدول كالمسعودي والفخري وابن خلدون ، أو بحسب المدن أو الملوك مما لا يحصى . وأكثرها حسن العبارة بليغها مع اسهاب ربما زاد في بعض الأحوال حتى يخرج عن موضوع الكتاب . ويغلب الصدق في روايات كتاب المسلمين ، لما تعودوه من الاسناد في تناقل الأخبار ، الا ما دخل تواريخهم في العصر الاول لأغراض بعض ذوي المطامع أو الأهواء والعرب لايزالون على سذاجتهم

عيوب المؤرخين المسلمين :

وانما يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصارهم في التواريخ على ايراد الحوادث على عواهنها كما بلغت اليهم ، وقد يسندونها الى راو أو عدة رواة بلا انتقاد

ولا تمحيص ولا قياس اكتفاء بالاسناد . وقد فاتهم أن بعض الاخبار المسندة موضوع فى الصدر الاول أو ما بعده لأغراض سياسية ، كما وضع كثير من الأحاديث لأسباب تقدم بيانها

ومما ينتقد عليهم أيضا أنهم يصرفون عنايتهم فى التواريخ الى تدوين أخبار الحرب والفتح والعزل والولاية والولادة والوفاة ، وقلما يذكرون تاريخ الآداب أو العلوم ، أو أحوال الدولة من الحضارة وأسبابها ، وتعليل الحوادث وما نجم عنها ، وقياس بعضها على بعض الا ما يجيء عرضا . فيندر أن ترى لمؤرخ منهم رأيا فى حادثة ، أو انتقادا على خليفة أو أمير ، أو ملاحظة على نكتة ، حتى فى الأحوال التى يعلم أنه لايسيء فيها الى الخليفة ، بل قد يكون فى انتقاده ما يسر ذلك الخليفة ، كما كانت حال مؤرخى الدولة العباسية فى شؤون الدولة الأموية ، فان شدة العباسيين على الأمويين مشهورة ، ومع ذلك فان المؤرخين الذين كتبوا فى عهد الدولة العباسية قلما ذكروا شيئا من مساوىء بنى أمية ، الا ما قد يجيء عرضا . ولعل السبب فى ذلك السكوت أن حوادث التاريخ الاسلامى أكثرها متصل بأسباب دينية أو شرعية بين فرقة وأخرى أو مذهب وآخر . فاذا انتشبت حرب بين خليفتين أو أميرين مسلمين ، لايخلو أن يكون أحدهما ظالما والآخر مظلوما ، فالمؤرخ المسلم يتحاشى الطعن فى أحدهما احتراما لمقام الدين ، فينقل الخبر على علاته ويترك الحكم فيه للقارىء ، وهذا هو السبب فيما نقاسيه من العناء فى استخراج حقائق التمدن الاسلامى من كتب التاريخ

وقد يكون من أسباب سكوتهم عن مساوىء بعض الأمراء التزلف اليهم أو الاستجداء بمدحهم ، وكثيرا ما كان الخلفاء والأمراء أو السلاطين يقترحون على المؤرخين تأليف الكتب ويجيزونهم على تأليفها ، فكان المؤرخون يراعون بها جانب المقترح ولو خالفوا الحقيقة وهم يعلمون . ومن الطف الشواهد على ذلك ما قاله أبو اسحق الصابى الكاتب الشهير ، وقد كلفه عضد الدولة ابن بويه أن يؤلف له كتابا فى أخبار الدولة الديلمية ، فألف له تاريخا سماه « التاجى » فاتفق وهو يؤلفه أن دخل عليه صديق له فسأله عما يعمله فقال : « أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها . . » (١)

وقد يكون السبب عداوة بين المؤلف والمترجم فيبخسه حقه عمدا ، كما فعل الفتح بن خاقان فى ترجمة ابن باجة الفيلسوف الاندلسى الشهير (٢)

ويندر أن ترى من بعض المؤرخين تصريحا بمساوىء أحد الخلفاء أو الأمراء أو غيرهم من أولى الأمر . وأكثر ما عثرنا عليه من أمثال ذلك فى

---

(١) ابن خلكان ١٢ ج ٢
(٢) نفح الطيب ٦١٢ ج ٤

كتاب الفخرى والآداب السلطانية لابن طباطبا ، وتاريخ ابن خلدون . أما ابن طباطبا فقد صرح بذلك انتصارا لآل على ، كقوله على أثر حكاية وقعت للرشيد مع أبى نواس اذ أورد قول أبى نواس فى الرشيد :

قــد كنت خفتك ثم أمننى   من أن أخــافك خوفك الله

ثم قال : « ولم يكن الرشيد يخاف الله وأفعاله بأعيان آل على (عم) أولاد بنت نبيه بغير جرم الخ » ، وهذا تصريح لم نر له شبيها فى كتب مؤرخى المسلمين الا ماقد يقوله الشيعة فى أعمال أهل السنة أو بالعكس . وأما ابن خلدون فقد انتقد أعمال بعض الدول أو الخلفاء مدفوعا بالقياس الصحيح والحكم الفلسفى

ومما يؤاخذ به مؤرخو المسلمين أيضا ــ بالنظر الى آداب هذه الايام ــ انهم اذا عرض لهم فى بعض الاخبار ألفاظ بذيئة ، أو واقعة يخجل سماعها الأديب فانهم يذكرونها بألفاظها ، كما يذكرون سائر الحوادث ، ويدخل فى ذلك كثير من الأشعار السفيهة ، وهم يسمون ذلك أحماضا . وقد يتبادر الى الذهن أنه من مقتضيات تلك العصور ، أو أنه لم يكن منكرا عندهم . والحقيقة أن اهل الأدب الصحيح من أولئك المؤرخين كانوايتحاشون الوقوع فى ذلك ، وفى جملتهم ابن خلكان فانه من أبعدهم عن الفحش فى القول ، ومن الأدلة على أدبه أنه لما ترجم لحسين بن محمد المنعوت بالبــارع ، وهو من الشعراء المشهورين ، ساقه الحديث الى قصيدة نظمها أحدهم للبارع المذكور وقصيدة أجابه البارع بها ، فذكر ابن خلكان البيت الاول من القصيدة ثم قال : « لولا ما أودعها من السخف والفحش لذكرتها »

الجغرافية أو تقويم البلدان

لفظ الجغرافية وحده كاف للدلالة على أن هذا الفن ليس من موضوعات العرب ، ولكننا ذكرناه هنا لارتباطه بالتاريخ ، ولأن العرب كتبوا فى وصف الطرق والبلاد والمدن قبل نقل الجغرافية الى العربية لأسباب خاصة بالاسلام

لم يقدم البشر على وضع علم أو فن الا لأسباب حملتهم على ذلك ، لأنهم يساقون فى شؤونهم وأعمالهم بالحاجة ، ولذلك قالوا : الحاجة أم الاختراع. واضطرارهم الى الجغرافية لم يأت دفعة واحدة ، بل جاء بالتدريج فنما واتسع عملا بناموس الارتقاء . وأهم الأسباب التى دعت الى نشوء هــذا العلم احتياج الناس قديما الى معرفة الطرق والبلاد والابعاد بينها ، اما للتجارة أو للفتح ، فجمعوا معلومات التجار والفاتحين بتوالى الأزمان، وجعلوا يتداولونها ويتدارسونها للعمل بها ، حتى أتيح لها من رتب أبوابها وضبط أجزاءها وجعلها علما

وأول من وضع أساس هذا العلم الفينيقيون ، لأنهم أقدم تجار العالم واكثرهم أسفارا ، فقد رادوا شواطىء البحر الأبيض واستعمروا بعضها منذ بضعة وثلاثين قرنا . وكانت مدينة صور مركز العالم التجارى فى تلك الايام، تجتمع حاصلات الأمم ومصنوعاتهم فيها وتتفرق منها حتى الهند ، فقد كانوا يحملون منها العاج والطيب والقردة وغيرها . وأسماء هذه السلع الباقية فى الفينيقية والعبرانية تدل على أصلها الهندى . فاطلع الفينيقيون فى أثناء أسفارهم على أحوال كثير من البلاد وعرفوا المسافات بينها وأخبار أهلها

ولما حمل الاسكندر بجيوشه على العالم واخترق آسيا الى بلاد الهند برا وبحرا ، اطلع رجاله على أحوال أواسط آسيا وأعاليها فاشتغلوا فى جمع الاخبار والاوصاف لغرابتها . وفعل البطالسة نحو ذلك بشواطىء البحر الاحمر الى الحبشة ، ثم الرومان وغيرهم

فكانت تلك المعلومات تتجمع بتوالى الاجيال والناس يتناقلونها متقطعة متفرقة ، ثم توجهت الاذهان الى جمعها وترتيبها . وأول من فعل ذلك اراتستين Eratostenes اليونانى المتوفى سنة ١٩٦ ق.م على عهد البطالسة ، فألف كتابا دون فيه كل ما عرفه الفينيقيون أو رواه قواد الاسكندر وغيرهم . وجاء بعده غيره وغيره كالرحالة استرابون والجغرافى بلينيوس ، الى زمن بطليموس القلوذى فى أواسط القرن الثانى للميلاد ، فألف كتابا وافيا فى الجغرافية عين فيه الاماكن بالحسابات الفلكية ، ورسم الخرائط على الحسابات الرياضية وضبط الاقسام الجغرافية وحقق أماكنها على ما بلغ اليه العلم فى عصره ، وذكر فيه أن عدد المدن فى أيامه كان ٤٫٣٥٠ وسماها مدينة مدينة ، وعدد الجبال ٢٠٠ جبل ذكر ما فى بطونها من المعادن ، وذكر ما على الارض من الخلائق وغير ذلك . فجاء الاسلام وكتاب بطليموس هو المعول عليه فى تقويم البلدان . فلما أخذ العرب فى ترجمة العلم فى العصر العباسى كان هذا الكتاب فى جملة ما نقلوه الى لسانهم وسموه جغرافية ، وترجموا كتابه الآخر فى الفلك وسموه المجسطى (*) ، وعلى هذين الكتابين بنوا أكثر ما كتبوه فى علم الجغرافية

الجغرافية عند المسلمين :

ولكن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس . لثلاثة أسباب غير السببين اللذين دعوا اليونان أو غيرهم الى وضعها . لأن العرب من أكثر الأمم فتحا وغزوا ، وقد تفرقوا بعد الاسلام فى أربعة أقطار

(*) هذا تعريب لاسمه الأصلى Majeste

المسكونة . وهم — وخصوصا أهل الحجاز — كانوا تجارا من زمن الجاهلية ثم اتسعت تجارتهم فى الاسلام باتساع مملكتهم . أما الأسباب الثلاثة التى يمتاز بها العرب على سواهم : فأولها الحج ، لأن المسلمين على اختلاف بلادهم وأقاليمهم يحجون الى مكة ، والحج فريضة على المسلم ولو كان فى الهند أو الصين أو غيرهما ، والقدوم الى مكة يستلزم معرفة الطرق والمنازل . وثانيها الرحلة فى طلب العلم ، فقد رأيت فيما تقدم أن المسلمين كانوا يرحلون فى طلب العلم الى سائر الأمصار الاسلامية ، والرحلة تستلزم معرفة الأماكن والمناطق . ولذلك كان أول ما ألفه العرب فى الجغرافية من عند أنفسهم ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية . وأول من ألف فى ذلك رواة الأدب والشعر ، كالاصمعى والسكونى ، ثم ألفوا فى بلاد العرب كلها كما فعل الهمذانى فى جزيرة العرب وأبو الأشعث الكندى فى جبال تهامة (١) وغيره . والسبب الثالث أن العرب فتحوا العالم واختلفوا فى طرق الفتح باختلاف البلاد بين أن تكون قد فتحت صلحا أو عنوة أو أمانا أو قوة ، ولكل من ذلك حكم فى قسمة الفيء وأخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وانالة التسويفات والاقطاعات لايسع الفقهاء جهلها فضلا عن الأمراء . فأصبح علم ذلك عندهم من قبيل الدين ، ولا يتوصل اليه الا بالتاريخ والجغرافية

ولما ترجمت الجغرافية الى العربية واطلع العرب عليها أخذوا فى تأليف الكتب على مثالها ، وتوسعوا فى ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل . ولم يكتفوا بالنقل والسماع ، ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الاقطار شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وكتبوا ما شاهدوه أو تحققوه وصححوا كثيرا من أخطاء بطليموس . والظاهر أن علم الجغرافية عند العرب لم ينضج الا فى القرن الرابع للهجرة ، فتهافت الناس على التأليف فيه مثل تهافتهم على تأليف التاريخ العام فى ذلك القرن

وأول من دون الجغرافية منهم على نحو ما عند اليونان الشيخ أبو زيد البلخى ، ألف فى أول القرن الرابع كتابا فى الجغرافية سماه « صور الاقاليم » ذكر فيه أمثلة منها بعد أن قسمها الى عشرين جزءا ، ثم شرح كل مثال ولكنه اختصره وترك كثيرا من أمهات المدن . وكان من معاصريه رجل من علماء الفرس اسمه أبو اسحق الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى ، وكان محبا للأسفار فسافر وحقق بنفسه كثيرا من البلاد والبحار والمدن وعول فيما بقى على كتاب البلخى ، وألف كتابا سماه « مسالك الممالك » وهو مطبوع ومنشور . وأما كتاب البلخى فقد ضاع

---

(١) معجم ياقوت ٧ ج ١

وجرى الاصطخرى فى كتابه على تقسيم البلخى ، فجعل بلاد المسلمين عشرين قسما بدأ بديار العرب وانتهى الى ما وراء النهر (تركستان) ووصف كل قسم على حدة ، وذكر البلاد وحرفها وتجارتها وغير ذلك . ونبغ نحو ذلك الزمن ابن حوقل ، فألف كتاب « المسالك والممالك » وقد سار بنفسه أيضا لمشاهدة البلاد . قال فى مقدمة كتابه : « فبدأت سفرى هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ » فلما أتم رحلته كتب الكتاب المذكور ووضحه بالخرائط الكثيرة ، لكل اقليم من أقاليم الاسلام خريطة أو غير خريطة ، ورسم المدن والانهار والجبال والبحار والجزر وغيرها ، وتقسيمه كتقسيم الاصطخرى ، والعبارة تكاد تكون واحدة فى كثير من الاماكن

ثم ألف ابن الفقيه الهمذانى والمقدسى والمسعودى وغيرهم . وقد رحل المسعودى رحلات عديدة بلغ بها الى أقاصى الهند وذكر ما شاهده وخبره فى كتبه الجغرافية والتاريخية . وجميع هؤلاء من أهل القرن الرابع للهجرة وكتبهم مطبوعة الآن الا الخرائط فقد ضاعت ولم يبق غير ذكرها أو الاشارة اليها

وظل الناس على هذه الكتب وقليل غيرها ، حتى نهض المسلمون لتأليف التاريخ وترتيبه وجمعه على ما بيناه فى مكانه ، فنهض جماعة ألفوا فى الجغرافية كما ألفوا فى التاريخ ، فوضعوا المعجمات الجغرافية على أحرف الهجاء ، وأشهر من فعل ذلك ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فقد ألف كتابا ضخما سماه « معجم البلدان » أتى فيه على وصف البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والأصنام والأبداد والأوثان ، وضمن ذلك كثيرا من تراجم الناس فى أثناء ذكره للبلاد التى ولدوا فيها أو نسبوا اليها . فهو قاموس جغرافى تاريخى أدبى . ولأبى الفداء صاحب حماه أيضا كتاب فى تقويم البلدان ولغيره غيرها ، فضلا عن الرحلات الكثيرة التى خدم العرب بها الجغرافية ، فنكتفى بالاشارة اليها ونترك التفصيل لتاريخ آداب اللغة العربية (*)

(*) لم يستعمل العرب لفظ «جغرافية» (بضم الجيم او فتحها) للدلالة على ذلك العلم الا فى القرن التاسع الميلادى ، أما قبل ذلك فكان لفظ جغرافية مقصورا على جغرافية بطليموس ، فاذا قالوا الجغرافية فالمراد ذلك الكتاب وحده . واول من استعمل اللفظ للدلالة على العلم هو المسعودى فى « التنبيه والاشراف » ، فقد قال : « الجغرافيـــة هى قطع الارض » والمراد بالقطع هو الوصف والتفصيل فالترجمة على ذلك صحيحة ، وقد وردت عبارة « علم الجغرافية» لاول مرة فى رسائل اخوان الصفاء وفسروها بأنها « صورة الارض » ، ولتتبع تطور هذا اللفظ وما يقابله انظر «كشف الظنون» لحاجى خليفة ، طبعة الاستانة ١٣١١ حـ ١ ص ٣٩٤

ولا يتسع المقام لتتبع تطور هذا العلم وأهم مؤلفاته وخصائصها ومؤلفيه وما يمتازون به ، ونحيل القارىء على المادة الوافية التى كتبها المستشرق كرامرز عن لفظ جغرافية فى ملحق دائرة المعارف الاسلامية . وقد اورد فى نهاية بحثه ثبتا وافيا بالمراجع . وقد نشرنا فى ترجمتنا لتاريخ الفكر الاندلسى لجنثالث بالنثيا فصلا مطولا عن الجغرافية عند الاندلسيين

الخطابة بعد الاسلام

الخطابة والشعر من الفنـون الجاهلية التى زادها الاسلام رونقا وبلاغـة وارتقاء ، ولكن الخطابة سبقت الشعر فى الارتقاء ، لحاجة المسلمين اليها فى الفتوحات والغزوات ، والعرب يومئذ لايزالون على بداوتهم ، تتأثر نفوسهم بالتصورات الشعرية سواء سبكت فى قالب الخطابة أو الشعر . والخطابة أقرب تناولا ، ولم يرد فى القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد فى الشعر والشعراء . فكما كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذى يقيد مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ويهيب بفرسانهم ، أصبح الخطيب فى الاسلام مقدما على الشاعر لفرط حاجتهم الى الخطابة (١) فى استنهاض الهمم وجمع الاحزاب وارهاب الاعداء

والفرق بين الخطابة فى الجاهلية وفى الاسـلام ، أن الاسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من مجاراة أسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية ، وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير فى الشعر أيضا ، ولكن الخطابة أوسع مجالا للاقتباس . فأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثيلا أو اشارة أو تهديدا ، حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات ، كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق وأراد أن يحرض أهله على الطاعة لأخيه عبد الله ، فصعد المنبر وقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام) ونريد أن نمن على الذين استـضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين (وأشار بيده نحو الحجاز) ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (وأشار بيده نحو العراق) » (٢)

وزادت الخطابة بعد الاسـلام قوة ووقعا فى النفوس ، بنهضـة العرب للحروب وانتصارهم فى أكثر مواقعها ، فازدادوا أنفة وسمت نفوسهم فسما بها ذوقهم فى البلاغة ، وشحذت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والأمم الجديدة والألسنة الجديدة ، فبلغت الخطابة عندهم مبلغا قلما سبقهم

(١) البيان والتبيين ٩٨ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ٢٩ ج ٢

فيه احد من الأمم التى تقدمتهم بلاغة وايقاعا وتأثيرا حتى اليونان والرومان.
لا ننكر ما كان من تفوق هاتين الأمتين فى الخطابة ، وما نبغ بين رجالهما من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار كديموستنيس واشينس وهيبريدس من خطباء اليونان ، وشيشرون ويوليوس قيصر وسالوستس ولوكيرتس من خطباء الرومان ، ولكن العرب لم يأتوا بأقل مما أتى يه أولئك بلاغة ووقعا .
وربما كان الخطباء فى الاسلام أكثر عددا وخطبهم أوفر وأبلغ ، مع اعتبار الفرق بين الأمتين لغة وخلقا وأدبا

فقد ذكروا لديموستنيس أخطب‌خطباء اليونان ٦١خطبة نصفها منسوب اليه خطأ ، وهذه خطب الامام على تعد بالمئات . وأما فى كثرة الخطباء فالعرب كانوا فى صدر الاسلام من أكثر الأمم خطباء ، لأن خلفاءهم وأمراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء حتى النساك والزهاد (١) ولا غرابة فى ذلك ، لأن العرب أهل خيال وذوو نفوس حساسة ، وللبلاغة تأثير شديد فى عواطفهم تقعدهم وتقيمهم . وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر الاسلام بينهم . وكثيرا ما توقف فتح البلد أو الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله ، فتثور فيهم النخوة وتسرى فى عروقهم الحماسة فيستهلكون فى الدفاع أو الهجوم . وفى أخبار الفتوح أدلة كثيرة لا يساعد المقام على ايرادها . ونعرف قوادا انما ساعدهم على النصر قوة عارضتهم وتأثير خطبهم فى نفوس رجالهم

***

فالحجاج بن يوسف كان خطيبا بليغا زادته الخطابة عظمة وسطوة .
كان العراق متمردا على عبد الملك ، فلما أعجزه أمره ولى عليه الحجاج ، فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر متلثما متنكبا قوسه واضعا ابهامه على فمه ، فاحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون فى الولاة قبله . فوقف وأزاح لثامه عن وجهه وألقى خطبته التى قال فى مطلعها :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ‏ ‏ ‏ متى أضع العمامة تعرفونى

الى أن قال :

« أما والله لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله . اما والله انى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وكأنى أرى الدماء بين العمائم واللحى

هذا أوان الشد فاشتدى زيم ‏ ‏ ‏ قد لفها الليل بسواق حطم

---

(١) البيان والتبيين ١٣٥ ج ١

« ألا وان أمير المؤمنـــين عبد الملك بن مروان نثر كنانته فعجم عيدانهـا فوجدنى أصلبها عودا فوجهنى اليكم .. فانكم أهل بغى وخلاف وشقاق ونفاق ، طالما سعيتم فى الضلالة وسننتم سنن البغى .. أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعضبنكم عضب السلمة ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل .. والله ما أخلق الا فريت ، ولا أعد الا وفيت ... الخ » (١)

فما فرغ من خطبتـــه حتى هابوه وأذعنوا له ، وكان شـــديدا عليهم . وأمره مشهور . ومع ذلك فقد كان اذا رقى المنبر وذكر احسانه الى أهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه ، يخيل للسامع أنه صـــادق وأن أهل العراق ظالموه .. (٢) ولذلك كان الأمراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء ، لما فى أقوالهم من التأثير فى تلك النفوس الحساسة

واذا رجعت الى حوادث الفتح أو جمع الاحزاب او اخماد الثورات رأيت عجبا ، وأول ثورة كادت تهب فى الاســـلام لما بلغ أهل المدينـــة موت النبى (صلعم) فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة ، فقام أبو بكر خطيبـا فقال : « أيها الناس ، ان يكن محمد قد مات فان الله حى لم يمت (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقليتم على أعقابكم) وقد علمتم أنى أكثركم قتبا فى بر ، وجارية فى بحر ، فأقروا أميركم وأنا ضامن ان لم يتم الأمر أن أردها عليكم » (٣) فهذه الـكلمات القليلة كانت كافية لاخماد تلك الثورة

***

وقس على ذلك خطبته فى السقيفة ، وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين ، وأخطبهم بلا خلاف على بن أبى طالب ، وفى كتاب «نهج البلاغة» المنشور بين ظهرانينا أكبر شاهد على ذلك ، وان لم تصح نسبة كل تلك الخطب اليه ، فأكثرها من أقواله ، وفيها أمثلة من كل ضروب الخطب ، ومنها الدينية والأدبية والعلمية والحماسية والفخرية

وكان أكثر الخلفاء يخطبون ، ولكنهم يتفاوتون فى البلاغة وقوة العارضة ، على أن تلك القوة أخذت تضعف فيهم ، بعد الفراغ من الفتوح والانغماس فى أسباب الترف والسكون الى الرخاء والبذخ ، وتحولت من الحماسة الى المواعظ ثم الى الشكاية . وتداعى فن الخطابة بتداعى دولة العرب فى الشرق ، فلما قامت دولتهم فى الاندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء ،

---

(١) العقد الفريد ٧ ج ٣ وغيره (٢) البيان والتبيين ٢٠ ج ١

(٣) البيان والتبيين ١٢٢ ج ١ والشهرستانى ١١ ج ١

لكنهم قلما كانوا يستخدمونهم لانهاض الهمم أو اخماد الفتن ، لذهاب الحاجة الى ذلك بذهاب البداوة والفراغ من الفتح . على أنهم كانوا اذا احتفلوا بتنصيب خليفة أو بالنصر على عدو أو باستقبال قادم كبير ، تقدمت الخطباء للترحيب به واعظام شأنه أو شأن مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة (١)

واما الأمراء والقواد فكانوا يخطبون فى الجند قبل الاغارة على العدو فيحرضونهم على الثبات . وكثيرا ما كانت الخطبة سببا للنصر ، كخطبة خالد بن الوليد فى وقعة اليرموك ، وخطبة المغيرة فى وقعة القادسية ، وخطبة خليد بن المنذر فى غزوة فارس ، وخطبة طارق بن زياد فى فتح الاندلس ، ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات

ناهيك بشيوع الخطابة فى القبائل على اختلاف أصقاعها كما كانت فى الجاهلية . وكانت ترد الوفود الى المدينة أو دمشق أو بغداد أو غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة أو استنفاره أو استنجاده أو استجدائه . وكان شباب الكتاب اذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم ، لشيوع حب الخطابة فيهم (٢) ولاقتباس أساليب البلاغة منهم

ويعد من قبيل الخطابة عند العرب البلاغة فى المكاتبات ، فقد كان الخلفاء وخصوصا فى صدر الاسلام اذا كاتبوا أميرا فى أمر تعمدوا البلاغة كأنهم واقفون على منبر الخطابة ، والغالب فى قوى العارضة فى الخطابة أن يكون بليغا فى الكتابة . وقد مر الكلام على ذلك

الشعر بعد الاسلام

الشعر وبنو أمية :

لما ظهر الاسلام ودهش العرب بأساليب القرآن وبالنبوة والوحى ، واشتغلوا بالغزو والفتح ونشر الاسلام ، انصرفت قرائحهم الشعرية الى الخطابة لحاجتهم اليها فى استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد واستحثاث القلوب على العبادة . فانقضى عصر الراشدين والعرب فى شاغل عن الشعر ، حتى اذا طمع بنو أمية فى الخلافة مع كثرة المطالبين بها من أهل البيت واحتاجوا الى من يؤيدهم ، استنفروا الناس لنصرتهم وابتاعوا الأحزاب بالأموال واستخدموهم بالدهاء ، فكان الشعر فى جملة ما تساعدوا به على ذلك لما قدمناه من تأثيره فى النفوس . وكان خلفاؤهم يبالغون فى اكرام الشعراء ، اما ليرغبوا الناس فى خلافتهم أو ليقطعوا ألسنتهم فيسكتوا

---

(١) نفح الطيب ١٧٥ ج ١ (٢) العقد الفريد ٢٦٧ ج ٢

عن هجوهم ، ولذلك عبروا عن اجازة الشاعر بقطع لسانه

فكان الخلفــاء من بنى أمية يرغبون النـــاس فى الشعر ويجيزونهم بأعظم الجوائز ، على نسبة الجودة فى أشعارهم ومكانهم فى أقوالهم ، وكانوا يطالبون أولادهم بحفظ الأشعار والآثار . على أن تحريض الناس على تعليم أولادهم الشعر بدأ فى أيام عمر كما تقدم ، أما بنو أمية فقد بذلوا المال والسعى فى هذا السبيل . قال معاوية مؤسس دولتهم : « اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم » (١) وكان يبالغ فى اكرام الشعراء ولو هجوه ، واقتــدى به خلفــاؤه وأمراؤه ، حتى الحجاج فانه كان يهتم بذلك ويسأل أدباء زمانه عن أشعر الشعراء ويبحث فى تفاضلهم ، واذا امتنع عليه ذلك مشافهة كاتب به أهل العلم ، كما كاتب قتيبة بن مسلم (٢) . وكانوا اذا أمسك الشــعراء عن أبوابهم استوفدوهم واستزاروهم وغمروهم بالأموال والاكرام . ومن أكثرهم رغبة فى الشعر عبد الملك بن مروان ، فــكان الناس فى أيامه حيثما اجتمعوا يتناشدون الأشعار ويتدارسون أخبار الشعراء (٣)

***

وقد يتبادر الى الأذهان أنهم كانوا يفعلون ذلك رغبة فى الأدب وتنشيطا لأهله ، لأن الشعر سجية فى العرب ودولة الأمويين عربية بحتة فلا يبعد أن يكون لذلك يد فى الامر ، ولكن الاغلب أنهم كانوا يفعلونه للاستعانة بألسنة الشعراء على مقاومة أهل البيت ، لعلمهم أن الجمهور يعتقد أن الحق فى الخلافة لهؤلاء . وكثيرا ما كان الشعراء المغمورون بنعم بنى أمية لايتمالكون عن التصريح بذلك فى بعض الاحوال

فالفرزدق مثلا امتدح بنى أمية ونال جوائزهم ، وكان متشيعا فى الباطن لبنى هاشم ، والأمويون يعلمون ذلك ويسترضونه . ومن جملة أخباره أن مروان بن الحكم ، وكان عاملا لمعاوية على المدينة ، بلغه عن الفرزدق قول أوجب حده فطلبه ففر الفرزدق الى البصرة ، فقال الناس لمروان : « أخطأت فيما فعلت ، فانك عرضت عرضك لشاعر مضر » فوجه وراءه رسولا ومعه مائة دينـــار وراحلة خوفا من هجائه . ومع ذلك اتفق أن الخليفة هشام ابن عبد الملك ذهب الى الحج ، وبينما هو فى الطواف شاهد على بن الحسين وأنكره ، فسأل عنه . وكان الفرزدق حاضرا ، فنظم قصيدته المشهورة فى مدح أهل البيت ومطلعها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم

---

(١) ابن خلكان ١٠٧ ج ٢   (٢) المزهر ٤٢٠ ج ١
(٣) لطائف المعارف ٧٠

ومما يدل على أن بنى أمية كانوا يقربون الشعراء لغرض عائد الى تأييد سلطانهم ، أن عمر بن عبد العزيز أتقاهم وأعدلهم لما أراد أن يتمثل بالخلفاء الراشدين فى التقوى والزهد ، منع الشعراء من بابه وأعلن انه لا يقبل الشعر ولا يقابل الشعراء (١) فلم يطل حكمه ، وعاد خلفاؤه الى المباراة فى اكرام الشعراء والاغداق عليهم بالأموال

الشعر وبنو العباس :

فلما انقضت دولة بنى أمية وقامت دولة العباسيين ، عدل المنصور عن اكرام الشعراء ، وكانوا قد تعودوا الوفود على الخلفاء أو نيل جوائزهم ، فأصبحوا اذا أتوا المنصور منعهم من الدخول عليه أياما ، حتى تنفد نفقاتهم ويملوا الإنتظار وحاجبه يرفع أمرهم اليه وهو يؤخرهم . ثم اذا أذن لهم بعد ذلك ، اشترط عليهم أن يمدحوه كما كانوا يمدحون بنى أمية (٢) وكان بخيلا عليهم ، فتغيرت قلوب الشعراء عليه ، فساعد ذلك على تباعد قلوب العرب عنه وميلهم الى العلويين ، فاستفحل أمر محمد بن عبد الله بالمدينة وقاسى المنصور أمر العذاب فى اخماد ثورته . فأصبح الخلفاء بعد المنصور يتجنبون اغضاب الشعراء ويبالغون فى اكرامهم . وكان الشعراء يتقربون اليهم بهجو العلويين ، وخصوصا الرشيد ، فقد كان مروان بن أبى حفصة يتقرب اليه بهجائهم (٣) وبعد أن كان الشعراء يسمون فى أيام بنى أمية السؤال سماهم وزيره جعفر الزوار . وبالغ المأمون فى اكرامهم ، حتى كان يغضى عنهم اذا هجوه . ذكروا أن دعبلا الخزاعى الشاعر هجا ابراهيم بن المهدى ، فرفع ابراهيم أمره الى المأمون ، فقال له المأمون : « لك أسوة بى ، فقد هجانى واحتملته وقال فى :

أيسومنى المأمون خطة عاجز　　أو ما رأى بالامس رأس محمد ؟
انى من القوم الذين سيوفهم　　قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله　　واستنقذوك من الحضيض الأوهد »

فقال ابراهيم : « زادك الله حلما يا أمير المؤمنين » (٤)

وتزاحم الشعراء بباب المهدى والرشيد والمأمون ، ونبغ بشار بن برد العقيلى وأبو نواس وأبو العتاهية وغيرهم

الشعر ودول العرب :

والشعر كما قدمنا من العلوم العربية ، فلما تغلب العنصر الاعجمى فى

---

(١) العقد الفريد ١١٥ ج ١　　(٢) العقد الفريد ٩٢ ج ١
(٣) ابن خلكان ٨٩ ج ٢　　(٤) ابن خلكان ١٧٩ ج ١

دولة بنى العباس وصارت الأمور الى أيدى الأتراك ضعف أمر الشعراء . حتى اذا قامت دولة بنى حمدان ، وهم عرب ، عاد الشعر الى رونقه وتزاحم الشعراء بباب سيف الدولة ، حتى قيل انه لم يجتمع بباب خليفة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ما اجتمع ببابه . وكان هو أديبا شاعرا ، فاشتهر فى عصره أبو فراس والمتنبى والسرى الرفاء وأبو العباس أحمد بن محمد النامى وأبو الفرج عبد الواحد الببغاء وأبو الفرج الوأواء وغيرهم (*)

فلما انقضت تلك الدولة العربية عاد الشعر فى الشرق الى الخمول ، وكان قد أينع فى دولة بنى أمية بالاندلس وراجت سوقه واتسع نطاقه وكثرت فنونه على ما سيجىء

أما دول المسلمين غير العرب ، فقد كان فيهم من يحب الشعر ويكرم الشعراء ، ولكن الغالب فيهم أن يفعل الملك منهم ذلك على سبيل القدوة أو المباهاة ، وهو لايفهم ما يقرأه من مدائحه . ومما يضحك من هذا القبيل أن الشعراء وفدوا على يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين وكان من بربر قبيلة لمتونة البربرية بالمغرب ونظموا القصائد فى مدحه بواسطة المعتمد بن عباد ، فلما أنشدوه قصائدهم قال له المعتمد : «أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟» قال : « لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبز .. » . ولما انصرف المعتمد الى ملكه كتب الى ابن تاشفين رسالة قال فى جملتها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : « يطلب منا جوارى سودا وبيضا ؟ » قال : « لا يامولانا .. ما أراد الا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا لأن ليالى الحزن سود .. » . فقال : « والله جيد .. اكتب له فى جوابه أن دموعنا تجرى عليه ، ورءوسنا توجعنا من بعده ! » (١) (**)

جمع الشعر ورواته :

لما أخذ المسلمون فى تفسير القرآن واحتاجوا الى تحقيق معانى الالفاظ ،

(*) انظر عن هؤلاء الشعراء جميعا « يتيمة الدهر » للثعالبى ، نشره محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٧ ، حـ ١ ، الفهرس

(١) نفح الطيب ٧٨١ ج ٢

(**) روى هذه الحكاية ابو الوليد الشقندى فى « رسالة فى فضل الاندلس » التى أوردها المقرى فى نفح الطيب (طبعة أوربا) حـ ٢ص١٢٦ وما بعدها ، وبيتا الشعر الواردان هنا هما لابن زيدون ، والقصة من افتراءات الاندلسيين على المرابطين

كان الشعر فى جملة ما رجعوا اليه فى تحقيقها ، فاضطروا الى جمعه بالأخذ عن رواته . شرعوا فى ذلك من القرن الأول للهجرة . وأكثر الناس اشتغالا بجمع الشعر أهل العراق مما يلى بلاد العرب أى فى البصرة والكوفة ، وكان أهل الكوفة أجمع للشعر من أهل البصرة (١) وأول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية الديلمى الكوفى المتوفى سنة ١٥٥ هـ (٢) وخلف ابن حيان الاحمر الفرغانى مولى أبى بردة (٣) وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة والأصمعى وغيرهم ، وأكثرهم من رواة الأدب واللغة ، وقد مر الكلام على ذلك فى بابه

وبلغ ما جمع من شعر الجاهلية عشرات الألوف من القصائد ، مما لم يسمع له مثيل فى أمة من الأمم كما تقدم . على أن بعض الرواة كانوا ينظمون الشعر وينسبونه الى العرب لأسباب دعتهم الى ذلك ، لكنهم لم يفعلوا فى هذا النحو ما يتجاوز الأبيات القليلة . قال خلف الاحمر : « أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا على به ، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح ، حتى مرضت فقلت لهم : « ويلكم ! أنا تائب الى الله .. هذا الشعر لى » فلم يقبلوا منى ، فبقى منسوبا الى العرب لهذا السبب » (٤)

وقال أبو عمرو بن العلاء : « ما زدت فى شعر العرب الا بيتا واحدا وهو:

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت ... من الحوادث الا الشيب والصلعا

ادخلته فى جملة أبيات الاعشى » . وفعل حماد أيضا نحو ذلك (٥) على أن العرب ما لبثوا أن أخذوا فى تمحيص الروايات بالاسانيد ، بعد أن تعودوا ذلك فى رواية الحديث

***

ومن عادة العرب فى رواية الشعر ، أنهم كانوا من أيام الجاهلية اذا نبغ الشاعر صحبه رجل يروى أشعاره ويتلوها ، أو يروى له أشعار غيره للشاهد أو نحوه . ويغلب على الراوية أن يكون مرشحا للشاعرية ، كأنه تلميذ يتدرب على يد أستاذه يأخذ عنه . وكانت عمدتهم فى الجاهلية على الحفظ ، لأنهم لم يكونوا يكتبون ، فكان كثير عزة راوية جميل بثينة ، وجميل راوية هدبة بن خشرم ، وهدبة كان راوية الحطيئة ، والحطيئة راوية زهير

---

(١) المزهر ٢٠٦ ج ٢ (٢) ابن خلكان ١٦٤ ج ١
(٣) طبقات الادباء ٦٩ (٤) ابن خلكان ٢٠٨ ج ١
(٥) ابن خلكان ٢٨٧ ج ١

وابنه (١) وكان الراوية فى الجاهلية وأوائل الاسلام يروى للشاعر الواحد ويصحبه وينشد له ، ويعجب به اعجاب التلميذ بأستاذه ويناضل عنه ويفضله على سواه . فلما احتاج العرب الى جمع الشعر كثر رواته أو جماعه ، وكل منهم يجمعه ويرويه لغرض . فالنحويون كانوا يعتنون بحفظ الأشعار التى يستشهد بها فى الاعراب ، والشعراء كانوا يروون كل شعر فيه لفظ غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، والاخباريون كانوا يجمعون من الشعر ما يجدون فيه الشاهد والمثل . وكان فيهم من يروى أشعار المجانين ولصوص الاعراب والأرجاز الاعرابية القصار وأشعار اليهود، على أن هؤلاء لم يكونوا يعدون من الرواة . وتفرد جماعة بجمع كل أنواع الشعر ، وهم الرواة الذين ذكرناهم ومنهم حماد وخلف وغيرهما . وكانت لهم فى الحفظ نوادر غريبة ، لتعود ذاكرتهم على ذلك مذ أخذ الناس فى ذلك العصر بتعويد حوافظهم على حفظ القرآن والحديث ، لتجنب الكتابة للأسباب التى قدمناها . فكان فيهم من يحفظ بضعة وعشرين ألف قصيدة ، يرويها بأسانيدها ومعانى ألفاظها كما تقدم . وكان للشعراء عناية خاصة فى حفظ أشعار العرب ، لاكتساب ملكة العرب فيها ، لأنهم كانوا يعتقدون أن من يحفظ شعر شاعر فحل يشعر مثله ، أو للجواب على ما قد يعرض عليهم من الاسئلة ، اذ كان للخلفاء والأمراء فى الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية عناية كبيرة فى استطلاع أشعار العرب

طبقات الشعراء :

العرب مطبوعون على الشعر، ولكنه يختلف فيهم معنى وأسلوبا باختلاف العصور والاقاليم . فالبدوى الذى كان ينظم القصيدة وهو يسوق بعيره فى عرض البيداء لا يرى حوله الا رمالا أو أطلالا ، اذا لذعته الشمس أو جنه الظلام أوى الى بيت من الشعر أو الوبر، انيسه فيه البعير والفرس وطعامه اللبن والتمر وضجيعه السيف والرمح ، يتوسد على حذر من عدو يبغته أو حشرة تلسعه ، واذا واعد حبيبته فموعدهما الرقمتان أو العقيق فيلتقيان على أكمة أو فى واد ، يعبد آلهة من الحجارة أو الأخشاب أو يصنعها من التمر ، واذا جاع أكلها .. فالبدوى الذى هذه حاله لايكون خياله الشعرى مثل خيال رجل نشأ بين القصور الشماء والحدائق الغناء ، ولبس الحرير وتوسد الديباج وتعود أبهة الدولة وجلال الملك ، وعاشر الخلفاء والوزراء وعانى أسباب التأنق وانغمس فى الترف والبذخ . فان الشعر تختلف طبقاته باختلاف هذه الأحوال . ولذلك كان الشعر الجاهلى

---

(١) الاغانى ٧٨ ج ٧

أقرب الى الخشونة والمتانة ، مع خلوه من زخرف الكلام واساليب الكتابة والمجاز

فلما جاء القرآن وشاع حفظه وحفظ الاحاديث ، وعنى النـاس بجمع الآداب والأمثال واستظهار أحاسنها وأحاسن الشعر ، نهضت طباع النـاس وارتقت أذواقهم فى البلاغة ورسخت ملكاتهم واتسعت تصوراتهم فى الشعر والخطابة . فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم أسمى رتبة وأصفى رونقـا ، واقتبسوا من الفرس أساليب الاطناب . ولذلك كان الشعراء الاسـلاميون اعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من شعراء الجاهلية . فشعر حسان بن ثابت وعمر بن ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وذى الرمة والأحوص أرفع طبقة فى البلاغة والتفنن فى أساليب التعبير من شـعر النابغة وعنترة وعمرو بن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة (١) كما كان الخطبـاء الاسـلاميون أحسن ديباجة وأبلغ عبارة من خطباء الجاهلية

فالجاهليون طبقة أولى ، تليهم طبقة الاسلاميين الى أواخر دولة بنى أمية وهم المخضرمون ، ثم طبقة ثالثة فى الدولة العباسية هى طبقة المولدين ، تليها طبقة المحدثين . ولا يسعنا تعيين حد فاصل بين كل طبقة وما تليها ، لأن كثيرين من الشعراء أدركوا أواخر احدى هذه الطبقات وأوائل التى تليها . فمن شعراء الجاهلية من أدرك الاسـلام ، ومن المخضرمين من أدرك زمن المولدين ، وقس على ذلك

وانما نقسم الشعراء الى هذه الطبقات تقسيما اجماليا . فالطبقة الأولى شعراء الجاهلية ، والمراد بهم من كان شعره جاهليا أو نظم أكثره قبل الاسلام. ومزية الشعر الجاهلى البساطة والخشونة ، فاذا وصـفوا عاطفة مثلوها بطبيعتها ، أو وصفوا أسدا أو بيتا أو ظبيا لم يكن فى عبارتهم تكلف ولا تعمل أو مبالغة . وأشهر أهل هذه الطبقة أصحاب المعلقات

والطبقة الثانية ، وهى المخضرمون ، تشبه الأولى من حيث بقاء أهلهـا على البداوة فى عهد الامويين ، ولكنها أسمى منها فى البلاغة للأسباب التى قدمناها ، وعليها مسحة من الحضارة . ومن أشـهر الشـعراء المخضرمين حسان بن ثابت وكعب بن زهير وجرير والأخطل والفرزدق

والطبقة الثالثة المولدون ، وشعراؤها من معاصرى الرشيد والمأمون ، فى عصر الزهو العباسى ، عصر الترف والبذخ والتأنق والرخاء ، فرقت طباعهم وارتقت أذواقهم بالمعاشرة والمخالطة ، فظهر ذلك فى أشعارهم فعمدوا الى وصف الخمر ومجالس الأنس وحدائق القصور ونحو ذلك . فشعر المولدين

(١) ابن خلدون ٥٠٨ ج ١

يمتاز عن الطبقتين السابقتين بالرقة والخلاعة ، وأشهر المولدين بشارالعقيلى وأبو العتاهية وأبو نواس وأبو تمام والبحترى

وأما الطبقة الرابعة فنريد بها الشعراء الذين نبغوا بعد انتشار الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان وشيوع علم الكلام ، وفى شعر أهل هذه الطبقة صبغة فلسفية حكمية جدلية ، كشعر المتنبى والمعرى والشريف الرضى والصفى الحلى

الشعراء فى الاسلام وأشعارهم :

تكاثر الشعراء فى العصر الاسلامى فوق تكاثرهم فى العصر الجاهلى ، لرواج سوق الشعر فى القرون الأولى . على ان احصاءهم بالضبط غير متيسر لضياع أكثر أخبارهم ، لكننا نستدل من بعض النصوص على أن عددهم كان عظيما جدا ، فقد ذكر ابن خلكان : « أن هرون بن على المنجم البغدادى صنف كتاب البارع فى أخبار الشعراء المولدين وجمع فيه ١٦١ شاعرا ، وافتتحه بذكر بشار العقيلى وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح » ، والفترة بينهما قصيرة ، وذكر المؤلف انه اقتصر على خيرة الشعراء ونخبتهم . فقس على ذلك الشعراء المخضرمين والمحدثين منأهل الطبقة الرابعة ، ناهيك بشعراء الاندلس فانهم يعدون بالمئات

أما مقدار ما نظمه أولئك الشعراء من القصائد والدواوين فمما لا يحصيه عد ، وقد فقد معظمه فى الفتن وغيرها فى العصور الاسلامية الوسطى ، فنكتفى منها بما ذكره صاحب كشف الظنون ، فانه ذكر نحو ستمائة ديوان لستمائة شاعر من المشاهير ، أورد أسماءهم وألقابهم وسنى وفاتهم ، وهم من أهل العراق والشام وفارس وخراسان ومصر والاندلس وغيرها . ويختلف حجم هذه الدواوين ومقدار صفحاتها من ألفى صفحة الى مائة وما تحتها ، وتقدير الورقة فى اصطلاحهم صفحتان كل صفحة عشرون سطرا . فديوان بشار العقيلى مثلا ألف ورقة فى ألفى صفحة أى ٤٠٫٠٠٠ سطر أو بيت ، وابن هرمة ٥٠٠ ورقة فى ٢٠٫٠٠٠ بيت ، وشعر أبى نواس فى نحو ألف ورقة ، ومسلم بن الوليد ٢٠٠ ورقة ، وقس على ذلك (١)

واذا اعتبرت الدواوين التى ضاعت وفات صاحب كشف الظنون ذكرها ، والشعراء الذين لم تجمع أشعارهم ولم يكن لهم دواوين ، زاد استغرابك من كثرة الشعر العربى وتعداد شعرائه مما لا تجد له مثيلا فى لغة من لغات العالم القديم أو الحديث

عروض الشعر :

المشهور أن الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ هو أول من وضع

(١) الفهرست ١٥٩

عروض الشعر العربى ، أى استنبطه واخرجه الى الوجود وحصر أقسامه فى خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرا ، ثم زاد فيه الاخفش بحرا واحدا سماه الخبب (١) . ولكن الغالب أن بحور الشعر كانت معروفة من قبل ، ولولا ذلك لم يستطع العرب ضبط منظوماتهم على ما نراه فى أشعارهم . ويؤيد ذلك قول الوليد بن المغيرة منكرا قول من قال ان القرآن شعر : « لقد عرفت أضرب الشعر وهزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئا من ذلك » (٢) فكيف يقول هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ فالظاهر أن الخليل أول من جعل العروض علما ورتبه هذا الترتيب وزاد فيه أنواعا من الشعر ليست من أوزان العرب (٣) وربما زادوا فيه بعد ذلك شيئا من بحور اليونان أو أساليبهم ، لأن بعض الذين كانت لهم عناية باللغة اليونانية فى ذلك العصر كانوا يقابلون بين شعرها وشعر العرب . ولابن الهيثم فى أوائل القرن الخامس للهجرة رسالة فى صناعة الشعر ممتزجة من اليونانى والعربى (٤) لم نقف عليها . على أن ابن شرشير — الشاعر المعروف بالناشىء الاكبر المتوفى سنة ٢٩٣ هـ — كان قد نظر فى قواعد العروض وأدخل عليها شبها ومثلها بغير أمثلة الخليل (٥)

ولا مشاحة فى أن عروض الشعر ارتقت وتفرعت بتوالى القرون ، شأن كل ما هو من قبيل الاحياء (أى كل ما هو من صنع البشر) ، فتولد فى النظم ضروب من القصائد كالاصمعيات والشعر البدوى والحورانى وغيرها

أما الاندلس فقدكان للشعر فيها تاريخ خاص لرواجه عندهم بعد اشتغال الأمم الاخرى عنه ، فانهم هذبوا مناحيه وفنونه حتى بلغ التنميق فيه الغاية ، واستحدثوا الموشح ونظموا به الموشحات الاندلسية المشهورة . استنبطه مقدم بن معافى القبرى الاندلسى فى أواخر القرن الثالث للهجرة (٦) ولما شاع التوشيح عندهم وأخذ به الجمهور ، لسلاسته وتنميق كلامه ، نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها اعرابا ، واستحدثوا فنا سموه « الزجل » شهره أبو بكر بن قزمان القرطبى ويعرف بامام الزجالين (*)

---

(١) ابن خلكان ١٧٢ ج ١ (٢) المزهر ١٧٧ ج ٢
(٣) المزهر ٢٠٢ ج ٢ (٤) طبقات الاطباء ٩٤ ج ٢
(٥) ابن خلكان ٢٦٣ ج ١ (٦) ابن خلدون ٥١٨ او ابن الاثير ٢٨ ج ٨

(*) عن الشعر الاندلسى انظر تاريخ الفكر الاندلسى لجنداللد بالنثيا ، الترجمة العربية باب الشعر ، وكذلك كتاب « الشعر الاندلسى » لغرسية غومس ، وقد ترجمناه الى العربية ونشرناه سنة ١٩٤٨ وهو حافل بالمراجع ، اما عن الازجال والموشحات فانظر كتاب الدكتور عبد العزيز الاهوانى « الزجل فى الاندلس » القاهرة ١٩٥٧

ثم استحدث أهل الامصار فى المغرب فنـا آخر من الشعر فى أعاريض مزدوجة ، نظموه بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » استنبطه ابن عمير الاندلسى . وشاع هذا الفن بفاس فنوعوه أصنافا سموها : المزدوج ، والكارى ، والملعبة ، والغزل وغيرها ، كما شاعت الآن أنواع الزجل المصرى فى مصر ، والقريض اللبنانى ، والمعنى فى الشام (*)

وكان لعامة بغداد فن من الشعر يسمونه « المواليا » تحته فنون كثيرة ، ذكروا منها « القوما » و « كان وكان » (١) ومنه مفرد ومنه فى بيتين وغير ذلك . ثم انتقل الى الامصار وتفننوا فيه ، وهو شـائع الآن فى سـوريا والعراق ومصر

الشعر والدولة :

بينا فى كلامنا عن الشعر فى الجاهلية ما كان له من التأثير فى نفوس العرب لشدة حساسيتها وسرعة تأثرها . فلما صار العرب دولة وارتقت عقولهم زاد شعورهم رقة فازدادوا حساسية وتضاعف تأثيرالشعر فيهم. واتسعت دائرة ذلك التأثير باتساع دولة المسلمين واهتمامهم بالشعراء وأشعارهم . فقد رأيت ما كان من احتفاء بنى أمية بالشعراء واستقدامهم اليهم ، وظل ذلك فى صدر الدولة العباسية وفى كل دولة عربية . فاذا وفد الشاعر على الخليفة أو الأمير استأذن فى الدخول عليه ، فاذا حل أنشد قصيدته جهارا والخليفة وارباب مجلسه يسمعون (٢) ويترنمون فيأمر الخليفة أو الامير بالجائزة وقد تتجاوز مائة ألف درهم الى ألف ألف (٣) وقد يرتب له الرواتب الشهرية ويخلع عليه الخلع ويقلده الوظائف (٤) . ومن أكثر الخلفاء سخاء على الشـعراء المهدى والرشـيد العباسـيان والناصر والحكم المستنصر الاندلسيان . ومن أسخى الأمراء خالد القسرى أمير العراقين فى زمنالأمويين وسيف الدولة بن حمدان

على أن الخلفاء والأمراء عموما كانوا يبذلون الأموال للشـعراء الا نادرا ، وكانوا يعينون يوما كل أسبوع أو كلشهر أو سنة يستقبلون فيه الشعراء لايدخلون فيه سواهم (١) كأنهم يريدون التفرغ للنظر فى الشعر وآدابه . وكان الشعراء يتناظرون ويتنافسون فى ذلك المجلس ، ولا يخفى ما يترتب على تلك المناظرة من شحذ الأذهان وانهاض العزائم . وكان الاندلسيون أكثر

(*) انظر الفصل الخاص بالازجال فى نهاية مقدمة ابن خلدون ، ومادة « زجل » فى دائرة المعارف الاسلامية

(١) ابن خلكان ٥٣٠ ج ١ (٢) ابن خلكان ٧٢ ج ١

(٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ (٤) نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢

(٥) الاغانى ٤٤ ج ٩ وابن خلكان ١٦٩ ج ١

عناية فى ذلك من سواهم : كان للمعتضد بن عباد أمير اشبيلية المتوفى سنة ٤٦١ هـ ، دار خاصة بالشعراء يجلسون فيها على الرحب والسعة ، فاذا آن يوم الشعراء — وهو يوم الاثنين من كل أسبوع — يدخلون عليه ولا يدخل عليه سواهم . وكان للشعراء مراتب عندهم ولهم رئيس يوليه السلطان (١) وسجل خاص يقيدون فيه أسماءهم كأنهم يعدونهم من جملة موظفى الحكومة (٢) وكان أمراء الاندلس اذا عاد أحدهم من فتح جلس الناس فيقرأ القراء ثم يقوم الشعراء فينشدون . ونظنهم كانوا يبالغون فى اكرام الشعراء اقتداء بخلفاء بغداد ، كما اقتدوا بهم فى كثير من آدابهم ونظمهم وسائر أحوالهم

الشعر والخلفاء والامراء :

ومن أسباب رواج صناعة الشعر فى الدولة العربية أن الخلفاء أنفسهم كانوا ينظمون الشعر ويبحثون فيه ، ولبعضهم القصائد والمقاطيع الحسنة. ومن أشهر الخلفاء الشعراء يزيد بن معاوية ، فقد جمعوا شعره فى ثلاث كراريس ذكر ابن خلكان انه قرأها وحفظ أبياتها لشدة غرامه بها (٣) ولا غرابة فى ذلك لأن يزيد نشأ فى البادية ، ووالدته ميسون بنت بحدل الكلبية التى لم تعجبها قصور معاوية فى الشام فحنت الى البادية وانشدت الأبيات التى مطلعها :

لبيت تخفق الأرواح فيه　　أحب الى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عينى　　أحب الى من لبس الشفوف

فسمعها معاوية فطلقها ، فسارت الى أهلها فى نجد وهى حامل بيزيد فولدته بالبادية فأرضعته سنتين (٤) هناك . ومن الخلفاء الشعراء أيضا الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهرون الرشيد . وأكثر الخلفاء العباسيين كانوا ينظمون الشعر ، وأشعرهم بلا استثناء عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ، ولم يتول الخلافة الا يوما وليلة ، وكان من رجال العلم وله ديوان شعر (٥) قد طبع ونشر بمصر . وآخر من نظم الشعر منهم الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ ، فانه آخر خليفة دون له شعر ، وآخر خليفة خطب على منبر وجالس الندماء ووصل اليه العلماء (٦)

وأما خلفاء الاندلس وأمراؤهم فقد نظم الشعر منهم عبد الرحمن الاوسط

---

(١) نفح الطيب ١١٩ ج ٢
(٢) نفح الطيب ٨٩٥ ج ٢　　(٣) ابن خلكان ٥٠٨ ج ١
(٤) الدميرى ٢١٨ ج ٢　　(٥) ابن خلكان ٢٥٨ ج ١
(٦) الفخرى ٢٥٢

والمستعين بالله (*) . وقد ألف الصولى كتابا مستقلا فى أشعار خلفاء بنى العباس ، فحسدهم خلفاء بنى أمية بالاندلس ، فكان هم الخليفة الحكم الأندلسى من يؤلف له كتابا فى شعراء خلفاء بنى امية مثل كتاب الصولى فى بنى العباس (١) .

واذا تدبرت ما تقدم رأيت أكثر الخلفاء والأمراء عناية فى الشعر أكثرهم اقتدارا على نظمه ، لأنهم كانوا يقدرون الشعر قدره . وذلك شأن العلم فى الدول المطلقة ، فانما يروج فيها من الصنائع والفنون والعلوم والآداب ماكان للملوك أو الأمراء رغبة فيه . فالوليد بن يزيد بن عبد الملك أعطى يزيد ابن منبه على قصيدة مدحه بها عن كل بيت ألف درهم (٢) وهو أول خليفة عد الشعر وأعطى على البيت ألف درهم (**) . ويقال نحو ذلك فى سائر الخلفاء الشعراء ، وكذلك الأمراء ، فان سيف الدولة لم يرج الشعر فى عصره الا لأنه كان هو نفسه شاعرا (٣)

فكان الغرض من تقريب الشعراء فى أول دولة بنى أمية سياسيا ، ثم صار أدبيا يندفع الخلفاء والأمراء اليه تلذذا بالشعر وآدابه . ولذلك كانوا يجالسون الشعراء ويقترحون عليهم نظم القصائد أوالأبيات ، أويستقدمونهم للسؤال عن بيت استغلق عليهم فهمه أو نسوا بعضه ، وقد يكون بينهم وبين الشاعر بعد شاسع . فقد بعث هشام بن عبد الملك بدمشق الى أميره على العراق يوسف بن عمر الثقفى أن يوجه اليه حمادا الراوية ويدفع له خمسمائة دينار وجملا مهريا ، فسار حماد الى الشام فى ١٢ ليلة ، ولما وصلها وسأل عن سبب استقدامه قال له هشام : « خطر ببالى بيت لا أعرف قائله وهو :

دعوا بالصبوح يوما فجاءت　　قينة فى يمينها ابريق »

فقال حماد : « يقوله عدى بن زيد العبادى » وأنشده باقى القصيدة (٤) . وكثيرا ما كانوا يفعلون ذلك وهم فى مجلس من مجالس الطرب لا يجوزه الشرع ، فان يزيد بن عبد الملك صاحب حبابة التى مات فى سبيل تهتكه بها ، كانت تغنيه ذات ليلة وتسقيه فطرب ثم غنته :

اذا رمت عنها سلوة قال شافع　　من الحسن ميعاد السلو المقابر

فسألها عن قائل هذا البيث فقالت : لا أدرى ، فبعث الى الزهرى

(*) نظم الشعر من امراء الاندلس غير هذين كثيرون ، وقد أورد اشعارهم ابو عبد اللهبن الابار القضاعي فى كتابه « الحلة السيراء » نشر دوزى جزءا كبيرا منه فى لايدن

(١) نفح الطيب ١٠٠٣ ج ٢　　(٢) ابن الاثير ١٣٧ ج ٥

(**) الوليد بن يزيد هو اشعر بنى امية فى المشرق على الاطلاق ، وديوانه معروف . انظر « التطور والتجديد فى الشعر الاموى » لشوقى ضيف ، لقاهرة ١٩٥١

(٣) ابن خلكان ٣٦٥ ج ١ (٤) ابن خلكان ١٦٥ ج ١

ليستخبره وكان قد ذهب من الليل شطره ، فجاء وهو يرتعد خوفا فلما علم السبب سرى عنه (١)

على أن الغالب فى مجالسة الشعراء أن تكون لغرض أدبى ، كوصف منظر أو أداة ، كما فعل الهادى اذ استقدم الشعراء اليه واقترح عليهم أن يصفوا سيفا أهداه اليه المهدى ، وهو سيف عمرو بن معديكرب ، فوضع السيف بين يديه وقال للشعراء : صفوه ، فنال الجائزة ابن يامين المصرى (٢)

وكان الرشيد من أكثر الخلفاء بحثا فى الشعر وقائليه ، فقد سأل أهل مجلسه مرة عن صدر هذا البيت : « ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه » فلم يعرفه أحد ، وكان الأصمعى مريضا لا يقدر على المجىء ، فأرسل اليه اسحق الموصلى وبعث معه ألف دينار لنفقته ، فجاء الجواب أن البيت من قصيدة لأبى النشناش التهشلى ، وهذا صدره :

وسائلة أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه (٣)

وكثيرا ما كان الرشيد يعقد المجالس للبحث فى معنى بيت ، وقد سأل أهل مجلسه يوما عن معنى هذا البيت :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ورعا فلم أر مثله مخذولا

وكان فى المجلس الكسائى والأصمعى ، فطال الجدال بينهما والخليفة يسمع (٤) وأعطى الرشيد الفضل خاتما قيمته ١٦٠٠ دينار مكافأة على أحسن بيت قالته العرب فى الذئب (٥) والمأمون ولى ابن الجهم ولاية من أجل بيت طلبه منه واشترط عليه ذلك (٦) وقس على ذلك ما كان يجرى من هذا القبيل فى مجالس سيف الدولة وغيره من محبى الشعر

تأثير الشعر فى الدولة :

ويقال بالاجمال ان الشعر كان عند العرب كل آدابهم ، يتناشدونه ويتسامرون به ويتذاكرون فيه ، ولم يكن ذلك قاصراً على الخلفاء أوالأمراء أو الأدباء ، ولكنه كان عاما فى الرجال والنساء . وكانوا لكثرة ما يحفظونه منه يرمزون باسم الشاعر الى بيت من أبياته مشهور بمعنى ويريدون ذلك المعنى ، كما اتفق لرجل كان قاعدا على جسر بغداد فوجد امرأة بارعة فى الجمال قادمة من جهة الرصافة ، فاستقبلها شاب فقال : « رحم الله على ابن الجهم » . فقالت له المرأة : « رحم الله أبا العلاء المعرى » وما وقفا بل سارا مشرقا ومغربا . قال الرجل : « فتبعت المرأة وقلت لها : والله ان

---

(١) حلبة الكميت ٦٠ (٢) المسعودى ١٨٧ ج ٢
(٣) الزهر ٨٣ ج ١ (٤) الزهر ٢٧٨ ج ١ (٥) النجوم الزاهرة ٤٦٢ ج ١
(٦) الاغانى ١٦ ج ١٣

لم تقولى لى ما أراد وما أردت لأفضحنك ! » . قالت : أراد بعلى بن الجهم قوله :

عيون المها بين الرصـــافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وأردت بأبى العلاء قوله :

فيادارها بالخيف ان مزارها   قريب ولكن دون ذلك أهـوال (١)

فلا غرو بعد ما تقـدم أن رأيت للشعر تأثيرا شديدا فى نفوس كبار القوم ، حتى يترتب على انشاد البيت الواحد ايقاد نار الحرب أو قتل جماعة أو انقاذهم من القتل

ومن أمثلة ذلك أن أبا العباس السفاح أول خلفـاء بنى العباس ، لمـا استوثق له الأمر بالخلافة تتبع بقايا بنى أميـة ورجالهم ووضع السـيف فيهم . ولكن جماعة من كبارهم كانوا قد استأمنوا وصاروا يحضرون مجلس السفاح ، فاتفق مرة أن أحدهم سليمان بن هشام بن عبد الملك كان فى مجلس السفاح وقد أكرمه ، فدخل سديف بن ميمون الشاعر وأنشد :

لا يغـــــرنك ما ترى من رجال   ان تحت الضـــــلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى   لا ترى فوق ظهـــرها أمـــويا

فالتفت سليمان وقال : قتلتنى يا شـيخ ! ثم أخـذ سليمان فقتل . ودخل على السفاح شاعر آخر ، وقد قدم الطعام وعنده نحو سبعين رجلا من بنى أمية فأنشده :

أصـــبح الملك ثابت الآســـاس   بالبهاليـــل من بنى العبـــاس

ثم ذكر مظالم بنى أمية الى أن قال :

واذكـروا مصرع الحسين وزيدا   وقتيـلا بجـانب المهـراس (*)
والقتيل الذى بحران أضحى(**)   ثاويا بين غـــربة وتنـــاس

فأمر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا ، وبسط النطوع عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعـــــام وهو يســمع أنين بعضـهم حتى ماتوا جميعا (٢) (***)

---

(١) حلبة الكميت ٩٥

(*) الاشارة الى مقتل حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم فى وقعة أحد ، والمهراس ماء بجبل أحد قتل عنده حمزة

(**) الاشارة الى مصرع الامام ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس

(٢) الفخرى ٣١٤

(***) روى هذا الخبر ايضا ابن الاثير ١٧٤/٥ ، والخبر ظاهر المبالغة والاختلاق ، اذ كيف يتصور انه بسط النطوع على ٧٠ رجلا قتلهم ثم جلس عليها وأكل وهو يسمع انين بعضهم حتى ماتوا جميعا ؟!

ويقال نحو ذلك فى القصيدة التى هاجت الرشيد لمحاربة نقفور ملك الروم ومطلعها :

نقض الذى أعطيتــه نقفـــور   فعليه دائرة البوار تدور (١)

وكثيرا ما كان ينجو الرجل من القتــل ببيت يعجب به الخليفة فيخـلى سبيله ، وحكاية مالك بن طوق مع الرشيد مشهورة ، فانه بعد أن استوجب القتل وركع على النطع قال القصيدة التى مطلعها :

أرى الموت بين النطع والسيف كامنا   يلاحظنى من حيثمـــا أتلفت

الى أن قال :

وما بى من خـــوف أموت وأننى   لأعلم أن المـــوت شىء موقت
ولكن خوفى صبية قد تركتهم   وأكبـــادهم من حسرة تتفتت
كأنى أراهم حين أنعى اليهم   وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا آمنين بغبطة   أذود الردى عنهم ، وان مت موتوا
فـكم قائل : لا يبعـد الله داره !   وآخر جـــذلان يسر ويشمت

فبكى الرشيد وقال : « لقد سكت على همة وتكلمت على علم وحكمة ، وقد عفوت لك عن الصبوة ووهبتك للصبية ، فارجع الى ولدك ولا تعاود » فقال : « سمعا وطاعة » وانصرف (٢)

وكم من قائد رجع عن الهزيمة ببيت تذكره فتحمس . قال معاوية يرغب الناس فى الشعر : « .. فان فيه مآثر أسلافكم ومواضع ارشادكم ، فلقـد رأيتنى يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردنى الا قول ابن الاطنـابة الانصارى :

أبت لى عفـــتى وأبى بـــلائى   وأخذى الحمد بالثمن الربيح»(٣)

وقس على ذلك كثيرا من أمثال هذه الحوادث فى الجاهلية والاسلام

---

(١) المسعودى ١٤٢ ج ١   (٢) فوات الوفيات ١٤٣ ج ٢   (٣) ابن خلكان ١٠٧ ج ٢

العلوم الدخيلة

فرغنا من الكلام فيما اقتضاه التمدن الاسلامى من العلوم الاسلامية ، وفى الاسباب التى دعت الى نشوئها ، وفى الآداب العربية الجاهلية وما بلغت اليه فى الاسلام ، ونحن متقدمون فيما يلى الى الكلام فى العلوم الدخيلة التى نقلها المسلمون الى العربية ، ونريد بها العلوم القديمة التى كانت شائعة عند ظهور الاسلام فى الممالك التى عرفها المسلمون . وهى عبارة عن خلاصة أبحاث رجال العلم والفلسفة والأدب فى ممالك التمدن القديم ، على اختلاف الأمم والدول والأماكن والأصقاع فى القرون المتوالية ، من أقدم أزمنة التاريخ الى أيامهم ، وفيها زبدة علوم الاشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . ولا يراد بذلك أن العرب أخذوا علم كل أمة عن أهله رأسا ، ولكنهم جاءوا والعلوم قد تحلبت بتوالى العصور وتفاعل العناصر ، واجتمع معظمها لليونان فبوبوها ورقوها وظهرت النصرانية فأثرت فيها ، وبقى بعضها فى بقايا الدول القديمة كالفرس والكلدان والهنود وغيرهم ، ممن دانوا للمسلمين وانتظموا فى خدمتهم ، فأخذوا من هؤلاء جميعا . ولذلك كان من جملة أفضال التمدن الاسلامى على العلم أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية الى العربية وزاد فيها ورقاها كما سيأتى

***

فلنبحث أولا فى حال العلم والأدب فى البلاد التى عرفها المسلمون ، وهو يتناول النظر فى آداب اليونان والفرس والهنود والكلدان على ما يأذن به المقام . ثم نتقدم الى الكلام فيما نقله العرب من ذلك والأسباب التى دعت الى نقله

آداب اللغة اليونانية

أصل اليونان من القبائل الآرية التى نزحت قبل زمن التاريخ من أعالى الهند واستقرت فى الارخبيل اليونانى وما يقابله من شواطىء آسيا الصغرى حول بحر ايجه . وللشعوب الآرية آداب مشتركة وأخلاق متشابهة (*) .

(*) كان ذلك هو الرأى السائد حتى قبل ٣٠ سنة ، اذ كان العلماء يقسمون البشر الى حاميين وساميين وآريين لكل منهم خصائص خلقية وطبيعية لاتوجد عنه الآخرين . وقد انصرف العلماء اليوم عن هذا الرأى ، لان الذين يسمونهم آريين يختلف بعضهم عن بعض اختلافات تزيد على مابينهم جملة وبين الساميين مثلا . والاساس اليوم فى تقسيم البشر هو مقاييس الجسم وشكل الرأس ومقاييسه ، أما السامية والآرية والحامية فتقسيم لغوى ، فالمراد بالساميين الآن هم الامم التى تتكلم لغات متقاربة تجمعها رابطة السامية ، وكذلك الآريون والحاميون

فنزل اليونان هناك ومعهم كثير من معتقدات أسلافهم وعاداتهم التى نزل بها اخوانهم الآريون الى بلاد الهند ، ودونوا معظمها فى كتبهم الدينية السنسكريتية (البرهمية) فى أقدم ازمنة التاريخ

أما اليونان فكانوا يسمون هلاس (*) أو الهيلينيين ، وهم ثلاث قبائل كبرى : اليونيون Ionoi والايوليون Aeoloi والدوريون Dorioi . فنزل اليونيون شواطىء آسيا الصغرى ، والايوليون فى لسبس وما والاها ، ونزل الدوريون فى المورة وصقلية وغيرهما . وكان التمدن القديم يومئذ مزدهرا فى وادى النيل ووادى الفرات ، وكان الفينيقيون جيران اليونيين برا والدوريين بحرا ، وقد استعمروا شواطىء آسيا الصغرى مما يلى بلادهم . فأصبح اليونيون (أو اليونان الاسيويون) على مقربة منهم ، فحمل اليهم الفينيقيون كثيرا من أسباب التمدن ، وأكثره منقول عن البابليين والاشوريين والمصريين . فاقتبس اليونيون مبادىء العلم والأدب كالفلك والطب والدين ، ونقلوها الى اخوانهم الدوريين فى الجانب الغربى من بحر ايجه . وكان اليونانيون على الاجمال أهل ذكاء ونشاط ، فما لبثوا حينا حتى نظموا الشعر وألقوا الخطب وهى من قرائحهم الفطرية ، ونبغ منهم الشعراء والخطباء ثم الفلاسفة والعلماء والاطباء ، وجعلوا للعلم قواعد لا تزال مرعية فى أكثر وجوهها الى اليوم

ويقسم تاريخ آداب اللغة اليونانية الى ثلاثة عصور :

(١) عصر الآداب اليونانية القديمة ، ويبتدىء قبل زمن التاريخ الى سنة ٥٢٩ للميلاد ، وهى السنة التى أمر فيها القيصر جستنيان باغلاق المدارس الوثنية فى مملكة الروم

(٢) العصر البيزنطى أو القسطنطينى ، ويبتدىء سنة ٥٢٩ م ، وينتهى بفتح العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م

(٣) العصر الحديث ، يبتدىء بذلك الفتح ولايزال

ولا يهمنا فى هذا المقام الا العصر الاول وبعض الثانى

الآداب اليونانية القديمة

من قبل التاريخ الى سنة ٥٢٩ م

وتقسم الآداب اليونانية القديمة الى ثلاثة أدوار: (١) دور الشعر وينتهى سنة ٤٧٥ قبل الميلاد (٢) دور الروايات التمثيلية والتاريخ والفلسفة من سنة ٤٧٥ — ٣٠٠ قبل الميلاد (٣) دور العلم بعد نضجه أو الدور الاسكندرى ، ويقسم الى عصرين : العصر اليونانى ، والعصر الرومانى

(*) هلاس Hellas هو الاسم الذى أطلق على الجد الاسطورى لليونان ، وينسبون اليه فيقال هيلينيون وتسمى بلاد اليونان بلاد هيلاس

١ – الشعر اليونانى

اليونان من الأمم التى استنبطت آدابها الخيالية استنباطا ، ولم تقلد بها احدا ولا أخذتها عن أحـد ، وشـأنهم فى ذلك شـأن العرب فى علومهم الاسلامية وآدابهم العربيـة . وأقـدم آداب اليونان الشـعر ، وقد أتقنوه وأجادوا فيه من قديم الزمان ، لأن كل قبيلة منهم تولت اتقان فرع منه ، فاشتغل اليونيون فى الشعر القصصى ، والايوليون فى الشـعر الموسـيقى البسيط ، واشتغل الدوريون فى اتقان هذا الشعر والتوسع فيه ، وأخيرا اشتغل الاتيون Attioi – وهم فرع من اليونيين – فى اتقـان الشـعر التمثيلى وسائر الفنون الخيالية ، وتطرقوا منها الى الفنون النثرية كالتاريخ والفلسفة وغيرهما . وكانت لغات هذه القبائل تختلف بعضها عن بعض ، مثل اختلاف لغات قبائل العرب فى عصر الجاهلية .

ويغلب على الظن أن اليونان نظموا الشعر قبل تشتت قبائلهم ، وأقـدم أشعارهم « أناشيد الفصول » ، تليها أشعار وصفوا بها الآلهة أو الحروب على شكل الحكايات المتقطعة كانوا يتناشـدونها بالآلات الموسيقية . فلمـا تفرقوا اختص اليونيون بالشعر القصصى ، فألفوا من تلك الحكايات الملاحم ، وأقدم الملاحم الالياذة والاذيسية نظمهما هوميروس فى القرن التاسع قبـل الميلاد ، وصف بهما الايام العشرة الاخيرة من حصار طروادة

وقد زها الشعر القصصى عند اليونان قبل سائر ضروب الشعر ، لأنه يصف وقائعهم وحروبهم . وكانوا فى أوائل أحوالهم مثل قبـائل العرب ، وكان أمراؤهم يحبون سماع أخبار أسلافهم من الابطال وأنصاف الآلهة ، فحببوا الى أصحاب القرائح نظم تلك الاخبار فى الملاحم . وفى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد أخذت السلطة الاستبدادية فى الأفول ، وأخذ اليونان يتمتعون بحريتهم الشخصية استعدادا للحكم الجمهورى . فنما شـعورهم الاستقلالى ، وأحس كل منهم بذاتيته ، وتولد فيه الميل الى وصف عواطفه وميوله ، فنظمها شعرا هو الشعر الغنائى ، وأكثر المشتغلين به الايوليون والدوريون ، وله عند كل منهما مميزات . وأشهر نوابغ الشعر الموسيقى عند اليونان سميونيدس وبندار . الأول يونى الاصل دورى النظم ، وأكثر منظوماته فى وصف أحوال الحرب بين اليونان والفرس ، والثانى دورى المولد والمنشأ وأسلوبه ونظمه دوريان

٢ ـ الأدب والعلم والفلسفة عند اليونان

من سنة ٤٧٥ ـ ٣٠٠ ق . م

الادب والتاريخ :

ويسمى هذا الدور أيضا الدور الأتى أو الأتيكى نسبة الى أتيكا فى جزائر اليونان ، وسكانها مزيج من اليونيين والدوريين . فبعد أن اشتغل اليونيون والايوليون والدوريون فى انشاء الشعر ودونوا به أخبارهم ووصفوا حروبهم وعبروا به عن عواطفهم وعواطف ذويهم ، استحثتهم قرائحهم الوقادة الى ما يمثلون به تلك الاخبار ويشخصون يه العواطف ، ليراها الناس رأى العين أو يشعروا بها كأنها بين جنبيهم فأحدثوا فن التمثيل (الدراما) ومنه التراجيديا والكوميديا ، وأجادوا فى كليهما ونبغ منهم مشاهير عظام من أهل هذا الفن مما يطول بنا الكلام فيه ، وهو خارج عن موضوعنا . وانما يقال بالاجمال ان اليونان أتقنوا الشعر على اختلاف ضروبه وموضوعاته قبل أن يعتنوا بالنثر المرسل لاستغنائهم عنه بالشعر القصصى . وأقدم آثارهم النثرية وأكملها كتابات هيرودوتس الرحالة الشهير المتوفى سنة ٤٠٦ ق.م ، وهى بالنظر الى نثر اليونان مثل الياذة هوميروس بالنظر الى شعرهم

على أن هيرودوتس ليس أول من كتب النثر المرسل عندهم ، فقد ظهر قبله جماعة من العلماء دونوا به آراءهم فى الفلسفة أو الميثولوجيا أو التاريخ أو غيرها من العلوم النثرية . وأما هيرودوتس فتغلب نثره على نثرهم لحسن أسلوبه واهمية الموضوعات التى كتب فيها . فقد كتب رحلته قبل سنة ٤٣١ ق.م ، وهى التاريخ المعروف باسمه ، بين فيه أسباب الحروب التى نشبت بين الفرس واليونان فى القرن السادس وأول الخامس قبل الميلاد . ولايزال كتابه فريدا فى بابه الى اليوم ، ولذلك لقبوه بأبى التاريخ . وبعده بقليل نشبت بين أهل أثينا وأهل المورة (*) حرب أهلية هائلة ، هى الحرب المورية أو البيلوبونيسية من سنة ٤٣١ ـ ٤٠٤ ق.م فأرخها ثوسيدس ، وكان معاصرا لهيرودوتس وأصغر منه . ثم ظهر جماعة من كتاب التاريخ عندهم كخينوفون (**) وغيره ، ثم اشتغل اليونان بالخطابة ونبغ منهم ديموستنيس واشينس وهبريدس وغيرهم ، واشتغل آخرون فى وضع الشرائع مثل صولون ، وآخرون بوضع قواعد اللغة أو غيرها مما لايهمنا البحث فيه هنا

(*) المراد بهم الاسبرطيون

(**) يكتب أيضا زينوفون Xenophon

العلم والفلسفة :

وهما من نتاج الدور الآتى ، فقد ظل اليونانيون على نحو ما تقدم من الآداب الشعرية والتاريخية والادبية ، حتى تنبهت أذهانهم الى البحث فى الخليقة والعلل والمعلولات بنهضة حدثت على أثر الحروب المورية المذكورة . فانها توالت ٢٧ سنة ، وفى نهايتها دخلت أثينا فى حوزة اللقديمونيين Laecedomonoiوأصبح الاثينيون بعد العز أذلاء ، فساقتهم العبرة والمذلة الى النظر فى الوجود فنهضوا نهضة فلسفية زعيمها وواضع أساسها سقراط. والحروب يغلب أن يعقبها نهضة أدبية أو علمية أو سياسية ، على ما قررناه فى غير هذا المكان .

على أن اليونان تنبهوا الى النظر فى الموجودات الطبيعية وأحوالها قبل تلك النهضة ، على أثر احتكاك الافكار فى أثناء حروبهم مع الفرس . وانما كان نظرهم فيها قاصرا على تفهم نواميسها على نحو ما نعبر عنه اليوم بالطبيعيات . وأقدم من وصل خبره الينا من الفلاسفة الطبيعيين طاليس المليطى ، ولد فى مليطة من بلاد يونيا سنة ٦٤٠ قبل الميلاد ، وقد أخذ علمه من فينيقية ومصر وكريت ويونيا ، وغلب عليه النظر فى النجوم والهندسة ، وله آراء فى الوجود والموجودات وأصل العناصر ، ووضع كثيرا من القواعد الرياضية لاستخراج الكسوف والخسوف وقيام الاجسام المرتفعة بالنظر الى ظلها . ونبغ بعده جماعة من تلامذته وتلامذتهم ، ومنهم أرخيلاوس وهو الذى نقل الطبيعيات من يونيا الى أثينا ، وهناك تتلمذ له سقراط المولود سنة ٤٦٩ ق.م ، وفى أيام هذا الفيلسوف حدثت الحرب المورية ، فامتزجت الطباع وتحاكت الافكار فهاجت القرائح وثارت العواطف ، وأصبح الناس متضاغنين متنافسين ، وربما كان للرجل عدو من قبيلته وأهله

***

فلما أصيبت أثينا بالذل بعد تلك العظمة أصاب أهلها اضطراب وانكسار، والانسان اذا أصيب بنكبة لا حيلة فى دفعها اشتغل عنها بالتعليلات الفلسفية عن الوجود وأصله ليخفف وطأة تلك المصيبة عليه ، خصوصا فى مثل ما أصيبت به أثينا بعد عزها ورفعة شأنها ، وأصبح أهلها بعد سقوطها يتلفتون الى الوراء آسفين وينظرون الى الامام خائفين ، وقد ذهبت أسباب مفاخرتهم القديمة ولم تنتظم حكومتهم الجديدة ، فتنبهت أذهانهم وانصرفت قرائحهم الى النظر فى شؤون الانسان على الجملة وشؤونهم هم على الخصوص . فكانت وجهة تلك النهضة الادب والفلسفة ، فدخل القرن الرابع قبل الميلاد والناس يتناقلون آراء بعض المتقدمين من العلماء على ما يوافق أحوالهم ، ونفوسهم تشتاق الى الزيادة

سقراط :

وكان الناس فى ذلك اذ نبغ سقراط الحكيم ، ورأى النظر فى الفلسفة الطبيعية لا يجدى نفعا فى تلك الاحوال ، فانصرفت عنايته الى الفلسفة الادبية فدرسها جيدا ، وخلصها مما كان يعتورها من الرموز والغوامض ، وطبقها على حاجات الاثينيين يومئذ ، وقسم شرائعه الى ما يتعلق بالانسان من حيث هو انسان ، والى ما يتعلق به من حيث هو أب ومدبر ، والى ما يتعلق به من حيث هو عضو فى الجماعة ، وذهب الى خلود النفس . ويعتبره اليونانيون واضع الفلسفة الأدبية العلمية ، أو هو محول الفلسفة القديمة من الخيال الى العمل ، قال شيشرون : « ان سقراط أنزل الفلسفة من السماء الى الارض »

ويندر أن ينجو النوابغ وأصحاب الآراء الجديدة من حساد يتمنون أذيتهم أو يسعون فيها . وقد كان فى تعاليم سقراط ما يخالف اعتقاد الاثينيين يومئذ ، فقاموا عليه واتهموه بافساد عقول الشباب وحكموا عليه بالموت ، فشرب السم ومات

افلاطون :

مات سقراط ولم يدون شيئا من تعاليمه ، فدونها تلامذته من بعده ، ولكنهم اختلفوا فى تفسير أقواله فانقسموا الى ثلاث فرق تعرف بالكيرينية والكلبية والاشراقية . وهذه الاخيرة أشهرها وتسمى أيضا الافلاطونية نسبة الى صاحبها أفلاطون المولود سنة ٤٢٨ قبل الميلاد . ومذهبه مقتبس من ثلاثة مذاهب قديمة ، فانه تبع هيرقليطس فى الطبيعيات ، وفيثاغورس فيما وراء الطبيعة والنقليات ، وتبع سقراط فى الفلسفة الادبية والاخلاق . وقال بثلاثة أصول هى : الاله ، والمادة ، والادراك . والآلهة عنده ثلاث طبقات : علويون ، ومتوسطون ، وسفليون ، وعلم بتناسخ الارواح . وكتب أفلاطون على أسلوب المحاورات ، وسيأتى ذكرها فى كلامنا عما نقله المسلمون من كتب الفلسفة الى العربية

أرسطو :

وانقسم تلامذة أفلاطون أيضا الى فرق ، أهمها فرقة المشائين وصاحبها أرسطو أو أرسطوطاليس الذى أجمع العلماء على أنه أقدر الفلاسفة القدماء ، ويسميه العرب المعلم الأول . ولد سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٣٢٢ ق.م ، وعنه نقل العرب أكثر كتب الفلسفة والمنطق . جمع أرسطو فى كتبه زبدة ما بلغ اليه العلماء فى عصره ببلاد اليونان من الفلسفة والعلم . أما الفلسفة فأخذها عن أستاذه أفلاطون ، ويدخل فيها الابحاث المنطقية والعقلية

والنفسية والسياسية . وأما العلم ، ويراد به الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كالرياضيات والطبيعيات ونحوها ، فقد كانت من جملة ما طالعه من علوم القدماء وما اختبره بنفسه ، وكان غرض أرسطو ايضاح الفلسفة بالعلم واخضاع كل بحث عقلي أو نظري الى النواميس الطبيعية . ولم يكن يهمه تزويق العبارة أو برقشة الالفاظ ، وانما كان يهمه الغرض الاصلي من الموضوع ، فكان يبذل جهده في تجريد عبارته من الخيالات الشعرية التي مازجت فلسفة أفلاطون

فلما أظهر أرسطو فلسفته شغف الناس بها ، وكان يلقيها في أروقة حول هيكل أبولو قرب أكاديمية أفلاطون ، وكان يتلو دروسه وهو يمشي هناك فسمي تلامذته المشائين أو الرواقيين . ومن حظ أرسطو أن الاسكندر المقدوني ظهر في أيامه وتتلمذ له وأمده بالاموال لأبحاثه في الطب والحيوان وغيرهما . ولما سافر الاسكندر للفتح ظل أرسطو في أثينا ، فلما جاء الخبر بموت الاسكندر سقط حزبه وفي جملتهم أرسطو . وكأن فتوح الاسكندر هزت القرائح اليونانية كما هزتها حرب المورة من قبل ، فنهضت نهضة ثانية والعقول أكثر استعدادا وأقوى على الأبحاث . ولا يبعد أن يكون الاسكندر قد نقل الى أثينا بعض علوم فينيقية وبابل وفارس ، كما سيأتي، فأدخلها أرسطو في فلسفته وألف في كل موضوع عقلي وطبيعي وفلسفي ومنطقي ولغوي . ومؤلفاته كثيرة ، وينسبون اليه كتبا لم يؤلفها هو . وأما الكتب التي ثبتت نسبتها اليه فنحو ١٩ كتابا ، نقل المسلمون أكثرها الى العربية وسيأتي ذكرها

والكتب المنسوبة اليه خطأ أكثرها في الميكانيكيات والبلاغة والادبيات والرياضيات ، مما لاحاجة الى ذكره ، وانما نذكر منها كتابين مشهورين له وهما : كتاب المقولات (قاطيغورياس) في المنطق ، وكتاب التفسير

قد جاء أرسطو في أواخر عصر الزهو اليوناني ، فجمع ما ولدته العقول اليونانية الى أيامه من الآراء والابحاث والاختبارات في العلم والفلسفة ، ورتبها في كتب تعليمية توخى فيها الوضوح والسهولة ، فعاشت تعاليمه أدهارا ولم تستغن عنها أمة من الأمم التي تمدنت في عصر اليونان أو بعدهم كالرومان والفرس والعرب وغيرهم ، ولا يزال كثير منها مرعيا الى اليوم

مؤلفات أرسطو :

ولمؤلفات أرسطو تاريخ غريب لابأس من ايراده : لما دنا أجله عهد بكتبه ومسوداته الى أكبر تلامذته ثيوفراستوس ، وبعد ٣٥ سنة توفي هذا وقد عهد بها وبكتبه هو الى تلميذ اسمه نيليوس. فرحل هذا الى وطنه سبسس

فى آسيا الصغرى فبقيت عنده حتى توفى ، فخاف ورثتــه عليها من ملك برجامس حينئــذ فأخفوها فى مغــارة بقيت فيهــا ١٨٧ ســنة . فلما استخرجوها فى رأس المائة الاولى قبل الميلاد ، وجدوا بعضــها قد تهرأ بالعفونة والرطوبة والبعض الآخر أكله الدود والعث ، فباعوها صفقة واحدة الى كتبى اسمه ابليكون فأرجعها الى أثينا . فلمــا استولى سولا الرومانى على أثينا سنة ٨٦ ق.م ، كانت مكتبة هذا الرجل فى جملة غنائم الرومانيين، فنقلوها الى رومية فتوصل اليها بعض اليونانيين المقيمين هناك فاشتغلوا فى نسخها وضبطها . وأول المشتغلين فى ذلك تيرانيون صاحب شيشرون . ثم تولى اندرونيكوس الرودسى تصحيحها وترميمها ، ثم تناقلها الناس . فكل ما وصــل الى العالم من مؤلفــات أرســطو انما هو من تصــحيح اندرونيكوس المذكور فى أواسط القرن الاول قبل الميلاد

على انها ما لبثت أن ظهرت فى العالم حتى تناولها الناس واشتغلوا فيها بين درس ونقل وترجمة وتلخيص وشرح ونقد . بدأ بذلك اليونان أنفسهم ، ثم الرومان فالفرس فالعرب ، فأهل العصور الوسطى فى أوربا ، فأهل أوائل التمدن الحديث ، وخصوصا فلاسفة القرون الاولى لهذه النهضة . وكانت مدرسة الاسكندرية الآتى ذكرها تعلم الفلسفة بكتب ينسبونها الى أرســطو وكتبه لا تزال مدفونة . فلما فتح الرومان الآسكندرية — وكانوا قد وقفوا على نسخ أندرونيكوس — اعتمــدوا عليها دون سواها وأصبحت عمــدة التعليم فى رومية والاسكندرية على السواء . حتى ظهرت النصرانية ، فبطل تعليمها فى رومية وظل فى الاسكندرية . ولما سعى قياصرة الروم فى ازالة الوثنية من مملكتهم ، بحثوا عن العلوم الوثنية وأبطلوها ومن جملتها كتب أرسطو الا بعض كتبه المنطقية . على أنهم كانوا يعلمونها سرا ، حتى جاء الاسلام وانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية أيام عمر بن عبد العزيز، فانتقلت الى هناك وظل تعليمها محظورا لايتعلمها الا بعض اليهود أوالحرانيين لتقوى بها حجتهم على النصرانية

الطب والنجوم :

والطب أيضا من ثمار تلك النهضة على أثر الحرب المورية ، وكان اليونان قبل ذلك يعالجون مرضاهم بالكهانة ، وينسبون الامراض الى أعمال الشياطين والعلاج الى أعمال الآلهة . وكان الفلاسفة يتكلمون فى الطب باعتبــار أنه فرع من العلم الطبيعى ، ولم يستقل أحد منهم بالبحث فيه . وأول من رتب الطب وبوبه وبناه على أسس صحيحة ابقراط المتوفى سنة ٣٥٧ ق.م ، ولذلك سموه أبا الطب . وهو من نتاج الحرب المورية ، فقد نشأ فى أثنائها ونبغ بعد انقضائها وسافر الى سوريا ، ولعــله اطلع على طب البــابليين

والمصريين فأضافهما الى طب اليونان والف فيه الكتب . وأساس علاجه الاعتماد على الطبيعة ، وكان يفصد ويحجم ويكوى ويحقن ويشخص الامراض بالسماعة ويصف المسهلات النباتية والمعدنية . وله كتب فى الطب كثيرة ، ذكروا منها ٨٧ كتابا ولم يثبت له منها الا نحو العشرين ، وسيأتى ذكرها فيما نقله المسلمون من كتب الطب الى العربية . وما زالت كتب أبقراط معول الأطباء الى العصر الحديث ، وفيهم من شرحها أو فسرها أو ترجمها أو علق عليها . وممن اشتغل من اليونانيين فى ترقية العلوم الطبيـة بعد أبقراط أرسطو وغيره من الفلاسفة العظام ، فلما أنشئت مدرسة الاسكندرية على عهد البطالسة كان للطب شأن كبير فيها كما سيجيء

وعلم النجوم ــ أو علم الفلك ــ قديم عند سائر الأمم ، كما قد رأيت فى كلامنا عن علوم العرب قبل الاسلام . أخذ اليونان مبادىء هذا العلم عمن سبقهم من أمم التمدن القديم ، على يد الفينيقيين وتوسعوا فيه من عند أنفسهم . وكان النظر فيه من جملة أبحاث الفلاسفة واقدمهم طاليس المتقدم ذكره ، وقل من جاء بعده من فلاسفة اليونانيين ولم يتعرض لهذا الفن ، وأشهرهم فيه أنكسيمندر وأنكسيمينس وانكساغوراس . وكان للقسم الايطالى من بلاد اليونان عناية كبرى فى النجوم ، ومقدم فلاسفتهم فيه فيثاغورس الشهير المتوفى سنة ٥٠٠ ق.م ، أخذ بعض هذا العلم من مصر وتوسع فيه وتبعه فى ذلك كثيرون . ولا يكاد يخلو فيلسوف من فلاسفة اليونان من النظر فى النجوم وأحكامها مما يطول شرحه . على أن هذا العلم بلغ قمة مجده فى مدرسة الاسكندرية . ويقال نحو ذلك فى سائر العلوم الرياضية كالحساب والهندسة ، فقد اشتغل فيها الفلاسفة لكنها لم تنضج الا فى مدرسة الاسكندرية على يد أوقليدس

٣ ــ الدور الاسكندرى

مدرسة الاسكندرية ومكتبتها :

لم يكد اليونان يتخلصون من مصائبهم بالحروب المورية حتى انقض عليهم الرجل المقدونى العظيم (الاسكندر) فغلبهم على ما فى أيديهم ، ثم حمل بهم على العالم المتمدن فى ذلك العهد ، ففتح مصر وبنى فيها الاسكندرية واكتسح الشام والعراق وفارس الى بلاد الهند . فأصاب العالم بتلك الحروب هزة انتفضت لها أعصابه واختلطت عناصره ، فالتقى اليونانى بالفينيقى والمصرى والفارسى والكلدانى والهندى ، وتحاكت الافكار وتلامست المطامع وتقاطعت المصالح ، وكان من أقل نتائجها : أولا ، نشر علوم اليونان وآدابهم وتمدنهم فى أمم الارض ، ثانيا نقل علوم الفرس والكلدان وغيرهم الى

بلاد اليونان أو مصر . فقد ذكروا أن الاسكندر لما فتح اصطخر عاصمة الفرس خرب ابنيتها وشوه نقوشها ونسخ ما كان مجموعا من ذلك فى الدواوين والخزائن هناك ونقله الى اللسان اليونانى والقبطى . وبعد فراغه من نسخ حاجته منه أحرق ما كان مكتوبا بالفارسية ، وأخذ ما كان يحتاج اليه من علم النجوم والطب والطبائع وبعث به وبسائر ما أصاب من العلوم والأموال والخزائن والعلماء الى بلاد مصر (١)

ولما مات الاسكندر سنة ٣٢٣ ق.م ، انقسمت مملكته بين قواده ، فانتقل علماء اليونان من بلادهم للاقامة فى مستعمراتهم الجديدة فى مصر والشام والعراق ، فابتنوا المدارس فى الاسكندرية وأنطاكية وبيروت وغيرها ، وكان حظ البطالسة فى الاسكندرية أوفر من حظوظ سائر الدول اليونانية فى الشرق فى ترقية شؤون العلم والفلسفة . وكان بطلميوس الاول — الملقب بسوتر — أول البطالسة عادلا محبا للعلم (حكم من سنة ٣٠٦ — ٢٨٥ ق.م) فتقاطر اليه العلماء والفلاسفة من بلاد اليونان على اختلاف القبائل والاماكن ، فأكرم وفادتهم ونشطهم فى مواصلة البحث والدرس ، وأطلق لهم الأموال فزادوا احتراما له ورغبة فى العلم

وكان فى جملة المقربين اليه خطيب أثينى اسمه ديمتريوس فاليروس ، أشار عليه بانشاء مكتبة يجمع اليها الكتب من أنحاء العالم فأجابه الى ذلك وهى مكتبة الاسكندرية الشهيرة التى بحثنا عن أسباب حرقها فيما تقدم والظاهر أن الكتب التى بعثها الاسكندر من اصطخر وغيرها وضعوها فى هذه المكتبة . وديمتريوس هذا هو الذى سماه ابن القفطى « زميرة » ، وسبب الفرق تصحيف فى النسخ . وباشارته أيضا أنشأ سوتر المتحف أو النادى Museum على هيئة مدارس أوربا الجامعة (*) ، يجتمع فيه العلماء والادباء والفلاسفة للدرس والبحث ، وهو مدرسة الاسكندرية الشهيرة

وكان البطالسة خلفاء سوتر يقتفون أثره فى تنشيط العلم ، وأكثرهم من العلماء وخصوصا فيلادلفوس (**) (من سنة ٢٨٥ — ٢٤٧ ق.م) فانه اضاف الى المكتبة ما لم يكن فيها من كتب العلم اليونانية وغير اليونانية ، فابتاع الكتب وجمع كثيرا من مؤلفات اليهود والمصريين القدماء حتى لاينقص هذه المكتبة علم ولا خبر ، وخلفه بطلميوس أورجيتس(***) (سنة ٢٤٧ — ٢٢٢ ق.م) فأضاف الى المكتبة كثيرا من كتب الادب والشعر والتمثيل مما وجدوه فى خزائن أثينا ، وفرض على كل من يقيم فى الاسكندرية أو

---

(١) الفهرست ٢٣٩ (*) المراد بالمدارس الجامعة هنا مايعرف اليوم بالكليات Colleges وهى فروع الجامعات (**) هو بطلميوس فيلادلف ثانى ملوك البطالة فى مصر
(***) هو بطلميوس الثالث المعروف باسم ايورجيتيس Eurgetes

يمر بها من رجال العلم أن يقدم للمكتبة نسخة من كل ما يملكه من الكتب ، فزهت الاسكندرية بالعلم ونبغ فيها العلماء فى كل موضوع ، حتى فاقت كل ما تقدمها أو عاصرها من مدن العالم القديم ، ومنا زالت رافلة بالعلم والعلماء الى ظهور الاسلام ، أى عبارة عن نيف وتسعمائة سنة تقسم الى مدتين : الاولى ، يونانية تبتدىء بولاية سوتر وتنتهى بدخول مصر فى حوزة الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد ، والثانية رومانية تبتدىء من هذه السنة وتنتهى سنة ٦٤٠ م ، لما فتحها ابن العاص . وكان غرضها فى المدة الاولى علميا أدبيا ، وغايتها ترقية العلوم اليونانية وتوسيع نطاقها ، وكانت المرجع العلمى الوحيد فى تلك العلوم الى أواخر القرن الثانى للميلاد ، فأخذت تتقهقر لأسباب كثيرة ، أهمها فساد الحكومة واعوجاج الاحكام وظهورمدارس اخرى من نوعها فى سوريا ورودس وغيرهما ، فتحولت همم رجال العلم الى بلاد العدل والحرية . فلما دخلت الاسكندرية فى حوزة الرومان اتسعت شهرتها باتساع دولتهم ، ولكن رغبة رجال العلم تحولت عنها الى رومية . واتفق ظهور الديانة المسيحية واشتغال ذوى القرائح فى اثباتها أو نفيها . ونظرا لتوسط الاسكندرية وقربها من ميدان الجدال اتخذت مدرستها خطة فلسفية دينية . فلمدرسة الاسكندرية بهذا الاعتبار عصران : الاول ، يونانى علمى أدبى ، والثانى رومانى فلسفى دينى .(*)

العصر الاسكندرى اليونانى من سنة٣٠٦ – ٣٠ ق . م

زهت الاسكندرية فى عصرها الاول بمن انتقل اليها من جالية اليونان ، على أثر ما أصاب بلادهم من الذل بعد ذهاب استقلالهم ، وحملوا معهم كتب العلم والفلسفة والطب والشعر والادب واللغة والتاريخ ، غير ما جمعه البطالسة من الكتب الاخرى كما تقدم ، فأقام اليونانيون فى الاسكندرية على الرحب والسعة فى ظل حكومة يونانية وعادات وآداب يونانية . لكنهم كانوا قد أضاعوا أنفة الاستقلال وروح الحرية ، لتقيد عواطفهم وشعائرهم بالحكم المطلق الذى لا يقترب منه الا المتزلفون ، ففسدت القرائح وضاقت العقول ، فاشتغل يونانيو الاسكندرية فى الشعر والخطابة والتاريخ والميثولوجيا ، لكنهم لم يجيدوا شيئا منها مثل اجادتهم فى أثينا والمورة وساقس وغيرها ، ناهيك بانصراف الاذهان الى العلوم الطبيعية والرياضيات ، وقد كان لهذه العلوم حظ وافر فى تلك المدرسة ، فنبغ فيها جماعة من علماء الفلك والطب

(*) انظر عن تاريخ مكتبة الاسكندرية
Parsons, The Library of Alexandria. New-Orleans, 1954
وعن الاسكندرية انظر : ابراهيم نصحى : تاريخ البطالمة ، الطبعة الاولى فى مجلدين ، القاهرة ١٩٤٤
ومحمد صقر خفاجى : شعراء الاسكندرية

والهندسة والجغرافية ، وان كانت مؤلفاتهم فى الغالب مبنية على مؤلفات القدماء أو شروحا لها

الرياضيات :

نبغ أقليدس الصورى المولود سنة ٣٢٣ ق.م ، وقد طلب العلم فى بلاد اليونان وأتقن الرياضيات بنوع خاص ، وكانت الاسكندرية قد دخلت فى حكم البطالسة وأفضت الحكومة الى بطليموس فيلادلفوس ، فاستقدمه اليه فى جملة من استقدمهم من رجال العلم ، ووسع له الرزق وأمره بتدريس الهندسة وكان فيلادلفوس أول من تلقاها عنه ، وهناك ألف كتابه المعروف بأصول اقليدس ولا يزال عليه المعول فى هذا الفن الى اليوم ، وقد نقل الى كل لغات العالم المتمدن

ونبغ من الرياضيين بعد أقليدس أرخميدس — أو أرشميدس — الصقلى المولود سنة ٢٨٧ قبل الميلاد ، وجاء مدرسة الاسكندرية وتلقى فيها الرياضيات وعاد الى بلاده ، وكان ملكها يحترمه فقربه اليه ، وكان فى حرب ضد الرومان فأعانه من علمه بما لم يستطعه القواد بسيوفهم ، ولكنه ذهب ضحية تلك المساعى ، فقتله بعض جنود الرومان فى أثناء الفتح وهو لا يعرفه. ولأرخميدس اكتشافات مهمة فى النواميس الطبيعية المتعلقة بالهندسة أو الحساب ، وذكروا له من الكتب كتابا فى الكرة والاسطوانة ، وآخر فى تربيع الدائرة وتسبيعها والدوائر المماسة والمثلثات والخطوط المتوازية والمأخوذات والمفروضات (١)

ثم نبغ أبولونيوس المولود سنة ٢٥٠ ق.م صاحب الابحاث فى قطع المخروط ، وهيبارخوس المتوفى سنة ١٢٥ ق.م مؤسس الرأى الفلكى للسموات ، واشتغلوا فى أثناء ذلك بالجغرافية الرياضية ، وأول من كتب فيها أراتستين المتوفى سنة ١٩٥ ق.م ، وهو أول من وضع جداول أسماء الملوك الفراعنة وأول من قاس الارض

ثم ظهر بطليموس القلوذى الشهير فى أواسط القرن الثانى بعد الميلاد ، فأخذ رأى هيبارخوس وبنى عليه كتاب المجسطى الذى كان عليه المعول فى مدارس العالم الى عهد غير بعيد . ومن اقوالهم : « لايعرف كتاب الف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزائه غير ثلاثة : كتاب المجسطى فى علم هيأة الفلك وحركات النجوم ، وكتاب أرسطوطاليس فى صناعة المنطق ، وكتاب سيبويه فى النحو » (٢)

---

(١) الفهرست ٢٦٦

(٢) تراجم الحكماء (خط)

ومن مؤلفات بطليموس المذكور كتاب الاربعة ، وكتاب الحرب والقتال ، وكتاب الجغرافية فى المعمور وغيرها

واشتغل علماء الاسكندرية خصوصا برصد الافلاك واستخراج الازياج ، وكان عندهم مرصد يرصدون منه الاجرام ، وظل هو المرصد الوحيد فى العالم الى أيام الاسلام

الطب :

أما الطب فقد كان يعلم فى مدرسة برجامس ، فلما زهت مدرسة الاسكندرية توجهت الانظار اليها وكثر طلبة الطب فيها ، وكانت عمدة التدريس فيها على مؤلفات أبقراط ، لكنهم اشتغلوا خصوصا فى فن التشريح حتى فاقوا فيه سائر مدارس الطب فى ذلك العهد ، واشتهر فيها أثناء العصر اليونانى طبيبان لكل منهما مذهب فى الطب والعلاج وهما : هيروفيلوس، واراسستراتس . الاول من خلقيدونة ، وتلقى العلم فى مدارس اليونان واشتغل خصوصا فى التشريح ، وألف كتبا وافق أبقراط فى أكثرها ، ويعدونه فى المنزلة الاولى بعده . أما الثانى فكان معاصرا لهيروفيلوس ، وهو من انطاكية وجاء الاسكندرية للتبحر فى علم التشريح ، وله مؤلفات ذهب فيها مذهبا غير مذهب هيروفيلوس ، فكان لكل من هذين الطبيبين تلامذة يؤيدون رأيه. وأصحاب هيروفيلوس ينصرون أبقراط والآخرون ضده . وظل المذهبان الى القرن الثانى بعد الميلاد ، وقد مهد الارستراتيون الطريق للتدجيل الذى شاع بعدئذ فى الاجيال المظلمة

انقضى عصر مدرسة الاسكندرية اليونانى وبعض العصر الرومانى والاطباء فئتان لهما مذهبان متناقضان ، حتى ظهر جالينوس القلوذى المولود فى برجاموس سنة ١٣٠ م . تلقى أصول العلم على أبيه ثم شرع فى درس الطب هناك ، وسافر سنة ١٥٠ م الى ازمير، ثم قدم الى الاسكندرية لاتقان فن التشريح ، وطاف بلادا أخرى فى طلب العلم حتى عاد سنة ١٥٨ م . الى برجاموس وسافر سنة ١٦٤ الى رومية وهى آهلة بالعلماء ، واتفق له معالجة بعض كبار القوم وشفاؤهم على يديه فذاع صيته وسموه « الطبيب العجيب » ، فحسده زملاؤه فرجع الى بلده سنة ١٦٨ ، ثم تمكن من الرجوع الى رومية وخدم بعض أباطرتها حتى توفى سنة ٢٠٠ م ، وله مؤلفات عديدة فى الطب أشهرها يعرف بالكتب الستة عشر ، وبعضها يعرف بأسماء خاصة حسب موضوعاتها ، وسيأتى ذكرها فى جملة ما نقل من كتب الطب الى العربية . وجالينوس ليس من أهل العصر الاسكندرى اليونانى الذى نحن بصدده ، وانما ذكرناه استيفاء للكلام فى تاريخ الطب

العصر الاسكندرى الرومانى من سنة٣٠ ق . م — ٦٤٠ :

هو العصر الاسكندرى الثانى ، ويبتدىء فى الحقيقة قبل الفتح الرومانى بنصف قرن ، أى منذ دخول أثينا فى حوزة الرومان فى القرن الاول قبل الميلاد ، فان قائدهم « سولا » — بعد أن فتح أثينا — حمل منها الى رومية أحمالا من كتب العلم والفلسفة كما تقدم ، فانتقل العلم من ذلك الحين من أثينا الى رومية ، ولما أسس أوغسطس قيصر المكتبة الشهيرة فى رومية قسمها الى قسمين : لاتينى ويونانى . ولم ترث رومية كتب أثينا فقط ولكنها ورثت علماءها وفلاسفتها أيضا ، فأصبح اليونان أنفسهم اذا أرادوا التبحر فى العلم رحلوا الى رومية . وليس من شأننا الآن البحث فى آداب الرومان

فمدرسة الاسكندرية أخذت فى الانحطاط قبل دخولها فى حوزة الرومان، فلما صارت رومانية زادت ضعفا . وكانت علومها قد تغيرت وجهتها وانحصرت فى الفلسفة ، لأن الاسكندرية ما برحت منذ تأسيسها وفيها جماعة من اليهود ، نزحوا اليها كعادتهم فى الرحيل للارتزاق أو فرارا من الاضطهاد ، فآنسوا فى الاسكندرية ترحابا وراحة فتكاثروا . فترتب على اختلاطهم باليونان وتمازج الأذواق والابحاث تطور مهم فى الفلسفة والدين ، لأن اليهود أهل توحيد ووحى وتقليد، واليونان أهل فلسفة ومنطق وخرافات دينية ، فأدى التمازج الى التقارب وزاد ذلك بظهور النصرانية . ولما تأيدت النصرانية واعتنقها اليونان اخذوا فى تطبيق فلسفتهم على الدين ، فتولد من ذلك ما يسمونه الفلسفة الافلاطونية الجديدة Neo-Platonic (*) والفلسفة الفيثاغورية الجديدة Neo-Pythagoric ، وجملة القول أن العصر الاسكندرى الثانى قلما أفاد العلم لأن أبحاثه كانت غايتها فلسفية دينية

ومما اختصت مدرسة الاسكندرية فى ترقيته من العلوم : أولا التشريح ، لأن المصريين كانوا يفتحون الجثث لأجل تحنيطها فسهل عليهم درس فن التشريح بها . ثانيا علم الكيمياء ، لأنه كان فى مصر قبل دخولها فى سلطة اليونان ، ولما أنشئت مدرسة الاسكندرية اشتغل علماؤها فى درس هذا العلم وجمعوا ما كان عند الأمتين فى علم واحد

وظلت مدرسة الاسكندرية مركز التدريس فى الشرق الى أواخر القرن الاول للهجرة ، حتى نقله عمر بن عبد العزيز الى مدرسة انطاكية فمدرسة حران وغيرهما من مدارس تلك الايام (١)

(*) تسمى ايضا الافلوطونية نسبة الى افلوطين المصرى ، وهو من مواليد اسيوط

(١) طبقات الاطباء ١١٦ ج ١

سمى هذا العصر بالبيزنطى نسبة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) لأن آداب اللغة اليونانية هناك كان لها فيه شأن خاص ، فلا بأس من الاشارة الى ما يهمنا منه . ويقال بالاجمال ان الآداب اليونانية قلما تقدمت فى تلك العاصمة ، مع أن العلم كان فى خزائنها كما كان فى خزائن الاسكندرية ، وخصوصا بعد موت جستنيان . فلما قامت الخصومة على الايقونات (*) كان من جملة نتائجها أعدام الكتب واهمال العلم ، واقتصر النوابغ فيها على ما لايحتاج الى مواهب خاصة ، أو الى بحث أو نظر ، فكانوا اذا نشأ أحد القياصرة وأراد التشبه بمنشطى العلم القدماء رغب الناس فى المطالعة والتأليف . وتأليفهم عبارة عن تلخيص القديم أو شرحه أو جمعه على شكل الموسوعات ، وقد يفعل القيصر نفسه ذلك. فان قسطنطين السابع (٩٠٥ – ٩٥٩ م) كان محبا للعلم مشتغلا بالتأليف ، فألف كتبا متسلسلة فى تاريخ الحكومة ونظامها . وكذلك كانوا يفعلون فى سائر الموضوعات الادبية ، كالتاريخ والشعر واللغة ، بدون نقد ولا نظر كما فعل مؤلفو العرب بعد ذلك مثل هذه الحال . أما الفلسفة فتحولت عندهم الى اللاهوت ، لأن علماء النصرانية استخدموا الأدلة الفلسفية لاثبات بعض العقائد أو الآراء الدينية فى مجادلاتهم أو فى مواعظهم ، على نحو ما قدمناه عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة . وممن اشتهر فى هذا الشأن يوحنا الدمشقى (٧١٨ – ٧٤١ م) صاحب المؤلفات الكثيرة فى الدين والفلسفة وغيره مما لاحاجة بنا الى ذكره

آداب اللغة الفارسية قبل الاسلام

الفرس من الشعوب الآرية اخوان الهنود واليونان ، وهم أمة قديمة حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون ، فجردت على بلادهم جيشا قد يمتنع على أعظم دول الأرض اليوم حشده ونقله بمهماته ومؤونته من أواسط آسيا الى البحر الابيض ، فكيف منذ بضعة وعشرين قرنا ؟ فالدولة التى هذا مبلغ قوتها لا تخلو من أدب وعلم ، والفرس أهل ذكاء وتعقل ، وفيهم استعداد فطرى لأسباب التمدن ، فلا بد من اجادتهم نظم الشعر على نحو ما فعل اخوانهم الهنود فى المهابهاراتة ونحوها ، وان كان ما وصل منه الينا قليلا . ناهيك بالعلوم القديمة التى هى من قبيل الطبيعيات والرياضيات

(*) المراد بالايقونات هنا الصور والتماثيل الدينية التى توضع فى الكنائس ، وقد كانت جماعة تعرف باللاايقونيين – اى اعداء الصور – Iconoclastes تطالب باخراجها من الكنائس وعارضت فى ذلك جماعة انضم اليها الرهبان ، فكانت الخصومة المشار اليها فى المتن

كالنجوم والانواء ، فقد أحرزوا شيئا منها وخصوصا لأنهم ورثوا البابليين والاشوريين واحتكوا باليونان وهم فى ابان تمدنهم واختلطوا بجيرانهم الهنود. وكانوا يعرفون الكتابة وينقشونها على الاحجار باللغة الفهلوية ، ويؤيد ذلك ما جاء فى كتب الاخبار عن فتح الاسكندر بلاد فارس ، وما عثر عليه فى عاصمتهم اصطخر (*) من خزائن الكتب فاستنسخها وأحرقها كما تقدم ، وفيها ما كان قد جمعه الفرس من علوم الهند والصين الى تلك الايام

وليس ذلك كل ما كان عند الفرس من كتب العلم ، فقد عثروا فى أوائل القرن الرابع للهجرة على مخابىء فى رستاق جى بفارس ، هى عبارة عن أزج معقود بالحجارة فوجدوا هناك كتبا كثيرة مكتوبة فى لحاء التوز (**) ، وفيها أصناف من علوم الاوائل باللغة الفارسية القديمة (الفهلوية) وقد تبين من قراءتها « أن طهمورث الملك المحب للعلوم والعلماء خاف الامطار على كتب العلم فأودعها ذلك الرستاق » وهى كتب نفيسة فى علم النجوم وعلل حركاتها مما كان عند الفرس والروم والكلدان (١) . وعثروا نحو ذلك الزمن ايضا على أزج آخر انهار فانكشف عن كتب كثيرة لم يهتد أحد الى قراءتها . والظاهر أن عادة حبس الكتب فى المغارات أو نحوها كانت شائعة فى ذلك الزمان . قال ابن النديم : « والذى رأيته انا بالمشاهدة أن أبا الفضل بن العميد انفذ الى هنا فى سنة نيف وأربعين (وثلثمائة) كتبا متقطعة أصيبت بأصفهان فى سور المدينة فى صناديق ، وكانت فى اليونانية فاستخرجها أهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره ، وكانت أسماء الجيش ومبلغ أرزاقهم ... الخ »

على أن الشائع من علوم الفرس لم يكن يتجاوز بعض الاشعار والاخبار وكتب العقائد والاديان الى أيام سابور بن اردشير من الدولة الساسانية فى أواسط القرن الثالث للميلاد . وفى أيامه ظهرت طائفة المانوية ، ونشبت بين سابور والروم حروب انتهت بنصرته ، وقد حمل معه عددا كبيرا من اسراهم الى بلاده ، فأنشأ لهم فى الاهواز مدينة سماها جنديسابور نسبة اليه ، وأكرم وفادتهم فحببوا اليه العلم فعمل على استرجاع علوم الفرس من اليونان أو الاستعاضة بمثلها . فبعث الى بلاد اليونان فاستجلب كتب

(*) يذكر بعض مؤرخى العرب ان عاصمة فارس كانت اصطخر ، والمعروف ان عاصمتها كانت كتزفون Ctesiphon التى يعربها العرب الى طيشفون وهى المعروفة عادة باسم المدائن او مدائن كسرى

(**) الازج السرداب المبنى تحت الارض . وهى فارسية معربة . والتوز شجر

(١) الفهرست ٢٤٠

الفلسفة وأمر بنقلها الى الفارسية (١) واختزنها فى مدينته ، وأخذ النـاس فى نسخها ودراستها

فلما تولى كسرى أنوشروان العادل (من سنة ٥٣١ – ٥٧٨) فتح للفرس مورد جديد للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد جستنيـان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على اثر اقفاله الهيـاكل والمدارس الوثنيـة . وكانت الفلسفة الافلاطونية الجـديدة قد نضجت ، ففر بعض أصحابها من وجـه الاضطهاد وتفرقوا فى العالم ، وجاء منهم سبعة الى أنوشروان فأكرم وفادتهم، وأمرهم بتأليف كتب الفلسفة أو نقلهـا الى الفارسيـة ، فنقلوا المنطق والطب (٢) وألفوا فيهما الكتب فطالعها هو ورغب النـاس فيها . وعقـد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن ، حتى خيل لليونان الذين جالسوا أنوشروان أنه من تلامذة أفلاطون . والمظنون أن تلك الفلسفة كانت أساسا لتعاليم الصوفية التى نشأت بعد ذلك

ولم يقتصر أنوشروان على نقل علوم اليونان الى لسانه ولـكنه نقل علوم الهنود أيضا من السنسكريتية الى الفارسية .(٣) وانشأ فى جنديسـابور مارستانا (مستشفى) لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب ، استقدم اليه الاطباء من الهند وبلاد اليونان، وكانوا يعلمون فيه الطبين : الهندى والابقراطى فجمع بين الحسنيين . وبلغ هذا المارستان من الشهرة ما لم يسبق له مثيل، وكان له شأن كبير بعد الاسلام كما سيأتى

وجملة القول ان الفرس اشتغلوا قبل الاسلام فى الفلسفة والطب ، وتثقفت عقولهم وذاع صيتهم وكان لهم اطلاع خاص فى علم النجوم وأحكام الافلاك ، مما توارثوه عن أسلافهم أو نقلوه عن جيرانهم . وقد زها العلم عندهم فى أيام أنوشروان العادل ، والعلم لايزهو الا فى ظل العدل والحرية

آداب اللغة السريانية قبل الاسلام

السريان بقايا الكلدان أو البابليين القدماء ، الذين انشأوا تمدنا ووضعوا علوما هامة ورصدوا الكواكب واخترعوا المزاول ووضعوا أسس الطب قبل الميلاد بقرون ، ثم دالت دولتهم واستولى الفرس على بلادهم فذهب علمهم بذهاب حريتهم ، حتى اذا قامت النصرانية وانتشر دعاتها فى البلاد وافترقت الى طوائف ومذاهب ، كان للسريان حظ كبير من كل ذلك وكان لهم تأثير ذو شأن فى تاريخ النصرانية

---

(١) ابو الفداء ٥٠ ج ١ (٢) الفهرست ٢٤٢

(٣) E. Browne's Literary History of Persia, 167

وانما يهمنا فى هذا المقام ماكان عندهم من العلم والفلسفة . وهم فى ذلك تلامذة اليونان ، لأنهم تعلموا فلسفتهم وطبهم وسائر علومهم ، كما تعلمها الرومان قبلهم واقتبسها الفرس معهم وكما تعلمها المسلمون بعدهم . والسريان أهل ذكاء ونشاط ، فكانوا كلما اطمأنت خواطرهم من مظالم الحكام وتشويش الفاتحين انصرفوا الى الاشتغال بالعلم ، فأنشأوا المدارس للاهوت والفلسفة واللغة ، ونقلوا علوم اليونان الى لسانهم وشرحوا بعضها ولخصوا بعضا . ومنهم خرج أكثر الذين ترجموا العلم للعباسيين وأكثرهم من النساطرة كما سيجىء . ونقتصر هنا على ذكر اشتغالهم بالعلم لأنفسهم

كان للسريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة ، تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية ، أشهرها مدرسة الرها وفيها ابتدأ السريان يشتغلون بفلسفة أرسطو فى القرن الخامس للميلاد . وبعد أن تعلموها أخذوا فى نقلها الى لسانهم ، فنقلوا المنطق فى أواسط القرن المذكور . ثم أتم دراسة المنطق سرجيس الرأس عينى الطبيب المشهور ، وفى المتحف البريطانى بلندن نسخ خطية من ترجمته الايساغوجى الى السريانية ، وكذلك مقولات أرسطو لفرفوريوس ، وكتاب النفس وغيرها ، وقد نشر بعضها من عهد قريب

وفى أوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنسرين على الفرات بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية ، وتخرج منها جماعة كبيرة من السريان وفى جملتهم الاسقف ساويرس ، فقد انقطع فيها لدرس الفلسفة والرياضيات واللاهوت. ولما تمكن من تلك العلوم نقل بعضها الى السريانية ، ولا تزال بعض ترجماته فى الفلسفة محفوظة فى المتحف البريطانى . وقد اتمها بعده تلميذه يعقوب الرهاوى واضع علم النحو السريانى ومن تلامذة أثناسيوس جورجيوس المعروف بأسقف العرب (٦٨٦م) فقد ترجم بعض كتب أرسطو . واشتغل جماعة آخرون فى ترجمة كتب أفلاطون وفيثاغورس وغيرهما مما يطول شرحه. واشتهرت هناك مدارس اخرى كمدرسة نصيبين التى كان عدد تلامذتها نحو ثمانمائة ، وكانت تعلم فيها كل العلوم العقلية والنقلية

أما الطب فقد كان لهم فيه حظ وافر على أثر انشاء مارستان جنديسابور، واشتهر فيهم من أهل هذه الصناعة كثيرون ، منهم سرجيس الرأس عينى المتقدم ذكره ، وأتاتوس الامدى ، وسمعان الطيبوتى ، والاسقف غريغوريوس، والبطريرك ثيودوسيوس ، وغيرهم من الاطباء الذين ادركوا الدولة العباسية وخدموها

وقد نقل أطباء السريان كثيرا من كتب الطب من اليونانى الى السريانى ، حتى فى أثناء اشتغالهم بنقلها الى العربية ، لأنهم كانوا كثيرا ما ينقلونها الى

السريانية فقط أو الى السريانية والعربية معا . فسرجيس ترجم بعض كتب جالينوس الى السريانية ، ثم نقلها فى الاسلام موسى بن خالد الى العربية .(١) والطيبوتى ألف فى أواخر القرن السابع للميلاد كتابا فى الطب ، وترجم غير كتاب ، ناهيك بما كان من مؤلفات آل بختيشوع وآل حنين وغيرهما

ولهم فى النجوم مؤلفات كثيرة ، لتسلسل هذا العلم فيهم عن آبائهم الكلدانيين ، فان البرديصانى له كتاب فى النجوم لم يصل الينا غير خبره ، وألف الرأس عينى فى تأثير القمر وحركة الشمس . وألف السبكتى فى صور الابراج . و ممن ألف فى النجوم أيضا يعقوب الرهاوى المتقدم ذكره ، وداود البيت ربانى وموسى بن كيفا وعمونيل البرشهارى وغيرهم (*)

واشتغل السريان أيضا فى الكيمياء والحساب والرياضيات ، فضلا عن اشتغالهم فى لغتهم وضبط قواعدها وحركاتها . والمشهور أنهم اقتبسوا قواعد النحو عن اليونان ، وحركات أحرفهم عبارة عن أحرف يونانية صغيرة توضع فوق الحروف أو تحتها . وقد استغرقوا فى آداب اللغة اليونانية وشعرها ، فترجموا الالياذة والاوذيسية الى لسانهم . ترجمها ثيوفيل الرهاوى سنة ٨٧٥ م وقد ضاعت الترجمة ولم يبق منها الا بيتان . ويقال انهم تنبهوا لاستخدام الحروف اليونانية مكان الحركات لما أراد ناظم الالياذة ضبط الأعلام اليونانية فيها . وذلك غير النقط التى كانت تقوم عندهم مقام الحركات ، وقد تقدم ذكرها فى كلامنا عن حركات الخط العربى . ولا تزال الحركات عند السريان النقط والاحرف اليونانية الى اليوم ، الاولى شائعة عند السريان الشرقيين ، والثانية عند الغربيين

آداب اللغة الهندية قبل الاسلام

الهنود أمة قديمة ، والطبقة العليا منهم اخوان الفرس واليونان ، وقد نظموا الملاحم ودونوا الاخبار شعرا من قديم الزمان ، ولهم آداب خاصة وتواريخ خاصة تولدت عندهم بتوالى القرون ، كما يستدل من مراجعة تواريخهم ودرس أحوالهم . حتى انه كثيرا ما كان ملوك الفرس يستعينون بأطباء الهنود ، كما فعل أنوشروان فى مارستان جنديسابور ، وكما وقع للخلفاء العباسيين فى أوائل نهضتهم ، فانهم كانوا يستقدمون الاطباء من الهند ويستشيرونهم فى أمراضهم ، بعد أن تفرغ حيل أطباء الفرس والسريان من

---

(١) طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١

(*) أنظر عن هؤلاء جميعا : مراد كامل ومحمد حمدى البكرى : تاريخ الادب السريانى ، القاهرة ١٩٥٢ . صدر منه الجزء الاول فقط

معالجتهم . لأن للطب الهندى طرقا غير ما للطب اليونانى أو الفارسى ، وقد اشتهر منهم عدة أطباء الفوا فى الهندية ، ونقل المسلمون بعض كتبهم الى العربية كما سيجىء ، ومنهم كنكة وصنجهل وشاناق وغيرهم (*)

وكانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وأبراجها ، ولها أسماء خاصة بلسانهم ، وكان لهم فيها ثلاثة مذاهب : مذهب الارجهير ، ومذهب الاركند ، ومذهب ثالث يقال له بالسنسكريتية سدهنتا Siddhânta وهو عبارة عن زيج (**) ذكروا فيه آراءهم فى حركات الكواكب ، وهو الذى وصل الى العرب ونقلوه الى لسانهم وسموه السندهند . والهنود هم الذين اخترعوا الارقام ، وعنهم أخذها العرب ، ولهم طرق خاصة فى الحساب اكتسبها العرب عنهم . وكان لهم معرفة بفن الموسيقى ، ولهم فيها كتب ترجم المسلمون بعضها الى العربية وسيأتى ذكرها

الخلاصة

هذه حال العلوم فى العالم وبعض نواحى المملكة الاسلامية لما عزم المسلمون على نقلها الى العربية ، وقد رأيت أن أكثرها يونانية الاصل ، وضعها اليونان فى أيام وثنيتهم مع ما اقتبسوه من الأمم التى تمدنت قبلهم . ثم تنوعت بالنصرانية وبانتقالها الى الفرس والسريان ، على مقتضيات آداب تلك الأمم وعاداتهم

وكان العراق على الخصوص حافلا بالعلماء ، وفيهم الاطباء والفلاسفة والمنجمون والحساب وغيرهم ، ممن تجمعوا من بلاد فارس وما بين النهرين ، وفيهم السريان والفرس والروم والهنود . فلما أراد الخلفاء نقل تلك العلوم الى لسانهم وجدوا بين ظهرانيهم من يلبى الطلب ويفى بالفرض

(*) لازال الطب الهندى القديم يمارس فى الهند الى اليوم ويدرس فى الجامعات ، وقوامه على العلاج بالاعشاب . والراجح ان أصل الطب الهندى مصرى ، وقد اخذ مسحة اغريقية بعدغزو الاسكندر لشمال الهند ، ولهذا يعرف اليوم فى الهند بالطب اليونانى ، ويسمى الطبيب الذى يعالج به اليوم « يوناتيا حكيما »

(**) الزيج هو ما يعرف اليوم بالتقويم ، وسيرد الكلام على الازياج مفصلا فيما بعد

العلوم الدخيلة

ما الذى حملهم على طلبها ؟

قد رأيت فيما كتبناه عن « العرب والقرآن والاسلام » أن المسلمين كانوا يعتقدون فى الصدر الأول «ان الاسلام يجب ما قبله» ، وانه « لاينبغى أن يتلى غير القرآن » ، وبناء على ذلك هان عليهم احراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس فى الاسكندرية وفارس (*) . ثم اشتغلوا عن طلب تلك العلوم بما احتاجوا اليه فى صدر الاسلام من أسباب انشاء الدولة ، فأصبحوا لا عناية لهم الا بالقرآن وأحكامه وما ترتب عليه من العلوم الاسلامية فى الفقه واللغة والمغازى وسير الفتح ونحو ذلك . وكان أهل البلاد الاصليون من الروم والفرس يحببون الى الخلفاء الاشتغال بعلوم الاوائل ، وخصوصا الطب والفلسفة وهم لايصغون ولا يقبلون . يحكى أن ماسرجويه البصرى من معاصرى مروان بن الحكم كان عالما فى الطب ، وهو سريانى الجنس يهودى المذهب ، وكان فى أيامه كتاب فى الطب هو كناش (حاوى) من أفضل الكنانيش ألفه القس أهرون بن أعين فى اللغة السريانية فنقله ماسرجويه الى العربية . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب فى خزائن الكتب فى الشام ، فحرضه بعضهم على اخراجه الى المسلمين للانتفاع به . فاستخار الله فى ذلك أربعين يوما ثم أخرجه الى الناس وبثه فى أيديهم (١) ويدلك ذلك على التردد الذى استولى على الخليفة فى اخراج هذا الكتاب مع انه من كتب الطب وليس الفلسفة

ولما اتسع سلطان المسلمين وفرغوا من انشاء العلوم الاسلامية ــ وقد تأيدت دولتهم وذهبت عنهم السذاجة والغفلة عن الصناعات ، وأخذوا فى أسباب الحضارة بالحظ الوافر وتفننوا فى الصناعات والعلوم ــ تشوقوا الى الاطلاع على العلوم الفلسفية بما سمعوه من الاساقفة والقساوسة وهان عليهم ذلك بالاسناد الى الحديث النبوى القائل : « الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها ممن سمعها ولا يبالى فى أى وعاء خرجت » ، وقوله : « خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين » (٢) ، و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، و « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ، و « اطلبوا العلم ولو

(*) ناقشنا هذا الرأى فيما سبق

(١) تاريخ الحكماء (خط)

(٢) العقد الفريد ١٦٠ ج ١

بالصين » (١) . على أنهم لم يقدموا على طلبها دفعة واحدة وانما طلبوها تدريجا تبعا لمقتضيات الاحوال

أول من اشتغل بها

أقدم من اشتغل من العرب بهذه العلوم النضر بن الحارث بن كلدة الثقفى، وهو ابن خالة النبى (صلعم) ، وكان قد رحل الى بلاد فارس وغيرها كأبيه الحارث الطبيب الشهير فى عصر النبى (صلعم) ، واجتمع بالعلماء وعاشر الاحبار والرهبان وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة وتعلم من أبيه صناعة الطب . وكان يجارى أبا سفيان فى عداوة النبى (صلعم) لأنه ثقفى ، وكان بنو ثقيف حلفاء بنى أمية . فكان النضر كثير الأذى للنبى (صلعم) ، يتكلم فيه بأشياء كثيرة . ثم وقع النضر أسيرا فى واقعة بدر ، فأمر النبى (صلعم) بقتله وذهب خبره (٢)

على أن النضر اقتصر من تلك العلوم على المطالعة ولم ينقل منها شيئا الى العربية . أما أول من اشتغل فى نقلها فخالد بن يزيد الاموى المتوفى سنة ٨٥ هـ حفيد معاوية الاكبر ، ويسمونه حكيم آل مروان . وكان طامعا فى الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثانى ، فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت به الخلافة من بيت أبى سفيان الى بيت مروان . فلما يئس خالد من الخلافة ــ وهو ذو مطامع وذكاء ــ انصرف ذهنه الى اكتساب العلى بالعلم . وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذ فى مدرسة الاسكندرية ، فاستقدم جماعة منهم راهب رومى اسمه مريانوس طلب اليه أن يعلمه صناعة الكيمياء ، فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية ، فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم ،(٣) وهذا أول نقل فى الاسلام من لغة الى لغة

وكان خالد راغبا فى علم النجوم أيضا ، وانفق الاموال فى طلبه واستحضار آلاته ، ولعلهم ترجموا له شيئا منه لم يصلنا خبره . على أن بعض الذين اطلعوا على مكتبة القاهرة فى أواسط القرن الرابع للهجرة شاهدوا فيها كرة من نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب : « حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية » (٤)

ويلى نقل خالد للكيمياء نقل ماسرجويه ــ أو ماسرجيس المتقدم ذكره ــ لكناش أهرون من السريانى الى العربى ، وهو ثلاثون مقالة زاد عليها ماسرجويه مقالتين (٥)

---

(١) كشف الظنون ٣٩و٤٣ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١١٣ ج ١
(٣) الفهرست ٢٤٢ و ٢٤٤ (٤) تراجم الحكماء
(٥) طبقات الاطباء ١٠٩ ج ١

نقل العلوم في العصر العباسي

المنصور والنجوم والطب

أول الخلفاء العباسيين السفاح ، ولم يعن بشيء من العلم لقصر مدة حكمه . ثم أفضت الخلافة الى أخيه المنصور (سنة ١٣٦ ــ ١٥٨ هـ) وكان شديدا حازما كثرت فى أيامه الفتوح فاضطر الى حروب كثيرة ، وقد طالت مدة حكمه لكنه قضى معظمها فى تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته « بغداد »

النجوم

وكان المنصور مع براعته فى الفقه ميالا الى التنجيم لايكاد يعمل عملا الا استشار المنجمين فيه ، وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم (١) واقتدى به أكثر الذين خلفوه . وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس ، ونبغ فيها جماعة تقربوا بها اليه أشهرهم نوبخت المنجم الفارسى ــ كان مجوسيا وأسلم على يده ، وكان بارعا فى اقترانات الكواكب وحوادثها ، وكان يصحب المنصور حيثما توجه . ولما ضعف عن خدمته قال له المنصور: « أحضر ولدك ليقوم مقامك » فأحضره وهو أبو سهل بن نوبخت (٢) وتوالى آل نوبخت فى خدمة العباسيين ، وترجموا لهم كتبا فى الكواكب وأحكامها ، وكانوا فضلاء ولهم رأى ومشاركة فى علوم الاوائل

وخدم المنصور أيضا فى النجوم ابراهيم الفزارى المنجم وابنه محمد ، وعلى بن عيسى الاسطرلابى المنجم (٣) . ونظرا لكلف المنصور بحركات الكواكب وحبه الاطلاع عليها قصده أصحابها من بلاد فارس والهند والروم ، وفى جملتهم رجل من الهند بارع فى حساب السدهنتا المتقدم ذكره جاءه سنة ١٥٦ هـ وعرض عليه كتابا فى النجوم مع تعاديل معمولة على مذاهب الهند ، فأمر المنصور أن ينقل هذا الكتاب الى العربية ، وأن يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب أصلا فى حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزارى وعمل منه كتابا سماه المنجمون « السندهند الكبير » وظل أهل ذلك الزمان يعملون به الى أيام المأمون (٤)

فاهتم الناس من ذلك الحين بعلم النجوم ومتعلقاتها ، وجرهم النظر فى

(١) المسعودى ٣٦٤ ج ٢ — (٢) ابو الفرج ٢١٦

(٣) المسعودى ٢٦٤ ج ٢ — (٤) تراجم الحكماء (خط)

الافلاك الى الهندسة ، فكتب المنصور الى ملك الروم أن يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة ، فبعث اليه بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات (١) ولعل المجسطى من جملتها ، لأنه فى النجوم . والظاهر أن ترجمة هذه الكتب لم تكن مضبوطة ، لأننا رأينا اقليدس والمجسطى فى جملة ما ترجم للرشيد والمأمون . وجملة القول أن رغبة المنصور فى النجوم دعت الى ترجمة بعض كتب النجوم وما يتعلق بها

الطب

ومما اهتموا بنقله من العلوم الطبيعية فى أيام المنصور الطب . والسبب فى ذلك أن المنصور أصابه فى أواخر أيامه (سنة ١٤٨ هـ) مرض فى معدته فانقطعت شهوته ، وكان الاطباء القائمون فى خدمته يعالجونه ولا يجدى علاجهم نفعا . فجمعهم يوما وقال لهم : « هل تعرفون من الاطباء فى سائر المدن طبيبا ماهرا ؟ » فقالوا : « ليس فى وقتنا هذا أحد يشبه جورجيس رئيس اطباء جنديسابور » . وهو جورجيس بن بختيشوع السريانى ، فقد كان ماهرا فى الطب وله فيه مصنفات باللغة السريانية ، وكان من الذكاء والفضل على جانب عظيم ، حتى أصبح رئيس أطباء مارستان جنديسابور أشهر مدارس الطب فى تلك الايام . فبعث المنصور فى طلبه على عجل ، فلما جاء الرسول الى جورجيس أراد استمهاله فهدده بالقتل اذا أبطأ . فعهد بأمر المارستان الى ابنه بختيشوع ، واصطحب اثنين من تلامذته هما : ابراهيم وعيسى بن شهلا وركب الى بغداد . فلما وصل استقدمه المنصور اليه فدخل ودعا له بالفارسية والعربية . وكان جورجيس ذا هيبة ووقار وفصاحة ، فوقع عند المنصور موقعا حسنا فأجلسه أمامه وسأله بعض الاسئلة فأجابه عليها بسكون ، فازداد اعجابا به فأخبره عن علته من ابتدائها. فقال له جورجيس : « أنا أدبرك كما تحب » فخلع عليه وأنزله فى قصر خاص وأمر باكرامه . ورجع فى الغد ونظر فى قارورة الماء (زجاجة البول) ودبره تدبيرا لطيفا ، فشفى ورجع الى مزاجه فازداد فرحه به ومنعه من الرجوع الى بلده . ومما زاده رغبة فيه أنه رآه عفيفا صادقا فى تدينه . وكان المنصور قد علم أن جورجيس خلف امرأته فى جنديسابور وليس عنده فى بغداد من يخدمه ، فأرسل اليه ثلاث جوار روميات وثلاثة آلاف دينار فقبل الدنانير ورد الجوارى ، فلما عاتبه المنصور فى الغد أجابه : « اننا معشر النصارى لا نتزوج الا بامرأة واحدة ، وما دامت المرأة حية لانأخذ غيرها » (٢) فحسن

---

(١) ابن خلدون ٤٠١ ج ١

(٢) طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١

موقع ذلك عند المنصور وأطلق له الدخول الى حظاياه وحرمه ليطببهن ، وتعلق به تعلقا شديدا

وكان جورجيس محبا للتأليف كما رأيت ، وكان يعرف اللغة اليونانية فضلا عن السريانية والفارسية والعربية . فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتبا طبية من اليونانية الى العربية ، غير ما ألفه فى السريانية . أما التأليف فى الطب فقد سبقه اليه أكثر الأطباء الذين خدموا المسلمين على عهد بنى أمية . وكان الطبيب اذا خدمهم ألف لنفسه أو لولده أو لأحد تلامذته كتابا أو غير كتاب فى الفن الذى يتعاطاه . والغالب أن يؤلفوا الكنانيش ، كالكناش الذى الفه ثياذوق المتوفى سنة ٩٠ هـ طبيب الحجاج ، ألفه لابنه وألف له أيضا كتابا فى الأدوية ومعالجتها . وتوالى آل بختيشوع فى خدمة العباسيين وخدموا الطب والعلم فى ظلهم خدمة نافعة

فالمنصور أول من عنى بنقل الكتب القديمة ، ولكنه اقتصر منها على النجوم والهندسة والطب . وفى أيامه ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة . وأما الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية فترجمت فى أيام المأمون . وقد ذكر صاحب الفهرست أن ابن المقفع نقل من الفارسية الى العربية كتبا فى المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها عن اليونانية . فلعله نقلها لنفسه

المهدى والرشيد

أما المهدى (١٥٨ ــ ١٦٩ هـ) فانه اشتغل عن العلم بما ظهر فى أيامه من البدع الدينية ، وما انتشر من كتب مانى وابن دميان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنفوه فى تأييد هذه المذاهب فى العربية ، فكثر الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس ، فأمر المهدى أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لابطال تلك المذاهب. أما الهادى ، فلم تطل أيامه ولم يأت أمرا يذكر

فلما أفضت الخلافة الى الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣ هـ) كانت الافكار قد نضجت والاذهان قد زادت تنبها الى علوم الاقدمين بما كان يتقاطر الى بغداد من الاطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود . وكانوا أهل تمدن وعلم كما رأيت ، وكانوا يتعلمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم فى تلك العلوم ، والمسلمون يتهيبون من ذلك لما سبق الى أذهانهم من مخالفته للدين الا الكتب الطبية فكانوا يرغبون فى نقلها أو مطالعتها . ولكن الاطباء أنفسهم كانوا يومئذ من غير المسلمين ، ويغلب أن يكونوا من محبى الفلسفة والمنطق ، وكانوا من الجهة الثانية يخدمون الخلفاء ويجالسونهم ويعاشرونهم كأنهم بعض أهلهم كما سترى . فأدى ذلك الى ائتلاف الخلفاء بذكر الفلسفة ،

وأصبحوا اذا فتحوا بلدا ووجدوا فيه كتبا لايأمرون باحراقها أو اعدامها ، بل يأمرون بحملها الى عاصمتهم والاحتفاظ بها لنقلها الى لسانهم ، كما اتفق للرشيد فى أثناء حربه فى انقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم ، فانه عثر هناك على كتب كثيرة حملها الى بغداد وأمر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها (١) ولكنها ليست من الفلسفة فى شيء وانما هى فى الطب اليونانى (٢)

وفى أيام الرشيد نقل كتاب اقليدس النقلة الاولى على يد الحجاج بن مطر، وتسمى الهارونية تمييزا لها عن النقلة المأمونية التى نقلها للمأمون (٣) . وفى أيامه نقل المجسطى الى العربية ، وأول من عنى بنقله يحيى بن خالد البرمكى، ففسره له جماعة لم يتقنوه فندب لتفسيره أبا حسان وسلما صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا فى تصحيحه

المأمون والفلسفة والمنطق

فالكتب الفلسفية لم يقدم المسلمون على ترجمتها الا فى أيام المأمون ، لسبب متصل بالمأمون نفسه . وذلك ان المسلمين تعودوا من أول الاسلام حرية الفكر والقول والمساواة فيما بينهم ، فكان اذا خطر لأحدهم رأى فى خليفة أو أمير لا تمنعه هيبة الملك من ابداء رأيه . وكان ذلك شأنهم أيضا فى الدين ، فاذا فهم أحدهم من الآية أو الحديث غير ما فهمه الآخر صرح برأيه وجادله فيه . فلم ينقض عصر الصحابة حتى أخذ المسلمون يفترقون فى المذاهب ، ولم يدخل القرن الثانى حتى تعددت الفرق وتفرعت ، وفى جملتها المعتزلة . والمعتزلة طوائف كثيرة ، أساس مذهبهم تطبيق الاحكام العقلية على النصوص الدينية ، ولو طالعت مذاهبهم لرأيت بعضها يوافق أحدث الآراء الانتقادية فى الدين مع مرور الاجيال على تمحيصها . ولذلك فهم يسمون أصحاب العدل والتوحيد

المأمون والاعتزال

ظهر مذهب الاعتزال فى أواخر القرن الاول للهجرة ، وكثر أشياعه بسرعة لارتياح العقل الى أدلته . وقد تقدم فى كلامنا عن الفقه أن المنصور اخذ بناصر أصحاب الرأى والقياس واستقدم أبا حنيفة الى بغداد ونشطه لهذه الغاية ، وظل الميل الى القياس متواصلا فى بنى العباس . والاعتزال اقرب المذاهب الى أصحاب الرأى ، لأن عمدة المعتزلة فى اثبات مذهبهم البرهان العقلى ، ولذلك كانوا اذا رأوا رجلا مطلعا على منطق أرسطو أو أقواله فى

---

(١) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ (٢) ابو الفرج ٢٢٧
(٣) الفهرست ٢٦٥ و ٢٦٨

الجدل ونحوه استعانوا بما يسمعونه منه فى تأيد مذهبهم ، واحتاجوا الى ذلك ، خصوصا فى أيام المهدى لدفع أقوال الزنادقة كما تقدم . فلعلهم احتاجوا الى الاستعانة بمنطق اليونان وفلسفتهم ، أو شعروا باحتياجهم اليها على الاقل ، وأخذوا فى انشاء علم الكلام . وكان البرامكة من أصحاب الرأى أيضا ، وفيهم ذكاء وميل الى العلم ، فاشتغلوا فى ترجمة الكتب القديمة قبل المأمون (١) وكانوا يعقدون مجالس المباحثة والمجادلة فىمنازلهم ولكن يظهر أن الرشيد لم يكن يوافقهم على ذلك فلم يتظاهروا به

فلما أفضت الخلافة الى المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) تغير وجه المسألة ، لأنه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل الى القياس العقلى . وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل الى عهده من كتب القدماء ، فازداد رغبة فى القياس والرجوع الى أحكام العقل ، فتمسك بمذهب الاعتزال وقرب اليه أشياخه كأبى الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار النظام ، وجالس المتكلمين فتمكن من مذهب الاعتزال . فأخذ بناصر أشياعه وصرح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء ، وفى جملتها القول بخلق القرآن أى أنه غير منزل (*) . وكان المسلمون فى أيام الرشيد يخافون المأمون فى ذلك ، لأنه ظهر فيه قبل توليه الخلافة ، وكان الفضيل بن عياض يتمنى طول عمر الرشيد لما تبين له من أمر المأمون من هذا القبيل

فلما تظاهر المأمون بالاعتزال وقال بخلق القرآن ، قامت قيامة الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم أكثر عددا ، ولم يعد فى وسعه الرجوع عن قوله فعمل على تأييده بالبرهان وجعل يعقد المجالس للمناظرة فى هذا الموضوع (٢) . وتأييدا لصحة الجدل أمر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية الى العربية ، واطلع هو عليها فقويت حجته وازداد تمسكا بالاعتزال . ولما يئس من اقناع الناس بالبرهان والقياس عمد الى العنف ، باشر ذلك فى العام الاخير من حكمه وهو خارج بغداد ، فكتب الى عامله فيها اسحق بن ابراهيم ان يمتحن القضاة والشهود وجميع أهل العلم بالقرآن ، فمن أقر أنه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى فليعلمه به (٣)

فالراجح عندنا أن المأمون ، لسعة علمه وحرية فكره ورغبته فى القياس

---

(١) ابن خلكان ٦٧٥ ج ١

(*) ليس هذا هو معنى خلق القرآن ، اذ المراد بذلك انه مخلوق يخلقه الله وينزل آياته بحسب الحوادث على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد قال بذلك نفر من المعتزلة ، أما خصومهم فقد قالوا انه قديم ، أى أن الله خلقه حين خلق الكون ، فهو ليس متعلقا بالحوادث وانما انزل بمناسباتها فقط ، وقد ايد المعتزلة القول بخلق القرآن لانه يتفق مع مذهبهم فى تحكيم العقل فى مسائل الدين ، وقد ايدهم فى ذلك المأمون والمعتصم وانزلا المحنة بالفقهاء والقضاة الذين لم يقروا بخلق القرآن ، ومنهم احمد بن حنبل . وكان زعيم القائلين بخلق القرآن على أيام المأمون احمد بن ابى دؤاد القاضى

(٢) الدميرى ٧٢ ج ١ (٣) ابو الفداء ٣٣ ج ٢

العقلى ، لم يكن يرى بأسا من نقل علوم اليونان الى العربية ، وانه بدأ بنقل كتب الفلسفة والمنطق تأييدا لمذهب الاعتزال ، ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات ارسطو فى الفلسفة وغيرها . وقد ابتدأ بترجمة تلك الكتب فى أعوام بضعة عشر ومائتين ، فتلقى المعتزلة تلك الفلسفة تلقى الظمآن لموارد الماء ، وأقبلوا على تصفحها والتبحر فيها فاشتد ساعدهم بها (١) فتولد من اشتغال المسلمين بالفلسفة علم الكلام (٢) كما تولد من اشتغال النصارى بها « الفلسفة الافلاطونية الجديدة » (*)

---

(١) المقريزى ٢٥٧ ج ٢ (٢) الشهرستانى ١٨ ج ١

(*) نشأ علم الكلام — على اقرب الآراء الى الصحة — عند المعتزلة فى اثناء بحثهم فى صفات الله تعالى ، وقد اختلفوا فى كلام الله : هل هو من صفات الله ، أم من ذاته . ورأى معظمهم ان الصفات منفصلة عن الذات ، وكلام الله تعالى منفصل عن ذاته . وقد ثار الجدل حول ذلك الموضوع وتصدى أهل السنة لدحض رأى المعتزلة ، وشيئا فشيئا اتسع معنى « الكلام » حتى صار مرادفا للبحث فى شئون الدين . قال ابن خلدون : « وكان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالادلة العقلية على هذه العقائد ، دفعا فى صدور هذه البدع ، وقام بذلك الشيخ ابو الحسن الاشعرى امام المتكلمين ، فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه واثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الادلة المخصصة لعمومه ، فاثبت الصفات الاربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ، ورد على المبتدعة فى ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والاصلح والتحسين والتقبيح ، وكمل العقائد فى البعثة واحوال الجنة والنار والثواب والعقاب ، والحق بذلك الكلام فى الامامة ... وكثر اتباع الشيخ ابى الحسن الاشعرى واقتفى طريقته من بعده تلاميذه كابن مجاهد وغيره ، واخذ عنهم القاضى ابو بكر الباقلانى ، فتصدر للامامة فى طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الادلة والانظار ، وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد والخلاء وان العرض لا يقوم بالعرض وانه لا يبقى زمانين ، وامثال ذلك مما تتوقف عليه ادلتهم ، وجعل هذه العقائد تبعا للعقائد الايمانية ... » . ثم اعقب ذلك بالكلام على بقية المتكلمين على مذهب اهل السنة ، مثل ابى المعالى الجوينى امام الحرمين وابى حامد الغزالى — (المقدمة ، الفصل الخاص بعلم الكلام)

وخلاصة كلامه أن « الكلام » أصبح يشمل كل النواحى التأملية من الفقه ، ولهذا سمى بالفقه الاكبر ، اما بقية فروع الفقه وهى الخاصة بالعبادات والمعاملات فسميت الفقه الاصغر

وقد وقف أهل السنة بالكلام عند حدود طريقتهم ، ولم يتطرقوا الى استخدام طريقة الفلاسفة بل كرهوا ذلك ، ومنهم ابو حامد الغزالى الذى ينتهى عنده الكلام على طريقة اهل السنة فى المشرق ، اما فى المغرب فينتهى عند ابى محمد على بن حزم ، غير ان المتأخرين من اهل الكلام لم يترددوا فى سلوك طريقة الفلاسفة ، كما ترى عند الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ . وقد توسع من جاء بعده فى التأويل حتى نفر منهم السلفيون وهاجمهم ابن خلدون فى المقدمة

ونظرا لان الكلام يتناول الناحية العامة من الفقه ، ناحية الاصول التى تتعلق بالخالق والمخلوق والبعث والقيامة والنبوة والوحى وما الى ذلك ، فقد وجد رجال الدين من كل ملة مجالا طيبا للاخذ عن فقهاء المسلمين فى هذه النواحى ، لانها مشتركة بين الاديان جميعا ، ومن هنا اخذ النصارى واليهود عن المسلمين كثيرا من مسائل الكلام واساليبهم فى اثبات وجود الله واثبات الوحى وضرورة النبوات والخلق وما الى ذلك مما يدخل تحت ما يسمى بالالهيات ، ومن هنا جاز ان نقول ان الكلام هو الالهيات عند المسلمين . وقد ترجم الكثير مما كتبه فقهاء المسلمين فى موضوعات الكلام الى اللاتينية والعبرية واصبح من الاصول التى تعتمد عليها مدارس الاسكولاستيين الاوربيين فى العصور الوسطى ، وخاصة ما دار بين المتكلمين والفلاسفة المسلمين من صراع . فقد وجد اللاهوتيون النصارى انفسهم فى مثل هذا الموقف مع اصحاب الفلسفة عندهم ، فجنحوا الى الاخذ عن المسلمين ، واهتم فلاسفتهم بما قاله فلاسفة الاسلام فى الرد على المتكلمين ، واصبح رجال الفقه الاسلامى وفلاسفتهم من هذه الناحية اساتذة لاهل اوروبا فى العصور الوسطى .

انظر : اجناتس جولدتسيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام ، ترجمة وتعليق محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلى حسن عبد القادر ، القاهرة ١٩٤١

S. Horowitz, Ueber den Einfluss der griechichen Philosophie auf die Entwicklung des Kalams. Breslau, 1909

ومادة « كلام » التى كتبها دنكان بلاك ماكدونالد فى دائرة المعارف الاسلامية

المأمون ونقل الكتب

وقد ذكروا لمباشرة المأمون نقل تلك الكتب أسبابا كثيرة . قال أبواسحق النديم صاحب كتاب الفهرست فى سبب ذلك ، ان المأمون رأى فى منامه ارسطوطاليس الحكيم وسأله بعض الاسئلة ، فلما نهض من منامه طلب ترجمة كتبه ، فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى انفاذ ما يختار من كتب العلوم القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل (١)

وذكر نحو ذلك ابن أبى أصيبعة صاحب طبقات الاطباء ، وأبو الفرج صاحب مختصر الدول وغيرهما . والغالب فى ظننا انهم نقلوا ذلك عن ابن اسحق المذكور . ومهما يكن السبب ، فلا مشاحة فى أن المأمون بذل جهده فى استخدام التراجمة لنقل تلك الكتب وغيرها . وكان ينفق فى سبيل ذلك بسخاء ، حتى أعطى وزن ما يترجم له ذهبا . وكان لشدة عنايته فى النقل يضع علامته على كل كتاب يترجم له . وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ويرغبهم فى تعلمها ، وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكراتهم (٢)

واقتدى بالمأمون كثيرون من أهل دولته ، وجماعة من أهل الوجاهة والثروة فى بغداد ، فتقاطر اليها المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس ، وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة ، يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها . وكثر فى بغداد الوراقون وباعة الكتب ، وتمددت مجالس الادب والمناظرة ، وأصبح هم الناس البحث والمطالعة ، وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون الى عدة من خلفائه ، حتى نقلت أهم كتب القدماء الى العربية

نقلة العلم فى العصر العباسى

رأيت فيما تقدم أن السريان كانوا فى نهضة علمية قبل الاسلام ، وأنهم اخذوا فى نقل كتب اليونان الى لسانهم ، ودرسوا كثيرا منها وخصوصا الفلسفة والطب ، وبرزوا فى هذه الصناعة حتى تولى بعضهم رئاسة مارستان جنديسابور كما تقدم ، وأن اللغة اليونانية كانت تعلم فى مدارسهم . فلما انتقل كرسى الخلافة الى بلادهم (العراق) وعمرت بغداد بالوافدين من

---

(١) الفهرست ٢٤٣ (٢) ابو الفرج ٢٣٦ وطبقات الاطباء

اطراف المملكة الاسلامية وغيرها ، كان أولئك السريانيون من جملة الوفود التماسا للرزق ، فتعلموا لسان العرب كما نتعلم نحن لغة الانجليز اليوم لهذا السبب . وطاب لهم الاختلاط بالعرب — أو المسلمين — لما آنسوه من عدل العباسيين فى أول دولتهم ، واطلاق حرية الاديان لرعاياهم ، حتى كثيرا ما كانوا يوسطونهم فى فض الخلاف بين طوائفهم أو أساقفتهم . ولهذا السبب أيضا انتقل جماعة من الفرس الى بغداد ، وكانوا أهل دولة وحكومة ، فاستخدمهم الخلفاء فى ادارة شؤون حكومتهم ، وفيهم جماعة كبيرة من أهل العلم والادب ، واستقدم الخلفاء أيضا جماعة من أطباء الهند للانتفاع بطبهم

فلما أراد الخلفاء نقل كتب العلم الى العربية ، كان واسطة ذلك النقل أهل العراق والشام وفارس والهند . فرغبهم الخلفاء فى ذلك بالبذل الكثير وجعلوا لبعضهم رواتب وأرزاقا ، وبالغوا فى اكرامهم ومحاسنتهم ، فتكاثروا . وأكثرهم من السريان النساطرة ، لأنهم أقدر على الترجمة من اليونانية وأكثر اطلاعا على كتب الفلسفة والعلم اليونانى . وفيهم جماعة من أهل فارس والهند وغيرهم ، للنقل من الفارسية أو الهندية ، وكان أكثرهم تتوالى الترجمة فى أعقابه فيتولاها هو وأولاده وأحفاده . واليك أشهر نقلة العلم فى العصر العباسى :

(ا) آل بختيشوع : وهم من السريان النساطرة ، أولهم جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وقد تقدم ذكره ، وخلفه عندهم ابنه بختيشوع ابن جورجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور كما استقدم المنصور أباه قبله . فلما دخل على الرشيد دعا له بالفارسية والعربية ، فقال الرشيد لوزيره يحيى : امتحنه ، فدعا يحيى الاطباء لامتحانه — وهم أبو قريش عيسى وعبد الله الطيفورى وداود بن سرابيون وغيرهم — فلما رأوه قال ابو قريش : « يا أمير المؤمنين ليس فى الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا ، لأنه كون الكلام وهو وأبوه وجنسه فلاسفة » . ويدل ذلك على منزلة آل بختيشوع من العلم والفلسفة . فولاه الرشيد رئاسة الأطباء ، وخلفه فيها ابنه جبريل وكان حظيا عند الخلفاء ونال جوائزهم وعطاياهم . وكان له من الرواتب شيء كثير قد فصلناه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب . وخلفه ابنه بختيشوع بن جبريل ، وقد بلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من أطباء عصره . ومنهم جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع ، خدم المقتدر العباسى . وخلفه عبيد الله بن جبريل . فهؤلاء ستة من آل بختيشوع ، كلهم من مهرة الأطباء ، ولم يعن بالترجمة منهم الا جورجيس الاول . وانما أوردنا ذكرهم لأن أكثرهم ألف فى الطب كتبا مفيدة ، وبعضهم

استخدم التراجمة فى نقل بعض كتب الطب الى السريانية (١) (*)

(٢) آل حنين : أولهم حنين بن اسحق العبادى شيخ المترجمين ، وهو من نصارى الحيرة . ولد سنة ١٩٤ هـ وكان أبوه صيرفيا ، ولما ترعرع انتقل الى البصرة فتلقى فيها العربية ، ثم انتقل الى بغداد ليشتغل بصناعة الطب ، فلقى فى ذلك مشقة لأن الاطباء ــ وخصوصا أهل جنديسابور ــ كانوا يكرهون أن يدخل فى صناعتهم أبناء التجار . وكان أعمر مجالس الطب فى بغداد يومئذ مجلس يوحنا بن ماسويه أحد متخرجى مارستان جنديسابور ، فجعل حنين يحضره . فاتفق أنه سأله مرة مسألة مما كان يقراه عليه ، فغضب يوحنا وقال : « ما لأهل الحيرة وصناعة الطب ؟ فصر الى فلان قرابتك ، حتى يهب لك خمسين درهما ، تشترى بها قفافا صغارا بدرهم ، وزرنيخا بثلاثة دراهم ، واشتر بالباقى فلوسا كوفية وفارسية ، وزرنخ القادسية فى تلك القفاف ، واقعد على الطريق وصح : الفلوس الجياد للصدقة والنفقة ! وبع الفلوس ، فانه اعود عليك من هذه الصناعة .. » ثم أمر به فأخرج من داره ..

فخرج حنين باكيا مكروبا ، وقد بعثه ذلك على زيادة النشاط للسعى فى تعلم الطب بلغته الاصلية . فغاب عن بغداد سنتين ، ثم عاد وقد تعلم اليونانية وآدابها فى الاسكندرية وحفظ أشعار هوميروس (٢) فأصبح أعلم أهل زمانه بالسريانية واليونانية والفارسية فضلا عن العربية ، وأصبح أطباء بغداد فى حاجة اليه لنقل الكتب ، حتى ابن ماسويه نفسه فانه استخدمه فى نقل بعض كتب جالينوس الى السريانية وبعضها الى العربية ، واحتذى فيها حذو الاسكندرانيين (٣) . وترجم أيضا لجبريل بن بختيشوع كتاب التشريح لجالينوس ، وكان جبريل يخاطبه بالتبجيل فيقول له : «ربن حنين» فى اصطلاح السريان أى : « يا معلمنا حنين » . ولما أراد المأمون نقل فلسفة اليونان الى العربية سأل عمن يستطيع ذلك فأرشدوه الى حنين ، لأنه لم يكن ثمة من يضاهيه وهو لايزال شابا ، فأخرج المأمون جماعة من التراجمة وهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم

---

(١) طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١

(*) انظر عن آل بختيشوع :
ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٦٦
ابن أبى أصيبعة (طبعة ملر) ص ١٢٣ــ١٤٨
ابن القفطى (طبعة ليبرت Lippert) ص ١٥٨ ــ ١٦٠ ، ١٠٠ ــ ١٠١ ، ١٠٢ ــ ١٠٤ ، ١٤٦ ــ ١٥١

Wuestenfeld, Geschichte der Arabischen Aerzte und Naturforscher. p. 14-18.
Leclerc, Histoire de la médecine arabe, I, 371.
Brockelmann, G. A.L.I., 236, 483.

(٢) طبقات الاطباء ١٨٥ ج ٢ (٣) طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١

وعليهم حنين المذكور ليصلح ما يترجمونه . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله الى العربية مثلا بمثل ، ولذلك فقد كان حنين يكتب الترجمة بحروف غليظة واسطر متفرقة على ورق غليظ جدا لتعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه . وذكر أن حنينا رحل بنفسه فى طلب الكتب من بلاد الروم لنقلها ، وكان يترجم أيضا لبنى شاكر الآتى ذكرهم ولغيرهم

وكان لحنين ولدان : داود واسحق ، صنف لهما كتبا طبية فى المبادىء والتعليم ، ونقل لهما كتبا كثيرة من مؤلفات جالينوس ، فأفلح اسحق وتميز ، واشتغل فى الترجمة مثل أبيه من اليونانية الى العربية ؛ الا أن عنايته كانت مصروفة الى نقل كتب الحكمة ، مثل كتب ارسطوطاليس وغيره من الحكماء . أما أبوه فكان أكثر اشتغاله فى نقل كتب الطب ، وخصوصا كتب جالينوس. ويندر أن يوجد من جالينوس كتاب الا وهو بنقل حنين أو باصلاحه ، وما لم يكن كذلك لم يكن معتبرا عندهم ، لبراعة حنين فى العربية فضلا عن تمهره بصناعة الطب . واشتغل حنين فى زمن المتوكل (تولى سنة ٢٣٣ هـ) فاختاره لرئاسة الترجمة ، فعين جماعة من التراجمة كاصطفان بن باسيل وموسى بن خالد ، فكانوا يترجمون ويتصفح حنين ترجماتهم وينقحها . وكان يلبس زنارا على عادة النصارى فى تلك الايام وتوفى سنة ٢٦٤ هـ . واشتهر ابنه اسحق أيضا ، وأكثر نقله من كتب أرسطو فى الفلسفة وشروحها ، وكان مع أبيه ثم انقطع للقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد ، وكان يفضى اليه بأسراره ، وله فضلا عن المنقولات مؤلفات فى الطب والصيدلة وغيرهما (*)

(٣) حبيش الأعسم الدمشقى : هو حبيش بن الحسن الدمشقى ابن أخت حنين بن اسحق ، وقد تعلم صناعة الطب منه ، وكان قد سلك مسلكه فى الترجمة . وقيل : من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له ، فان أكثر

(*) حنين بن اسحاق هو أبو زيد حنين بن اسحاق العبادى ولد سنة ١٩٤/٨٠٩ ــ ٨١٠ فى الحيرة وكان أبوه صيدليا وأخذ عنه صناعته ونزعت نفسه الى دراسة الطب ، وقد أورد المؤلف الخطوط العريضة لحياته ، وقد توفى سنة ٢٦٠/٨٧٥ . وترجع اهمية حنين الى مؤلفاته وترجماته ، ومن اهم مؤلفاته : « المدخل فى الطب » وهو كتاب كان له أثر بعيد فى اوربا بعد ترجمته الى اللغة اللاتينية بعنوان

Johannitii Isagoge in artem parvam Galeni أو Isagoge Johannitii ad Tegni Galeni

وقد أعاد كتابته مبسطا بعنوان « كتاب المسائل فى الطب للمتعلمين » . وله ايضا « كتاب المولودين » وكتاب « اجتماعات الفلاسفة فى بيوت الحكمة فى الاعياد وتفاوض الحكمة بينهم». وقد ترجم الكثير من كتب أفلاطون وارسطو وأبقراط وديوسقوريديس وكل مؤلفات جالينوس تقريبا . واشتهر من تلاميذه ، الى جانب ابنه اسحاق ، ابن أخيه حبيش

انظر عنه : ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء ، ١/١٨٤ ــ ٢٠٠

ابن خلكان : وفيات (طبعة فستنفلد) رقم ٢٠٨ و ١٢٧

Wuestenfeld, Gesch. der Arab. Aerzte. No. 69

H. Suter, Die mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke, p. 21

G. Bergstraesser, Hunain Ibn Ishak und seine Schule, p. 5 sqq.

ما نقله حبيش نسب الى حنين ، وكثيرا ما يرى الناس شيئا من الكتب القديمة مترجما بنقل حبيش فيظنه لحنين وقد صحف ، فيكشطه ويجعله لحنين (١)

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكى : وهو من نصارى الشام ، وكان طبيبا حاذقا وفيلسوفا نبيلا ، رحل الى بلاد الروم فى طلب العلم ، وكان عالما باللغات اليونانية والسريانية والعربية ونقل كتبا كثيرة من اليونانية الى العربية ، وكان جيد النقل وأصلح نقولا كثيرة وألف رسائل عديدة فى الطب ، وكان حسن العبارة جيد القريحة . وفضلا عما نقله فله مؤلفات كثيرة فى الطب والتاريخ والفلسفة والجبر والمقابلة والهندسة والمنطق والادب والدين ، ما يزيد على مائة كتاب . قال أبو الفرج الملطى : « لو قلت حقا لقلت أنه أفضل من صنف كتابا ، بما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من الاختصار للألفاظ وجمع المعانى » (*)

(٥) آل ماسرجويه : أولهم ماسرجويه ، متطبب البصرة ، وهو يهودى المذهب سريانى اللغة . وكان ينقل من السريانى الى العربى ، وقد تقدم ذكره . ثم ابنه عيسى بن ماسرجويه ، وكان يلحق بأبيه ولهما مؤلفات فى الطب

(٦) آل الكرخى : أولهم شهدى الكرخى من أهل الكرخ ، وكان قريب الحال فى الترجمة ، ثم ابنه وكان مثل أبيه فى النقل ثم فاق أباه فى آخر عمره ، ولم يزل متوسطا . وكان ينقل من السريانى الى العربى

(٧) آل ثابت : أولهم ثابت بن قرة الحرانى ، وهو من الصابئة المقيمين فى حران . وكان صيرفيا ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم ، وكان مع ذلك يعرف اللغة السريانية جيدا ، وكان جيد النقل الى العربية ، وله تصانيف كثيرة فى الرياضيات والطب والمنطق ، وله فى السريانية كتاب فى مذهب الصابئة . وكان فى خدمة المعتضد العباسى ، وبلغ عنده أجل المراتب ، حتى كان يجلس فى حضرته فى كل وقت ، ويحادثه طويلا ويضاحكه ، فيقبل عليه دون وزرائه وخاصته . يليه ابنه سنان بن ثابت ، وكان مقدما عند القاهر بالله ، وله تصانيف كثيرة ، وكذلك ابنه ثابت بن سنان ، ولكنهما لم ينقلا شيئا

(٨) الحجاج بن مطر : كان فى جملة من ترجم للمأمون ، وقد نقل كتاب

---

(١) ابو الفرج ٢٥٢ (*) وقد ترجم له بطرس يوليانى Petrus Juliani المعروف ببطرس الاشبونى Petrus Ulyssiponensis بعض كتبه الى اللاتينية . انظر :
Aldo Mieli, Panorama General de Historia de la Ciencia, XI, 6-XV, 4.

المجسطى واقليدس الى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحرانى

(٩) ابن ناعمة الحمصى : هو عبد المسيح بن عبد الله الحمصى الناعمى ، كان متوسط النقل وهو الى الجودة أميل . ومن بيت الناعمة الحمصى أيضا زروبا بن مانحوه ، وكان أضعف من سابقه

(١٠) اصطفان بن باسيل : كان يقارب حنين بن اسحق فى جودة النقل ، الا أن عبارة حنين كانت أفصح وأحلى

(١١) موسى بن خالد : ويعرف بالترجمان ، نقل كتبا كثيرة من الستة عشر لجالينوس ، وهو دون حنين

(١٢) سرجيس الراس عينى : هو من مدينة رأس العين فى العراق ، نقل كتبا كثيرة ، وكان متوسطا فى النقل ، وحنين كان يصلح نقله

(١٣) يوحنا بن بختيشوع : هو من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم ، وكان ينقل الكتب من اليونانى الى السريانى وليس الى العربى

(١٤) البطريق : كان فى أيام المنصور وقد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة ، وله نقل كثير جيد الا أنه دون نقل حنين

(١٥) يحيى بن البطريق : كان فى جملة الحسن بن سهل ، وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان يعرف اللاتينية (١)

(١٦) أبو عثمان الدمشقى : كان من النقلة المجيدين الى العربية

(١٧) أبو بشر متى بن يونس : من أهل دير قنى ، تفقه فى مدرسة مارمارى على أساتذة عظام ، واليه انتهت رئاسة المنطقيين فى عصره

(١٨) يحيى بن عدى : هو من أهل المنطق فى القرن الرابع للهجرة ، قرأ على متى بن يونس وعلى أبى نصر الفارابى ، وهو يعقوبى المذهب خلافا لأكثر المترجمين السريان (اذ كانوا نساطرة) وكان سريع الخط يكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة (٢)

هؤلاء أشهر نقلة العلم من اليونانى أو السريانى الى العربى . وقد اكتفينا بما تقدم للاختصار

وأما النقلة من الالسنة الاخرى ، فمنهم من نقل من الفارسية الى العربية كابن المقفع وآل نوبخت ، وقد تقدم ذكر نوبخت كبيرهم ولابنه الفضل بن نوبخت نقل من الفارسى الىالعربى فى النجوم وغيرها. ومنهم موسى ويوسف

---

(١) طبقات الاطباء ٢٠٥ ج ١ (٢) الفهرست ٢٦٤

ابنا خالد ، وكانا يخدمان داود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وينقلان له من الفارسية الى العربية ، وعلى بن زياد التميمى ويكنى أبا الحسن نقل من الفارسى الى العربى كتاب زيج الشهريار ، والحسن بن سهل وكان من المنجمين . والبلاذرى احمد بن يحيى وجبلة بن سالم كاتب هشام واسحق ابن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة باختيار نامه . ومنهم محمد الجهم البرمكى وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردى وعمر بن الفرخان وغيرهم

ومن الذين نقلوا من اللغة السنسكريتية (الهندية) منكه الهندى ، كان فى جملة اسحق بن سليمان بن على الهاشمى ينقل من اللغة الهندية الى العربية وابن دهن الهندى وكان اليه مارستان البرامكة نقل من الهندى الى العربى (١)

ومن الذين نقلوا من اللغة النبطية (الكلدانية) الى العربية ابن وحشية ، نقل كتبا كثيرة سيأتى ذكرها (*)

السوريون ونقل العلم (**)

اذا تدبرت ما تقدم من أخبار النقلة ومواطنهم ومللهم ، رأيت معظمهم من السوريين سكان الشام والجزيرة والعراق . وللسوريين شأن كبير فى نشر العلوم بين الامم ونقلها من أمة الى أخرى أو من لسان الى لسان من أقدم أزمنة التاريخ ، يساعدهم على ذلك نشاطهم وذكاؤهم واقدامهم وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب

فالسوريون (أو الفينيقيون) هم الذين نشروا أحرف الهجاء فى العالم قبل الميلاد ببضعة عشر قرنا ، فحملوها معهم فى أثناء أسفارهم التجارية الى بلاد اليونان والكلدان ، ولا تزال صورها وأسماؤها عند سائر أمم العالم المتمدن شاهدة بذلك الى اليوم . وهم الذين توسطوا فى نقل العلوم والآداب بين المصريين والكلدانيين ، ثم نقلوها الى اليونان القدماء كما تقدم . وكانوا يدرسون اللغات اليونانية والقبطية والبابلية وغيرها من لغات ممالك الامم المتمدنة فى تلك العصور ، كما يدرسون اليوم الانجليزية والفرنسية وغيرهما

---

(١) الفهرست ٢٤٥

(*) انظر عن هؤلاء جميعا :

G. Sarton, An Introduction to the History of science I, 1927 p. 599

Brockelmann, Ueber Thabit ibn Qurra, Sein Leben und werken.

Aldo Mieli, Panorama general de la historia de la ciencia: Epoca medieval, Espasa-Calpe, Madrid, 1946.

Brockelmann, G. A.L. I, 617 sqq. 623 sqq. 635 sqq.

(**) يبدو أن المؤلف يريد بالسوريين هنا السريان أيضا ، فاشارته الى الفينيقيين منصبة على السوريين ، وبقية الكلام منصبة على السريان ، والفرق بين القومين معروف ، وان كان المؤلف قد وضعهما فى وعاء واحد

من لغات ممالك التمدن الحديث ، لنقل العلم أو الاتجار أو الانتفاع من الخدمة فى مصالح تلك الدول

ولما تمدن اليونان واستنبطوا الفلسفة والمنطق وغيرهما ، ونضجت علومهم وانتقلت بفتوح الاسكندر الى العراق والشام ، تلقاها السوريون ونقلوها الى لسانهم وأضافوا اليها بعد انتشار النصرانية الآداب النصرانية اليونانية ، وحفظوها مع الفلسفة اليونانية فى أديرتهم ، ثم كانت مصدرا للعلم والفلسفة الى بلاد فارس والهند وغيرهما

وكان السوريون فى دولة الفرس الساسانية الواسطة الكبرى فى نقل علوم اليونان وطبهم وفلسفتهم الى الفرس . ولما بنى كسرى أنوشروان مارستان جنديسابور (*) لتعليم الطب والفلسفة كما تقدم ، كان جل معتمده فى ذلك على نصارى العراق والجزيرة ، ناهيك بما حفظ من الآداب السامية على صبغته الوثنية فى حران ، لأن أهلها ظلوا على دياناتهم القديمة . غير ما حفظه أهل العراق من آداب قدماء الكلدان وعلومهم

فلما ظهر الاسلام وأراد الخلفاء نقل العلوم الى العربية ، كان السوريون ساعدهم الأقوى فى نقلها من اللغات المعروفة فى ذلك العهد ، وفيهم الحمصى والبعلبكى والدمشقى والحيرى والحرانى والبصرى . ونقل العلوم من لسان الى آخر لايتيسر الا باستيعاب تلك العلوم وتفهمها ، فضلا عن اتقان اللغات اللازمة لذلك . ولهذا كان أكثر أولئك المترجمين من أهل العلم الواسع فيما اشتغلوا بنقله ، وفيهم من ألف فى أكثر فروع العلم أو الفلسفة أوالمنطق أو الطب وغيرها

وذلك شأن السوريين أيضا فى علوم التمدن الحديث ، فقد كانوا من أكثر الناس اشتغالا فى نقلها من لغات أوربا المختلفة الى اللغة العربية ، ولا يزالون فى ذلك الى اليوم

(**) تحتل جنديسابور — أو جندى سابور — مكانا هاما فى تاريخ العلوم عند العرب . وهى منسوبة الى سابور الاول ملك فارس وهو من الساسانيين ، وقد سماها ديو سابور ثم حرف الاسم الى جندى سابور ، وقد عمرها اول الامر بأسرى اليونان ، ومكانها الآن بلدة تسمى شاه أباد ، وقد افتتحها المسلمون سنة ٦٣٨/١٧ على يد أبى موسى الاشعرى عندما فتح تستر . وقد انشأ فيها كسرى الاول مارستانا هو المشار اليه فى المتن ، وكان أطباؤه يتولون تدريس الطب بالسوريانية او الارمنية ، وكانوا يشترطون فى الاستاذ ان يجيد اليونانية حتى يستطيع الاطلاع على مؤلفات اليونان فى الطب والرياضيات . وكان القائمون بأمر المارستان من المهارة بحيث استطاعوا ان يقوموا بأمر انفسهم ، فاستمر مارستانهم زاهرا يخرج الاطباء والمترجمين حتى منتصف العصر العباسى ، ثم تضاءل امره بسبب الاضطرابات الكثيرة التى شملت العراق اذ ذاك . وفى ايام ياقوت لم يكن باقيا منها الا خرائب

Barbier de Meynard, Dictionnaire Géographique de la Perse (Paris, 1861) pp. 169-170

Brockelmann, G. A.L. I, 202

نقل العلم لغير الخلفاء

قد رأيت فيما تقدم أن الخلفاء هم الذين سعوا فى نقل كتب العلم على يد التراجمة . فلما نقل بعض تلك الكتب واطلع عليها أهل بغداد ، نهض جماعة من كبرائهم واقتدوا بالخلفاء فى نقلها ، واستخدموا التراجمة وبذلوا الأموال فى البحث عنها وترجمتها

وأشهر هؤلاء ثلاثة يعرفون ببنى شاكر أو بنى موسى ، لأنهم أولاد موسى ابن شاكر ، وهم : محمد وأحمد والحسن ، ويعرف أولادهم بعدهم ببنى المنجم . وكان والدهم موسى يصحب المأمون ، والمأمون يرعى حقه فى أولاده هؤلاء . أما موسى فلم يكن من أهل العلم والادب ، بل كان فى حداثته لصا يقطع الطريق ويتزيا بزى الجند ، وكان شجاعا مجربا . وكان يصلى العتمة مع جيرانه فى المسجد ثم يخرج متنكرا فيقطع الطريق على فراسخ كثيرة فى طريق خراسان ، ويركب فرسا له أشقر يشد على قوائمه خرقا بيضاء ليوهم من يراه فى الليل أنه محجل . وكان له جاسوس يأتيه بخبر من يخرج ومعه مال ، وربما لقى الجماعة وفارسهم وغلبهم فينصرف من ليلته فيصلى الصبح مع الجماعة فى المسجد . فلما كثر فعله واشتهر اتهم ، فشهد له الجماعة بملازمته الصلاة معهم فاشتبه أمره . ثم انه تاب ومات وخلف هؤلاء الثلاثة صغارا ، فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبى وأثبتهم مع يحيى بن أبى منصور فى بيت الحكمة . وكان المأمون اذا سافر بعث الى اسحق أن يراعيهم ، حتى قال اسحق : « جعلنى المأمون داية لأولاد موسى » . وكانت حالهم رثة رقيقة وأرزاقهم قليلة ، ولكنهم خرجوا نهاية فى علومهم . وكان أكبرهم وأجلهم محمد ، وكان وافر الحظ فى الهندسة والنجوم ، عالما باقليدس والمجسطى وغيرهما من علوم الفلك والطبيعيات والرياضيات . وكان أخوه أحمد دونه فى العلم الا صناعة الحيل (الميكانيكيات) فانه قد فتح له فيها ما لم يفتح مثله لأخيه . وكان أخوهما الحسن منفردا بالهندسة ، وله طبع عجيب فيها لايدانيه أحد فيه ، مع أنه علم كل ماعلمه من نفسه بدون تعليم ، ولا قرأ كتب الهندسة الا ست مقالات من اقليدس (١)

وتفانى أولاد شاكر فى طلب العلوم القديمة ، وبذلوا فيها الرغائب وأتعبوا أنفسهم فى جمعها ، وانفذوا الى بلاد الروم من أخرجها اليهم ، وأحضروا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السنى . وكان فى جملة من انفذوه للبحث عن الكتب حنين بن اسحق (٢) وغيره . وأقاموا التراجمة وفى

---

(١) تراجم الحكماء (خط) وطبقات الاطباء (٢) الفهرست ٢٤٣

جملتهم حنين وحبيش وثابت بن قرة ، وكانوا ينفقون ٥٠٠ دينار فى الشهر للنقل والملازمة (١) . ولبنى موسى مؤلفات كثيرة فى الفلك والحيل والهندسة ، ولهم استنباطات فى هذا العلم لم يسبقهم اليها أحد . وقد برهنوا للمأمون أن محيط الارض ٢٤٫٠٠٠ ميل برهانا محسوسا ، فضلا عن مهارتهم فى الرصد وغيره

وممن بذلوا المال فى نقل العلوم غير الخلفاء محمد بن عبد الملك الزيات ، كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ٢٫٠٠٠ دينار فى الشهر ، ونقل باسمه كتب عديدة . ومنهم على بن يحيى المعروف بابن المنجم ، كان أحد كتاب المأمون ونقل له كثير من كتب الطب ، وكذلك محمد بن موسى بن عبد الملك

ومنهم ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب ، وكان حريصا على نقل كتب اليونانيين الى لغة العرب ، كثير البذل فى سبيلها . ومنهم تادرى الأسقف فى الكرخ ، وكان راغبا فى طلب الكتب متقربا الى قلوب نقلتها ، وصنف له الاطباء النصارى كتبا كثيرة . وعيسى بن يونس الكاتب الحاسب من أهل العراق، وكانت له عناية فى تحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية. ومنهم شير شوع (كذا) بن قطرب من أهل جنديسابور، وكان يبر النقلة ويهدى اليهم ويتقرب الى تحصيل الكتب بما يمكنه من المال ، وكان يجيد النقل الى السريانى أكثر مما الى العربى . وقس على ذلك جماعة من أطباء الخلفاء ، كيوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وداود بن سرابيون وسلمويه وابن الطيفورى وغيرهم . واقتدى بالخلفاء العباسيين فى نقل العلوم الى العربية أيضا كثيرون من أمراء المسلمين المستقلين عنهم ، فقد كان عند سيف الدولة طبيب اسمه عيسى الرقى ينقلَ له من السريانى الى العربى (٢)

---

(١) طبقات الاطباء ١٨٧ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢

الكتب التي ترجمت

في النهضة العباسية

قد رأيت الاسباب التى حملت الخلفاء على نقل علوم القدماء فى النهضة العباسية وقبيلها ، وقد ذكرنا الذين اشتغلوا فى ترجمتهـا من الالسنـة المختلفة . بقى علينا أن نذكر الكتب التى نقلت وكان عليها معول علمـاء المسلمين فيما ألفوه بعد ذلك . وهى كثيرة تصعب الاحاطـة بها لتشـتت أخبارها وضياع كثير منها ، على أننا نكتفى بما يبلغ اليه الامكان

وتسهيلا للاحاطة بموضوعات تلك الكتب واللغـات المنقولة هى عنهـا نقسمها باعتبار اللغات التى نقلت عنها وهى : اليونانية والفارسية والهندية (السنسكريتية) والنبطية والعبرانية واللاتينية والقبطية . ونقسم منقولات كل لغة الى أقسام باعتبار الموضوعات على ما يقتضيه المقام :

١ ــ الكتب المنقولة عن اليونانية

هى أكثر ما نقلوه الى العربية فى تلك النهضة ، وأكثرها فى الفلسفة والطب والرياضيات والنجوم وفروع العلم الطبيعى . واليك كتب كل علم على حدة ، مرتبة باعتبار المؤلفين ، وبازاء كل كتاب اسم المترجم الذى نقله

١ ــ كتب الفلسفة والادب :

كتب أفلاطون

١	كتاب السياسة	نقله حنين بن اسحق
٢	« المناسبات	« يحيى بن عدى
٣	« النواميس	« حنين ويحيى
٤	« طيماوس	« ابن البطريق وأصلحه حنين
٥	« أفلاطن الى أقرطن (*)	« يحيى بن عدى
٦	« التوحيد	. . . . .

(*) لم أجد لابى زكريا يحيى بن عدى (المعروف بالمنطيقى) التكريتى المتوفى ٣٦٣/٩٨٣ أو ٣٦٤) كتابا بهذا الاسم . انظر قائمة كتبه ومترجماته عند بروكلمان : تاريخ الآداب العربية ، ملحق ١/٣٧٠
وانظر عنه : ابن القفطى ، ٣٦١
البيهقى : التتمة ، ص ٩٠
ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ص ٢٩٧
Meyerhof, Von Alexandria nach Baghdad p. 36 m. 8
G. Graf, Die Christlische Arabische Literatur, 46-51
وانظر كتاب الفهرست لابن النديم (القاهرة ١٣٤٨) ص ٣٦٩

٧	كتاب الحس واللذة	. . . . .
٨	« أصول الهندسة	« قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس

١	قاطيغورياس ، أى المقولات	نقله حنين بن اسحق
٢	كتاب العبارة	« « الى السريانية وإسحق الى العربية
٣	تحليل القياس	« ثيادورس وأصلحه حنين
٤	كتاب البرهان	« اسحق الى السريانى ومتى الى العربى
٥	« الجدل	« « « « ويحيي « «
٦	« المغالطات أو الحكمة المموهة	« ابن ناعمة وأبو بشر الى السريانى ويحيي الى العربى
٧	« الخطابة	« اسحق وابراهيم بن عبد الله
٨	« الشعر	« أبو بشر من السريانى الى العربى
٩	« السماع الطبيعى	« أبو روح الصابى وحنين ويحيي وقسطا وابن ناعمة
١٠	« السماء والعالم	« ابن البطريق وأصلحه حنين
١١	« الكون والفساد	« حنين الى السريانى واسحق والدمشقى الى العربى
١٢	« الآثار العلوية	« أبو بشر ويحيي
١٣	« النفس	« حنين الى السريانى واسحق الى العربى
١٤	« الحس والمحسوس	« أبو بشر متى بن يونس
١٥	« الحيوان	« ابن البطريق
١٦	« الحروف أو الإلهيات	« اسحق ويحيي وحنين ومتى
١٧	« الأخلاق	« اسحق
١٨	« المرآة	« الحجاج بن مطر
١٩	« أثولوجيا	. . . . .

ولكتب أرسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته أو من جاء بعده ، كثاوفرسطس وديدوخس برقلس والاسكندر الافروديسى وفرفوريوس الصورى وأمونيوس وتامسطيوس ونيقولاوس وفلوطرخس ويحيى النحوى وغيرهم . ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة ، وكلها فى الفلسفة وفروعها ، وقد نقل كثير منها الى العربية ولم يعلم ناقلها فأغضينا عن ذكرها ، وقد ذكرها صاحب الفهرست

وذكروا لجالينوس فى جملة كتبه الطبية الآتى بيانها بضعة كتب فى الفلسفة والأدب ، وهى « كتاب ما يعتقده رأيا » ترجمه ثابت ، وكتاب « تعريف

المرء عيوب نفسه » نقله توما وأصلحه حنين ، وكتاب « الاخلاق » نقله حبيش ، وكتاب « انتفاع الاخيار بأعدائهم » نقله حبيش ، و « المحرك الاول لايتحرك » نقله حبيش وعيسى وغيرها

٢ ـ كتب الطب وفروعه :

كتب أبقراط

١	كتاب عهد أبقراط	نقله حنين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية
٢	« الفصول	« حنين لمحمد بن موسى
٣	« الكسر	« « « « «
٤	« تقدمة المعرفة	« « وعيسى بن يحيي
٥	« الأمراض الحادة	« عيسى بن يحيي
٦	« ايذيميا	« « « «
٧	« الأخلاط	« « « « لاحمد بن موسى
٨	« قاطيطيون	« حنين لمحمد بن موسى
٩	« الماء والهواء	« « وحبيش
١٠	« طبيعة الانسان	« « وعيسى

كتب جالينوس

واشهر كتب جالينـــوس الـكتب الســـتة عشر ، وهى : كتاب الفرق ، الصناعة ، كتاب النبض ، شفاء الامراض ، المقالات الخمس ، الاسطقصات ، كتـــاب المزاج ، القوى الطبيعيـــة ، العلل والامراض ، تعرف علل الاعضـــاء الباطنة ، كتاب النبض الكبير ، كتاب الحميات ، البحران ، أيام البحران ، تدبير الاصحاء ، حيلة البرء ، وقد نقلها كلها حنين بن اسحق الى العربيـــة الا كتاب العلل الباطنة ، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب تدبير الاصحاء ، وكتاب حيلة البرء ، فقد نقلها حبيش . أما ما بقى من كتب جالينوس الطبية فاليك اسماءها مع أسماء ناقليها :

١	التشريح الكبير	نقله حبيش الأعسم	٩	آراء أبقراط وأفلاطون	نقله حبيش الأعسم
٢	اختلاف التشريح	« « «	١٠	العادات	« « «
٣	تشريح الحيوان الحى	« « «	١١	خصب البدن	« « «
٤	« « الميت	« « «	١٢	المنى	« « «
٥	علم أبقراط بالتشريح	« « «	١٣	منافع الأعضاء	« « «
٦	الحاجة الى النبض	« « «	١٤	تركيب الأدوية	« « «
٧	علوم أرسطو	« « «	١٥	الرياضة بالكرة الصغيرة	« « «
٨	تشريح الرحم	« « «	١٦	« « الكبيرة	« « «

١٧ الحث على تعلم الطب	نقله حبيش الأعسم	٣٣ قوى الأغذية	نقله حنين
١٨ قوى النفس ومزاج البدن	» » »	٣٤ التدبير الملطف	» »
١٩ حركات الصدر	نقله اصطفان وأصلحه حنين	٣٥ مداواة الأمراض	» »
		٣٦ أبقراط فى الأمراض الحادة	» »
٢٠ علل النفس	نقله اصطفان وأصلحه حنين	٣٧ الى تراسوبولوس	» »
٢١ حركة العضل	» » » »	٣٨ الطبيب والفيلسوف	» »
٢٢ الحاجة الى النفس	» » » »	٣٩ كتب أبقراط الصحية	» »
٢٣ الامتلاء	» » » »	٤٠ محنة الطبيب	» »
٢٤ المرة والسوداء	» » » »	٤١ أفلاطون فى طيماوس	» » واسحق
٢٥ الحركات المجهولة	نقله حنين	٤٢ تقدمة المعرفة	» عيسى
٢٦ علل الصوت	» »	٤٣ الفصد	» » واصطفان
٢٧ أفضل الهيئات	» »	٤٤ صفات لصبي يصرخ	» ابن الصلت
٢٨ سوء المزاج المختلف	» »	٤٥ الأورام	» » »
٢٩ الأدوية المفردة	» »	٤٦ الكيموس	» ثابت وحبيش
٣٠ المولود لسبعة أشهر	» »	٤٧ الأدوية والأدواء	» عيسى
٣١ رداءة التنفس	» »	٤٨ الترياق	» ابن البطريق
٣٢ الذبول	» »		

وهناك كتب فى الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقليها. وأما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتابا لروفس من اهل افسس كان قبل جالينوس، ولعلها لم تنقل كلها. ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس، وهى كتاب الأدوية المستعملة نقله اصطفان بن باسيل ، وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية ، وكتاب الى ابنه اسطاث نقله حنين ، وكتاب الى أبيه ارنافيس نقله حنين . ولديسقوريدس العين زربى — ويقال له السائح فى البلاد لسياحته فى طلب العقاقير والحشائش — كتاب فى الحشائش سيأتى تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب « البرسام » نقله ابن البطريق ، وغير هؤلاء مما لم يعرف ناقلوه

٣ — كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم :

ويشتمل النظر فى ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات ، وهاك خلاصة الكلام فيها :

(أ) كتب اقليدس : منها أصول الهندسة ، نقله الحجاج بن مطر نقلين :

الهارونى والمأمونى (*١) ، ونقله اسحق بن حنين واصلحه ثابت بن قرة ،ونقله ابو عثمان الدمشقى (*٢) ، ولا يزال هـذا الكتاب باقيا الى الآن . ومن كتب اقليدس التى لم يعرف مترجموها : كتاب الظاهرات ، وكتاب اختلاف المناظر ، وكتاب الموسيقى ، وكتاب القسمة ، وكتاب القانون ، وكتاب الثقل والخفة (*٣)

(٢) كتب ارخميدس : وقد تقدم ذكرها فى كلامنا عن آداب اليونان ، وهى عشرة لم يعرف ناقلوها (*٤)

(٣) أبلونيوس : صاحب كتاب المخروطات وكتاب قطع السطوح وقطع الخطوط والنسبة المحدودة والدوائر المماسة ، ولم يعرف ناقلوها (*٥)

(٤) منالاوس : له كتاب الاشكال الكروية وكتاب أصول الهندسة ، نقله الى العربية ثابت بن قرة (*٦)

(٥) بطليموس القلوذى : صاحب كتاب المجسطى الشهير ، وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكى . ولبطليموس أيضا كتاب الاربعة ، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حنين ، وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الارض نقله ثابت الى العربية نقلا جيدا . ولبطليموس ١٥ كتابا أخر فى الجغرافية وغيرها لم يعرف ناقلوها (*٧)

(٦) ابرخس : له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود وكتاب قسمة الاعداد ، لم يعرف ناقلهما (*٨)

(٧) ذيوفنطس : له كتاب صناعة الجبر لم يعرف ناقله

وهناك كتب عديدة فى الرياضيات والهيئة والازياج ونحوها ، ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقليها ، منها : كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لابيون البطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لارسطرخس ، وكتاب العمل بذات

(* ١) العبارة هنا مبتسرة ، وهاك نصها من فهرست ابن النديم (ص ٣٧١) «الكلام على كتابه فى أصول الهندسة ، واسمه الاسطروشيا ، ومعناه اصول الهندسة ، نقله الحجاج بن يوسف ابن مطر نقلين (أى ترجمه مرتين) احدهما يعرف بالهارونى وهو الاول ونقلا ثانيا يعرف بالمأمونى ، وعليه يعول »

(*٢) نص العبارة من الفهرست (نفس الصفحة) : « ونقل ابو عثمان الدمشقى منه مقالات ، رأيت منها العاشرة بالموصل فى خزانة على بن احمد العمرانى ، واحد غلمانه ابو الصقر القبيصى ، ويقرأ عليه المجسطى فى زماننا »

(*٣) نص الفهرست (ص ٣٧٢) : « ومن كتب اقليدس ، كتاب الظاهرات ، كتاب اختلاف المناظر ، كتاب المعطيات ، كتاب النغم ، ويعرف بالموسيقى (وهو) منحول ، كتاب القسمة اصلاح ثابت (بن قرة) ، كتاب الفوائد (وهو) منحول ، كتاب القانون ، كتاب الثقل والخفة ، كتاب التركيب ، منحول ، كتاب التحليل ، منحول »

(*٤) انظر بيانها فى فهرست ابن النديم ، ص ٣٧٢

(*٥) قائمتها اكبر من ذلك بكثير ، انظر الفهرست ، ص ٣٧٣

(*٦) انظر الفهرست ، ص ٣٧٤

(*٧) انظر الفهرست ، ص ٣٧٤ — ٣٧٥

(*٨) انظر الفهرست ، نفس الصفحة

الحلق ، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير ، وكتاب العمل بالاسطرلاب ــ وكلها لثاون الاسكندرى ، غير ما تقدم ذكره من الكتب الرياضية فى أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبة فى ايرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسينى ، وكتاب الموسيقى المنسوب لاقليدس وقد تقدم ذكره ، ومقالات فى الموسيقى لفيثاغورس وغيره . وكتاب الريموس ، وكتاب الايقاع لارسطكاس ، وكتاب الآلات المصوتة المسماة بالارغن البوقى والارغن الزمرى لمورطس

ونقل لهم من كتب الميكانيكيات ، غير ما جاء فى كتب أرخميدس ، كتاب الحيل الروحانية ، وكتاب شيل الأثقال لايرن ، وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا ، وكتاب الآلات المصوتة على ستين ميلا لمورطس

٢ ــ الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية فى النهضة العباسية من قبيل الآداب والاخبار والسير والاشعار ، وبعضها فى النجوم مما نقله آل نوبخت وعلى ابن زياد التميمى وغيرهم . أما ما بقى من كتبهم المنقولة الى العربية فهى مع أسماء ناقليها :

١	كتاب	رستم واسفنديار	نقله	جبلة بن سالم	٩	كتاب	الآداب الصغير	نقله	عبد الله بن المقفع
٢	»	بهرام شوس	»	» »	١٠	»	اليتيمة	»	» »
٣	»	خداينامه فى السير	»	عبدالله بن المقفع	١١	»	هزار افسانه		لم يذكر ناقله (*)
٤	»	آيين نامه	»	» »	١٢	»	شهريزاد مع ابرويز	»	»
٥	»	كليلة ودمنة	»	» »	١٣	»	الكارنامج انوشروان	»	»
٦	»	مزدك	»	» »	١٤	»	دارا والصنم الذهب	»	»
٧	»	التاج فى سيرة أنوشروان	»	» »	١٥	»	بهرام ونرسى	»	»
					١٦	»	هزاردستان	»	»
٨	»	الآداب الكبير	»	» »	١٧	»	الدب والثعلب	»	»

١٨ سير ملوك الفرس ، وهى غير كتاب ــ ترجم احدها محمد بن جهم البرمكى ، والآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الاصفهانى والآخر محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهانى (١)

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس ، وان كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامى ، كتاب « شاهنامه » التى نظمها الفردوسى للسلطان محمود الغزنوى سنة ٣٨٤ هـ فى نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق الياذة هوميروس ، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم نقلها الى العربية الفتح بن على

(*) هو الاصل الفارسى لكتاب الف ليلة (١) رسائل شبلى فى اللغة الهندستانية

البنداری الاصبهانی نثرا للملك المعظم عیسی الایوبی أتم ترجمتهـا سنـة ٦٩٧ هـ (١) ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتبا أخرى تاريخية وادبية ، وخصوصا مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها

٣ ــ الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغـة الهندية (السنسكريتيـة) كثيرا من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والاسمار والتواريخ. والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وان لم يصل الينا من أخبارها الا القليل ، لأن بغداد كانت فی ابان الزهو العباسی محج العلماء والاطباء والتجار والسياح من كل الملل ، وكان للبرامكة عناية فی استقدام أطباء الهند اليها ، وقـد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم كمنكه وبازيكر وقليرفل وسندباز وغيرهم (٢)

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسی فی الادب أو الطب أو الصيدلة أو السير أنهم اعتمدوا فی جملة مصادرهم على كتب هندية الاصل. راجع قانون ابن سينا مثلا أو الملكی للرازی أو غيرهما من كتب الطب الكبرى، فتراهم يذكرون بعض الامراض ويشيرون الى أن الهنود يسمونها مثلا كذا وكذا أو يعالجونها بكذا وكذا . واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه أو سراج الملوك للطرطوشی ، أو غيرهما من كتب الادب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب أو الاخلاق أو نحوها قالوا : « وفی كتاب الهند كذا وكذا »

كتب الطب وفروعه :

على أننا نعلم مما جاء فی كتاب طبقات الاطباء لابن أبی أصيبعة انه اشتهر حوالی العصر العباسی جماعة من علماء الهند فی الطب والنجوم والفلسـفة وغيرها ، منهم كنكه الهندی وهو من متقدميهم وأكابرهم وخصوصا فی علم النجوم فضلا عن الطب وله مؤلفات كثيرة ، منها كتاب النمودار فی الاعمار وكتاب أسرار المواليد وكتاب القرانات الكبير والصغير وكتاب فی الطب يجری مجری الكناش وكتاب فی التوهم وكتاب فی أحداث العالم والدور فی القران. ومنهم أيضا صنجل وباكهر وغيرهما ، وقد نقل كثير من مؤلفاتهم فی النجوم والطب الى اللغة العربية ، اما رأسا أو بواسطة اللغة الفارسية ، بأن ينقـل الكتاب من الهندی الى الفارسی ثم ينقل من الفارسی الى العربی . منها كتاب سيرك الهندی ، وقد نقله من الفارسی الى العربی عبد الله بن علی ، وكتاب آخر فی علامات الادواء ومعرفة علاجها أمر يحيى بن خالد البرمكی بنقله .

(١) كشف الظنون ٤٧ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ٤٠ ج ١

وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند فى الحار والبارد وقوى الأدوية وكتب أخرى فى فروع الطب

ومن مشاهيرهم منكه الهندى المتقدم ذكره بين المترجمين ، وقد أتى بغداد باشارة يحيى بن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقا واسعا . وكان منكه يعرف الفارسية أيضا فكان ينقل من الهندى الى الفارسى ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء (١) . ومنهم صالح ابن بهلة الهندى جاء العراق فى أيام الرشيد أيضا ونال شهرة واسعة وخالط أطباءها يومئذ واختلطوا به ، فاذا لم يكونوا نقلوا شيئا من كتبه فلا بد من اقتباسهم شيئا من آراء الهند عنه

ومن مشاهيرهم أيضا شاناق ، وله كتاب فى السموم خمس مقالات نقله من اللسان الهندى الى الفارسى منكه الهندى ، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبى حاتم البلخى بنقله الى العربية ، ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهرى مولاه . ولجودر الحكيم كتاب فى المواليد نقل الى العربية أيضا

ومن الكتب الطبية التى نقلت من الهندية الى لسان العرب فى العصر العباسى غير ما تقدم ذكره (٢)

١	كتاب سسرد فى الطب	نقله منكه
٢	« أسماء عقاقير الهند	« « لاسحق بن سليمان
٣	« استانكر الجامع	« ابن دهن
٤	« صفوة النجح	« « «
٥	« مختصر الهند فى العقاقير	لم يذكر ناقله
٦	« علاجات الحبالى للهند	« « «
٧	« روسا الهندية فى علاجات النساء	« « «
٨	« السكر للهند	« « «
٩	« التوهم فى الأمراض والعلل	« « «
١٠	« رأى الهند فى أجناس الحيات وسمومها	« « «

كتب النجوم والرياضيات :

أما فى الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير، وقدذكرنا خبر السندهند فيما تقدم ، وكان لنقل هذا الزيج تأثير فى علم النجوم عند العرب وقد قلدوه وألفوا على مذهبه . وممن ألف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزارى وحبش بن عبدالله البغدادى ومحمد بن موسى الخوارزمى وغيرهم (٣) والفزارى أول من عمل اسطرلابا فى الاسلام (٤) . وما من فلكى من فلكيى

(١) طبقات الاطباء ٣٢ ج ٢ (٢) الفهرست ٣٠٣
(٣) تراجم الحكماء (خط) (٤) الفهرست ٢٧٣

المسلمين أراد التوسع فى علم النجوم الا وطالع كتبهم ، اما فى اللغة الهندية أو فى ترجمتها الى العربية . وأكثر المسلمين عناية فى ذلك واطلاعا على آداب الهند وعلومهم أبوالريحان البيرونى المتوفىسنة ٤٤٠ هـ فانه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ثم ألف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات ، ومنها كثير فى علوم الهند اما ترجمة أو تصحيحا أو نقدا ، ومما ذكره من كتبه التى الفها فى هذا الصدد قوله :

« وعملت فى السندهند كتابا سميته جوامع الموجود لخواطر الهنود فى حساب التنجيم ، جاء ما تم منه ٥٥٠ ورقة . وهذبت زيج الاركند وجعلته بألفاظى اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة وألفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتابا فى المدارين المتحدين والمتساويين ، وسميته بخيال الكسوفين عند الهند وهو معنى مشتهر فيما بينهم لايخلو منه زيج من أزياجهم ، وليس بمعلوم عند أصحابنا . وعملت تذكرة فى الحساب والعد بأرقام السند والهند فى ٣٠ ورقة ، وكيفية رسوم الهند فى تعلم الحساب ، وتذكرة فى أن رأى العرب فى مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها ، وفى راسكيات الهند ، وترجمة ما فى ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة فى تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة فى الجوابات على المسائل الواردة من منجمى الهند . ومقالة فى حكاية طريقة الهند فى استخراج العمر . وترجمة كلب باره وهى مقالة للهند فى الامراض التى تجرى مجرى العفونة » وغير ذلك ، فيؤخذ من هذا ان الهنود أهل علم ورأى فى النجوم وعلومها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا

كتب الادب :

وأما كتب الهند فى الأدب والتاريخ والمنطق والأسمار والخرافات مما نقل الى العربية ، فأولها كتاب كليلة ودمنة وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم ، وبعد نقله الى العربية نظموه شعرا كما نظمه الفرس من قبلهم . وممن نظمه فى العربية ابان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشى وعلى ابن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البد (٥) كتاب يوذاسف (٦) يوذاسف مفرد (٧) كتاب أدب الهند والصين (٨) كتاب هابل فى الحكمة (٩) كتاب الهند فى قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب دبك الهندى فى الرجل والمراة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا

فى الحكمة (١) .(*)

ومما نقله العرب من الهنود كتاب فى الموسيقى اسمه فى الهندية (بيافر) ومعناه ثمار الحكمة وفيه أصول الألحان وجوامع تأليف النغم (٢)

٤ ــ الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتبا كثيرة فلسفية وطبية نقلت من اليونانية الى العربية عن طريق اللغة السريانية أخت النبطية أو هى عينها فلا نتعرض لذكرها . وانما المراد بهذا الباب الكتب التى كانت مكتوبة فى اللغة الكلدانية أو النبطية ونقلت الى العربية رأسا ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب كتاب الفلاحة النبطية فانه فريد فى بابه ، وقد نقله الى العربية أحمد بن على ابن المختار النبطى المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ هـ ، وظل معتمد أهل الزراعة الى أمد غير بعيد ، وقد نقل الى اللغات الافرنجية ولولا نقله الى العربية لضاع وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته ، فقد قال ابن وحشية وهو يملى الكتاب على على بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ : « اعلم يابنى أنى وجدت هذا الكتاب فى كتب الكسدانيين (الكلدان أوالنبط) يترجم معناه فى العربية كتاب فلاحة الارض واصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها . وكان هؤلاء الكسدانيون أشد غيرة عليها ، لئلا يظهر هذا الكتاب فكانوا يخفونه بجهدهم . وكان الله عز وجل قد رزقنى المعرفة بلغتهم ولسانهم ، فوصلت الى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل متميز فأخفى عنى علمه ، فلما اطلعت عليه لمته فى اخفاء الكتاب عنى وقلت له : انك ان اخفيت هذا العلم دثر ومضى ولا يبقى لأسلافك ذكر . وما يصنع الانسان بكتب لايقرؤها ولا يخلى من يقرأها فهى عنده بمنزلة الحجارة والمدر ؟ فصدقنى فى ذلك وأخرج الى الكتب ، فجعلت

---

(١) الفهرست ٣٠٥

(*) النص الكامل لعبارة ابن النديم فى الفهرست (ص ٤٢٤) يعطى فكرة عن تاريخ كتاب كليلة ودمنة عند العرب : «كتاب كليلة ودمنة ، وهو سبعة عشر بابا ، وقيل ثمانية عشر بابا ، فسره عبد الله بن المقفع وغيره ، وقد نقل هذا الكتاب الى الشعر ، نقله ابان بن عبدالحميد بن لاحق بن عفيرالرقاشى ، ونقله على بن داود الى الشعر ، ونقله بشر بن المعتمد ، والذى خرج بعضه ، ورأيت أنا فى نسخة زيادة بابين ، وقد عملت شعراء العجم هذا الكتاب شعرا ، ونقل الى اللغة الفارسية بالعربية (كذا) ولهذا الكتاب جوامع وانتزاعات عملها جماعة منهم ابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، والمريد الاسود الذى استدعاه المتوكل فى ايامه من فارس »

اما كتاب البد الوارد فى المتن ، فقد ورد فى الفهرست على هذه الصورة ، ويرجح انه كتاب البدا على اعتبار أنه حياة بوذا . وكتاب يوذاسف يغلب على الظن انه قصة يواصف الذى يترجم الى الافرنجية باسم يوسافات Josafat . وفى نص الفهرست : يواسف وبلوهر ، ولهذا تستحسن قراءته يواسف لا يوذاسف ، وبلوهر يغلب على الظن انها بلرهن تحريف لاصل الاسم وهو برلم او برلن ويترجم فى الافرنجية الى برلام Barlaam وقد ترجمناه نحن فى تاريخ الفكر الاندلسى برلعام

(٢) تراجم الحكماء (خط)

أنقل كتابا بعد كتاب . فكان أول كتاب نقلته كتاب دواناى البابلى فى معرفة أسرار الفلك والاحكام على حوادث النجوم ، وهو كتاب عظيم المحل ، ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه الخ»(١) (٢) كتاب طرد الشياطين ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحرالكبير(٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين فى الاصنام (٧) كتاب الاشارة فى السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب فى الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت فى علاج الامراض (١٢) كتاب الاصنام (١٣) كتاب القرابين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الاسماء وأكثرها من نقل ابن وحشية (٢) غير ما لابد من نقله من كتب الدين وأخبار الكلدان القدماء (*)

٥ ـ الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لاريب أن كثيرا من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة فى التلمود وغيره من كتبهم قد نقل الى العربية ، وان كنا لا نرى شيئا منها مدونا بصفة ترجمة لأنهم كانوا ينقلونها شفاها للصحابة وغيرهم على ما تقدم ، وربما دونوا منها شيئا وضاع . وأما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانية فترجمة أسفار التوراة ، نقلها سعيد الفيومى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ وهو أقدم من نقل التوراة الى العربية مما وصل الينا خبره ، وله أيضا شروح وتفاسير عليها (٣)

ولا يبعد أن يكون قد نقل الى العربية بعض الكتب عن اللاتينية ، لأنها كانت تحوى كثيرا من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها ، وربما فات نقلة الأخبار ذكر ما نقل عنها . وقد رأينا فى جملة المترجمين أن يحيى ابن البطريق لايعرف غير اللغة اللاتينية وأنه ترجم عدة كتب ، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية

---

(١) كتاب الفلاحة النبطية (خط) (٢) الفهرست ٣١٢

(*) الدراسات كثيرة عن كتاب الفلاحة النبطية المنسوب الى أبى بكر احمد بن على بن المختار بن عبد الكريم بن جريثا بن بدينا بن بوراطيا بن علاطيا الكسدانى الصوفى المعروف بابن وحشية ، وقد شك كثير من العلماء منهم Noeldeke, Gutschmid, Chwolsohn فيما ذكره ابن وحشية من انه ترجم الكتاب عن الكلدانية ، وكذلك شك Von Hammer Burgstall فى اصالة كتابه الذى سماه أصل الكتابات ، وقد عرض الموضوع كله الدكتور احمد عيسى فى كتابه «تاريخ النبات عند العرب» (القاهرة ١٩٤٤) ص ٩٧ ـ ٩٩ . وقد لخص الدكتور عيسى محتويات الكتاب فيما يلى : «استنباط المياه وهندستها ، وكيفية حفر الآبار ، والاحتيال فى زيادة ماء البئر ، وازالة البخارات الردية منها ، وافلاح الارض ، وعلاج الشجر ، وزكاء الثمار وتجويدها ، وزكاء الزرع ، والكلام على خواص الاشياء ، وخواص البلدان ، والازمنة ، واختلاف طباع الادوية ، وتراكيب الشجر وغروسها وافلاحها ، ودفع الآفات عنها ، واستخراج منافع المنابت والحشائش ، والمداواة بها ودفع الآفات عنها ، وعن أبدان الحيوانات ، ودفع آفات الشجر والمنابت بعضها ببعض ، وطرائف ماركبوا من الاشياء ، حتى حدث عنها أشياء غيرها ، اما قريبة منها أو بعيدة عنها ، ودليل مجىء المطر والبرد والصحو والسحاب ، ومعرفة ما ينتج من الزرع فى أى سنة أردت ذلك »

انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة ابن وحشية

وبروكلمان : تاريخ الادب العربى ، ١/٢٤٢ـ ٢٤٣ والمراجع المعطاة هناك

(٣) الفهرست ٢٣

وأما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأسا فلا نشك فى أنهم نقلوا كثيرا من علوم المصريين بواسطة اللغة اليونانية ، وخصوصا صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون ، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطى واليونانى معا بأمر خالد بن يزيد (١) .(*)

الخلاصة

وفى الجملة فان المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة فى ذلك العهد ، ولم يغادروا لسانا من السن الأمم المعروفة اذ ذاك لم ينقلوا منه شيئا ، وان كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية . فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها ، فكان اعتمادهم فى الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان ، وفى النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس ، وفى الطب (الهندى) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والاقاصيص على الهنود ، وفى الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط والكلدان ، وفى الكيمياء والتشريح على المصريين ، فكأنهم ورثوا أهم علوم الاشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان ، وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامى (الدخيلة)

ومما نلاحظه من أمر ذلك النقل أن العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان، لم يتعرضوا لشىء من كتبهم التاريخية أو الادبية أو الشعر ، مع انهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود ، فقد نقلوا جملة صالحة من تواريخ الفرس وأخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامة . ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودتس ، ولا جغرافية استرابون ، ولا الياذة هوميروس ولا أوذيسيته . والسبب فى ذلك أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم فى الفلسفة والطب والنجوم والمنطق ، لأسباب تقدم بيانها . وأما التواريخ والآداب فقد كان التراجمة ينقلونها غالبا من عند أنفسهم ، حبا فى اظهار مآثر أسلافهم أو جيرانهم . فالمترجمون الفرس نقلوا شيئا من تواريخ الفرس وآدابهم ، وكذلك فعل التراجمة السريان بآداب أجدادهم وكذلك التراجمة الهنود . فلو كان فى أولئك المترجمين واحد من اليونان لنقلوا كثيرا من تواريخ أمتهم وأشعارها.

---

(١) الفهرست ٢٤٢

(*) لم يدرس بعد موضوع مانقله العرب من علوم قدماءالمصريين مما كان مدونا بالقبطية ، وليس لدينا الا اشارتان الى الموضوع هما :

Von Hammer Burgstall ,Ancient Alphabets and hieroglyphic characters explained with an account of the Egyptian priests, their classes, initiation and sacrifices in the Arabic language, by A. B. Abu Bakr ibn Wahschieh. London 1810

ومقدمة طبعة دى ساسى لرحلة عبد اللطيف البغدادى

ولا ريب أن من جملة ما منعهم من نقل الالياذة الى العربية ذكر الآلهة والأصنام فيهـا ، ولكن فى الشاهنامة أيضا كثيرا من ذلك فلم يمنعهم من نقلها (*)

ويلاحظ أيضا أن العرب نقلوا من علوم تلك الأمم فى قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه فى عدة قرون ، وذلك شأن المسلمين فى أكثر أسباب تمدنهم العجيب

محاسبة الخلفاء للعلماء غير المسلمين

ومن العوامل الفعالة فى سرعة نضج العلم فى النهضة العباسية ، وكثرة ما ترجم فى تلك المدة القصيرة ، أن الخلفاء أصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال فى سبيل نقل الكتب ، ويرغبون النقلة وغيرهم بالبـذل والاكرام والمحاسنة ، بقطع النظر عن مللهم أو نحلهم أو أنسابهم ، وقـد كان فيهم النصرانى واليهودى والصابى والسامرى والمجوسى . فكان الخلفـاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام ، مما يصح أن يكون مثالا للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الأمور فى كل العصور

بلغ من اكرام المنصور لطبيبه جورجيس بن بختيشوع (١) أنه أمر أن يحضروا له المشروب وهو محرم فى الاسلام . وذلك انه رأى وجهه يتغير على اثر اقامته فى بغداد ، فقال المنصور لحاجبه الربيع : « أرى هذا الرجل قد تغير وجهه .. أتكون قد منعته مما يشربه على عادته؟» . قال الربيع: «لم نأذن له أن يدخل الى هذه الدار مشروبا » فأجابه المنصور بقبيح وقال : « لابد أن تمضى بنفسك حتى تحضره من المشروب كل ما يريده » . فمضى الربيع الى قطربل وحمل منها اليه غاية ما امكنه من الشراب الجيد (٢) وكان ذلك شأن المنصور مع أكثر أطبائه ، حتى كان يستشير بعضهم فى أهم الامور . فلما طلب أهل خراسان عقد البيعة لابنه المهدى كان من أطبائه طبيب يهودى اسـمه فرات بن شحاتا وكان حاضرا ، فقال له المنصـور : « ما تقول يا فرات ؟ » فأشار عليه بما يراه

وبلغ من اكرام الرشيد لطبيبه جبريل بن بختيشوع أنه دعا له وهو فى الموقف بمكة دعاء كثيرا ، فأنكر عليه بنو هاشم ذلك وقالوا : «ياسيدنا ذمى» فقال : « نعم ، ولكن صلاح بدنى وقوامه به ، وصـلاح المسلمين بى ، فصلاحهم بصلاحه وبقائه » فقالوا : « صدقت يا أمير المؤمنين ! » (٣) . أما المأمون فلطفه واكرامه العلماء أشهر من أن يذكر

(*) أوفى دراسات لما نقله العرب عن اليونان قام بها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى سلسلة قيمة من الكتب : « ربيع الفكر اليونانى » ، « كتاب الشعر » ، « أفلوطين عند العرب » ، « منطق أرسطو »

(١) ويقال ايضا جورجيس بن جبرئيل (٢) طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١ (٣) طبقات الاطباء ١٣٠ج١

وكثيرا ما كان الخلفاء يطلقون أيدى أطبائهم فى دورهم ، ويستشيرونهم فى مهام أمورهم الادارية والسياسية ، وربما كلفوهم التوقيع عنهم . فكان المعتصم قد استطب سلمويه بن بنان النصرانى ، وبلغ من اكرامه اياه أنه كان اذا ورد الى الخليفة كتاب يقتضى توقيعا ، وكان سلمويه حاضرا ، أمره أن يوقع عنه بخطه . وكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر أو توقيع من الخليفة فبخط سلمويه . وكذلك كان شأن داود بن ديلم مع المعتضد (١) ومن أدلة اكرام المعتصم لسلمويه انه ولى أخاه ابراهيم بن بنان خزن بيوت الاموال فى البلاد وخاتمه مع خاتم الخليفة ، ولم يكن أحد عنده مثل سلمويه وأخيه فى المنزلة . وكان المعتصم يدعو سلمويه « أبى » وكان اذا قرب الفصح أوغيره منأعياد النصارى اذن له بالذهاب الى بلده القادسية ليقيم فى كنيستها ويتقرب ، ويزوده بالاكسية والمسك والبخور . ولما اعتل سلمويه عاده المعتصم وبكى عنده وقال له : « تشير على بعدك بما يصلحنى ؟ » فأشار عليه بيوحنا بن ماسويه . فلما مات سلمويه امتنع المعتصم من أكل الطعام يوم موته ، وأمر بأن تحضر جنازته الدار ويصلى عليه بالشمع والبخور على زى النصارى الكامل ، ففعلوا وهو بحيث يبصرهم ويباهى فى كرامته (٢)

وكذلك كان المتوكل والمهتدى وغيرهم فى اكرام الاطباء وتقديمهم والاحسان اليهم ، وكانوا اذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة (٣) وربما جلس الطبيب والوزراء والأمراء وقوف ، كما كان شأن ثابت بن قرة الصابى مع المعتضد بالله (٤) . وكانت مواكبهم اذا ركبوا مثل مواكب الامراء والوزراء . وكان الخلفاء يمازحونهم ويماجنونهم ، وهم أول من يدخل عليهم للنظر فيما يحتاجون اليه مما يصلح أبدانهم ، ويختارون لهم الأطعمة المناسبة . ولم يكن الخليفة يتناول دواء الا باذن طبيبه ، فاذا فعل ولم يستأذنه جر عليه غضب الطبيب واضطر لاسترضائه . ذكروا أن المتوكل احتجم مرة بغير اذن طبيبه اسرائيل بن الطيفورى ، فغضب اسرائيل فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغل فى السنة ٥٠٠ر٥٠ درهم (٥) وكان جبرائيل الكحال أول من يدخل على المأمون بعد الصلاة ، فيغسل أجفانه ويكحل عينيه ، فاذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك (٦)

وطبيعى أن يأنس الانسان بطبيبه ويكرمه ، وخصوصا فى دور الخلفاء فى ذلك العصر ، والمطالبون بالخلافة كثيرون ومن أقرب الطرق الى نيل مطالبهم

(١) طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٦٥ ج ١
(٣) ابو الفرج ٢٤٩ (٤) طبقات الاطباء ٢١٦ ج ١
(٥) طبقات الاطباء ١٥٧ ج ١ (٦) طبقات الاطباء ١٧١ ج ١

أن يقتلوا الخليفة بالسم ، وذلك هين على الطبيب . وكثيرا ما كانوا يخافون ذلك من ملوك الروم . فكان الخلفاء يخافون أن يفعل الاطباء ذلك طمعا فى مال أو منصب ، فكانوا يبذلون الجهد فى أن يملأوا جيوبهم وعيونهم وقلوبهم . وكثيرا ما كانوا يمتحنون أمانتهم وسلامة ذمتهم قبل التسليم لهم ، كما فعل المتوكل بحنين بن اسحق لما أراد أن يستطبه وقد خافه على نفسه ، فبعث اليه فلما حضر أقطعه اقطاعا سنيا وقرر له جاريا وخلع عليه ثم قال له : « أريد أن تصف لى دواء يقتل عدوا نريد قتله سرا » فقال حنين : « ما تعلمت غير الأدوية النافعة ، ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب منى غيرها ، فان أحب أن أمضى وأتعلم فعلت » فقال : « هذا شىء يطول بنا ». ثم رغبه وهدده وحبسه فى بعض القلاع سنة ، ثم أحضره وأعاد عليه القول وأحضر سيفا ونطعا وهدده بالقتل فقال : « لى رب يأخذ لى حقى غدا فى الموقف العظيم » فتبسم المتوكل وأخبره أنه أراد امتحانه (١)

ولنفس هذا السبب كان الخلفاء يوجبون على أطبائهم النصارى أو غيرهم التمسك بطقوس دياناتهم (٢) ويكرمون أهل تلك الاديان من أجلهم . فقد كان ثابت بن قرة صابئيا ، فلما نال حظوة عند المعتضد تجددت الرئاسة للصابئة فى مدينة السلام . وقلما كانوا يريدونهم على الاسلام الا نادرا ، كما أراد القاهر بالله سنان بن ثابت المذكور فهرب ثم أسلم خوفا منه . على أن الصابئة كثيرا ما كانوا يصومون شهر رمضان مع المسلمين ، كما كان يفعل أبو اسحق الصابى الكاتب المشهور فى أيام عز الدولة ، ومع ذلك فلما أراده عز الدولة على الاسلام لم يفعل ، لأنه كان متمسكا بدينه . والصابى هذا هو الذى رثاه الشريف الرضى بقصيدته الدالية التى مطلعها (٣) :

أرأيت من حملوا على الاعواد   أرأيت كيف خبا ضياء النادى ؟

ولم يمنعه شرفه فى الاسلام من هذا الرثاء . ويدلك ذلك على أن التعصب أو التساهل انما يكون مصدرهما من صاحب الأمر والنهى ، فاذا كان الأمير معتدلا أو متعصبا كانت رعيته مثله . ولذلك فقد كان التساهل فى عصر النهضة العباسية شاملا على الخصوص اهل الخلفاء وأهل الوجاهة والعلم . ولم يكن العالم المسلم يستنكف أن يأخذ العلم عن نصرانى ، حتى الفارابى الفيلسوف الكبير فقد أخذ بعض علمه عن أحد نصارى حران (٤) وكان النصارى من الجهة الاخرى لايستنكفون من قراءة التوراة والانجيل على فقيه مسلم (٥)

---

(١) ابو الفرج ٢٥١ (٢) طبقات الاطباء ١٩٠ ج ١ (٣) ابن خلكان ١٣ج ١ (٤) ابن خلكان ج ٢ (٥) ابن خلكان ١٣٣ ج ٢

أما بذل الأموال للأطباء فلا حاجة الى ذكره لشهرته ، ومن مراجعة ثروة جبريل بن بختيشوع فى الجزء الثانى من هذا الكتاب كفاية . فضلا عما كانوا يكسبونهم من الأموال غير الرواتب ، فان المأمون أمر أن كل من يتقلد عملا لا يخرج الى عمله الا بعد أن يلقى طبيبه جبريل ويكرمه . وللمأمون شعر فيه :

أفى طبــك يا جبريـــل ما يشفى ذوى العلة ؟
غزال قد ســبى عقلى بلا جــرم ولا زلة (١)

فكيف لا يزهو العلم ويزهر ويثمر فى ظل هؤلاء ؟

ولم تكن تلك المحاسنة خاصة بالنهضة العباسية ، بل كانت تتنــاول كل دولة نهضت للعلم ، فالدولة الفاطمية بمصر كان أكثر أطبائها من النصارى واليهود والسامريين ، وكانت لهم عندهم منزلة الاطباء فى الدولة العباسية ، فكانوا يغدقون عليهم الاموال ، ويولونهم الوظائف والمناصب ويستشيرونهم ويكرمونهم ويلقبونهم بألقاب الشرف ، كسلطان الحكماء وأمين الدولة ومعتمد الملك (٢) ويخاطبونهم كما يخاطبون الأمراء والوزراء . كان طبيب العزيز بالله الفاطمى نصرانيا اسمه منصور بن مقشر ، فاعتل الطبيب وتأخر عن الركوب، فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم . على طبيبنا ــ سلمه الله ــ سلام الله الطيب ، وأتم النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة فى جسمنا . أقالك الله العثرة ، وأعادك الى أفضل ما عودك من صحة الجسم وطيبــة النفس وخفض العيش بحوله وقوته » (٣)

ويقال نحو ذلك فى دولة الاندلس ، فقد كان للأطباء والعلماء فى أيام الحكم المستنصر بن الناصر ما كان لهم فى أيام المأمون لمشابهة بين الخليفتين ، فقد كان الحكم محبا للعلم والعلماء جماعا للكتب كما سيأتى . على أن حال هؤلاء العلماء كانت تختلف باختلاف الخلفاء واختلاف العصور

انتشار العلوم الدخيلة فى المملكة الاسلامية

لم تكد العلوم الدخيلة تنقل الى العربية حتى أخذ المسلمون فى درســها والاشتغال بها . وكان اشتغالهم فى بادىء الراى على ســبيل التلخيص أو الشرح أو التعليق ، حتى اذا نضج تمدنهم وانتشرت العلوم فى البــلاد ــ

(١) طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١ (٢) تراجم الحكماء (٣) ابو الفرج ٣١٦

للأسباب الآتية ــ أخذ المسلمون فى التأليف من عند أنفسهم ، وبعد أن كانت العلوم فى القرنين الأولين نقلية انما تحتاج الى الاذخار فى الذاكرة ، أصبحت فى القرنين التاليين ومابعدهما عقلية عمدتها النظر والقياس والتحليل والتركيب

وكانت بغداد كعبة العلم ومحج العلماء ومنبت أهل الفضل ومقر نقلة العلم فى اثناء النهضة العباسية ، وخصوصا فى أيام المأمون . حتى اذا تولى المعتصم واستكثر من الاتراك ، وظهرت منهم الاساءة لأهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب ، ولكن المعتصم كان على مذهب أخيه المأمون فى الاعتزال واكرام الشيعة ، فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه فى أيام المأمون . وكان الواثق يتشبه بالمأمون فى حركاته وسكناته ، وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين فى أنواع العلوم العقلية والسمعية فى جميع الفروع (١)

فلما توفى الواثق سنة ٢٣٣ هـ خلفه أخوه جعفر المتوكل ، وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة ، حتى أمر بهدم قبر الحسين بن على وماحوله من المنازل ومنع الناس من اتيانه ، وكان كثير الاستهزاء بعلى (٢) وكان يجالس من اشتهر ببغضه . وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ، فأبطل القول بخلق القرآن ، ونهى عن الجدل والمناظرة فى الآراء ، وعاقب عليه ، وأمر بالرجوع الى التقليد ونصر السنة والجماعة ، وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث ، فانحط علم الكلام بعد أن بلغ رونقه فى أيام الرشيد وخلفائه ، فأخذ فى التقهقر فى أيام المتوكل ، لأنه كان شديد الوطأة على أصحاب الرأى وأصحاب الفلسفة وسائر العلوم الدخيلة . وأخذ منذ تولى الخلافة فى مناوأتهم ، فأهلك جماعة من العلماء وحط مراتبهم وعادى العلم وأهله ، ولاقى أهل الذمة منه الشدائد بتغييرزيهم وتذليلهم واهانتهم (٣) . ومن أشهر حوادث نقمته على خدمة العلم ، انه غضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين ، وقتل أبا يوسف يعقوب المعروف بابن السكيت (٤) وسخط على عمر بن مصرح الراجحى وكان من علية الكتاب ، وأخذ منه مالا وجوهرا وأمر أن يصفع فى كل يوم ، فأحصى ما صفع به فكان ستة آلاف صفعة (٥)

ومات المتوكل مقتولا سنة ٢٤٧ هـ ، قتله رجاله بتحريض ابنه فاضطربت أحوال الخلافة واستفحل شأن الاتراك ، فنفرت قلوب طلبة العلم وأكثرهم من الفرس والعرب ، فتفرقوا من بغداد رويدا رويدا الى أنحاء المملكة الاسلامية شرقا وغربا ، ولذلك كان أكثر من ظهر من العلماء ــ بعد نضج

---

(١) المسعودى ٢٦١ و ٣٦٧ ج ٢ (٢) ابو الفداء ٤٠ ج ٢ (٣) تاريخ المشارقة (خط)
(٤) ابو الفداء ٤٣ ج ٢ (٥) المسعودى ٢٦٩ ج ٢

العلم فى القرن الرابع للهجرة فما بعده ــ انما نبغوا خارج بغداد ، وفيهم الاطباء والفلاسفة والمهندسون والمتكلمون وأصحاب المنطق والفقهاء واللغويون وغيرهم

فكان مركز الطب والطبيعيات والفلسفة ــ عند ظهور الاسلام ــ فى الاسكندرية ، ثم انتقل فى أيام عمر بن عبد العزيز فى آخر القرن الأول للهجرة الى انطاكية . وكان مركز العلوم الاسلامية فى أول الاسلام فى المدينة ، ثم انتقل الى البصرة ، ومنها الى الكوفة . فلما بنيت بغداد انتقلت اليها تلك العلوم ، ثم انضمت اليها العلوم الدخيلة ، فأصبحت بغداد أم المدائن فى العلم والادب والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية والنقلية . فلما اضطربت أحوال الخلافة فى أيام المتوكل ، ثم لما نشأت الدول الجديدة فى أنحاء المملكة الاسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقاء ، تفرق العلماء وأصبح للعلم مراكز كثيرة قد يتفاضل بعضها على بعض . وتدرج الانتقال من بغداد أولا الى العراق العجمى ، فخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب والاندلس .

وربما كانت الاندلس أسبق من سواهاالى الادب والشعر ، لأنها ورثت دول المشرق فى ذلك ، فأصبحت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع العلماء ، واليها كانت الرحلة فى رواية الشعر ومناشدة الشعراء (١) وهى فى ذلك وفى غيره مدينة لبغداد وخصوصا فى العلوم الدخيلة . فان الموسيقى نقلت اليها من بغداد على يد زرقون وعلون ، دخلا فى أيام الحكم ابن هشام (٢) . وأما الفلسفة فقد دخلتها فى عهد عبد الرحمن الأوسط المعاصر للمأمون وازدهت فى أيام الحكم بن الناصر (٣) أما الطب فدخل المغرب ثم الاندلس على يد اسحق بن عمران ، أصله من بغداد ورحل الى المغرب ونقل الطب معه (٤) فى أوائل القرن الثالث . على أن أطباء الاندلس ومصر ما زالوا حينا من الدهر يرحلون فى اتقان الطب وغيره من العلوم الدخيلة الى بغداد . حتى يهود الاندلس فقد كانوا يستخرجون فقههم من يهود بغداد (٥) ويقال نحو ذلك فى سائر بلاد الاسلام (*)

وبالجملة فان بذور العلم التى ألقاها خلفاء النهضة العباسية فى بغداد ، ظهرت ثمارها فى خراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر ،

---

(١) نفح الطيب ٢١٧ ج ١ (٢) نفح الطيب ٧٥٣ ج ٢ (٣) طبقات الاطباء ٦٢ ج ٢
(٤) طبقات الاطباء ٣٦ ج ٢ (٥) طبقات الاطباء ٥٠ ج ٢

(*) عرضنا لذلك كله بالتفصيل فى كتاب « تاريخ الفكر الاندلسى » لجنثالث بالنثيا الذى نقلناه الى العربية ونشرناه فى القاهرة ١٩٥٥

وفى مصر والشام والاندلس وغيرها . وظلت بغداد مع ذلك حافلة بالعلماء بقوة الاستمرار وبما فيها من أسباب الثروة ولأنها مركز الخلافة . فنبغ فيها جماعة من أهل العلم المسلمين ، فضلا عن الاطباء النصارى الذين كانوا يخدمون الخلفاء فى التطبيب والترجمة

على أن أكثر العلماء غير المسلمين ، الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة ، كانوا يتقاطرون اليها من أنحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء . أما المسلمون فالغالب أن يكون ظهورهم خارج العراق ، ولاسيما وان أكثر ملوك الدول الجديدة التى تفرعت من الدولة العباسية اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية ، فى ترغيب أهل العلم واستقدامهم الى عواصمهم فى القاهرة وغزنة ودمشق ونيسابور واصطخر وغيرها . فالرازى من الرى ، وابن سينا من بخارى فى تركستان ، والبيرونى من بيرون فى بلاد السند ، وابن جلجل النباتى (*) من أهل الاندلس ، وكذلك ابن باجة الفيلسوف وابن زهر الطبيب وأقاربه آل زهر وابن رشد وابن الرومية النباتى وكلهم من الاندلس

أما مصر فأكثر أطبائها المشاهير من النصارى واليهود والسامريين ، وقد نبغ فيها ابن الهيثم من أهل الفلسفة والطبيعيات ، وعلى بن رضوان الطبيب الشهير والشيخ السديد رئيس الاطباء ، ورشيد الدين أبو حليقة الطبيب الفيلسوف ، وضياء الدين بن البيطار النباتى الشهير . أما الشام فقد نبغ منها الفارابى الفيلسوف ، وأبو المجد بن أبى الحكم ، وشهاب الدين السهروردى ، وموفق الدين البغدادى الرحالة ، ناهيك بعدد عديد من النصارى الذين خدموا الخلفاء والأمراء فى الطب والفلسفة وغيرهما ممن نبغ فى الشام

ويقال نحو ذلك فى علماء العلوم الاسلامية ، كالفقهاء والمحدثين واللغويين والشعراء ، فانهم مع بقاء بغداد آهلة بهم فقد ظهر جماعة كبيرة منهم فى خارجها ، وألقابهم تدل على أماكنهم ، كالبخارى والشيرازى والنيسابورى والسجستانى والفرغانى والبلخى والخوارزمى والفيروزابادى والحموى والدمشقى والفيومى والسيوطى والقرطبى والاشبيلى وغيرهم

الخلفاء والأمراء والعلم

اشتغال الخلفاء والامراء بالعلم :

فلا غرو اذا احتفى الخلفاء والامراء بأهل العلم وحاسنوهم ، وهم أنفسهم

(*) نشر الاستاذ فؤاد السيد كتاب « أخبار حكماء الاندلس » لسليمان بن جلجل ، القاهرة ١٩٥٥

كانوا من طلبة العلم ومريديه ، واذا كان الملك أو الامير عالما زها فى أيامه العلم وسعد خدمته . ومن شروط الخلافة فى الاسلام أن يكون الخليفة عالما بالامور الشرعية ، ولذلك كان الخلفاء فى الغالب عالمين بها ، يعقدون المجالس للنظر فيها ويقربون الفقهاء والمحدثين ، وتطرقوا من ذلك الى الرغبة فى النحو واللغة والتاريخ ، لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض ، والعلم مترابط يطلب بعضه بعضا . فلما أقاموا فى العراق ، وأحاط بهم أهل العلوم الطبيعية والفلسفة والنجوم من السريان والفرس ، واطلعوا على شيء من تلك العلوم ، تاقت أنفسهم اليها واشتغلوا بها ، وكان ذلك الاشتغال باعثا على استنارة الخلفاء والامراء ، فنبغ من ذلك العصر فما بعده جماعة من الخلفاء ، انتظموا فى سلك أهل العلم الطبيعى فضلا عن الادبى

وأعلم خلفاء بنى العباس المأمون ، فقد كان عالما بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة والمنطق ، ويقابله فى الدول الاسلامية الاخرى الحكم المستنصر بن الناصر الاموى فى الاندلس (توفى سنة ٣٦٦ هـ) والحاكم بأمر الله الفاطمى فى مصر (توفى سنة ٤١١ هـ) أما الحكم فقد كان مع رغبته فى العلم جماعا للكتب يبذل الاموال فى استجلابها من الاقطار . وأما الحاكم فقد كان عالما بالنجوم وبنى مرصدا وانشأ مكتبة كما سيأتى . وكذلك كان عبد الرحمن الاوسط أمير الاندلس المتوفى سنة ٢٣٨ هـ (١) وهو أول من وصلت اليه كتب الفلسفة من أمراء الاندلس واطلع عليها وتظاهر بها ، اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه . أما قبلهما فلم يكن أحد من الخلفاء يعرف الفلسفة ، واذا عرفها فلا يجسر على التظاهر بها ، ولكنهم كانوا يعرفون النجوم ويشتغلون بها ، كما فعل المنصور والرشيد . أما بعد النهضة العباسية فقد تظاهر بعض الخلفاء بالفلسفة والعلم الطبيعى (*)

أما الادب والشعر فكان للخلفاء حظ وافر منهما ، وقد ذكرنا بباب الشعر من اشتغل به منهم . أما الادب فقد كان السفاح تعجبه المحادثة ومفاخرات العرب من نزار واليمن (٢) وكان المنصور صاحب أخبار وآداب وله كتاب فيها (٣) وكان الهادى يجالس الادباء يقصون عليه الاخبار والاشعار . وابن المعتز أول من ألف فى علم البديع (٤) وابراهيم بن المهدى كان من علية أهل الادب والشعر . ويقال نحو ذلك فى بنى حمدان فى حلب ، وبنى عباد فى الاندلس ، وبنى بويه فى بغداد

---

(١) نفح الطيب ١٦٤ ج ١ (*) أفاض فى الكلام على موقف الخلفاء من العلوم وتقديرهم لاصحابها ومداخلتهم فيها غريغوريوس ابو الفرج بن أهرون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى فى كتابه « مختصر تاريخ الدول » (طبعة الاب انطون صالحانى فى بيروت سنة ١٨٩٠) . انظر مثلا كلامه عن المأمون والعلماء ص ٢٣٥ وما بعدها

(٢) المسعودى ١٥٩ ج ١ (٣) البيان والتبيين ١٥٤ ج٢ (٤) ابن خلكان ٢٥٨ ج ١

وكان هؤلاء الخلفاء أو الامراء يقدمون أهل العلم ويستوزرونهم . ومن الوزراء العلماء : يحيى بن خالد وزير الرشيـد ، ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله بمصر ، وكذلك كان أكثر الوزراء فى الدولة العباسية وغيرها

واذا كان السلطان من أهل العلم فلا غرو اذا كثر العلماء فى عصره وزها العلم على يده ، لأن الناس على ما يريد ملوكهم وخصوصا فى الحكم المطلق ، لأن الافكار تتجه الى ارضاء الحاكم المطلق فيشتغلون بما يرضيه . قال أسامة بن معقل : « كان السفاح راغبا فى الخطب والرسائل يصطنع أهلها ويثيبهم عليها ، فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلبا للحظوة عنده فنلتها ، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وأيام العرب يدنى أهلها ويجيزهم عليها ، فلم يبق شىء من الاسمار أو الاخبار الا حفظته طلبا للقربى منه ، وكان موسى الهادى مغرما بالشعر يستخلص أهله ، فما تركت بيتا نادرا ولا شعرا فاخرا ولا نسيبا سائرا الا حفظته ، ولم أر شيئا أدعى الى تعلم الآداب غير رغبة الملوك فى أهلها وصلاتهم عليها » (١)

تأليف الكتب للخلفاء والأمراء

وهذا هو الواقع فى كل عصر وكل دولة . فالمأمون لولا حبه العلم واحرازه شيئا منه لم يقدم على ترجمة الكتب ، وقد كان يعقد المجالس للمناظرة والمحاورة ، وهو الذى أمر الفراء بجمع أصول النحو وأخلاه فى غرفة وأطلق له الاموال (٢) فزها العلم فى أيامه وخصوصا الفلسفة لأنه كان يحبها . وما من أمير ولا ملك محب للعلم الا اجتمع العلماء حوله ، وألفوا له الكتب فيما يحبه من فروع العلم وهو يجيزهم عليها . فمحمد بن اسحق الراوية الشهير ألف كتاب المغازى للمنصور وهو فى الحيرة (٣) وابن بكار ألف كتاب الاخبار المعروف بالموفقيات للموفق بالله (٤) والرازى ألف كتابه المنصورى باسم المنصور بن اسحق ، ولما تولى عضد الدولة بن بويه دار السلام قرب اليه أهل العلم ، فقصدوه من كل بلد وصنفوا له « كتاب الايضاح » فى النحو و « كتاب الحجة » فى القراءات و « كتاب الملكى » فى الطب و « التاجى » فى تاريخ الديلم وغيرها (٥) وسعيد بن هبة الله الطبيب ألف كتاب المغنى فى الطب للمقتدى بأمر الله (٦) وقد يؤلفون الكتب للوزراء والامراء ، فقد ألف الحريرى مقاماته لأنوشروان وزير المسترشد (٧) وألف جبريل بن عبيد الله ابن بختيشوع كتاب الكافى بلقب الصاحب بن عباد لمحبته له . وقس على

(١) كتاب البلدان للهمذانى (٢) طبقات الادباء ١٢٧ (٣) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١
(٤) المسعودى ٢٤١ ج ٢ (٥) ابو الفداء ١٢٨ ج ٢
(٦) طبقات الاطباء ٢٥٥ ج ١ (٧) الفخرى ٢٧٤

ذلك كثيرين ألفوا الكتب بأسماء الخلفاء والامراء أو الوجهاء . والغالب أن يكون الغرض من ذلك الطمع فى العطايا الوافرة ، وكانوا ينالون شيئا كثيرا منها . فالمنصور الاندلسى أثاب على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار (١) (*) والفردوسى نظم الشاهنامة للسلطان محمود الغزنوى على أن يعطيه على كل بيت دينارا فبلغت ٦٠٫٠٠٠ بيت

على أنهم لم يكونوا يجيزون على تأليف الكتب اعتباطا ، وانما كانوا ينظرون فيها فاذا لم يتوسموا فيها نفعا نبذوها وربما عاقبوا مؤلفيها ، فأبو بكر الرازى الطبيب الف للمنصور بن اسحق المذكور كتابا فى صناعة الكيمياء فأجازه عليه بألف دينار ، ولكنه طالبه باثبات ما فيه فلما عجز عن ذلك قال له المنصور : « ما اعتقدت أن حكيما يرضى بتخليد الكذب فى كتب ينسبها الى الحكمة يشغل قلوب الناس بها . وقد كافأتك على قصدك وتعبك بألف دينار ، ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب ! » ثم أمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع ، ثم جهزه وأرجعه الى بغداد (٢)

وكان بعض الامراء والسلاطين يتفاخرون بتقريب العلماء وتأليف الكتب بأسمائهم ، وخصوصا فى الاندلس بعد ذهاب دولة بنى أمية منها وقيام دول الطوائف . فانهم كانوا يقلدون الخلفاء فى حب العلم وتنشيط العلماء ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والادباء ويحب أن يشهر عنه ذلك وخصوصا عند مباديه فى الرئاسة (٣) وكانوا يتباهون أن يقال ان العالم الفلانى عند الملك الفلانى ، والشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى . وكان العلماء والشعراء يدلون عليهم ويستعزون ، وربما أبى الشاعر أن يمدح الملك الا بمال معين يشترطه سلفا والملوك يسترضونهم بما يريدون ، وقد يقترح الامير على العالم أن يؤلف كتابا باسمه فلا يرضى ولو بالمال الكثير . حكى أن أبا غالب تمام بن غالب اللغوى القرطبى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ، لما ألف كتابه فى اللغة بعث اليه أبو الجيش مجاهد العامرى ملك دانية ألف دينار ومركوبا وكساء ، على أن يجعل الكتاب المذكور باسمه فيزيد فى آخره : « هذا الكتاب مما ألفه أبو غالب لأبى الجيش مجاهد » فرد الدنانير وقال : « كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتى أجعل فى صدره اسم غيرى وأصرف الفخر له ؟ » فلما بلغ هذا مجاهدا استحسن أنفته وأضعف له العطاء وقال : « هو فى

---

(١) ابن خلكان ٣٩٦ ج ١ (*) المراد هنا المنصور محمد بن ابى عامر وزير هشام المؤيد من خلفاء بنى امية بالاندلس والغالب على دولته ، وكتاب النصوص وضعه صاعد الاندلسى ، ثم اتضح بعد ذلك انه نقله من كتب لآخرين ، وقد تتبعه الادباء وكشفوا عن حقيقته ، فأمر المنصور بالقائه فى الماء . وكان صاعد هذا صاحب دعابة ومجون يغطى بهما ما كان يدعيه من علم

(٢) ابن خلكان ٧٨ ج ٢ (٣) نفح الطيب ١٠١ ج ١

حل من أن يذكرني فيه لا نصده عن غرضه » (١) (*)

على أن بعض العلماء كانوا يؤلفون الكتب لأبنائهم واخوانهم وأصدقائهم لا يلتمسون على ذلك أجرا ، وقد يؤلفون لأنفسهم ، ومن لطيف ما جاء في مقدمة كتاب حياة الحيوان للدميري قوله : « هذا الكتاب لم يسألني أحد تأليفه »

وجملة القول أن التمدن الاسلامي كان حافلا بأهل العلم ، من قصور الخلفاء الى المساجد ومنازل الامراء والعامة الى مجالس الغناء . وكانوا يعقدون المجالس للمناظرة في العلوم على اختلافها ، وفي الآداب على تنوع وجهاتها ، وفي الشعر وغيره . وكانوا يفرضون العلم على أولادهم واخوانهم ومماليكهم وجواريهم وسراريهم . وكانوا يعلمون الجواري ويثقفونهن ويحفظونهن القرآن ويروونهن الاشعار والاخبار ويعلمونهن النحو والعروض والغناء ثم يتهادونهن . وقد كان عند زبيدة أم الامين مائة جارية يحفظن القرآن ، وكان يسمع من قصرها دوي كدوي النحل من القراءة (٢) حتى المخانيث فقد كانوا يؤدبونهم ، وكان في قرطبة في أوائل القرن الخامس للهجرة جملة من الفتيان المخانيث ممن أخذ من الادب بأوفر نصيب ولهم فيه مؤلفات (٣)

وأغرب من ذلك بذلهم الاموال للمطالعين ، فضلا عن المؤلفين ، فالملك المعظم شرف الدين عيسى الايوبي صاحب دمشق كان من رغاب الادب ، فاشترط لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة ، فحفظه جماعة كبيرة (٤) وهذه منقبة لم يسمع بمثلها

المؤلفون والمؤلفات

فلا عجب والحالة هذه اذا كثر المؤلفون وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم ، وكان منهم الملوك والامراء والوزراء والاغنياء والفقراء ، وفيهم العرب والفرس والروم واليهود والسريان والهنود والترك والديلم والقبط ، وغيرهم من الملل الخاضعة للاسلام في أنحاء العالم المتمدن يومئذ ، في الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر والهند وفي المغرب والاندلس وغيرها . وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما انتجته قريحة الانسان الى ذلك الزمان ، من الطبيعيات والالهيات والعقليات والرياضيات والنقليات . ودعت أبحاثهم

---

(١) نفح الطيب ٧٨٠ ج ٢ وابن خلكان ٩٧ ج ١

(*) روى هذه الحكاية أبو عبدالله محمد بن فتوح الحميدي في « جذوة المقتبس » (القاهرة ١٣٧١) في ترجمة أبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني المرسي ص ١٧٢ — وذكر السيوطي في «بغية الوعاة» اسم الكتاب وهو « تلقيح العين » (ص ٢٠٩)

(٢) أبو المحاسن ٦٣٢ ج ١ (٣) نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٣٩٦ ج ١

الواسعة الى تشعب العلوم وتفرعها حتى زادت على خمسمائة علم ، ذكرها طاشكبرى زاده فى مفاتيح العلوم (*) ومنهـا ما لم يكن له وجود قبل الاسلام ، كالاقتصاد السياسى ، وفلسفة التاريخ ، والموسوعات التاريخية ، والجغرافية . غير العلوم الاسلامية الخاصة بلغة العرب وآداب المسلمين

وقد تعددت مؤلفاتهم حتى أصبحت تعد بعشرات الالوف ، ويستدل على كثرتها مما بقى من خبرها الى القرن الحادى عشر للهجرة على ما فى كشف الظنون . فقـد بلغ عدد المؤلفـات المذكورة هناك ١٤٫٥٠١ غير الشروح والتعاليق ، وغير ما ضاع خبره منهـا فى النكبات المتوالية فى أثنـاء الفتن الداخلية بين الفرق الاسلامية وغيرها ، وما كان يحرقه ولاة الامر من كتب الفلسفة ومتعلقاتها ، اضطهادا لأصحابها كما سيجىء ، حتى ذهب معظم ما ترجموه أو ألفوه ولم يبق منها الا النزر اليسير

ولا ريب عندنا أن الضائع من كتب المسلمين يزيد على أضعاف الباقى . ومما يؤيد ذلك أن بعض المؤلفين القدماء ، كالمسعودى والطبرى وابن الاثير وغيرهم ، ذكروا فى مقدمات كتبهم كثيرا من أسماء المؤلفات التى نقلوا كتبهم عنها وقلما نجد أسماءها فى الفهارس

ومن المؤلفين المسلمين من بلغت مؤلفاته بضع مئات الى الالف ، فمؤلفات أبى عبيدة ٢٠٠ مؤلف فى علوم مختلفة ، ومؤلفات ابن سريج ٤٠٠ ، ومؤلفات ابن حزم ٤٠٠ مجلد ، ومؤلفات الكندى ٢٣١ ، ومؤلفات القاضى الفاضل مائة كتاب . وقس على ذلك مؤلفات كثير من العلماء فى الموضـوعات المختلفة ، كمؤلفات الرازى والسيوطى وابن سينا ، وقـد بلغت مؤلفات بعضهم ألف كتاب كعبد الملك بن حبيب عالم الاندلس (١) وقد عدت مؤلفات جمال الدين العينى الحافظ وقسمت على عمره فبلغ كل يوم تسع كراريس (٢)

ناهيك بضخامة تلك المؤلفات ، فان بعضها يتألف من عشرات المجلدات ، وخصوصا كتب التاريخ ، فكتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى أربعون مجلدا ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ثمانون مجلدا ، وتاريخ بغداد للخطيب

(*) طاشكبرى زادة هو عصام الدين ابو الخير مصطفى بن مصلح الدين المعروف بطاشكبرى زادة من أكبر علماء الاتراك الذين ألفوا بالعربية . ولد فى بروسة ١٤٩٥/٩١٠ وتوفى ١٥٦٠/٩٦٨ بعد حياة حافلة بالبحث والدرس والتأليف ، وقد راجعنا قائمة مؤلفاته الكثيرة عند بروكلمان (تاريخ الادب العربى حـ ٢ ص ٥٦٠ ـ ٥٦١) فلم نجد كتابا اسمه مفاتيح العلوم ، والاغلب أن المراد هنا كتاب « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » وهو موسوعة تتناول البحث فى ١٥٠ علما، ومنه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية (حـ ٤ ص ٢٠٠ من الطبعة الاولى من الفهارس وص ١٩١ من الطبعة الثانية) ، وقد ترجمه ابنه كمال الدين الى التركية بعنوان « موضوعات العلوم » وله مختصر يسمى « مدينة العلوم » موجود فى دار الكتب المصرية . أما « مفاتيح العلوم » فمن تأليف الخوارزمى وهو مطبوع

(١) نفح الطيب ٣٣١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٩٧ ج ١

البغدادى ١٤ مجلدا ، والاغانى عشرون مجلدا ، وابن الاثير ١٢ مجلدا ، ويقال نحو ذلك فى غير كتب الادب كشرح كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى فانه بلغ ستين مجلدا (١) وتقدير المجلد يختلف باختلاف الاحوال ، فاذا اعتبرنا تقسيم ابن الاثير والاغانى الى مجلدات رأينا المجلد عبارة عن ٢٠٠ صفحة فأكثر . ولكننا رأينا فى بعض النصوص أن تقدير المجلد عشر ورقات (٢) وربما اختلف ذلك باختلاف الموضوعات

والغالب فى المؤلفات الكبرى عندهم أن تكون من قبيل الموسوعات الحاوية فى موضوعها وما يقاربه . فمعجم ياقوت موضوعه الاصلى فى الجغرافية ، ولكنه يحوى تراجم جماعة كبيرة من علماء الاسلام وأدبائه ، والاغانى فى الغناء ولكنه يشمل فوائد ذات شأن فى تاريخ العرب وآدابهم فى الجاهلية وأوائل الاسلام ، والعقد الفريد كتاب فى الادب ، ولكن فيه فوائد كثيرة فى الشعر والعروض والاخلاق والتاريخ وغيرها ، وقس على ذلك سائر كتب التراجم أو التواريخ المطولة . ومن هذا القبيل الكتب الطبية كالقانون لابن سينا ، فانه عبارة عن قاموس جامع لفنون الطب كالتشريح والفسيولوجيا والباثولوجيا والنبات والصيدلة وغيرها ، وكذلك كتاب الرازى . وقد يجمع الكتاب الواحد موضوعات متباعدة ، ككتاب حياة الحيوان للدميرى ، فان موضوعه علم الحيوان ولكنه حوى شيئا كثيرا من التاريخ والآداب والاخلاق والطب والصيدلة والنبات ، والكشكول كتاب فى الادب والحكم ولكن فيه مقالات وفصولا فى فنون متناقضة ، كالجبر والهندسة والمنطق والنجوم والفلسفة والتاريخ والادب واللاهوت والفقه والحديث وغيرها

---

(١) نفح الطيب ٨٨٤ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٣٠ ج ٢ وطبقات الادباء ١٠٥

تأثير الاسلام في العلوم الدخيلة

لما نضج التمدن الاسلامى وانتشرت العلوم الدخيلة فى بلاد الاسلام ، عنى المسلمون بدرسها ونبغ منهم جماعة فاقوا أصحابها وأدخلوا فيها آراء جديدة ، فتنوعت وارتقت على ما اقتضاه الاسلام والآداب الاسلامية وما مازجها من علوم الامم الاخرى ، فأصبحت على شكل خاص بالتمدن الاسلامى . فلما نهض أهل أوربا الى استرجاع علوم اليونان، أخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الاسلامية . فلنبحث فيما أثره التمدن الاسلامى فى علوم التمدن القديم

١ ــ الفلسفة فى الاسلام

قرأ المسلمون الفلسفة فى كتب أفلاطون وأرسطو ، وما علقه عليها اليونان من الشروح وأضافوا اليها من الآراء ، وهى تشمل المنطق والطبيعيات والالهيات والاخلاق . فبدأ المسلمون أولا بدرس هذه الكتب ، ثم أخذوا فى شرحها أو تلخيصها ، ثم عمدوا الى الكتابة فى تلك الموضوعات من عند أنفسهم . ويندر أن يشتغل الواحد منهم فى الفلسفة دون الطب والنجوم ، أو فى الطب دون الفلسفة والنجوم ، أو بالعكس . ومن أقوال حنين : « ان الطبيب يجب أن يكون فيلسوفا » لكنهم كانوا يلقبون العالم بما غلب اشتغاله فيه

الفلاسفة المسلمون فى الشرق :

وأكبر فلاسفة المسلمين وأشهرهم وأسبقهم يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندى ، وهو عربى الاصل دون سواه من الفلاسفة ، ويتصل نسبه بملوك كندة ولذلك سموه فيلسوف العرب . فبعد أن كان العرب فى صدر الاسلام يستنكفون من الاشتغال بالعلوم حتى الاسلامية ، وبعد أن عملوا على ابادة ما عثروا عليه من علوم الاقدمين فى مصر وفارس ، أصبحوا لايستنكفون من الاشتغال حتى بالعلوم الفلسفية الدخيلة . وأول من اشتغل بها منهم أبناء ملوكهم . كان الكندى معاصرا للمأمون والمعتصم الى المتوكل ، وكانت له عندهم منزلة سامية ، وقد برع فى الطب والفلسفة والحساب والمنطق والالحان والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم، وقد نبغ وليس فى المسلمين فيلسوف غيره ، وحذا فى تآليفه حذو أرسطوطاليس ، وله ترجمات عديدة

نقلها لنفسه ، وكان يعد من حذاق التراجمة ولم يذكر بينهم لأنه لم يرتزق بالترجمة . وقد ألف الكندى فى معظم العلوم الدخيلة كتبا كثيرة ، ذكرها صاحب الفهرست واليك عددها باعتبار العلوم :

فى الفلسفة	٢٢	كتاباً	فى الطبيعيات الخ	٣٣	كتاباً
« الحساب	١١	«	« الكريات	٨	كتب
« النجوم	١٩	«	« المنطق	٩	«
« الهندسة	٢٣	«	« الموسيقى	٧	«
« الفلكيات	١٦	«	« الأحكام	١٠	«
« الطب	٢٢	«	« النفس	٥	«
« الجدل	١٧	«	« الأبعاد	٨	«
« السياسة	١٢	«	« تقدمة المعرفة	٥	«
« الأحداث	١٤	«	المجموع كله	٢٣١	كتاباً (*)

وأكثر هذه الكتب قد ضاع . ويتضح من مراجعة أسمائها أن الرجل كان كثير التضلع فى هذه العلوم ، حتى انتقد أصحابها وخطأهم . وللكندى تلامذة حذوا حذوه

ويليه أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ ، أصله من فاراب ببلاد الترك لكنه فارسى المنتسب (١) وقد نشأ فى الشام واشتغل فيها ، وكان فيلسوفا كاملا درس كل ما درسه الكندى من العلوم ، وفاقه فى كثير منها وخصوصا فى المنطق ، وتعمق فى الفلسفة والتحليل وأنحاء التعاليم ، وأفاد التعليم وجوه الانتفاع بها ، وألف كتبا فى موضوعات لم يسبقه أحد اليها ، ككتابه « فى احصاء العلوم والتعريف بأغراضها » وهو أشبه بقاموس علمى على شكل موسوعات العلوم لم يذهب مذهبه فيه أحد قبله ، وكتاب « السياسة المدنية » وهو الاقتصاد السياسى الذى يزعم أهل التمدن الحديث أنه من مخترعاتهم ، وقد كتب فيه الفارابى منذ ألف سنة ، ثم كتب فيه ابن‌خلدون فى مقدمته . وبرع الفارابى خصوصا فى علم الموسيقى حتى أصبح لايضاهيه فيه أحد ، واخترع القانون كما سيأتى فى باب الموسيقى ، وأصلح ما بقى من

(*) أخذ المؤلف هذه القائمة من الفهرست لابن النديم . وقد أورد الكتب بأسمائها (ص٢٥٧ وما بعدها) وقد وردت كتبه فى الاحكام عند ابن النديم تحت عبارة « كتبه الاحكاميات » ،والاحكام هى فرع من الفلسفة ، وكذلك وردت كتبه فى الاحداث تحت عنوان « كتبه الاحداثيات » ، والاحداث علم يبحث فى العلل والمعلولات وأهم أبوابه علل الكون والفساد ، وكتب تقدمة المعرفة وردت تحت عنوان « كتبه التقدميات » ، واسقط له المؤلف كتبا أخرى كثيرة

وقد نشر الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريده « رسائل الكندى الفلسفية » فى مجلدين فى القاهرة ، وقدم لها بمقدمة ضافية عن الكندى

(١) طبقات الاطباء ١٣٤ ج ٢

الترجمات غير مصلح فسموه المعلم الثانى (١) (*)

وممن غلبت عليه الفلسفة من علماء المسلمين الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ، وله من المؤلفات نحو مائة كتاب منها ٢٦ فى الفلسفة فقط (**) ومنهم أبو حامد الغزالى الملقب حجة الاسلام المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، وهو امام التصوف . غير الذين ظهروا فى الاندلس، وسيأتى ذكرهم. على أن الافاضة فى ذكر الفلاسفة ومؤلفاتهم وآرائهم من متعلقات « تاريخ آداب اللغة » ، فنقتصر هنا على تاريخ الفلسفة فى الاسلام وما كان من تأثيرها فى الدين والعلم

أهم ما كان من تأثير الفلسفة فى الاسلام انهم بنوا عليها علم الكلام وأيدوه بها ، لتقوى حجتهم فيما قام بينهم من المجادلات المذهبية. واشتهر علم الكلام فى المسلمين وعكفوا على درسه ، وخصوصا المعتزلة ، واشتهر به جماعة من علية القوم ، وفى جملتهم الشريف المرتضى والزمخشرى والباقلانى وغيرهم

وأما الفلسفة فى حد ذاتها فقد كان أصحابها متهمين بالكفر ، وكان الانتساب اليها مرادفا للانتساب الى التعطيل ، ومن أقوالهم : « كان فلان ـ سامحه الله ـ يتهم بدينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه » (٢) وقد شاع ذلك فى بغداد بين العامة ، حتى فى أيام المأمون ، ولذلك سماه بعضهم أمير الكافرين (٣) ولكنهم لم يكونوا يتظاهرون بذلك ، حتى ذهب عصر المأمون والمعتصم والواثق ، وتولى المتوكل فأصبح مريدو الفلسفة يتجنبون الظهور بها ، أو ينكرونها وهم كلفون بها ، فكانوا يشتغلون فيها سرا فألفوا الجمعيات السرية لهذه الغاية

---

(١) كشف الظنون ٤٤٨ ج ١

(*) كان الفارابى يعتبر اكبر فلاسفة الاسلام قبل ابن سينا ، حتى ظهر ان الكندى لا يقل عنه . اسمه الكامل محمد بن محمد بن طرخان ابو نصر الفارابى المتوفى ٩٥٠/٣٣٩ . انظر قائمة مؤلفاته عند بروكلمان : تاريخ الادب العربى ١/٢١٠ـ٢١٣ وكذلك أورد ماكس هورتن قائمة لهذه المؤلفات فى :

M. Horten, Das Buch der Ringsteine Farabis mit dem Kommentar des Emirs Ismail el Hoseini el Farabi (um 1845) uebersetzt und erlautert

وهو جزء من مجموعة Beitraege zur Geschichte der Philosophie des Mittelalters. Band V, heft 3, Munster 1906

وقد درس الفارابى ومؤلفاته الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، وتحدث عن كتابه المسمى « المدينة الفاضلة » الاستاذ محمد شفيق غربال فى كتاب « المدينة الفاضلة » القاهرة ١٩٥٥

(**) نشر الاب قنواتى بيانا كاملا بمؤلفات ابن سينا فى كتابه « مؤلفات ابن سينا » من منشورات العيد الالفى لابن سينا . القاهرة ١٩٥١

(٢) ابن خلكان ١٣٤ ج ٢ (٣) اليعقوبى ٥٤٦

جمعية اخوان الصفا

ومن جمعياتهم السرية الفلسفية جمعية اخوان الصفا ، تألفت فى بغداد فى أواسط القرن الرابع للهجرة ، ذكروا من أعضائها خمسة هم : ابو سليمان محمد بن معشر البستى ويعرف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، وأبو أحمد المهرجانى ، والعوفى ، وزيد بن رفاعة (١) وكانوا يجتمعون سرا ويتباحثون فى الفلسفة على أنواعها ، حتى صار لهم فيها مذهب خاص ، هو خلاصة أبحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند ، وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام . واساس مذهبهم أن الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وأنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال

وقد دونوا فلسفتهم هذه فى خمسين رسالة سموها رسائل اخوان الصفا ، وكتموا أسماءهم . وهى تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه فى ابان نضجها ، وتشمل : النظر فى مبادىء الموجودات ، وأصول الكائنات الى نضد العالم ، فالهيولى والصورة ، وماهية الطبيعة ، والارض والسماء ووجه الارض وتغيراته ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، والسماء والعالم ، وعلم النجوم ، وتكوين المعادن ، وعلم النبات ، وأوصاف الحيوانات ، ومسقط النطفة وكيفية رباط النفس بها ، وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والصنائع العلمية والعملية ، والعدد وخواصه ، والهندسة ، والموسيقى ، والمنطق وفروعه ، واختلاف الاخلاق ، وطبيعة العدد ، وأن العالم انسان كبير والانسان عالم صغير ، والاكوار والادوار ، وماهية العشق ، والبعث والنشور ، وأجناس الحركات ، والعلل والمعلولات ، والحدود والرسوم .. وبالجملة فقد ضمنوها كل علم طبيعى أو رياضى أو فلسفى أو الهى أو عقلى . وبين أيدينا خلاصة هذه الرسائل مطبوعة فى ليبسك بعناية الدكتور ديتريشى فى نحو ٦٥٠ صفحة كبيرة . ويظهر من امعان النظر فيها أن أصحابها كتبوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل . وفى جملة ذلك آراء لم يصل أهل هذا الزمان الى أحسن منها . وفى ذيل الكتاب فصل فى كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والشفقة ، وأن الغرض منها التعاضد فى الدين . وذكروا شروط قبول الاخوان فيها وغير ذلك

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سرا الى بلاد الاسلام ، ولم تمض مائة سنة على كتابتها حتى

---

(١) تراجم الحكماء (خط)

دخلت الاندلس على يد أبي الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى وهو من أهل قرطبة ، رحل الى المشرق للتبحر فى العلم على جارى عادة الاندلسيين. فلما عاد الى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة وهو أول من أدخلها الاندلس (١) فما لبث أن انتشرت هناك حتى تناولها أصحاب العقول الباحثة واخذوا فى درسها وتدبرها (*)

فلاسفة الاندلس

وكانت الفلسفة قد دخلت الاندلس فى أيام عبد الرحمن الاوسط كما تقدم، وقد أخذ الاندلسيون بشيء منها ، وظهر فيهم جماعة اشتهروا بعلوم الاوائل والنجوم ، وأولهم أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة (٢) توفى فى أواخر القرن الثالث للهجرة . ثم يحيى بن يحيى القرطبى المعروف بابن السمينة المتوفى سنة ٣١٥ هـ ، وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرجيطى أو المجريطى من أهل قرطبة ، كان امام الرياضيين فى عصره بالاندلس توفى سنة ٣٩٨ هـ ، وأنجب تلامذة جلة ، أشهرهم ابن السمح المهندس الغرناطى ، وابن الصفار أستاذ الرياضيات فى قرطبة ، والزهراوى صاحب كتاب الاركان فى المعاملات على طريق البرهان ، وأبو الحكم عمرو الكرمانى المتقدم ذكره ، فانه رحل الى المشرق حتى نزل حران وتعلم فيها الهندسة والطب ، ثم رجع برسائل اخوان الصفا الى الاندلس وتوفى فى سرقسطة سنة ٤٥٨ هـ .

على أن هؤلاء انما اقتصروا من علوم الاوائل على الرياضيات والنجوم

---

(١) طبقات الاطباء ٤٠ ج ٢

(*) يغلب على الظن أن اخوان الصفاء كانوا جماعة سياسية دينية ترمى الى أهداف سياسية معينة من وراء ستار ، فان الاتجاه الغالب على رسائلهم اتجاه شيعى ، بل اسماعيلى . وقد كان مركزهم البصرة ، ويرجح ان رسائلهم كتبت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، التاسع الميلادى (ربما تكون قد كتبت سنة ٩٨٣/٣٧٣) ودراساتهم لا تبلغ كلها مبلغا عظيما من الجودة والدقة ، اذ فيها رسائل هى اقرب الى الشعبذة منها الى العلم الصحيح ، ككلامهم عن العدد والارقام . وكلامهم عن الفلسفة لا يدل على تمكن ، وهم يفضلون فيثاغورس وهرمس وسقراط وافلاطون على أرسطو مما يدل على عدم اطلاعهم الكامل على كتابات الكندى ، وهم لا يشيرون اليه باسمه بل يشيرون الى تلميذه أبى معشر ، ومحور عقيدتهم الفلسفية هو القول بالاصل الالهى للنفس وعودتها الى الله بعد الممات ، وان الكون صدر عن الله كما يصدر الكلام عن المتكلم وكما يصدر النور عن الشمس . وقد درس كتاباتهم وآراءهم الاستاذ أحمد امين فى « ضحى الاسلام »

وانظر ايضا :

« تاريخ الفلسفة فى الاسلام » لدى بور ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة
بروكلمان : تاريخ الادب العربى ٢١٤/١

Goldziher, Ueber die Benennung der Ichwan al Safa, Der Islam I, 22-26
Louis Massignon, Sur la date de la composition des Rasail Ikhwan al-Safa. Der Islam IV, 324

وقد طبعت الرسائل فى أوربا ، قام على نشرها ديتريشى ، وطبعت فى بمباى وفى القاهرة

والهندسة ونحوها ، أما الفلسفة بمعناها الحقيقى فلم يعن أهل الاندلس بها الا بعد دخول رسائل اخوان الصفا ، وكان المستنصر بن الناصر قد استجلب كتب الفلسفة من المشرق فتداولها الناس ، ولكنهم لم ينبغوا فيها الا بعد مطالعة تلك الرسائل . فنبغ أبو بكر بن باجة الفيلسوف الاندلسى الشهير المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ، ويعرف بابن الصائغ ، ومن تلاميذه القاضى أبو الوليد ابن رشد الفيلسوف القرطبى المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ، ونبغ أيضا ابن الطفيل وابن هود وغيرهما ، وقد ألفوا المؤلفات الضافية فى فروع الفلسفة مما اتخذه الافرنج قاعدة لفلسفتهم فى أوائل نهضتهم (*)

على أن أولئك الفلاسفة كانوا عرضة لاحتقار العامة ، شأنهم فى مثل هذه الحال فى سائر العصور . وكان الملوك يسايرون العامة فى ذلك رغبة فى استرضائهم لتوطيدسلطانهم ، فما من ملك الا نقم على الفلاسفة واضطهدهم . ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل نقمة المنصور بن أبى عامر صاحب الاندلس ، فى أواخر القرن السادس للهجرة ، فانه اضطهد الفلاسفة ونفاهم ، وفى جملتهم ابن رشد وأبوجعفر الذهبى وأبوعبد الله قاضى بجاية وغيرهم (١) وعزم أن لايترك شيئا من كتب المنطق والحكمة فى بلاده ، فأمر باحراقها فى النار وشدد النكير على المشتغلين بها ، وأصبح العامة كلما قيل فلان يشتغل فى الفلسفة أو التنجيم أطلقوا عليه اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه ، فان زل فى شبهة رجموه بالحجارة أوأحرقوه (**) . أما الخاصة فكانوا يدرسون الفلسفة سرا ، وربما أمر السلطان بقتل بعض الفلاسفة تقربا من قلوب العامة ، ويكون هو نفسه يحبها (٢)

(*) درسنا تاريخ الفلسفة وأعلامها فى الاندلس فى كتاب « الفكر الاندلسى » الذى ترجمناه الى العربية ونشرناه فى القاهرة سنة ١٩٥٥ فليرجع اليه من يريد التوسع فى الموضوع ، ص٢٢١ وما يليها . وقد كتب المرحوم جرجى زيدان هذا الكلام والفلسفة فى الاندلس لم تدرس بعد ، ولهذا فاننا ننصح بالرجوع الى ذلك الكتاب ، وحسبنا هنا ان ننبه الى ما يلى :

١ ـ ان أول من اشتهر بعلوم الاوائل والنجوم لم يكن ابا عبيدة مسلم بن احمد المعروف بصاحب القبلة ، بل احمد بن عبد الله الحبيبى وابو وهب عبد العلى بن وهب القرطبى وخليل ابن عبد الملك المعروف بخليل الغفلة . وأول فيلسوف اندلسى جدير بهذا الاسم هو محمد بن مسرة (٨٨٣/٢٦٩ ـ ٩٣١/٣١٨) وكان ذا اتجاه افلاطونى حديث كان بعيد الاثر فى آراء محيى الدين بن عربى

٢ ـ ان أثر رسائل اخوان الصفاء فى الاندلس لم يبلغ هذا المبلغ ، ولا نستطيع القول بأن ابن باجة تأثر بها

٣ ـ اننا لم نجد بين فلاسفة الاندلس من يسمى ابن هود

(١) طبقات الاطباء ٧٦ ج ٢

(**) عرض هذه الناحية عرضا طيبا أبو الحجاج يوسف بن طملوس (١١٦٤/٥٥٩ ـ ١١٢٣/٦٢٠) فى مقدمته لكتابه « المدخل الى صناعة المنطق » (نشره آسين بلاثيوس ، مدريد ١٩١٦) وقد أتينا بفقرات من تلك المقدمة فى كتاب تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ٣٦٣ ومابعدها

(٢) نفح الطيب ١٠٤

٢ ـ الطب فى الاسلام

الطب الاسلامى :

الطب الاسلامى خلاصة ما بلغ اليه علم الطب عند الأمم المتمدنة قبل الاسلام . لأن المسلمين نقلوا الى لسانهم كتب أبقراط وجالينوس وغيرهما من أطباء اليونان ، واطلعوا على ما كان عند السريان من الطب اليونانى الممزوج ببقايا طب الكلدان القدماء ، ونقل اليهم أطباء مدرسة جنديسابور طب اليونان بصبغته الفارسية ، واطلعوا على طب الهنود ممن جاءوا بغداد من أطبائهم ، غير ما كان عند العرب فى أيام الجاهلية وتنوقل فى الاسلام . ومن تفاعل هذه العناصر وتمازجها تألف الطب الاسلامى ، الذى تمثل بعد نضج العلم فى الكتاب الملكى (أو الملوكى) لأبى بكر الرازى الملقب جالينوس العرب ، الفه للملك عضد الدولة بن بويه ، وجمع فيه كل ما وجده متفرقا من ذكر الامراض ومداواتها فى كتب القدماء الى زمانه فى أواسط القرن الرابع للهجرة ، وللرازى من كتب الطب والفلسفة وغيرهما شىء كثير . وما زال الناس يعولون على الكتاب الملوكى حتى ظهر القانون لابن سينا ، وهو منشور ومشهور الى اليوم ، واذا قلبت صفحاته علمت أنه قاموس فى الطب والصيدلة ، وقد جمع خلاصة أبحاث اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب فى الامراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها. وليس هو طب اليونان فقط كما توهم البعض ، لأنك تقرأ فى أماكن كثيرة منه تفصيلا لآراء الهنود وانتقادها واستحسانها . ومما ذكره من طبهم مثلا انهم وصفوا أنواع العلق واشكاله وخصائص كل منها (١) ومن آرائهم أن أكل اللبن مع الحوامض أو مع السمك يورث أمراضا منها الجذام . وقولهم أن لايؤكل ماست مع الفجل ولا مع لحوم الطير ولا سويق على أرز بلبن أو نحو ذلك (٢) ناهيك بالعقاقير الهندية التى تدل أسماؤها على أصلها (*)

ومن الكتب الطبية الاسلامية التى استفاد منها الافرنج فى نهضتهم الاخيرة كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى الاندلسى من أهل القرن الخامس للهجرة ، وهو قاموس فى الطب

---

(١) القانون ١٠٧ ج ١ (٢) القانون ٨٤ ج ١

(*) لم أجد هذه الفقرة فى ص ٨٤ وانما فى ص ١٦٨ ، وهاك النص : « وقد قال أصحاب التجارب من اهل الهند وغيرهم انه لا ينبغى ان يؤكل لبن مع الحموضات ولاسمك مع لبن ، فانهما يورثان أمراضاً مزمنة منها الجذام ، وقالوا أيضا : لا يؤكل ماش مع الجبن ولا مع لحوم الطير ولا سويق على ارز بلبن .. »

ولم أجد تفسيرا للماش المذكور ، وربما كانت قراءة المؤلف « ماست » اصح

وهذا الفصل كله من قانون ابن سينا عظيم الاهمية ، وعنوانه « فى تدبير المأكول » ح١ص١٦٣ وما بعدها

ويمتاز عن سواه بالقسم الجراحى (*) ، وكتـاب التيسير لعبد الملك بن زهر الاندلسى ألفه لابن رشد الفيلسوف فى أواسط القرن السادس للهجرة .
وأطباء المسلمين كثيرون ، وكتبهم كثيرة لا محل لذكرها هنا

الاطباء المسلمون :

ولو أحصينا الاطباء المسلمين الذين نبغوا بعد ترجمة الكتب الطبية الى انقضاء النهضة العباسية وابتداء عصر التقهقر ، أى فى أثناء ثلاثة أو أربعة قرون ، لزاد عدد المؤلفين منهم ممن بلغت الينا أسماؤهم على بضع مئات ، وأكثرهم اشتغلوا بسائر العلوم الدخيلة وألفوا الكتب العديدة ، وترى ذلك مفصلا فى طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة ، وتراجم الحكماء لابن القفطى ، وكتاب كشف الظنون وغيرها . أما عدد الاطباء على الاطلاق فمما لايمكن حصره لضياع ذلك مع الزمان ، وانما يستدل من بعض القرائن أنه كان كثيرا جدا . فقد أحصوا أطباء بغداد وحدها فى زمن المقتدر بالله فى أول القرن الرابع للهجرة فبلغ ٨٦٠ طبيبا احتاجوا الىالامتحان لنيلالاذن فى التطبيب ، سوى من استغنى عن الامتحان لشهرته وسوى من كان فى خدمة الخليفة (١) فلا يمكن أن يكون مجمـوع ذلك كله أقـل من الف طبيب متعاصرين فى مدينة واحدة . وبلغ عدد أطباء النصارى فقط فى خدمة المتوكل بأواسط القرن الثالث للهجرة ٥٦ طبيبا (٢) . وكان سيف الدولة اذا جلس علىالمائدة حضر معه ٢٤ طبيبا ، ومنهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم (٣)

وكان للأطباء عندهم نظام وعليهم رئيس يمتحنهم ويجيز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب ، وأشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت فى بغداد ومهذب الدين الدخوار فى مصر . ويقال نحو ذلك فى الصيادلة ، فقد كانوا كثارا وتفشى الغش فى الأدوية حتى اضطر أولو الأمر الىامتحانهم واعطاء الاجازات أو المنشورات الى الذين يحسنون الصناعة ونفى الآخرين . وأول من فعل ذلك الافشين فى بغداد ، فقد وكلّ زكريا بن الطيفورى به فى حديث يطول ذكره (٤) وكان من الاطباء أو الصيادلة من هو خاص بالجند يرافقه فى أسفاره ومنهم من هو خاص بالخلفاء والأمراء ، ولهؤلاء رواتب خاصـة ويعرفون بالمرتزقين . ومنهم من يطببون العامة وهم غير مرتزقين

(*) نشر القسم الجراحى من كتاب الزهراوى Channing فى اكسفورد فى القـرن الثامن عشر ونشر صور الآلات الجراحية كما رسمها الزهراوى

(١) طبقات الاطباء ٢٢٢ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٩٢ ج ١

(٣) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢ (٤) أبو الفرج ٢٤٤

وكان الاطباء طبقات وأصنافا ، وفيهم الطبيب على اجماله والجراح والفاصد والكحال والاسنانى، ومن يعالج النساء والمحاظى فقط أو يطبب المجانين فقط . على نحو الاطباء الاخصائيين فى هذه الايام . وكان الكحالون فى مصر أكثر منهم فى سواها لتعرضهم لامراض العين ، وكانوا يعالجون الماء الازرق بقدح العين على نحو عملية الكتركتا اليوم

ونبغ جماعة من النساء اشتهرن بصناعة الطب ، منهن أخت الحفيد بن زهر الاندلسى وابنتها ، فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان على نساء المنصور الاندلسى وأهله ولا يقبل المنصور سواهما (١) واشتهر فى أيام بنى أمية بالشام امرأة اسمها زينب طبيبة بنى أود ، كانت عالمة بالاعمال الطبية ومداواة العين بالجراحة (٢) فضلا عمن اشتهر منهن بالعلم والادب ، كشهدة الدينورية وبنت دهين اللوز الدمشقية وغيرهما

وكان الفحص الطبى عندهم قاصرا على فحص البول وجس النبض . فيأتى المريض ومعه قارورة الماء ، أى زجاجة البول ، فيسلمها الى الطبيب فينظر فيها ثم يذوقها ، ليتحقق وجود الحوامض أو القوابض أو السكر فيها ، ثم يجس النبض وعند ذلك يحكم فى حال المريض ، لاعتقادهم أن النبض يدل على مزاج القلب ، والبول على مزاج الكبد وحال الاخلاط . ومهما يكن من اعتقادهم فان هذه الطريقة لا تزال مما يعول عليه الاطباء الى اليوم

ما الذى احدثه المسلمون فى الطب :

بقى علينا النظر فيما أحدثه المسلمون فى الطب من الاختراعات الجديدة أو الآراء المبتكرة ، والحكم فى ذلك يستلزم درسا طويلا لايسعه هذا المكان . على أننا نقول بالاختصار أن المسلمين جمعوا بين طب اليونان والفرس والهنود والكلدان والعرب كما تقدم ، واضافوا الى ذلك كثيرا من نتائج اختبارهم فى هذه الصناعة ، كما يظهر من مراجعة كتبهم الطبية ، فانهم كثيرا ما يذكرون رأى جالينوس أو أبقراط مثلا وينتقدونه ويبينون وجه الخطأ وصوابه (٣) . فضلا عما أدخلوه من الترتيب والتبويب فى الكتب التى ترجموها ، كما فعل ابن أبى الاشعث بكتب جالينوس ، فانه رتبها وبوبها

(١) طبقات الاطباء ٧٠ ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ١٢٣ ج ١
(٣) القانون ٢١ ج ٣

وفصلها تسهيلا لمطالعتها (١) غير ما أحدثوه من الشروح والذيول لكتب القدماء . ففى ذيل ابن جلجل على كتاب ديسقوريدس عقاقير لم يعرفها القدماء

أما ما أحدثوه من عند أنفسهم رأسا فالاحاطة به من الامور الشاقة التى يعسر تحقيقها ، فنذكر ما ثبت عندنا حدوثه على سبيل المثال . من ذلك أنهم أحدثوا فى الطب آراء جديدة تخالف آراء القدماء فى تدبير الامراض ، وان لم يصلنا الا خبر القليل منها ، مثل نقلهم تدبير أكثر الامراض التى كانت تعالج قديما بالأدوية الحارة (على اصطلاحهم) الى التدبير البارد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ، وذلك على غير ما سطره القدماء . وأول من فطن لهذه الطريقة ونبه عليها وأخذ المرضى بالمداواة بها الشيخ أبو منصور صاعد بن بشر الطبيب فى بغداد ، فانه أخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنعهم من الغذاء ، فأنجح تدبيره فعينوه رئيسا للمارستان العضدى ، فرفع منه المعاجين الحارة والأدوية الحارة ، ونقل تدبير المرض الى ماء الشعير ومياه البزور ، فأظهر فى المداواة عجائب فاقتدى به سائر الاطباء بعده (٢)

والعرب أول من استخدم المرقد (٣) « البنج » فى الطب ، يقال انهم استخدموا له الزوان أو الشيلم ، وهم أول من استخدم الخلال المعروف عند الاطباء

وقد وجد محققو الافرنج ان العرب أول من استخدم الكاويات فى الجراحة على نحو استخدامها اليوم ، وأنهم أول من وجه الفكر الى شكل الاظافر فى المصدورين ، ووصفوا علاج اليرقان والهواء الاصفر ، واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ، ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف ، وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة فى الجراحة برد المقاومة الفجائى ، ووصفوا ابرة الماء الازرق وهو قدح العين ، وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة (*)

وقد ألف العرب فى بعض فروع الطب ما لم يسبق أحد الى مثله . فالجذام أول من كتب فيه أطباؤهم ، وأول كتاب فى هذا الموضوع ليوحنا بن ماسويه وهم أول من وصف الحصبة والجدرى بكتاب لأبى بكر الرازى ، غير ما ألفوه من الموسوعات الضافية فى الطب

---

(١) طبقات الاطباء ٢٤٦ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ٢٣٢ ج ١

(٣) ابن خلكان ٣١٢ ج ١ والانسكلوبيديا (*) انظر عن ذلك كله

Wuestenfeld, Geschichte der Arabischen Aerzte und Natur- forscher. Gottingen, 1840.

Lucien Leclerc, Histoire de la Médecine Arabe و

الصيدلة والكيمياء والنبات :

ومن فروع الطب الصيدلة ، وللعرب فضل كبير فيها . فقد بذلوا الجهد فى استجلاب العقاقير من الهند وغيرها . بدأوا بذلك من أيام يحيى بن خالد البرمكى كما تقدم ، ثم نبغ منهم الاطباء والصيادلة ، ووجهوا عنايتهم الى درس العقاقير ، وقد نقلوا كتبا فيها من الهندية واليونانية ثم اشتغلوا هم أنفسهم فى جمعها . وقد عنى الافرنج بعد نهضتهم الاخيرة بدرس تاريخ فن الصيدلة ، فتحققوا أن العرب هم واضعو أسس هـذا الفن ، وهم أول من اشتغل فى تحضير الأدوية أو العقاقير ، فضلا عما استنبطوه من الأدوية الجديدة . وانهم أول من ألف الاقرباذين على الصورة التى وصلت الينا (١) وظل العرب فى النهضة العباسية يعتمدون فى المارستان ودكاكين الصيادلة على أقرباذين ألفه سابور بن سهل المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، حتى ظهر أقرباذين أمين الدولة بن التلميذ المتوفى فى بغداد سنة ٥٦٠ هـ . وهم أول من أنشأ حوانيت الصيدلة على هذه الصورة . ومن اقرب الشواهد على ذلك أسماء العقاقير التى أخذها الافرنج عن العرب ، ولا تزال عندهم بأسمائها العربية أو الفارسية أو الهندية كما أخذوها عن العربية (٢)

على أن تقدمهم فى الصيدلة تابع لتقدمهم فى الكيمياء والنبات ، ولا خلاف فى أن العرب هم الذين أسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم . وقد تقدم أن أول من اشتغل فى نقلها الى العربية خالد بن يزيد ، نقلها عن مدرسة الاسكندرية ، وعنه أخذ جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٠ هـ ، وبعده جابر بن حيان ، ثم الكندى ، فأبو بكر الرازى وغيرهم ، فاكتشفوا كثيرا من المركبات الكيماوية التى بنيت عليها الكيمياء الحديثة . وقد ذكر محققو الافرنج أن العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة (الحامض النتريك) ، وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك) ، وماء الذهب (الحامض النيتروهيدرو كلوريك) ، واكتشفوا البوتاسا ، وروح النشادر ، وملحه ، وحجر جهنم (نترات الفضة) ، والسليمانى (كلوريد الزئبق) ، والراسب الاحمر (اكسيد الزئبق) ، وملح الطرطير ، وملح البارود (نترات البوتاسا) ، والزاج الاخضر (كبريتات الحديد) ، والكحول ، والقلى ، والزرنيخ ، والبورق ، وغير ذلك من المركبات والمكتشفات التى لم يصل الينا خبرها . على أننا نستدل على وجود بعض المركبات الكيماوية فى أيامهم ، مما لم نسمع له بمثيل فى تاريخ الكيمياء قبل أواخر القرن الماضى (*) . فقد أشار ابن الاثير الى أدوية استخدمها العرب فى واقعة الزنج سنة ٢٦٩ هـ ، اذا طلى بها

---

(١) طبقات الاطباء ١٨٣ ج ١ (٢) Encyclopaedia Brit. art. « Medicine »

(*) انظر : الدكتور أحمد عيسى : تاريخ النبات عند العرب ، القاهرة ١٩٤٤

الخشب امتنع احتراقه (١) ولم يذكر ما هى . ومما يعد من قبيل الكيمياء أيضا البارود ، فقد ترجح لنا بالبحث أنهم هم الذين ركبوه (٢) وهم أول من وصف التقطير ، والترشيح ، والتصعيد ، والتبلور ، والتذويب . وقد ألفوا فى ابطال الكيمياء القديمة ــ أول من ألف ذلك منهم حكيمهم وفيلسوفهم يعقوب الكندى فى أواسط القرن الثالث للهجرة (٣)

وأما النبات فللعرب القدح المعلى فى درسه والتأليف فيه ، وقد أخذوا هذا العلم فى النهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهند . نقل كتاب ديسقوريدس فى أيام المتوكل ، نقله اصطفان بن باسيل من اليونانية الى العربية ، فالعقاقير التى لم يعرف لها أسماء فى العربية تركها على لفظها اليونانى اتكالا على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره . وحمل هذا الكتاب الى الاندلس على هذه الصورة ، فانتفع به الناس الى أيام الناصر صاحب الاندلس فى أواسط القرن الرابع للهجرة . فكاتبه ملك القسطنطينية سنة ٣٣٧ هـ وهاداه بكتب من جملتها كتاب ديسقوريدس باليونانية « مصور الحشائش » بالتصوير الرومى العجيب ، ولم يكن فى الاندلس من يحسن اليونانية ، فبعث الناصر الى الملك يطلب اليه رجلا يعرف اليونانيــة واللاتينيــة لينقله الى اللاتينيــة ، وعارفو هــذه اللغة فى الاندلس كثيرون . فبعث اليه راهبـا اسمه نقولا وصــل قرطبة سنة ٣٤٠ هـ ، فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل تعريبــه من عقاقير هذا الكتاب ، ثم جاء ابن جلجل فى آخر القرن الرابع فألف كتابا فيما فات ديسقوريدس ذكره من أسماء العقاقير والأدوية وجعله ذيلا على ذلك الكتاب

حتى اذا نبغ ابن البيطار المالقى النباتى فى أواسط القرن السابع للهجرة ، تناول الكتاب المذكور فدرسه وتفهمه ، ثم سافر الى بلاد اليونان ، والى أقصى بلاد الروم ، ولقى جماعة يعانون هذا الفن ، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه فى مواضعه ، واجتمع أيضا فى المغرب وغيره بكثير من علمـاء النبات وعاين منابته بنفسه ، وذهب الى الشام ودرس نباتها ، وجاء الديار المصرية فى خدمة الملك الكامل الأيوبى ، وكان يعتمد عليه فى الأدوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيسا على العشابين وأصحاب البسطات . وبعــد طول ذلك الاختبار ألف كتابه فى النبات ، وهو فريد فى بابه (٤) وكان عليــه معول أهل أوربا فى نهضتهم الاخيرة

---

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٧ (٢) الهلال ، السنة العاشرة صفحة ٨٧
(٣) كشف الظنون ٣٤١ ج ٢ (٤) طبقات الاطباء ٣٣ ج ٢

ومن المبرزين فى علم النبات رشيد الدين بن الصورى المتوفى سنة ٦٣٩ هـ صاحب كتاب « الأدوية المفردة » ، وكان كثير البحث والتدقيق يخرج لدرس الحشائش فى منابتها ، ويستصحب مصورا معه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ، ويتوجه الى المواضع التى بها النبات فى لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأعضائه وأصوله ويصور بحسبها بالدقة (١) وذلك غاية ما يفعله الباحثون فى هذا العلم اليوم

المارستانات فى الاسلام :

المارستان أو البيمارستان لفظ فارسى معناه مكان المرضى ويقابله اليوم المستشفى ، ولكن المارستانات كانت فى التمدن الاسلامى تشمل مدارس الطب والمستشفيات معا ، لأنهم كانوا يعلمون الطب فيها . والعرب أخذوا المارستانات عن الفرس وانشأوها على مثال مارستان جنديسابور المتقدم ذكره

وأول من أنشأ المارستانات فى الاسلام الوليد بن عبد الملك الاموى ، أنشأ مارستانا بدمشق سنة ٨٨ هـ جعل فيه الاطباء وأمر بحبس المجذومين وأجرى لهم الارزاق (٢) فانقضت الدولة الاموية وليس فى الاسلام غير هذا المارستان ، فلما حكم العباسيون كان المنصور أول من استقدم الاطباء من مارستان جنديسابور كما رأيت ، ولم ينشىء مارستانا ولكنه أنشأ دارا للعميان والايتام والقواعد من النساء (٣) وأنشأ هو أو من خلفه دورا لمعالجة المجانين (٤)

وأول من أنشأ المارستانات فى الدولة العباسية الرشيد ، فانه لما رأى مهارة القادمين عليه من أطباء مارستان جنديسابور ، أراد أن يكون لبغداد مثل ذلك ، فأمر طبيبه جبرائيل بن بختيشوع بانشاء المارستان فى بغداد . وكان رئيس مارستان جنديسابور يومئذ طبيبا هنديا اسمه دهشتك ، فبعث اليه ليقلده مارستان بغداد فاعتذر ودله على ماسويه فولاه اياه ، ثم تولاه ابنه يوحنا بن ماسويه (٥) وكان البرامكة أهل علم ولهم رغبة فى طب الهند وأطبائه كما رأيت ، فأنشأوا مارستانا باسمهم وولوا عليه طبيبا هنديا اسمه ابن دهن ، وهو ممن نقل الى العربية من اللسان الهندى رأسا (٦)

ولما اشتهر مارستان بغداد أخذت المدن الاخرى فى تقليدها كما قلدتها فى سائر أسباب ذلك التمدن ، وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل قد أنشأ فى مصر مارستانا عرف بمارستان المغافر ، فلما تولاها ابن طولون أنشأ فيها

(١) طبقات الاطباء ٢١٩ ج ٢ (٢) المقريزى ٤٠٥ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٤٩٥ ج ١
(٤) الكشكول ٢١٣ (٥) طبقات الاطباء ١٧٤ ج ١ (٦) الفهرست ٢٤٥

سنة ٢٥٩ هـ ، مارستانا عرف باسمه وانفق على بنائه ٦٠,٠٠٠ دينار ، وشرط أن لايعالج فيه جندى ولا مملوك بل يعالج فيه العامة من المرضى والمجانين وغيرهم ، وحبس ريعا يضمن بقاءه . وكان يتعهده بنفسه كل يوم جمعة حتى ساءه أحد المجانين فقطع الزيارة (١)

ولم ينقض القرن الثالث للهجرة حتى بنيت المارستانات فى مكة والمدينة وغيرهما . ولما دخل القرن الرابع تسابق الخليفة المقتدر ووزراؤه الى انشاء المارستانات فى بغداد وضواحيها ، منها مارستان على بن عيسى الوزير انشأه بالحربية سنة ٣٠٢ هـ وانفق عليه من ماله وقلده طبيبه أبا عثمان الدمشقى (٢) ومارستان السيدة فتحه سنان بن ثابت بسوق يحيى سنة ٣٠٦ هـ وبلغت النفقة عليه ٦٠٠ دينار فى الشهر . وفى تلك السنة أشار سنان المذكور على الخليفة المقتدر أن يتخذ مارستانا ينسب اليه ، فأمر فبنوا له بباب الشام من أبواب بغداد المارستان المقتدرى ، وكان ينفق عليه من ماله ٢٠٠ دينار كل شهر . وبنى أيضا الوزير ابن الفرات نحو ذلك الزمن مارستانا بدرب الفضل عرف باسمه (٣) وبنى غيرهم مارستانات أخرى فى الرى ونيسابور وغيرهما . وفى أواسط القرن الرابع بنى المارستان الكافورى بمصر . ثم أنشأ عضد الدولة بن بويه المارستان العضدى سنة ٣٦٨ هـ على طرف الجسر فى الجانب الغربى من بغداد ، ورتب له ٢٤ طبيبا فيهم الجراحون والكحالون والمجبرون والفاصدون والاطباء الطبيعيون ، ففاق سائر ما تقدمه من المارستانات ، وكان على الاطباء رئيس يسمونه «الساعور»

وظل المارستان العضدى صدر المارستانات حتى بنى نور الدين زنكى مارستانه الكبير فى دمشق فى أواسط القرن السادس ، ثم بنى صلاح الدين الايوبى المارستان العتيق فى القاهرة وغيره . ولما تولى السلاطين المماليك مصر بنى الملك المنصور قلاوون المارستان المنصورى بالقاهرة سنة ٦٨٣ هـ على مثال مارستان دمشق ، وصفه المقريزى وصفا مسهبا فى الجزء الثانى من خططه . ولا تزال آثار المارستان المنصورى باقية الى اليوم فى شارع النحاسين . ثم بنى الملك المؤيد سنة ٨٢١ هـ المارستان المؤيدى بمصر ، ناهيك بما انشأوه من المارستانات فى سائر بلاد الاسلام فى فارس وخراسان والموصل والشام والاندلس وغيرها ، مما يطول شرحه . وفى رحلة ابن جبير وصف ما شاهده بنفسه من مارستانات المسلمين فى القرن السادس للهجرة هناك

وكانت تلك المارستانات فى غاية النظام يعالج فيها المرضى على اختلاف

---

(١) المقريزى ٤٠٥ ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١
(٣) طبقات الاطباء ٢٢٢ و ٢٢٤ ج ١

طوائفهم ونحلهم ، وفيها لكل مرض قاعة أو قاعات خاصة يطوفها الطبيب المختص بها وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى ، فيتفقد المرضى ويصف لهم الأدوية ويكتب لكل مريض دواءه (١) فمن شفى فيها زود السلام ومن مات كفنوه ودفنوه . وكانت تلقى فيها الدروس فى الطب والصيدلة وتمارس بها هاتان الصناعتان

وكان من ضروب المارستانات عندهم مارستان نقال يحملونه على الجمال أو البغال على نحو المستشفيات المتنقلة فى دول هذه الايام . فكان فى معسكر السلطان محمود السلجوقى مارستان يحمله أربعون جملا يستصحبه العسكر حيثما توجهوا (٢)

٣ — التنجيم والنجوم أو الفلك

النجوم عند القدماء علمان : علم طبيعى ينظر فى النجوم من حيث مواضعها وحركاتها وأحكامها بالنظر الى الخسوف والكسوف ، وعلم ينظر فيها باعتبار علاقتها بحوادث العالم من حيث الحرب والسلم والولادة والوفاة والسعد والنحس والمطر والصحو ونحو ذلك . وتسهيلا للبحث نسمى الاول علم النجوم أو الفلك ، والثانى علم التنجيم . وقد علمت مما تقدم أن العرب كانوا يعرفون هذين العلمين ، فلما تمدنوا ونقلوا العلم أضافوا ما أخذوه عن اليونان والفرس والهند والكلدان الى ما كان عندهم ، فتولد من ذلك كله التنجيم والنجوم عند المسلمين

التنجيم :

وأول من عنى بالتنجيم والنجوم فى النهضة العباسية أبو جعفر المنصور ، فترجموا له السندهند كما تقدم ، واقتدى به خلفاؤه وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم ، حتى فى ابان العصر العباسى . وكان المنجمون فئة من موظفى الدولة كما كان الاطباء والكتاب والحساب ، ولهم الرواتب والارزاق (٣) وكان الخلفاء يستشيرونهم فى كثير من أحوالهم الادارية والسياسية ، فاذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين ، فينظرون فى حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل أو عدمها . وكانوا يعالجون الامراض على مقتضى حال الفلك ، وكانوا يراقبونها ويعملون بأحكامها قبل الشروع فى أى عمل ، حتى الطعام والزيارة . على أن علماء الشرع الاسلامى كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد ويخطئونه ويردونه ، والناس على اعتقادهم ولايزال بعضهم على ذلك الى اليوم

---

(١) طبقات الاطباء ١٥٥ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٧٤ ج ١ وتراجم الحكماء
(٣) الفرج بعد الشدة ٩٠ ج ١

علم النجوم أو الفلك :

كان للمسلمين حظ وافر فى علم النجوم وفضل كبير عليه ، يكفيك انهم جمعوا فيه بين مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية ، شأنهم فى أكثر العلوم الدخيلة . فقد رأيت أن محمد الفزارى نقل السندهند للمنصور ليكون قاعدة علم النجوم عند العرب ، وانه ظل معولهم عليه الى عصر المأمون . وفى أيامه نبغ محمد بن موسى الخوارزمى ، وكان منقطعا الى بيت الحكمة وله علم واسع فى النجوم ، فاصطنع زيجا جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس والروم ، فجعل أساسه على السندهند وخالفه فى التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس ، وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس ، واخترع فيه أبوابا حسنة فاستحسنه أهل عصره وطاروا به فى الآفاق (*) ولكنه جعل تاريخه على الحساب الفارسى ، فنقله مسلمة ابن أحمد المرجيطى الاندلسى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ الى الحساب العربى ، ووضع أواسط الكواكب لأول تاريخ الهجرة . والزيج كتاب فيه جداول حركات الكواكب يؤخذ منها التقويم

واشتهر منهم فى علم النجوم بنو شاكر الثلاثة ، وقد تقدم ذكرهم . ومن أعمالهم المأثورة انهم قاسوا للمأمون درجة خط نصف النهار ، واستعملوا فيها محيط الارض فى حديث ذكره ابن خلكان وغيره . وقد ألف بنو شاكر كتبا جليلة فى الفلك والهندسة ، ونبغ فى عصرهم أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ هـ ، كان معاصرا للكندى يغرى به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة ، فدس له الكندى من حسن له النظر فى الرياضيات فدخل ذلك واستغرق فيه واتصل بعلم النجوم وألف فيه كثيرا . ومنهم حنين بن اسحق العبادى المترجم الشهير ، وثابت بن قرة الحرانى المتوفى سنة ٢٨٨ هـ ، وأحمد بن كثير الفرغانى ، وسهل بن بشر كان يخدم طاهر بن الحسين ، ومحمد بن عيسى الماهانى ، ومحمد بن جابر الحرانى المعروف بالبتانى ، وكان صابيا اصطنع زيجا عرف بالزيج الصابى وهو نسختان الثانية أصح . ابتدأ بالرصد سنة ٢٦٤ الى سنة ٣٠٦ هـ ، وأثبت الكواكب فى زيجه سنة ٢٩٩ هـ ، وكان أوحد عصره فى فنه وتوفى سنة ٣١٧ هـ (١) وغيرهم . يليهم فى القرن الرابع والخامس أبو الوفاء البوزجانى والبيرونى ومعاصروه كثيرون . وامام فلكيى القرن السابع للهجرة نصير الدين الطوسى ، ونبغ فى عصره المؤيد العرضى وابنه محمد ، والفخر المراغى بالموصل ، والفخر الخلاطى بتفليس ، ونجم الدين القزوينى (٢) وغيرهم فى عصور أخرى ، وتفصيل

(*) انظر عنه :
G. Gandz, The origin and development of the quadratic equation in Babylonian, Greek and early Arabic Algebra, Osiris, III, 1933
ولنفس المؤلف :
The origins of Al-Chawarizmi Algebra. Osiris, I, 1933.

(١) الفهرست ٢٧٩ (٢) ابو الفرج ٥٠١

مؤلفاتهم ووصفها من شؤون « تاريخ آداب اللغة » ، وانما يهمنا فى هـذا المقام النظر فيما أحدثه التمدن الاسلامى فى علم الفلك

وأول ما يستلفت انتباهنا من هذا القبيل أن العرب (أو المسلمين) قالوا بابطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم (١) ولعلهم أول من فعـل ذلك وان كانوا لم يستطيعوا ابطالها ، ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنيـة على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء ، وكانوا كثيرى العناية بعلم الفلك يرصدون الافلاك ويؤلفون الازياج ويقيسـون العروض ويراقبـون السيارات ، ويرتحلون فى طلب ذلك العلم الى الهند وفارس ، ويتبحرون فى كتب الاوائل ويتممون ما نقص منها أو يجمعون بين مذاهبها . ولعلم الفلك عند العرب تاريخ طويل لايسعه هذا المكان ، فنذكر أولا المراصد ثم نأتى على أمثلة مما استنبطوه فى هذا العلم

المراصد :

الرصد أساس علم الفلك وعليه المعول فى تعيين أماكن النجوم وحركاتها ، وكان له شأن كبير عند اليونان فرصدوا الكواكب واصطنعوا آلات الرصد . وفى القرن الثالث قبل الميلاد بنوا مرصدا فى الاسكندرية بلغ قمة ارتقائه على عهد بطليموس القلوذى صاحب المجسطى (*) . وظلّ المرصد الاسكندرى وحيدا فى العالم، حتى نهض العرب وأنشأوا المراصد فى بغداد ودمشق ومصر والاندلس ومراغة وسمرقند وغيرها كما سيجىء

آلات الرصد :

وللرصد آلات كان منها فى عهد التمدن الاسلامى بضعة عشر شكلا تختلف باختلاف الغرض منها ، وهاك أهمها :

(١) اللبنة : وهى جسم مربع مستو ، يستعلم به الميل الـكلى وابعاد الكواكب وعرض البلد

(٢) الحلقة الاعتدالية : هى حلقة تنصب فى سطح دائرة المعدل ، ليعلم بها التحويل الاعتدالى

(٣) ذات الاوتار : هى أربع اسطوانات مربعة تغنى عن الحلقة الاعتدالية ، ويعلم بها تحويل الميل

(٤) ذات الحلق : هى أعظم الآلات هيئة ومدلولا . وتركب من حلقـة تقوم مقام منطقة فلك البروج ، وحلقة تقوم مقام المارة بالاقطاب ، تركب احداهما فى الاخرى بالتصنيف والتقطيع . وحلقـة الطول الـكبرى وحلقة

---

(١) ابن خلدون ٤٥٧ ج ١

(*) وصفه ابو البقاء يوسف بن الشيخ البلوى فى معجمه المسمى « الف باء » (مطبوع فى القاهرة) ــ مادة : الاسكندرية

الطول الصغرى تركب الاولى فى محدب المنطقة والثانية فى مقعرها . وحلقة نصف النهار وقطر مقعرها مساو لقطر محدب حلقة الطول الكبرى . ومن حلقة الارض قطر محدبها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى . وهى توضع على كرسى

(٥) ذات السمت والارتفاع : هى نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح ، يعلم بها السمت وارتفاعه ، وهى من مخترعات الرصاد الاسلاميين

(٦) ذات الشعبتين : هى ثلاث مساطر على كرسى ، يعلم بها الارتفاع

(٧) ذات الجيب : هى مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين

(٨) المشتبهة بالناطق : لمعرفة ما بين الكوكبين من البعد ، وهى ثلاث مساطر

(٩) الاسطرلاب : وهو أنواع كثيرة ، منها : التام ، والمسطح ، والطوماري ، والهلالى ، والزورقى ، والعقربى ، والآسى ، والقوسى ، والجنوبى ، والشمالى ، والمبطح ، والمسرطق ، وحق القمر ، والمغنى ، والجامعة ، وعصا موسى . ناهيك من آلات الرصد بالارباع وأشكالها ، ولكل شكل تنوعات مما لايحصيه عد :(١) (*)

المراصد فى الاسلام :

لما اشتغل المأمون فى نقل علوم الاوائل الى العربية ، ووقف العلماء على كتاب المجسطى وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة به ، نزعت به همته الى السير على منهاجه ، فجمع علماء النجوم فى عصره وأمرهم أن يصنعوا آلات يرصدون بها الكواكب كما فعل بطليموس صاحب المجسطى ، ففعلوا وتولوا الرصد بها بالشماسية فى بغداد وجبل قيسون فى دمشق سنة ٢١٤ هـ (١) ولما توفى المأمون سنة ٢١٨ هـ توقفوا عن العمل وقيدوا ماكانوا قد تبينوه من رصدهم وسموه الرصد المأمونى . وكان الذين تولوا ذلك يحيى بن أبى منصور كبير المنجمين فى عصره ، وخالد المروزى ، وسند

---

(١) أبجد العلوم ٣٤٢

(*) أبرع من استخدم هذه الآلات وكتب عنها ووصفها هو ابراهيم بن يحيى النقاش القرطبى المعروف بالزرقالى ، وهو معروف عند الاوربيين باسم ازراقيل Azraquiel من علماء النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، وقد قام بابحاث طويلة عنه مياس فاليكروسا
Millas Vallicrosa, Estudios sabre Azraquiel Madrid, Granada 1950

وقد ضاعت الاصول العربية لمعظم كتبه وبقيت فى ترجماتها اللاتينية ، وقد عثر الاستاذ المذكور على قطعة من كتابه عن الصفيحة واستخدامها ، ونشرها فى « مجلة الاندلس » ، مجلدرقم ١ عدد رقم ١ . وقد نشرنا منها قطعا فى « تاريخ الفكر الاندلسى » ، ص ٤٥٢ وما بعدها

وقد نشر مياس أيضا كتاب « العمل بالاسطرلاب وذكر اجزائه » لابن الصفار صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، مجلد ٣ ص ٤٦ وما بعدها ، وفيه وصف جميع الآلات التى ذكرها المؤلف هنا

ابن على ، والعباس بن سـعيد الجوهرى ، فألف كل منهم فى ذلك زيجا منسوبا اليه . وارصاد هؤلاء أول الارصاد فى الاسلام (١)

ثم بنى بنو شاكر مرصدا فى بغداد على طرف الجسر عند اتصاله بالطاق، ورصدوا الكواكب فيه واستخرجوا حساب العروض الاكبر من عروض القمر (٢) وبنى شرف الدولة بن عضد الدولة رصدا فى طرف بستان دار المملكة فى أواسط القرن الرابع للهجرة ، وقد رصد فيه الكواكب السبعة أبو سهل الكوهى (٣)

ولما ضعف شأن الخلافة فى بغداد وتشعبت المملكة العباسية الى فروع ، تحولت الهمم الى تلك الفروع وأكبرها المملكة المصرية فى أيام الفاطميين ، فأنشأوا رصدا (أو مرصدا) على جبل المقطم عرف بالرصد الحاكمى ، نسبة الى الحاكم بأمر الله المتوفى سنة ٤١١ هـ ، وفيه استخرج على بن يونس الزيج الحاكمى (٤) ثم أعيد بناء هذا الرصد فى أيام الافضل بن أمير الجيوش المتوفى سنة ٥١٥ هـ ، وذكر المقريزى خبر انشائه فى حديث طويل . وأنشأ بنو الأعلم ببغداد سنة ٤٢٥ هـ رصدا عرف باسمهم . وذكر صاحب فوات الوفيات رصدا فى حدود الشام سماه اليينانى (كذا)

وما زال الرصد الحاكمى عمدة الراصدين ، حتى نشأ نصير الدين الطوسى على عهد هولاكو التترى ، فبنى مرصدا فى مراغة من بلاد تركستان سنة ٦٥٧ هـ ، أعد فيه كل ما يلزم من الآلات وأنفق فيه الاموال الطائلة ، وأنشأ له مكتبة فيها ٤٠٠,٠٠٠ مجلد (٥) ثم بنى تيمورلنك مرصدا فى سمرقند ، وبنى غيرهم مراصد أخرى فى أصبهان ومصر والاندلس، وارصادا خصوصية أو عمومية لم يصل الينا تفصيلها

علم النجوم والاسلام

وفى هذه المراصد اشتغل المسلمون فى رصد الكواكب ووضع الازياج ، وأطولها الزيج الحاكمى المتقدم ذكره ، كتبه ابن يونس فى أربعة مجلدات وكان عليه تعويل المسلمين بعد ما سبقه من الازياج البغدادية . ومن أشهر الازياج زيج الفزارى صاحب المنصور ، وأزياج الخوارزمى ، وأبى حنيفة الدينورى صاحب رصد أصبهان ، وأبى معشر البلخى وضع زيجه على مذهب الفرس، وزيج أبى السمح الغرناطى المتوفى سنة ٤٢٦ هـ ، وزيج أبى حماد الاندلسى ، والزيج الايلخانى لنصير الدين الطوسى ، وزيج ابن الشاطر الانصارى سنة

---

(١) كشف الظنون ٥٧٢ ج ١

(٢) فوات الوفيات ١٥١ ج ١ (٣) أبو الفرج ٢٠٧

(٤) ابن خلكان ٣٧٥ ج ١ (٥) فوات الوفيات ١٤٩ ج ٢

٧٧٧ هـ وغيرهم (١) وقد أصلحوا فى هذه الازياج كثيرا من الارصاد اليونانية

وللمسلمين طرق جديدة أدخلوها فى الرصد من عند أنفسهم ، واخترعوا كثيرا من آلاته كذات السمت والارتفاع اللتين تقدم ذكرهما ، وذات الاوتار والمشبهة بالناطق فانها من اختراع تقى الدين الراصد (٢) . والبديع الاسطرلابى البغدادى المتوفى فى أوائل القرن السادس للهجرة زاد فى الكرة ذات الكرسى ما كمل عملها بعد أن مرت السنون على نقصها ، وألف رسالة فى ذلك وكمل الآلة الشاملة التى ابتدعها الخجندى وجعلها بعرض واحد ، وأقام الأدلة على أنها لا تكون لعروض متعددة ، فنظر فيها البديع المذكور وعملها لعروض متعددة ، غير ما اخترعه من المساطر والبراكير (*) وغيرها (٣)

وأدخل الشيخ شرف الدين الطوسى تحسينا فى الاسطرلاب ، فاستنبط أن يقع المقصود من الكرة والاسطرلاب فى خط ، فوضعه وسماه العصا وعمل فيه رسالة بديعة . وهو أول من أظهر هذا فى الوجود ، فصارت الهيئة توجد فى الكرة وهى جسم وفى السطح وفى الخط ولم يبق غير النقطة (٤) وبين البتانى نقطة الذنب للأرض ، وأصلح قيمة مبادرة الاعتدالين ، وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء ، وهو أول من استخدم الجيوب والاوتار فى قياس المثلثات والزوايا (٥)

والبيرونى أول من استنبط تسطيح الكرة ، وقد فصل ذلك فى كتابه « الآثار الباقية » (٦) وللبيرونى استنباطات جليلة فى الفلك والرياضيات ، يستدل عليها من قراءة كتابه المذكور ومن فهرست مؤلفاته فى مقدمة ذلك الكتاب . يكفيه أنه نقل علوم اليونان الى الهند ، ونقل حكمة الهنود الى المسلمين . فقد دخل بلاد الهند وأقام فيها عدة سنين ، وتعلم من حكمائها فنونهم وعلمهم طرق اليونانيين فى فلسفتهم (٧) فى ظل السلطان محمود الغزنوى ، كما فعل نصير الدين الطوسى فى نشر علم النجوم بين المغول فى ظل هولاكو التترى ، وكما نشره عمر الخيامى بين السلاجقة ، ومرجع الفضل فى ذلك للاسلام

فطار خبر فلكيى المسلمين فى اقطار العالم ، واصبح المرجع اليهم فى تحقيق المسائل ، فان ملوك الافرنج كانوا يرسلون اليهم فى حل المشكلات الفلكية ، فيعرضون عليهم المسائل ويطلبون حلها ليس فى الاندلس فقط لقربها من بلادهم ولكنهم كانوا يوفدون الوفود الى ممالك الاسلام فى الشرق

---

(١) كشف الظنون ١٣ ج ٢ (٢) أبجد العلوم ٣٤٢

(*) البراكير جمع بركر ، وهو المعروف اليوم بالفرجار أو البرجل

(٣) تراجم الحكماء (٤) ابن خلكان ١٨٥ ج ٢

(٥) القبة الزرقاء ٥ (٦) البيرونى ٣٥٧ (٧) أبو الفرج ٣٢٥

لهذه الغاية . ومما نقله ابن أبي أصيبعة أن الانبرور ملك الافرنج أنفذ الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل رسولا وبيده مسائل فى علم النجوم وغيره ، فبعث بدر الدين الى كمال الدين بن يونس فى حلها فى حديث طويل (١)

ويعترف الاسبان ان العرب علموهم الرقاص (البندول) لقياس الزمان ، ولا يخفى ما بنى على الرقاص من الآلات الفلكية وغيرها . على أنهم كانوا يعرفون عمل الساعات من قبل ، ويقال ان الرشيد أهدى الملك شارلمان ساعة بديعة تناقل الافرنج خبرها (*)

ومن فضل العرب على الفلك وسائر الرياضيات أنهم نقلوا عن اليونانية كتبا ضاع أصلها بعد نقلها ، وحفظت العلوم فى ترجماتها العربية . منها مؤلفات تموخارس وارستلوس وكرويات منيلاوس وكرويات ثاوون وشرحه للمجسطى (٢) ولم يقتصر ذلك على كتب الفلك ولكنه تناول كثيرا من العلوم ، حتى كتب الادب فان كليلة ودمنة نقله ابن المقفع من الفارسية ، وقد ضاع اصله الفارسى فلما عمد أهل أوربا الى ترجمته نقلوه عن العربية

الحساب والجبر والهندسة

كان العرب فى صدر الاسلام يستنكفون من تعلم الحساب ، لأنه من شأن عمال الخراج اهل الذمة والموالى ، وكانوا يقتصرون على العمل بوصية عمر بتعليم أولادهم الشعر والفروسية والسباحة والمثل . فلما تحضروا ورأوا افتقارهم للحساب مالوا اليه وشاع فيهم قول ابن التوأم : « علم ابنك الحساب قبل الكتاب » (٣) ثم ما لبثوا أن استغرقوا فى طلب العلم كله على اختلاف أنواعه ، ونقلوه الى لسانهم فكان الحساب فى جملة تلك العلوم ، وهو مما اشتغل فيه الفلكيون والمهندسون ونحوهم ، وقلما انفرد واحد منهم بالحساب وحده

ومن أكبر مآثر التمدن الاسلامى فى الرياضيات نقلهم الحساب الهندى والارقام الهندية من الهند الى سائر أقطار العالم . فالعرب يسمونها أرقاما هندية لأنهم نقلوها عن الهنود ، والافرنج يسمونها عربية لأنهم أخذوها عن

---

(١) طبقات الاطباء ٢٠٦ ج ١

(*) الثابت الآن تاريخيا أن هارون الرشيد لم يهد شرلمان شيئا ، فان مطولات التاريخ الاسلامى لا تشير الى سفارة من الرشيد الى شرلمان ، وقد رجح الدكتور عبد العزيز الدورى فى كتابه « دراسات عن العصر العباسى الاول » ان يكون مصدر هذه القصة ان نفرا من تجار المغرب أرادوا أن تكون لهم حظوة عند شرلمان لتيسير اعمالهم التجارية ، فزعموا انهم رسل هارون الرشيد ، وحملوا اليه الهدايا ، ومنها هذه الساعة الدقاقة ، وكان فيها ايضا فيل سمى بأبى العباس ، ولا يعقل ان يسمى الرشيد فيلا بهذا الاسم

(٢) القبة الزرقاء ٥ (٣) البيان والتبيين ٢١٣ ج ١

العرب (١) وأول من تناول تلك الارقام من الهنود أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى (٢) ومن اسمه اشتق الافرنج لفظ Algorism الافرنجية (*)

وأما الجبر فللعرب فضل كبير فى وضعه او تاليفه ، فقد رايت فى كلامنا عن نقل العلوم اليونانية أن العرب نقلوا كتابين فى الجبر ، أحدهما لذيوفانتوس والآخر لابرخس . وقد وجد الباحثون بعد نهضة التمدن الحديث أن ماكتبه هذان ليس من الجبر فى شىء ، أو هى أصول ضعيفة لايعتمد بها ، وهم يعتقدون أن الجبر من موضوعات العرب . والحقيقة على ما نرى أن العرب بعد أن اطلعوا على حساب الهنود اضافوه الى مانقلوه عن اليونان ، وبنوا على ذلك علم الجبر . ومن أشهر كتب المسلمين فى الجبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى المذكور ، فالظاهر أن الخوارزمى جمع بين ما عثر عليه من الاصول الجبرية عند اليونان والهنود والفرس فاستخرج منه الجبر العربى ، كما جمع فى زيجه بين آراء الهند والفرس واليونان . وقد عنى العرب بشرح كتاب الخوارزمى مرارا . والف أيضا فى الجبر ابو كامل شجاع بن أسلم ، وأبو الوفاء البوزجانى ، واكثر مؤلفاته فى الحساب ، وابو حنيفة الدينورى المتوفى سنة ٢٨١ هـ ، وأبو العباس السرخسى المتوفى سنة ٢٨٦ هـ وغيرهم . ولما نهض الافرنج فى تمدنهم الحديث أخذوا الجبر عن العرب

ومما أحدثه المسلمون فى الهندسة أنهم طبقوها على المنطق ، وقد فعل ذلك ابن الهيثم فى أوائل القرن الخامس للهجرة ، فانه الف كتابا جمع فيه الاصول الهندسية والعددية من اقليدس وابلونيوس ، ونوع فيها الاصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين نظمها من الامور التعليمية والحسية والمنطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالى أقليدس وابلونيوس ، وادخل فى الجبر والحساب أساليب جديدة فى استخراج المسائل الحسابية من جهتى التحليل الهندسى والتقدير العددى ، وعدل فيه عن أوضاع الجبريين والفاظهم (٣) (**)

والحسن بن موسى بن شاكر اشتغل فى استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها أحد من الاولين ، كقسمة الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ، وطرح خطين بين خطين ذى توال على نسبة (كذا) ، وكان يحللها ويردها على المسائل الاخرى ولا ينتهى الى آخر أمرها لانها أعيت الاولين (٤)

---

(١) راجع كتابنا « الفلسفة اللغوية » ، الطبعة الثانية ١١٦ (٢) تراجم الحكماء (خط)

(*) هى المعروفة الآن باللوغاريتمات . انظر المقال الذى كتبه جستاف فايل ووليام مارسيه عن لفظ « عدد » فى دائرة المعارف الاسلامية

(٣) طبقات الاطباء ٩٣ ج ٢

(**) انظر : الدكتور مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، مجلدان ، القاهرة ١٩٣٠

(٤) تراجم الحكماء

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة تسمية جديدة لما تنبسط له النفس من المصنوعات لجماله ورونقه لا لمنفعته ومتانته ، والفنون التي تدخل في اعتبارهم تحت هذه التسمية قسمان : الاول تظهر أشكاله محسوسة كالحفر والتصوير والنحت والتمثيل (وتسمى الآن الفنون التشكيلية) ، والثاني ما لايحس ولا يرى بل هو من قبيل الخيال كالشعر والموسيقى . أو أن الفنون المذكورة ترجع بكليتها الى التصوير ولبعضها صور محسوسة كالمنحوتات والمرسومات ، وللبعض الآخر صور خيالية كالشعر والموسيقى . والامم التي تمدنت قبل الاسلام اشتغلت في هذه الفنون على تفاوت في اتقانها . وممن أجاد فيها المصريون واليونان والرومان ، فانهم نحتوا التماثيل وصوروا الصور ومثلوا الحوادث ونظموا الشعر وضبطوا الالحان

ومن الاعتقادات الشائعة أن التمدن الاسلامي مقصر في هذه الفنون ، لأنه لم يخلف ما خلفه اليونان أو الرومان من الآثار الجميلة كالابنية والتماثيل والصور ونحوها (*) . ولو دققنا النظر لرأينا المسلمين أو العرب من أكثر الأمم استعدادا للفنون الجميلة والاجادة فيها لايقلون شيئا عن اليونان والرومان ، وربما فاقوهما في بعضها . أما الجمال المحسوس فقد أجادوا فيما يتعلق منه بالبناء ، ولهم نمط خاص فيه مشهور ، ومن آثارهم البنائية الحمراء في الاندلس وجوامع القاهرة والشام وفارس والهند ، وهي تدل على تقدم عظيم في هندسة البناء ، مع ما فيها من زخارفه كالفسيفساء ونحوها مما يدهش النظر . ولهم نحو ذلك في الصياغة والنسج ونحوهما من الصنائع الجميلة. أما التصوير فلم يشتغلوا فيه لأنه محرم عندهم كما هو معلوم (**)

أما الشعر فقد بينا فيما تقدم أن العرب أكثر الأمم انطباعا على الشعر واتقانا له وأكثرهم نظما وأوسعهم خيالا

(*) أغلب الظن أن كلام المؤلف هنا منصب على التصوير والنحت ، لان العمارة والابنية الاسلامية معروفة وقد أبدع المسلمون فيها أى ابداع ، بل شارك المسلمون في التصوير والنحت. انظر مثلا كتاب احمد تيمور : التصوير عند المسلمين ، وقد نشره في القاهرة الدكتور زكي محمد حسن

(**) ناقش احمد تيمور وزكي محمد حسن هذه المسألة في كتاب « التصوير عند المسلمين» المشار اليه في التعليق السابق

الموسيقى :

وأما الموسيقى (*) فالعــرب فاقوا سواهم فيهــا ، وقد وضعوا الالحان واخترعوا الآلات المطربة وأتقنوا صنعها ، وكان للموسيقى عندهم شأن كبير. والمشهور أن العرب كان عندهم من الالحان شيء يوافق سذاجتهم وخشونة الجاهلية ، فلما ظهر الاسلام واختلطوا بالروم والفرس اقتبسوا الموسيقى عن تلك الأمم قبل سائر العلوم الدخيلة ، لأن اقتباسها لايحتاج الى نقل أو ترجمة . وأول من فعل ذلك عبد مكي اسمه سعيد بن مسجح ، كان حسن الصوت مغرما بالموسيقى ، وكان فى مكة عند حصار الامويين لها على عهــد عبد الله بن الزبير فى الثلث الاخير من القرن الاول للهجرة . واستخدم ابن الزبير بعض رجال الفرس فى ترميم الكعبة ، فسمع ابن مسجح بعضهم يغنى بالفارسية فطرب والتقط النغم منه ، ثم رحل الى الشام وفارس وأخــذ الالحان الرومية والفارسية ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم مما لايألفه الذوق العربى ، وغنى على هذا المذهب . وهو أول من فعل ذلك ، واخذ عنه من جاء بعده من مغنيى المسلمين ، فنبغ منهم جماعة كبيرة . وكان الغناء يزداد اتقانا ويزداد نبوغ المغنين كلما قربت الدولة من الترف

(*) تقرأ بفتح القاف وكسرها ، وقد جعلها الخوارزمى فى «مفاتيح العلوم» فرعا من الرياضيات وقال انها فن عمل الالحان ، وقال ان الذى يصنع الالحان يسمى موسيقورا أو موسيقارا أومطربا. وكان العرب يفرقون بين علم الموسيقى وعلم الغناء ، فاما الاول فهو عندهم فرع من الرياضيات التى أخذوها من اليونان ، وأما الثانى فصناعة الالحان وأداؤها . وقد ذهب الفارابى الى أنه كانت عند العرب فى الجاهلية آلة تسمى الطنبور او الميزانى تقسم انغامها الى طبقات (جمع طبقة وهــو يقابل لفظ Gamme) وتقسم اوتارها الى اربعين قسما متساوية ، وذهب بعضهم الى ان العود الذى اخترعه فيثاغورس كان يقوم على أساس هذا الطنبور الذى سمى بالبغدادى فيما بعد . وينسب كتاب «الاغانى» الى «مسجح» المشار اليه فى المتن انه أخذ عن الفرس والروم أيضا ، وان طريقته شاعت فى شبه الجزيرة كلها ، وان العود الفارسى حل محل الطنبور العربى وغطى عليه ، مما أدى الى تطور حاسم فى الاساس الرياضى الذى كانت تقوم عليه الالحان . وقد اخذ العرب عن الفرس أسماء الاوتار ، فسموا الوتر الاعلى البم ، والقــرار الزير ، أما الوتران الاوسطان فاحتفظا باسميهما : المثنى والمثلث . وهذا العود هو أساس الموسيقى العربية كما كانت الليرا أساس الموسيقى اليونانية

وقد ضاع معظم ما ألفه المسلمون فى الموسيقى ، فان «الاغانى» و «مروج الذهب» و«الفهرست» تشير الى كتب كثيرة ليونس الكاتب المتوفى نحو ٧٦٥/١٤٨ وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر المتوفى حوالى ٩١٢/٣٠٠ وعلى بن هارون بن على بن يحيى بن أبى المنصور المتوفى ٩٦٣/٣٥٢ وغيرهم ، وقد ترجم العرب معظم ما كتبه الاغريق عن الموسيقى : انظر

Farmer, Greek theories of Music in Arabic translation. Isis XIII 325

وقد أصبح علم الموسيقى ـ كما قلنا ـ فرعا من الرياضيات عند العرب ، فوضعوا نظريات للصوت والابعاد والاجناس والانواع والجموع أو الجماعات والانتقالات والتاليف وما الى ذلك من مصطلحاتهم ، محتذين فى ذلك كله حذو اليونان ، وأضافوا الى ذلك الايقاع . وللكندى سبع رسائل فى الموسيقى أورد ابن النديم أسماءها فى الفهرست ، وادخل تلاميــذ الكندى زيادات على نظرياته فى ذلك الفن . وجاء بعد الكندى الفارابى ، وهو اعظم من اشتغل بهذا الفن من المسلمين ، وقد درس فارمر نظرياته وبسطها فى كتابه الذى اشرنا اليه . واشــــتغل بنظرية الموسيقى بعد ذلك كثيرون ، منهم الحسن بن الهيثم وأبو الصلت أمية وقطب الدين الشيرازى

انظر مادة موسيقى فى دائرة المعارف الاسلامية بقلم فارمر والمراجع الوافيـــة التى ذيل بها هذه المادة

والقصف ، ولذلك كثروا فى أواخر الدولة الأموية وأواسط الدولة العباسية. ومن أشهر المغنين ابن سريج والغريض ومعبد وحكم الوادى وفيلج بن أبى العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادى وابراهيم الموصلى وابنه اسحق وغيرهم . ومن المغنيات جميلة وحبابة وسلامة وعقيلة وغيرهن

ولما اشتغل المسلمون فى نقل العلوم الدخيلة ، كان من جملتها كتب الموسيقى لليونان والهند ، فتناولها المسلمون ودرسوها وأصبحت الموسيقى علما عندهم بأصول، وقد جمعوا بين ألحان اليونان والهنود والفرس والعرب ، فألفوا من ذلك علما خاصا بالتمدن الاسلامى بلغ درجة حسنة من الاتقان . فألفوا فيه المؤلفات ، فضلا عما استنبطوه من الالحان أو اخترعوه من الآلات. وكان للخلفاء عناية كبرى بالغناء ، يبذلون الاموال فى سبيل تنشيطه كما هو مشهور . وكانوا يشترطون فى المغنى أن يكون حافظا للأشعار والنوادر ، يحسن النحو والاعراب ، فكان المغنون فى الدولة العباسية من أحاسن أهل الادب ، وفيهم من يحسن الفقه فضلا عن الادب واللغة ، كابراهيم بن اسحق الموصلى (١) وغيره وبعضهم كان عالما بالنجوم مثل زرياب المغنى . وكثيرا ما كان الخلفاء يجمعون المغنين للمناظرة بينهم فى التلحين (٢) ويجيزون المجيدين ويغدقون عليهم الرواتب والجوارى ، فقد كان راتب الموصلى عند الهادى ١٠٫٠٠٠ درهم فى الشهر، غير الصلات وغلات الضياع وغيرها (٣) ولما قدم زرياب المغنى من العراق الى الاندلس ركب الامير عبد الرحمن بنفسه للقائه (٤) :(*)

وقد أدخل الموسيقيون فى فن الموسيقى ألحانا لم تكن من قبل ، وفيها ما لم يسبق له مثيل فى تأثيره . ذكروا منها ألحانا لايقدر الشبعان الممتلىء على غنائها ، ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها ، وأخرى لا يقدر المتكىء أن يغنيها حتى يقعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم (٥)

والآلات الموسيقية أخذوا أكثرها عن الفرس والانباط والروم والهند ، فقد كان لكل من هذه الأمم آلات خاصة يتغنون بها . كان غناء الفرس بالعيدان والصنوج ، وغناء أهل خراسان بالزنج ذات سبعة أوتار ، ايقاعه يشبه ايقاع الصنج . وغناء أهل طبرستان والديلم بالطنابير . وغناء الأنباط والجرامقة بالعيروارات ، وهى كالطنابير . والروم كان غناؤهم بآلة يسمونها الأوعر عليها ١٦ وترا ، والسلبان له ٢٤ وترا ، واللوزا وهى كالرباب من

---

(١) ابن خلكان ٦٦ ج ١ (٢) حلبة الكميت ١٨٠
(٣) حلبة الكميت ٦٣ (٤) نفح الطيب ١٦٣ ج ١
(*) انظر كتاب « الموسيقى عند العرب » لجورج هنرى فارمر تعريب الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٦ . اما عن زرياب فانظر : « تاريخ الفكر الاندلسى » ، الفهرس
(٥) الاغانى ٢٠ ج ١

خشب لها خمسة أوتار ، والقيثارة ولها ١٢ وترا والصليج من جلود العجاجيل ، والأرغن وهو منافخ من الجلود . وكان للهند الكيلكة بوتر بواحد يمد على قرعة فيقوم مقام العود والصنج . وكان عند العرب الدف والمزهر. فالمسلمون جمعوا بين هذه الآلات الكثيرة ، كما جمعوا بين علوم تلك الأمم واستخرجوا أحسنها وزادوا فيها وحسنوها ، فضلا عما استنبطوه من عند أنفسهم كالآلة المعروفة بالقانون ، فقد اخترعها الفارابى الفيلسوف ، وهو أول من ركبها هذا التركيب ولا تزال عليه الى الآن

واصطنع الفارابى آلة مؤلفة من عيدان ، يركبها ويضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ولكنها على أى حال غريبة فى بابها . ذكروا أن الفارابى حضر مجلس غناء لسيف الدولة ، ولم يكن أحد من الحضور يعرفه ، فعاب المغنين فسأله سيف الدولة : هل يحسن الغناء ؟ ففتح خريطة واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وركبها تركيبا آخر وضرب عليها فبكى كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضربا آخر فنام كل من كان فى المجلس، حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج ! (١)

وزاد المسلمون فى العود وترا خامسا ، زاده زرياب بالاندلس ، وكان للعود أربعة أوتار على الصنعة القديمة التى قوبلت بها الطبائع الاربع ، فزاد عليها وترا خامسا أحمر متوسطا ، ولون الاوتار وطبقها على الطبائع . وهو الذى اخترع مضراب العود من قوادم النسر ، وكانوا قبله يضربون بالخشب . وعباس بن فرناس فى الاندلس اصطنع الآلة المعروفة بالمثقال ، يعرف بها الاوقات على غير رسم ومثال (٢)

وبالجملة ان العرب لم يقصروا فى الفنون الجميلة ، بل هم فاقوا سواهم فى أكثرها وانما قصروا فى بعضها مراعاة للدين

المدارس فى الاسلام

التعليم :

قد رأيت فيما تقدم أن القرآن أساس العلوم الاسلامية ، فتعليمه أساس التعليم الاسلامى ، وأول دروس القرآن قراءته . فأول المعلمين فى الاسلام النبى (صلعم) علمه للصحابة ، وهم علموه للناس مع ما ترتب عليه أو تفرع عنه من العلوم . ولهذا السبب كانت مدارس المسلمين فى جوامعهم كما كانت مدارس النصارى فى أديرتهم وكنائسهم . وكانوا يسمون التلامذة

---

(١) ابن خلكان ٧٧ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٧٨٣ ج ٢

المجتمعين حول أستاذ يتلقون علما من العلوم « حلقة » . وتفرعت العلوم بتوالي الاعوام واتسعت دوائرها ، حتى أصبح للعلم الواحد عدة حلقات ، والغالب أن تنسب الحلقة الى أستاذها ، فيقولون مثلا : حلقة أبي اسحق الشيرازي في جامع المنصور أو نحو ذلك . وكانوا يجعلون في كل جامع خزانة كتب للمطالعة أو الاستنساخ

على أن التعليم لم يكن خاصا بالمساجد ، فكثيرا ما كانوا ينشئون حلقات التدريس في المارستانات أو الربط (*) أو المنازل أو غيرها . وكان الاغنياء اذا ارادوا تعليم أولادهم أحضروا المعلمين الى منازلهم ، كذلك كان يفعل الخلفاء والأمراء ، ولا يزال أهل الوجاهة يفعلون ذلك الى اليوم

وأشهر الجوامع في التدريس على الاطلاق الجامع الأزهر في القاهرة ، فقد بني مع القاهرة في أواسط القرن الرابع للهجرة ، وكانت تلقى فيه دروس القرآن والفقه على جاري العادة في سائر الجوامع . وكان جماعة من الطلبة يقيمون فيه ويسمون المجاورين ، ومنهم من جاء من أقاصي البلاد الاسلامية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار ، ولكل طائفة منهم رواق باسمها كرواق الشوام أو المغاربة أو العجم أو الزيالعة أو السنارية أو اليمنية أو الهندية ، فضلا عن أروقة أهل الصعيد . وبلغ عدد تلامذة الأزهر في أوائل القرن التاسع للهجرة ٧٥٠ طالبا من طوائف مختلفة ، وكانوا يقيمون في الجامع ومعهم صناديقهم وخزائنهم ، يتعلمون فيه الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق ويحضرون مجالس الوعظ وحلق الذكر . وربما بات في الجامع كثيرون من غير الطلبة للتبرك أو المأوى ، وللجامع المذكور تاريخ طويل ترى تفصيله في خطط المقريزي والخطط التوفيقية . على ان حاله كانت تختلف باختلاف المذهب السائد بمصر وباختلاف مناقب الحكام . وبلغ عدد مجاوريه في عهد العائلة الخديوية بضعة عشر ألفا ، والهمة مبذولة في ادخال بعض العلوم الحديثة فيه (**)

المدارس :

ومما لاحظناه من أمر التعليم في التمدن الاسلامي أن العلم نضج على اختلاف وجهاته واثمر ، ونبغ العلماء والفقهاء والاطباء والفلاسفة ، وليس في الاسلام مدرسة مستقلة نحو مدارس هذه الايام . وقد أجمع المؤرخون

(*) الربط جمع رباط ، وهو الموضع الذى يتجمع فيه الصالحون والمتصوفون للعبادة . وكانوا يتخذونه على الحدود حتى يقوموا بحماية بلاد الاسلام فيجمعوا بين العبادة والجهاد ، ولهذا سمى رباطا

(**) ادخلت على الازهر ونظم التعليم فيه من ذلك الحين تعديلات كثيرة ، حتى اصبح جامعة تجرى على نظم الجامعات الحديثة . ومن أسف ان احدا لم يعن بتأليف كتاب عن تاريخ الازهر الحديث

المسلمون تقريبا على أن أول من بنى المدارس فى الاسلام نظام الملك الطوسى، وزير ملك شاه السلطان السلجوقى ، فى أواسط القرن الخامس للهجرة . ومن الغريب أن ينقضى العصر العباسى ، ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف موضوعاته دون أن ينشىء المسلمون مدرسة ، أو أن ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها فى تاريخهم . ولكننا رأينا الافرنج يذكرون للمسلمين مدرسة أنشأها المأمون فى خراسان وهو وال هناك (١) ولا ندرى من أين نقلوا ذلك ولم نر له ذكرا فى كتب العرب التى طالعناها . على أننا رأينا فيما ذكره المسلمون عدة مدارس أنشئت فى نيسابور عاصمة خراسان قبل زمن نظام الملك ، منها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ (٢) والمدرسة البيهقية نسبة الى البيهقى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ... والمدرسة السعيدية بناها نصر ابن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوى الشهير ، ومدرسة بناها اسماعيل الاسترابادى الصوفى الواعظ ، واخرى بنيت للاستاذ أبى اسحق (٣) وكل هذه المدارس بنيت قبل بناء المدرسة النظامية فى بغداد . حتى نظام الملك نفسه بنى مدرسة بهذا الاسم فى نيسابور أيضا قبل مدرسة بغداد ، بناها لامام الحرمين فى سلطنة الب أرسلان (٤) فلعل السبب فى اشتهار أسبقية نظام الملك فى انشاء المدارس الاسلامية انه أول من بنى مدرسة كبرى فى بغداد ، وجعل التعليم فيها مجانا ، وفرض لتلامذتها الارزاق والجوارى والمعاليم

وعلى أى حال فان أول من بنى المدارس فى الاسلام الأمراء الأعاجم ، واذا صحت رواية الافرنج عن مدرسة المأمون فى خراسان (أو نيسابور) فقد بنيت فى بلاد أعجمية لغرض أعجمى ، والا فلماذا لم يبن المأمون مثلها فى بغداد لما تولى الخلافة واشتغل فى نقل العلوم ؟.. فما هو السبب فى اختصاص انشاء المدارس فى الاسلام بغير الخلفاء ؟

قد رأيت فيما تقدم منزلة العلماء المسلمين عند الخلفاء والأمراء ، لارتباط السياسة بالدين عندهم ، ولأن العلماء هم حملة الدين والداعون اليه . فكان العلماء فى أوائل الاسلام يشاركون الخلفاء فى النفوذ على العامة ويساعدونهم فيه . فلما ضعف شأن الخلفاء ، وأفضت الحكومة الى السلاطين والأمراء من الفرس والأتراك والديلم والأكراد وغيرهم ، أصبح هؤلاء فى حاجة الى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم بما يقوم مقام نفوذ الخلفاء الدينى . وأقرب السبل المؤدية الى ذلك الاحسان الى الفقراء واكرام العلماء والفقهاء . فأصبح السلطان أو الأمير اذا تولى بلدا وكان حكيما عاقلا ، فأول ما يسعى فيه

---

(١) Encyclopaedia Brit. art. Al-Mamun
(٢) ابن خلكان ٤٨٢ ج ١
(٣) السيوطى ١٨٥ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٢٨٧ ج ١

تقريب العلماء والفقهاء واسترضاء العامةبانشاء الجوامع والربط والمارستانات ونحوها ، وتعيين الرواتب والارزاق للعلماء والفقراء وغيرهم ، فيكتسبون بذلك ثقة العامة ورضى الخاصة ، غير ما يرجونه من الثواب . كذلك فعل ابن طولون بمصر ، وعضد الدولة فى بغداد ، ونور الدين فى الشام ، وصلاح الدين بمصر

وذلك ايضا مما حمل نظام الملك على انشاء المدارس ، لأنه وزر للسلطان ألب أرسلان عشر سنين ، وكان بمنزلة والده وله النفوذ الاكبر عنده ، فلما توفى ألب ارسلان وازدحم أولاده على الملك ، وطد المملكة لولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان غير التخت والصيد . أقام على ذلك عشرين سنة ، وكانت طائفة الباطنية قد استفحل أمرها فى ذلك العصر وكثر المتزاحمون على السلطة . وكان نظام الملك عاقلا حكيما ، فبذل جهده فى استمالة الاعداء وموالاة الأولياء ، فأكثر من الاحسان حتى عم العدو والصديق والبغيض والحبيب . وكان من أهم مساعيه فى ذلك أنه بنى دور العلم للفقهاء ، وانشأ المدارس للعلماء ، وأسس الرباط للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ، ثم أجرى الجرايات والنفقات لطلبة العلم وغيرهم . وعم بذلك سائرأقطارمملكته فىالشام ودياربكر والعراقين وخراسان الىسمرقند، فلم يكن فيها حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد الا وكرامة نظام الملك شاملة له سابغة عليه ، وقدروا ما كان ينفقه فى هذا السبيل فبلغ ٦٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة . فوشى به بعضهم الى السلطان وقالوا : « ان الأموال التى ينفقها نظام الملك فى ذلك تقيم جيشا يركز رايته فى سور القسطنطينية » فعاتبه ملك شاه فى ذلك فأجابه : « يابنى أنا شيخ أعجمى ، لو نودى على فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير .. وأنت غلام تركى ، لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارا .. وأنت مشتغل بلذاتك منهمك فى شهواتك ، وأكثر ما يصعد الىالله تعالىمعاصيك دونطاعتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائباذا احتشدوا كافحوا عنك بسيفطوله ذراعان وقوس لاينتهى مدى مرماها ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى والخمور والملاهى والمزمار والطنبور .. وانا اقمت لك جيشا يسمى جيش الليل ، اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفا بين يدى ربهم ، فأرسلوا دموعهم وأطلقوا ألسنتهم ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك .. فأنت وجيوشك فىخفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون .. » فقبل ملك شاه وسكت (١) وتوفى نظام الملك مقتولا سنة ٤٨٥

---

(١) سراج الملوك ٢٦٧

ومن الأسباب التى كانت تحمل الأمراء غير العرب على انشاء المدارس والمساجد ، غير التماس الأجر والثواب ، أنهم كانوا ينشأون فى بلاط السلطان ويغلب أن يكونوا من صنائعه أو مواليه ، فيكون له عليهم حق الولاء أو الرق. فاذا توفى أحدهم عن مال أو ضياع وأراد السلطان قبضها فعل وحرم أبناءه منها . فكان الرجل منهم اذا بلغ الامارة وكثر ماله خاف عادية السلطان على ما يخلفه من ذريته ، فيبنى المدارس أو الزوايا أو الربط ، ويقف عليها الأوقاف المغلة من ضياعه أو أبنيته ، ويجعل فى شروط الاوقاف أن يتولاها بعض ولده وله نصيب منها ، والاوقاف ثابتة فيأمن بذلك على أولاده الفقر

وكان من أسباب انشاء المدارس أيضا تأييد المذهب الذى يتبعه السلطان أو الأمير ، فقد كانت القاهرة شيعية منذ بنيت ، وكانت الدروس التى تلقى فى الجامع الأزهر على مذهب الشيعة ، فلما تولاها صلاح الدين الأيوبى أبطل هذا المذهب وأحيا المذهبين المالكى والشافعى ، فأنشأ المدارس لتعليم هذين المذهبين فبنى المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ للمذهب الشافعى ، وهى أول مدرسة حدثت بمصر (١) واقتدى به من جاء بعده من الاكراد والاتراك

ومهما يكن السبب ، فلا خلاف فى أن نظام الملك أول من اشتهر بانشاء المدارس فى الاسلام فى أواسط القرن الخامس للهجرة . فبنى المدارس فى بغداد وأصبهان ونيسابور وهراة وغيرها ، وكل منها تنعت بالنظامية نسبة اليه ، أشهرها المدرسة النظامية فى بغداد تولى بناءها سعيد الصوفى سنة ٤٥٧ هـ على شاطىء دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها وابتاع ضياعا وخانات وحمامات وقفها عليها ، فبلغت النفقة ما يقارب ٦٠٫٠٠٠ دينار

وكان للمدرسة المذكورة شأن كبير فى العالم الاسلامى ، وقد تخرج فيها جماعة من رجال العلم طار ذكرهم فى الآفاق. أول أساتذتها الشيخ أبو اسحق الشيرازى ، ثم الامام أبو نصر الصباغ صاحب الشامل ، ثم أبو القاسم الدبوسى ، وأبو حامد الغزالى ، والشاشى ، والكيا الهراسى ، والسهروردى ، وكمال الدين الانبارى وغيرهم من أقطاب العلم . فأصبح التعليم فى هذه المدرسة من أكبر أسباب الثقة بالمعلمين ، وكانت تعلم فيها العلوم الدينية والفقهية واللسانية

واقتدى السلاطين والأمراء بنظام الملك فى انشاء المدارس المجانية على هذه الصورة فى أنحاء المملكة الاسلامية ، وأشهرهم على الترتيب السلطان نور الدين زنكى صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ هـ ، وهو تركى الأصل بنى المدارس فى جميع بلاد الشام وغيرها مثل دمشق وحلب وحماه وحمص

---

(١) الخطط التوفيقية ٨٧ ج ١

وبعلبك ومنبج والرحبة ، غير ما بناه من المارستانات والمساجد ودورالحديث والربط . ثم السلطان صلاح الدين المتوفىسنة ٥٨٩ وهوكردى ، بنىالمدارس فى مصر والاسكندرية والقدس وغيرها ، ثم الملك المعظم مظفر الدين صاحب أربل المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، فقد بنى كثيرا من المدارس ودور الأيتام واللقطاء والارامل وغيرها . واقتدى بالسلطان صلاح الدين منخلفه من أهله فى مصر ، فتسابقوا الى انشاء المدارس فيها فبلغ عددها بعد انقضاء ملكهم ٢٥ مدرسة . ولما أفضى الملك الى السلاطين المماليك ساروا على خطواتهم واقتدى بهم الاغنياء ، فبلغ عدد ما انشأوه بمصر الى أيام المقريزى فىأواسط القرن التاسع للهجرة ٤٥ مدرسة وصار المجموع ٧٠ مدرسة . ويقال نحو ذلك فى الاصقاع الاخرى . وأول من أنشأ المدارس فى الدولة العثمانية السلطان أورخان المتوفى سنة ٧٦١ هـ ، واقتدى به سلاطين آل عثمان فى انشائها ، وأشهرها المدارس الثمانى التى أنشأها السلطان سليمان (١)

وجاء فى رحلة ابن جبير الذى طاف الشرق الاسلامى فى القرن السادس أنه شاهد عشرين مدرسة فى دمشق و ٣٠ فى بغداد . أما الاندلس فقد نقل الامير على صاحب تاريخ الاسلام فى الانجليزية أن العرب أنشأوا المدارس فى قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة ومالقة وغيرها ، وأن مملكة غرناطة وحدها بلغ عدد مدارسها ١٧ مدرسة كبرى و ١٢٠ مدرسة صغرى (٢) ولكن يظهر أن مدارس الاندلس أنشئت على غير مثال المدرسة النظامية . قال المقرى صاحب نفح الطيب : « وليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم فى المساجد بأجرة ، فهم يقرأون لأن يتعلموا لا لأن يأخذوا جاريا » (٣) فترى فى عبارة المقرى نفيا صريحا للمدارس فى الاندلس ، فالظاهر أن الامير عليا المذكور نقل كلامه عن الافرنج ، وهؤلاء ربما يعنون مدارس المساجد

والمدارس فى الاسلام على أشكال ، منها حلقات الجوامع والربط والزوايا ، ومنها المدارس المجانية الكبرى للعلوم الاسلامية والمارستانات للطب والفلسفة ، غير ما قد يعقده العلماء من مجالس التعليم فى منازلهم . وعدد الطلبة على أى حال يختلف باختلاف شهرة الاستاذ فى فنه ، فكان يجتمع فى حلقة الفارابى مئات المئين من الطلبة . وقد يكون للأستاذ تلامذة تحتهم تلامذة . ذكروا أن أبا بكر الرازى الطبيب المشهور كان يجلس فى مجلسه ودونه التلاميذ ، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ أخر . فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه ، فان كانعندهم علم والا تعداهم الى غيرهم ،

---

(١) الشقائق النعمانية ١٠٤ ج ٢
(٢) Ameer Ali's Short History of theSaracens, 627
(٣) نفح الطيب ١٠٤ ج ١

فان أصابوا والا تكلم الرازى (١) وكان الاستاذ يزداد شهرة ونفوذا بازدياد تلامذته ، واذا مشى مشوا حوله وقد يركب وهم مشاة . كان الامام فخر الدين بن خطيب الرى اذا ركب مشى حوله ٣٠٠ تلميذ من الفقهاء (٢) . وكان الشيخ الاستاذ اذا قرأ عليه أحد كتابا كتب هو علامته على الكتاب ، شهادة بأنه قرىء عليه . ومن أكثر العلماء تلامذة الشيرازى والفارابى والرازى وابن خطيب الرى وابن سينا والغزالى . وكان التعليم شاملا كل طبقات الناس ، حتى المماليك والجوارى والعبيد والمخانيث وغيرهم

المكتبات أو خزائن الكتب

ما برح الناس منذ أخذوا فى تدوين أعمالهم وأخبارهم وعلومهم وهم يحرصون على استبقاء ما يدونونه ، لأنهم دونوه رغبة فى استبقائه . ويعبرون عن المكان الذى يحفظون الكتب فيه بالمكتبة أو خزانة الكتب ، واقدم من أنشأ المكتبات فى العالم البابليون سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ومن بقاياهم مكتبة عثر عليها علماء القرن الماضى فى خرائب بابل وأشور ، هى عبارة عن قرميدات من الطين المجفف عليها كتابة بالحرف الاسفينى (المسمارى) ، يليهم المصريون القدماء فقد وصف ديودورس مكتبة وجدوها فى قبر ملك مصرى اسمه اوسيمندياس . ثم اليونان وهم أول من انشأ المكتبات العامة لفائدة الناس ، واقدم منشئيها بسستراتوس فى أواسط القرن السادس قبل الميلاد . وذكر بلوتارخس مكتبة فى برجاموس مؤلفة من ٢٠٠٫٠٠٠ مجلد . وانشأ البطالسة مكتبة الاسكندرية الشهيرة . ثم الرومان ، وأول مكتباتهم نقلوها عن متدونية الى رومية سنة ١٦٧ ق.م ، ثم استولوا على مكتبة برجاموس المذكورة سنة ١٣٣ ق.م ، ثم نقلوا مكتبات أثينا سنة ٨٦ ، ولما عظم شأن قسطنطين فى القسطنطينية انشأ فيها مكتبة سنة ٣٥٥ م ، غير ما تقدم ذكره من خزائن الفرس فى الرساتيق والازج . ثم كف الناس عن انشاء المكتبات حتى تمدن المسلمون وأنشأوا مكتباتهم

المكتبات الاسلامية :

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح أحرقوا ما عثروا عليه من الكتب لأسباب تقدم بيانها ، لكنهم ما لبثوا أن تحضروا وذاقوا طعم العلم حتى أصبحوا أحرص الناس على الكتب وأكثرهم بذلا فى الحصول عليها وأشدهم عناية فى صيانتها . وقد رأيت ان العرب قضوا القرن الاول ونصف القرن الثانى وابحاثهم قاصرة تقريبا على العلوم الاسلامية ، ولم يدونوها الا فى

---

(١) الفهرست ٢٩٩ (٢) طبقات الاطباء ٢٣ ج ٢

أواخر تلك المدة . فكان ما يجمعونه من الكتب محصورا فى الأشعار والأخبار والأمثال مكتوبة على الرقوق أو الجلود أو الانسجة أو نحوها . قالوا ان كتب أبى عمرو بن العلاء كانت تملأ بيته الى السقف ، وقالوا نحو ذلك فى سائر رواة الأدب والشعر كالاصمعى وحماد وأبى عبيدة

غير أن ذلك لا يعد من قبيل المكتبات العامة التى انما يقوم بانشائها ولاة الأمور أو من يجرى مجراهم . ومرجع الفضل فى انشاء هذه المكتبات الى خلفاء النهضة العباسية ، وان كنا نرى ذكر خزائن الكتب فى ايام بنى أمية التى أخرج عمر بن عبد العزيز منها كناش هرون ، فتلك على الغالب مما أنشأه الاطباء أو الفلاسفة الذين كانوا فى خدمة تلك الدولة لأنفسهم أو لأولادهم

مكتبات بغداد :

أما فى الدولة العباسية فكان انشاؤها من جملة أسباب نهضتهم لنقل العلوم ، فأنشأوا مكتبة فى بغداد سموها « بيت الحكمة » الغالب أن الرشيد أنشأها وجمع اليها ما كان قد نقل الى العربية من كتب الطب والعلم ، وما ألف من العلوم الاسلامية ، مع ما سعى يحيى بن خالد فى جمعه من كتب الهند ، وما وقع للرشيد من كتب الروم فى أنقره وغيرها . ولما تولى المأمون وأنشأ مجالس الترجمة جمع فى بيت الحكمة كتب العلم فى لغاتها ، وفيها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية ، فضلا عن العربية ، وعلم الناس رغبته فى ذلك فأتوه بالكتب على اختلاف موضوعاتها وأشكال خطوطها ، ومنها كتاب ذكر ابن النديم أنه بخط عبد المطلب بن هاشم جد النبى (صلعم) على جلد ، وفيه ذكر حق عبد المطلب « على فلان بن فلان الحميرى من أهل صنعاء عليه ألف درهم فضة كيلا بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والملكان » (١)

وكان بيت الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف ، فيجلس النساخ فى أماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم أو بأجور معينة ، وكذلك المترجمون والمؤلفون والمطالعون . ومن نساخ بيت الحكمة علان الشعوبى أصله فارسى وكان راوية عارفا بالأنساب والمنافرات ، وكان ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة ، وله كتاب فى مثالب العرب هتك فيه العرب وأظهر مثالبها (٢) وممن كان يتردد الى بيت الحكمة للمطالعة أو التأليف محمد بن موسى الخوارزمى المنجم ، ويحيى بن أبى منصور الموصلى أحد أصحاب الارصاد فى أيام المأمون ، والفضل بن نوبخت

---

(١) الفهرست ٥ (٢) الفهرست ١٠٥

المنجم ، وأولاد شاكر وغيرهم . وكان للبيت المذكور قيم يدير شؤونه يسمى صاحب بيت الحكمة ، وأشهر مديريها سهل بن هارون وهو فارسى شعوبى شديد التعصب على العرب ، وله فى ذلك كتب كثيرة . ومنهم سلم وله نقول من الفارسى الى العربى . فترى من ذلك ان البيت أوالخزانة المذكورة انشئت على يد الفرس وخدمتها والمترددون اليها من الفرس، وأكثرهم من الشعوبية الذين يكرهون العرب ، ولذلك سبب متصل بقيام الخراسانيين بنصرة المأمون لأسباب ذكرناها فى الجزئين الماضيين من هذا الكتاب

ثم أنشأ البغداديون المكتبات على مثال بيت الحكمة ، أشهرها مكتبة وقفها سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة فى محلة بين السورين فى الكرخ فى سنة ٣٨١ هـ وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الأئمة المعتبرة ، وكان المؤلفون يقفون عليها نسخا من مؤلفاتهم . واحترقت فيما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١) وممن تولى حفظ ما بقى منها والاشراف عليها عبد السلام البصرى اللغوى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ (٢) . واشتهر بجمع الكتب من بنى العباس الخليفة الناصر بن المستضيء المتوفى سنة ٦٢٢ هـ (٣)

مكتبات الاندلس :

وكان المأمون مثالا فى انشاء المكتبات فى الممالك الاسلامية ، كما كان مثالا فى سائر أسباب النهضة العلمية. فاقتدى به بنو أمية فى الاندلس، واشبههم به الحكم المستنصر بن الناصر الذى تولى الخلافة سنة ٣٥٠ هـ وتوفى سنة ٣٦٦ هـ وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها جماعا للكتب على أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . فأنشأ فى قرطبة مكتبة جمع اليها الكتب من أنحاء العالم ، فكان يبعث فى شرائها رجالا من التجار ومعهم الأموال ، ويحرضهم على البذل فى سبيلها لينافس بنى العباس فى اقتناء الكتب وتقريب الكتاب . وكان أبو الفرج الاصفهانى صاحب الاغانى معاصرا له ، وهو أموى مثله فبعث اليه أن يرسل اليه كتاب الاغانى قبل اخراجه الى بنى العباس ، وبذل له على ذلك ألف دينار ذهبا . وفعل نحو ذلك مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكيم وغيره ، فاجتمع له من الكتب ما لم يسبق له مثيل فى الاسلام . فجعلوها فى قاعات خاصة من قصر قرطبة أقاموا عليها مديرا ومشرفا ووضعوا لها الفهارس لكل موضوع على حدة . وذكروا أن فهارس الدواوين وحدها ٤٤ فهرسا فى كل فهرس عشرون ورقة (٤) فاذا قدرنا للصفحة ٢٥ اسما فقط كان مجموع عدد

(١) ابن الاثير ١٤٥ ج ١٠ ومعجم ياقوت ٧٩٩ ج١ (٢) طبقات الادباء ٤١٢ وابن خلكان ٣٥٠ ج٢
(٣) ابن خلدون ١٤٦ ج ٤ (٤) ابن خلدون ١٤٦ ج ٤

الدواوين ٤٤٠٠٠ كتاب ، فكيف بسائر الكتب ؟ ولا نظننا نبالغ اذا سلمنا مع ابن خلدون والمقرى أن مجموع ماحوته تلك المكتبة ٤٠٠٠٠٠ مجلد (١)

واقتدى بالحكم رجال دولته وعظماء مملكته ، فأنشأوا المكتبات فى سائر بلاد الاندلس ، حتى قالوا ان غرناطة وحدها كان فيها سبعون مكتبة من المكتبات العامة ، وأصبح حب الكتب فى الاندلس سجية فى أهلها وأصبح اقتناؤها من شارات الوجاهة والرئاسة عندهم . وقد يكون الرئيس منهم جاهلا ويحتفل أن يكون فى بيته خزانة كتب ، ليقال فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به . قال الحضرمى : « أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء ، الى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع الى المنادى بالزيادة على ، الى أن بلغ فوق حده . فقلت له : يا هذا ! أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه الى مالا يساوى ، قال : فأرانى شخصا عليه لباس رئاسة ، فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ، ان كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لى : لست بفقيه ولا أدرى فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمى : فأحرجنى وحملنى على أن قلت له : نعم ، لايكون الرزق كثيرا الا عند مثلك .. يعطى الجوز من لا أسنان له .. وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلا ، وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه ! » (٢) (*)

وظل أهل قرطبة على أى حال أحسن الاندلسيين رغبة فى الكتب ، كما كان أهل اشبيلية أرغبهم فى اللهو والطرب ، فاذا مات عالم فى اشبيلية فأريد بيع كتبه ، حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . أما مكتبة قرطبة فما زالت فى قصرها حتى بيع أكثرها فى حصار البربر ثم أتم عليها الافرنج

مكتبات مصر :

واقتدى بخلفاء بغداد والاندلس الخلفاء الفاطميون بمصر ، بدأ بذلك منهم

---

(١) نفح الطيب ١٨٢ و ١٨٦ ج ١ (٢) نفح الطيب ٢١٨ ج ١

(*) كتب الاستاذ خليان ربيرا بحثا ضافيا عن الكتب ومحبيها وخزائنها فى الاندلس :
Julian Rebera y Tarrago: Bibliophilos y bibliotecas en la Espana Musulmana Disertaciones y opusculos (Madrid, 1928) vol. 1, 181-229.

العزيز بالله ثانى خلفائهم ، تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ وهو شاب ، فاستوزر يعقوب بن كلس ، وكان يعقوب مدبرا ومحبـا للعلم ، فرتب له الدواوين وقرب اليه العلماء على اختلاف طبقاتهم ، وأجرى لهم الارزاق وحبب الى الخليفة اقتناء الكتب ، فجمع منها جانبا كبيرا خصص لها قاعات فى قصره وسماها « خزانة الكتب » ، وبذل الأموال فى الاستكثار من المؤلفات المهمة فى التاريخ والأدب والفقه ، ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ أو مائة نسخة أو أكثر . ذكروا أنه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل نفسه ، وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ، واشتروا النسخة بمائة دينار ، ومائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد . وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالى الأعوام ، حتى بلغ عدد النسخ من تاريخ الطبرى عند استيلاء صلاح الدين الايوبى على مصر ١٢٠٠ نسخة ، وكان فيها ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوى ٠٠٠ر٦٠٠ر١ كتاب (١) فى الفقه والنحو واللغـة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء ، منها ٠٠٠ر١٨ كتاب فى العلوم القديمة ، فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة (٢) غير أدوات الهندسة والفلك

على أننا نرى فى تقدير تلك الكتب مبالغة ، وقد قدرها آخرون ٠٠٠ر٢٠٠ كتاب ، وغيرهم ٠٠٠ر١٢٠ ، ونظن فى تقـديرهم التباسـا من حيث المراد بخزانة الكتب أو خزائن الكتب ، لأن العزيز بعد أن انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من أهله فأنشأوا مثلها فى قصورهم ، فالظاهر أن المراد بالتقدير القليل عدد الكتب فى خزانة العزيز خاصـة ، وبالكثير عدد ما فى خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب فى خزائن القصور عن ٠٠٠ر٠٠٠ر١ مجلد أو كتاب

وكان للعزيز عناية كبيرة بخزانته يتعهدها بنفسه حينا بعد حين ، وقد رتب لها قيما يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه ، وممن تولى ذلك أبو الحسن الشابشتى الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ (٣)

وقد أصاب هذه الخزائن من الاحن بتوالى الفتن مثـل ما أصاب مكتبة الاسكندرية فى عهد الرومان ، فألقى بعض كتبها فى النار والبعض الآخر فى النيل وترك بعضها فى الصحراء فسفت عليه الرياح حتى صار تلالا عرفت بتلال الكتب ، واتخذ العبيد من جلودها نعالا مما يطول شرحه . وبالاجمال فقد طرح ما بقى منها عند دخول الاكراد للمبيع فى أواسط القرن السادس،

---

(١) المقريزى ٤٠٨ و ٤٠٩ ج ١ (٢) تراجم الحكماء
(٣) ابن خلكان ٣٣٨ ج ١

وكان فى جملة ما أخرجوه من تلك القصور نحو ١٢٠،٠٠٠ كتاب أعطاها صلاح الدين للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى (١)

دار الحكمة :

وتسمى أيضا دار العلم وهى غير خزانة العزيز أو خزائن القصور كما توهم الاكثرون . أنشأها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ ، بجوار القصر الغربى بالقاهرة ، وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ، ووقف لها أماكن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستائر على أبوابها وممراتها وأقاموا عليها القوام والمشرفين . والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذى أنشأه العباسيون ، أى لخدمة الناس فى المطالعة والدرس والتأليف . وهى طريقة القدماء فى تعليم الناس ، اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظرا لغلائها ، فمن أحب تعليم رعيته أنشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح أبوابها للناس ، كما فعل البطالسة فى مكتبة الاسكندرية ، والعباسيون فى بيت الحكمة ببغداد . وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة ، لأن الحاكم أقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والاطباء ، وأجرى لهم الارزاق وأباح الدخول اليها لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبى المطالعة ، ليقرأوا أو ينسخوا ما شاءوا ، وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة بين يديه ، ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع . وقد أباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة ، فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضى الجدال الى الخصام . واتخذ بعض أصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائهم ، فاضطر الافضل بن أمير الجيوش فى أوائل القرن السادس للهجرة الى أبطالها دفعا لأسباب الفتن ، فلما توفى الافضل أمر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطائحى فأعادها سنة ٥١٧ هـ ، ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية ، وأن يكون متوليها رجلا دينا وأن يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . ولا نظن عدد كتبها يقل عن ١٠٠،٠٠٠ كتاب ، ولما أفضت الحكومة الى صلاح الدين الايوبى هدم دار العلم وبناها مدرسة للشافعية .(٢) (*)

---

(١) ابن خلدون ٨١ ج ٤
(٢) ابن خلدون ٧٩ ج ٤ (ويسميها دار المعرفة)
(*) نورد فيما يلى احصاء بالكتب فى مكتبات مصر العامة الآن :
دار الكتب المصرية ، حوالى ٥٧٠٠٠٠ مجلد . وللدار فروع فى شبرا والظاهر والزيتون والقلعة وحلوان وامبابة والمنيرة ، عدا مكتبة الفن ومكتبة التحرير بمصر الجديدة ومتوسط ماقى كل منها نحو ١٠٠٠٠ مجلد
مكتبة بلدية الاسكندرية ٧٩٧٠١ كتاب منها ٤٠٨٦ مخطوط
« بلدية دمنهور نحو ١٤٠٠٠ كتاب

مكتبات الشام :

لما كانت الشام مركز الخلافة فى أيام بنى أمية لم يكن للخلفاء رغبة فى العلم ولا التفت العباسيون اليها . ولكنها اشتهرت فى عهد الدولة الفاطمية بمكتبة

دار الكتب بطنطا حوالى ٢٥٠٠٠ كتاب
» » بالمنصورة حوالى ١٨٠٠٠ كتاب
» » بشبين الكوم حوالى ١٧٠٠٠ كتاب
» » بالفيوم حوالى ١١٠٠٠ كتاب
مكتبة بلدية المنيا حوالى ٧٠٠٠ كتاب
مكتبة مجلس مديرية اسيوط حوالى ٦٥٠٠ كتاب
مكتبة بلدية سوهاج حوالى ١١٠٠٠ كتاب

وفى كل وزارة مكتبة عامة خاصة بها ، أكبرها مكتبة وزارة التربية والتعليم وفيها نحو ٣٥٠٠٠ كتاب ، ومكتبة وزارة العدل وبها نحو ٥٠٠٠٠ مجلد

وتوجد فى دور المحاكم الرئيسية مكتباب عامة أكبرها مكتبة محكمة الاستئناف وبها نحو ٢٠٠٠٠ كتاب

ولكل من الجامعات المصرية مكتبة عامة حافلة غير مكتبات الكليات ، وأهمها :
مكتبة الجامعة الازهرية ، فيها نحو ٨٠٠٠٠ كتاب منها ٢٢٠٠٠ مخطوط

مكتبة كلية الشريعة	٦٠٠٠	مجلد
مكتبة كلية اللغة العربية	١٠٠٠٠	»
مكتبة جامعة القاهرة	٢٠٠٠٠٠	»
مكتبة كلية التجارة	٢٥٠٠٠	»
» » الحقوق	٦٠٠٠٠	»
» » دار العلوم	٣٠٠٠٠	»
» » الزراعة	٢٠٠٠٠	»
» » الطب	٣٥٠٠٠	»
» » الطب البيطرى	٣٠٠٠	»
» » العلوم	٢٠٠٠٠	»
» » الهندسة	٤٠٠٠٠	»
مكتبة جامعة الاسكندرية	١٣٠٠٠٠	»
مكتبة كلية الاداب	١٣٠٠٠	»
» » التجارة	٨٠٠٠	»
» » الحقوق	٢٥٠٠٠	»
» » الزراعة	١٠٠٠٠	»
» » الطب	٦٠٠٠	»
» » العلوم	١٠٠٠٠	»
» » الهندسة	١٢٠٠٠	»

ولم تنشأ بعد مكتبة عامة لجامعة عين شمس ، ولكن كلا من كلياتها لها مكتبتها :

مكتبة كلية التجارة	٨٠٠٠	كتاب
» » الزراعة	٨٠٠٠	»
» » الطب	٥٠٠٠	»
» » الهندسة	١٣٠٠٠	»

ولكل معهد من المعاهد العليا فى مصر مكتبة عامة ، أهمها مكتبات كلية الفنون الجميلة وكلية الفنون التطبيقية ، ومعهدى التربية للمعلمين بالقاهرة والاسكندرية

وبعض الهيئات الحرة لها مكتبات ، مثل مكتبة الدار البطريركية (نحو ٤٥٠٠ كتاب) ومكتبة معهد الدراسات الشرقية للاباء الدومينيكيين (نحو ١٥٠٠٠ مجلد) ، ومكتبة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة (نحو ٥٠٠٠ كتاب) ، ومكتبة الجامعة الامريكية بالقاهرة (وبها نحو ٤٠٠٠٠كتاب)

ولكل متحف من المتاحف الكبرى مكتبته المتخصصة فى فنه ، وأهمها مكتبات دار الآثار المصرية ومتحف الفن الاسلامى ومعهد الآثار الاسلامية والمتحف القبطى ومتحف التعليم وما اليها

وكذلك لكل من الهيئات الثقافية مكتبة حافلة أهمها مكتبة الجمعية الجغرافية المصرية ، ومكتبة الجمعية التاريخية المصرية ، وتحرص وزارة التربية والتعليم على تزويد مكتبات هذه =

كانت فى طرابلس الشام حتى فتحها الافرنج سنة ٥٠٢ فانتهبوها (١) وذكر «جبن» أن عدد كتبها ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ مجلد أحرقها الافرنج .(٢) . فلما تولى نور الدين الشام وأنشأ المدارس فى مدائنها جعل فيها خزائن الكتب ، وتعرف بالخزائن النورية ، وهكذا فعل صلاح الدين

اما بلاد فارس فقد تقدم فى غير هذا الباب ما كان فيها من الخزائن المخبأة فى الرساتيق والأزج والقباب ، مكتوبة بالحروف الفهلوية على الجلود ونحوها قبل الاسلام ، فلما نضجت الحضارة الاسلامية فى بغداد كان الفرس من أكبر العوامل فيها ، وفى جملة مساعيهم انشاء بيت الحكمة وغيره كما تقدم

وأما خراسان فقد كانت بلاد علم وأدب لما علمته من انشاء المدارس فيها قبل سائر بلاد الاسلام . وأما المكتبات فلم يتصل بنا من أخبارها الا القليل، فقد ذكر ياقوت فى معجمه أنه ترك مرو الشاهجان أشهر مدن خراسان يومئذ سنة ٦١٦ هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم ير فى الدنيا مثلها كثرة وجودة ، وقد فصل أخبارها وأخبار واقفيها وذكر أن واحدة منها كان فيها ١٢٫٠٠٠ مجلد وأنه أخذ علمه منها (٣)

أما ما وراء النهر فقد ذكروا فى بخارى مكتبة اشتهرت باقتباس ابن سينا علمه عنها ، وكانت لنوح بن منصور سلطان بخارى ، قال الشيخ الرئيس : « ورأيت فيها من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس ، وما كنت رأيته من قبل الخ » . وأنشأ هولاكو التترى لنصير الدين الطوسى فى مراغة مكتبة فيها ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد مما نهبه التتر من بغداد والشام والجزيرة

هذا ما عثرنا على خبره من المكتبات العامة التى أنشأها الخلفاء أو السلاطين لمنفعة الناس ، غير خزائن الكتب التابعة للمدارس أو المارستانات أو الجوامع ، فانها كانت كثيرة جدا ومنها مالا تقل كتبها عن المكتبات الكبرى ، وهى مرتبة أبوابا حسب الموضوعات وعليها الوكلاء والقوام . وغير الخزائن الخاصة التى كان يقتنيها العلماء لأنفسهم وهى كثيرة وعظيمة ، فقد كانت كتب الصاحب بن عباد تنقل على ٤٠٠ جمل ، وخلف أفرايم الطبيب المصرى ٢٠٫٠٠٠ مجلد ، ولما مات موفق الدين بن المطران كان فى خزانته ١٠٫٠٠٠ مجلد غير ما استنسخه ، وكان له ثلاثة نساخ يكتبون . وكان عند أمين الدولة ٢٠٫٠٠٠ مجلد ، وقس عليهم كثيرين كالفتح بن خاقان وابن القفطى وغيرهما

= الجمعيات بالكتب

ومنذ سنة ١٩٥٢ نهضت مكتبات المدارس فى مصر نهضة كبرى ، فليس هناك مدرسة لا تضم مكتبة ، وبعضها يصل مجموع كتبه الى ٢٠٠٠٠ كتاب .

ومن أهم مكتبات مصر من الوجهة التاريخية مكتبة دير سانت كاترين بسينا ، ومعظم رصيدها من المخطوطات (نحو ٥٠٧١ مخطوطا)

(١) ابن خلكان ١٢٨ ج ٢

(٢) Gibbon's Roman Empire. II, 505

(٣) معجم ياقوت ٥٠٩ ج ٤

ولا تتضح ضخامة تلك المكتبات الا اذا قابلناها بمكتبات هذا العصر ، مع اعتبار الفرق بين العصرين وما كان لانتشار الطباعة من تسهيل اقتناء الكتب ، مع مرور الأزمنة الطويلة على مكتبات هذه الايام ، وكثرة الوسائل المساعدة على اقتناء الكتب لقلة النفقة وغير ذلك . ونقتصر على المكتبات الاسلامية الكبرى التى عرفنا عدد مجلداتها ونقابلها بأشهر مكتبات أوربا اليوم :

أشهر مكتبات المسلمين فى عهد التمدن الاسلامى

عدد المجلدات	
٠٠٠ ٠٠٠	بيت الحكمة فى بغداد (*)
١٠ ٠٠٠	مكتبة سابور «
٤٠٠ ٠٠٠	« الحكم بقرطبة
١ ٠٠٠ ٠٠٠	خزائن القصور بالقاهرة
١٠٠ ٠٠٠	دار الحكمة «
٣ ٠٠٠ ٠٠٠ ؟	مكتبة طرابلس
٤٠٠ ٠٠٠	« مراغة

أشهر مكتبات هذه الايام فى عواصم أوربا الكبرى

عدد المجلدات	
٢ ٧٠٠ ٠٠٠	مكتبة باريس الأهلية
١ ٦٤٨ ٠٠٠	« المتحف البريطانى فى لندن
١ ٣٦٠ ٠٠٠	« بطرسبرج القيصرية
١ ٢٣٠ ٠٠٠	« برلين الأهلية
٩٢٤ ٠٠٠	« فينا الملوكية
٦٧٧ ٠٠٠	« رومية الأهلية (**)

وفى الولايات المتحدة ٤٠٢٦ مكتبة مجموع عدد كتبها ٣٣٫٠٥١٫٨٧٢ مجلدا . وعلى الجملة فان المسلمين جمعوا فى مكتباتهم العامة والخاصة من الكتب على اختلاف موضوعاتها ما يعد بالملايين . ولم يبق منها الا جزء

(*) لم يوجد احصاء لكتبها ، ولهذا تركها المؤلف دون تقدير

(**) هذا هو تقدير اعداد الكتب فى ذلك الحين ، وقد زادت هذه الاعداد بعد ذلك زيادة كبيرة وتغيرت اسماء الكثير من هذه المكتبات ، فأصبحت مكتبة بطرسبرج مثلا مكتبة لينينجراد ، ومكتبة فينا أصبحت تسمى المكتبة الاهلية

أما أوسع مكتبات العالم اليوم فهى مكتبة الكونجرس فى واشنطون ، وكتبها تبلغ بضعة ملايين

صغير جدا ، وقد ضاع معظمهـا فى أثناء القرون الوسطى وذهب بذهاب التمدن

أما الباقى من تلك الكتب فأكثره تجمع فى عاصمة الاسـلام فى أثناء تلك القرون وهى القسطنطينيـة . وقد توفق المستشرق جوستاف فلوجل ، ناشر كتاب الفهرست وكتاب كشف الظنـون ، الى احراز قوائم المكتبات العربية على ما بلغت اليه قبل النهضة الاخيرة وشيوع الطباعة فى الشرق ، وذيل كتاب كشف الظنون بأسماء تلك الكتب بحسب موضوعاتها . فبلغ عدد تلك المكتبات بضعا وعشرين مكتبة ، منها ٢١ فى القسطنطينية بلغ مجموع كتبهـا ٢٧٤٤٥ كتابا . وأما ما بقى ففى مصر ودمشـق وحلب ورودس ومجموع كتبها ٢٤٠٠ كتاب ، فيكون الباقى من كتب التمدن الاسـلامى فى المكتبات العامة نحو ٣٠٫٠٠٠ كتاب ، هاك تفصيلها باعتبار أماكنها :

مكتبات المسلمين فى أواخر القرون الوسطى وكتبها

عدد المجلدات		
١ ٥٣٧	مكتبة السلطان محمد الثانى فى القسطنطينية	
٨٠٣	« « سليمان	«
٧٥٢	« قليج على باشا بالطبخانة	«
٤١٢	« حافظ أحمد باشا	«
١ ٤٤٨	« كيوبريلى اوغلو	«
٢ ٩٠٦	« شهيد على باشا	«
٨٣١	« ابراهيم باشا	«
٧٣٢	« والده سلطان	«
٥٥٢	« بشير أغا	«
١ ٣٣٦	« عاطف افندى	«
١ ٤٤٥	« ايا صوفيا	«
٥٥٦	« سراى غلطه	«
٢ ٤٢١	« عثمان الثالث	«
١ ٠٧٧	« محمد راغب باشا	«
٩٨٠	« لعله لى دفتر أول	«
١ ٩٤٧	« « « « ٢	«
٩١٦	« سراى همايون	«
١ ٧٦٩	« ولى الدين افندى	«
١ ٨٧٧	« عاشر افندى	«
١ ١٠٩	« داماد زاده محمد مراد افندى	«

عدد المجلدات		
١ ٣٨٣	مكتبة عبد الحميد	فى القسطنطينية
٦٥٦	« حالت افندى	«
٢٧ ٤٤٥	(مجموع الكتب فى القسطنطينية)	
١ ٠٩٩	مكتبة الأزهر	فى القاهرة
٤٢٢	« عبد الله باشا العظم	بدمشق
٢٦٩	« المدرسة الأحمدية	بحلب
٦٠٩	« رودس	
٢٩ ٨٤٤	(المجموع كله)	

وبديهى أن هذه الكتب ليست كلها ما بقى من المؤلفات العربية ، فقد كان منها شىء كثير فى المكتبات الخاصة وغيرها ، ولكنها على أى حال لا تعد شيئا بالنظر الى ما كانت عليه فى ابان التمدن . وخصوصا اذا اعتبرنا تكاثر المؤلفات بتوالى القرون ، مما يدعو الى زيادة عدد الكتب الباقية فى القرون الوسطى كما لايخفى لا الى نقصانها ، ولكن لكل شىء أجلا لايتعداه ، سنة الله فى خلقه

أنساب العرب القدماء

رد على القائلين بالأمومة والطوطمية عند العرب الجاهلية

كتب الينا صديقنا الاستاذ مرجليوث المستشرق الانجليزى الكبير فى أثناء نقله كتابنا تاريخ التمدن الاسلامى الى اللغة الانجليزية كتابا هذا نصه :

« ان بين ما جاء فى كلامكم عن انساب العرب وبين آراء المستشرقين فى هذا الصدد بونا عظيما . ولو اطلعتم على كتاب الانساب والزواج عندالعرب الجاهلية للاستاذ روبرتسن سميث (١) لرأيتم بين المشهور عندنا والموضوع فى كتابكم فرقا بعيدا ، فان مسألة الامومة مثلا قد دونت فيها مجلدات كثيرة ذهب أكثر أصحابها الى أن العائلة القديمة ليس فيها أب معلوم ، انما ترأسها أم كثيرة الرجال . وحق الأبوة أمر مستحدث ادخاله عند العرب لم يسبق عهد النبى (صلعم) بكثير . وأنساب العرب كلها أكاذيب ، فان أسماء القبائل ليست أسماء رجال قد عاشوا كما يزعمون ، بل أكثرها يشبه المسمى طوتم Totem عند الأمم المتوحشة ، أعنى حيوانا ينتسبون اليه لجهلهم بترتيب الطبيعة ، فيصدر عن انتسابهم اليه سنن وقوانين لا تخفى آثار بعضها عند العرب الجاهلية »

هذا هو نص كتاب الاستاذ ، فنظرنا فيه نظر الاعتبار اجلالا لمقام صاحبه، وبادرنا الى كتاب روبرتسن سميث المشار اليه ، فاذا هو يدخل فى نيف وثلاثمائة صفحة . فتصفحناه مليا رغبة فى الاطلاع على ذلك الرأى وتدبره ، لأن مؤلفه من كبار المستشرقين وله فى الشرق وآدابه أبحاث ومؤلفات ذات شأن ، ككتابه فى أديان الساميين وغيره من المقالات الشائقة . فقرأنا الكتاب باخلاص وامعان ، لعلنا نقتنع بصحة هذا الرأى فنرجع اليه ، اذ لا غرض لنا فيما نكتبه الا تقرير الحقيقة ، فهى ضالتنا المنشودة اذا ظفرنا بها وقفنا عندها صاغرين ، ولا يهمنا على يد من يكون ذلك . فتحققنا من مطالعة الكتاب ما عليه الرجل من العلم والفضل ، وسعة الاطلاع على آداب الشعوب السامية ولغاتها وأديانها ، وتوسمنا من خلال أدلته وسبك عبارته حجة وقوة على الاقناع ، يندر مثلها بين أرباب الاقلام ، ولولا ذلك ما استطاع — مع ضعف المذهب الذى أخذ على نفسه اثباته — أن يلاقى اصغاء من جلة العلماء المستشرقين ، وفى جملتهم صديقنا الاستاذ مرجليوث ، حتى ظهر اقتناعه بذلك فى مقدمة كتابه الجليل الذى اصدره فى السيرة النبوية Mohammed and the Rise of Islam على أن الاستاذ المشار اليه قد أسند الرأى الى صاحبه ولم يتكلف نقده ، اعتمادا على ما اشتهر به صاحبه من

---

(1) Kinship and Marriage in Early Arabia

سعة العلم،ولا نخاله لو تكلف ذلكالا شاعرا بما شعرنا به من وهمصاحبهفى تصوره على ما سنبينه فيما يلى . وقد نكون واهمين مثله ، لأن العصمة لله وحده * وانما أردنا أن نقول فى هـذا الموضوع كلمة نلقيها بين يدى العلماء المستشرقين ، ولا ندعى النجاة منالزلل ، بل يكفينا أنتربو مواضعالصواب فى أقوالنا على مواضع الخطأ ، وربمـا كان الامر بالعـكس ــ على أن البحث لا يخلو من فائدة على أى حال

وبما أننا سننشر هذه الرسالة باللغة العربية أيضا ليطلع عليها جمهـور القراء ، وفيهم من لايزال خالى الذهن من الطوتم والأمومة ونحوهما من الابحاث الجديدة التى قلما طرقها كتاب العربية ، رأينا أن نصدر الـكلام بتمهيد وجيز فى المراد من هذه الالفاظ ، ثم نتقدم الى الموضوع

***

١ ــ الطوتمية
عند القبائل المتوحشة الآن

الطوتم هو لفظ دخل اللغات الافرنجية فى أواخر القرن الثامن عشر من لغة الاوجيبى من هنود امريكا ، ويراد به كائنات تحترمها بعض القبـــائل المتوحشة ،ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمه ، وقد يكون الطوتم حيوانا أو نباتا أو غير ذلك . وهو يحمى صاحبه ، وصاحبه يحترمه ويقدسه أو يعبده ، واذا كان حيـوانا لايقدم على قتله ، أو نباتا فلا يقطعه أو يأكله . وتختلف الطوتمية عن عبادة الحيوانات والنباتات الشائعة عند بعض تلك القبـــائل المعبر عنها بالديانة الفتشية فى ان هذه عبادة صنم بصورة حيوان ، وتلك تقديس نوع من أنواع الحيوان أو النبات أو عبادته

والطوتم بالنظر الى مجموع القبائل ثلاث طبقات : أولا طوتم القبيلة وهو عام يشترك فى احترامه كل أفرادها ويتوارثونه ، ثانيا طوتم الجنس وهو ما يختص باحترامه افراد أحد الجنسين الذكور أو الاناث فيكون خاصـا بنساء القبيلة أو برجالها ، ثالثا الطوتم الشخصى وهو ما يختص باحترامه الفرد الواحد ولا يرثه أبناؤه . والاول أحراها بالاعتبار وعليه نجعل مدار كلامنا

طوتم القبيلة :

هو حيوان أو نبات أو شيء آخر يشترك فى تقديسه أو عبادته أفراد قبيلة من القبائل ويتســـمون باسمه ويعتقـدون أنه جدهم الأعلى وأنهـم من دم واحد مرتبطون بعهود متبادلة ترجع الى ذلك الطوتم . وله عندهم اعتباران،

أحدهما دينى والآخر اجتماعى . فالدينى يراد به ما بين الرجل وطوتمه من العلاقة المتبادلة : الرجل يحترم الطوتم ، والطوتم يحميه ويحفظه . وأما الاجتماعى فهو الحقوق المتبادلة بين أفراد تلك القبيلة التى يجمعها اسم ذلك الطوتم ، بالنظر الى القبائل الاخرى المنسوبة الى طوتمات اخرى ، وقد يختلف الاعتباران فى كثير من الاحوال

فالطوتم من الوجهة الدينية يعتبر ابا للقبيلة وانها من نسله ، ولكل قبيلة حديث خرافى عن طوتمها يتناقلونه أبا عن جد ، يغلب أن يكون مداره على كيفية انتقاله من الحيوانية أو النباتية الى الانسانية . فمن قبائل الايروكوا — من هنود أمريكا — قبيلة تعرف بقبيلة السلحفاة ، يعتقد أهلها أنهم متسلسلون من سلحفاة سمينة استثقلت صدفتها فألقتها عن ظهرها ثم تحولت الى انسان أولد أولادا . ومنهم قبيلة الحلزون (البزاقة) يعتقدون انهم متسلسلون من الحلزون وأنثى الجندبادستر — وذلك أن حلزونا ذكرا خلع صدفته ونبت له يدان ورجلان ورأس وتحول الى رجل طويل القامة جميل الصورة ، فتزوج أنثى الجندبادستر وأولدها هذه القبيلة . وقس على ذلك قبائل تنسب الى البط أو الأوز أو غيرهما من الطيور المائية . وفى سينغمبيا قبائل تنتسب الى وحيد القرن وفرس البحر أو الى العقرب أو الثعبان . فكل من هذه الحيوانات يعد طوتما للقبيلة التى تسمى باسمه ، وهى تحترمه وتقدسه فلا تؤذيه ولا تقتله . فقبيلة البط مثلا لا تؤذى هذا الطير ولا تقتله الا اذا عض أحدها الجوع فيأكل البطة وهو يأسف ويستغفر ، وكذلك اذا كان الطوتم نباتا فانهم يحترمونه ويتجنبون أن يدوسوه أو يأكلوه ، فمن كان طوتمه الذرة مثلا فأكلها محرم عليه . واذا كان الطوتم شجرة حرموا احراق عيدانها

ولا يقتصر احترامهم الطوتم على تحريم أكله أو أذيته فان بعضهم يحرم لمسه أو النظر اليه . فقبيلة الأيل — من قبائل الأوهاما — لا تأكل لحم الأيل ولا تمس أيلا ذكرا ، وقبيلة رأس الغزال لا تمس جلد غزال قط . وقد يحرمون التلفظ باسم الطوتم ، فاذا اضطروا الى ذكره عمدوا الى الكناية أو الاشارة . فمن هنود الدولاورس فى أمريكا قبيلة تنسب الى الذئب ، وأخرى الى السلحفاة ، وأخرى الى ديك الحبش (الديك الرومى) فاذا اضطروا الى ذكر أحدها كنوا عن الاول بالقدم المستديرة ، وعن الثانى بالساحف ، وعن الثالث بغير الماضغ ، والقبائل المذكورة تعرف بهذه الكنايات

واذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل أهلها بدفنه وحزنوا عليه حزنهم على واحد منهم ، فقبيلة البومة فى ساموا اذا وجد أحد رجالها بومة ميتة فانه يقعد الى جانبها ويأخذ فى الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة

حتى يدميه ، ثم يكفن البومة ويحملها الى المدفن كأنها بعض أفراد القبيلة. ويعتقدون ان من أهان الطوتم أو أساء اليه يصــاب بالمصائب ، ويختلف اعتقادهم ذلك باختلاف القبائل أو البلاد . فبعضهم يعتقدون أن من يأكل طوتمه تصبح نساء قبيلته عواقر ، وغيرهم يعتقدون أنهم يصابون بالامراض أو النكبات أو نحو ذلك . ويتوهم آخرون ان آكل طوتمه يجازى بالموت ، بأن يقيم الطوتم فى بدنه ولا يزال يأكل منه حتى يموت

ويؤمنون من الجهة الاخرى ان الطوتم لايؤذى صاحبه ، فالذين طوتمهم الحية مثلا لايخافون لسعها ، وعندهم ان الحية لا تلسعهم . وكذلك قبــائل العقرب فى سينغمبيا ، فهم على ثقة أن العقرب السامة تمر على جسم أحدهم ولا تؤذيه . وقس على ذلك قبائل الذئاب ونحوها. وكثيرا ما يمتحنون بذلك قرابة من يدعى انتسابه الى أحدها ، فمن زعم أنه من قبيلة الثعبان أطلقــوا عليه الثعبان ، فاذا لسعه قالوا انه مدع كاذب ، وعلى هذا المبدأ ينبذون كل من لايراعى الطوتم جانبه ويتجنب أذيته

على أنهم لايكتفون من الطوتم أن يكف أذاه عن أصحابه أو عباده ، ولكنهم يتوقعون أن يحسن اليهم ويدافع عنهم . فتعتقد قبيلة الذئاب أن الذئاب تدافع عنها فى ساحة القتال ، ويتوهم أكثر أصحاب الطوتمية ان الطوتم ينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بعلامات أو رموز على نحو ما يعبر عنه بالفأل أو الطيرة

ومما يتقربون به الى الطوتم ابتغاء رضاه وحمايته أن يتشــبهوا به ، فيقلدوه فى شكله ومظهره ويلبسوا جلده أو قسما من جلده ، أو يتخذوا جزءا منه يعلقونه فى أعناقهم أو أذرعهم على نحو التعاويذ فى الامم الاخرى ، فلا يخلو فرد من تعويذة تدل على علاقته بطوتمه

ومن عاداتهم الدالة على اعتبارهم أنفسهم من نسل الطوتم ، ما يجرونه من الاحتفال عند الولادة أو الزواج أو الوفاة ونحوها من الاحوال . فقبيــلة الغزال الاحمر مثلا اذا ولد لهم طفل نقشوا ظهره بالحمرة ، واذا كان من قبيلة الذئب صاحت الولائد عند وضعه : « قد ولد لنا ذئب صــغير ! » ويخيطون بقميص الطفل قطعة من عين الذئب أو قلبه ، واذا تزوج واحد من قبيلة الكلب الاحمر فى جاوة دهنوا العروسين برماد عظام كلب أحمر ، وقس على ذلك سائر القبائل بما ينتسبون اليه من أنواع الطوتم . ويحتفلون نحو هذه الاحتفالات عند الوفاة أو الزواج

أما الطوتم الجنسى فيراد به اختصاص ذكور القبيلة أو اناثها بطوتم خاص. فبعض القبائل فى استراليا لذكورها طوتم ولأناثها طوتم آخر ، وكلاهما غير طوتم القبيلة . وكذلك الطوتم الشخصى ، فان الرجل قد يكون له طوتم

خاص به غير طوتم القبيلة وغير الطوتم الجنسى

أما طوتم القبيلة من الوجهة الاجتماعية ، فيراد به تعاقد أهل القبيلة فيما بينها باعتبار علاقتها بالقبائل الاخرى . فأهل الطوتم الواحد يعدون اخوة وأخوات ، يتعاونون فى السراء والضراء بروابط هى أشد مما بين أفراد العائلة الواحدة اليوم . فيتزوج الرجل بامرأة من غير قبيلته وطوتم غير طوتمه ، وربما نشأ الأولاد على طوتم آخر ، فاذا انتشبت حرب تعاون أهل الطوتم الواحد على أصحاب الطوتم الآخر ، فينفصل الرجل عن زوجته والولد عن أبيه أو أمه

ومن شروط الطوتمية أن رجال الطوتم الواحد لايتزوجون نساء من قبيلتهم ، ولا النساء برجال منها ، وهو ما يعبر عنه علماء العمران بالزواج الخارجى Excgamy . ويعتقد أصحاب الطوتم أن التزاوج فى نفس القبيلة مضر بالصحة حتى ينخر العظام ، ويعاقبون من يقدم عليه بالموت أو العذاب الأليم ، ولذلك فهم يتخذون نساء من القبائل الاخرى بالغزو أو المراضاة أو نحو ذلك ، والأولاد يرثون على الغالب طوتم أمهاتهم ، فكأن النسب يتصل بينهم بالأمهات وليس بالآباء كما هو المعهود بيننا

وقد تتفرع القبيلة الى بطون وأفخاذ تنسب الى آباء من الحيوان أو النبات بينها نسبة تفرعية ، مثل تفرع الحيوان الى الانواع وما تحتها من الفصائل والتباينات ، أو بعلاقة أخرى بين طوتم القبيلة وطوتمات الفروع ، كأن يكون طوتم القبيلة حيوانا وطوتم فرعها نباتا يأكله ذلك الحيوان مما لا سبيل الى بسطه

والطوتمية منتشرة الآن فى العالم المتوحش، فهىعامة بينقبائل استراليا ، وكثيرة الانتشار فى شمالى أمريكا وفى بناما والطوتم الشائع هناك «الببغاء» ، ولا تخلو أمريكا الجنوبية من آثار الطوتمية على حدود كولمبيا وفنزويلا وفى جيانيا وبيرو . وللطوتمية شأن كبير فى افريقيا ، فانها شائعة فى سينغمبيا وبين قبائل البقالى على خط الاستواء ، وعلى شاطىء الذهب الاشانتى ، وبين الدامارية والبكوانية فىجنوبى افريقيا ، وفى أماكن كثيرة من تلك القارة. ولها آثار فى مدغشقر وبعض جزر ملقا . أما فى آسيا فلها أثر فى أواسط الهند بين بعض قبائل البنغال غير الآريين ، وفى سيبيريا وبعضجهات الصين وجزائر المحيط . وأكثر هذه القبائل أدخلها العلماء فى الطوتمية بالقياس التمثيلى ، لأنها تقدس بعض الحيوانات أو النباتات وان لم تتسم بأسمائها

الخلاصة :

فالطوتمية تلخص فيما يأتى :

(١) انها شائعة الآن بين أكثر الأمم اعراقا فى الوحشية

(٢) ان قوامها اتخاذ القبيلة حيوانا أو نباتا أو شيئا آخر من الكائنات المحسوسة أبا لها تعتقد أنها متسلسلة منه وتتسمى باسمه

(٣) ان كل قبيلة تقدس طوتمها أو تعبده

(٤) تعتقد كل قبيلة أن طوتمها يحميها ويدافع عنها ، أو هو على الاقل لايؤذيها وان كان الأذى طبعه

(٥) الزواج ممنوع بين أهل الطوتم الواحد ، وأساس التناسل عندهم التزوج ببنات من أصحاب الطوتمات الاخرى (الاكسوجامى)

(٦) ان الأبوة ضائعة عندهم ومرجع النسب الى الأم

(٧) لا عبرة عندهم بالعائلة ، وانما القرابة تنتهى الى الطوتم ، وأهل الطوتم الواحد اخوة وأخوات يجمعهم دم واحد

أصل هذا المذهب

ومذهب الطوتمية — بالنظر الى نظام الاجتماع — حديث ، أول من قاله الدكتور مكلينان الباحث الاجتماعى الانجليزى المتوفى سنة ١٨٨١ ، فانه الف فى هذا الموضوع كتابه الزواج عند القدماء Primitive Marriage ونشره للمرة الاولى سنة ١٨٦٥ ، ثم كتب كتبا كثيرة فى هذا الموضوع وما يتفرع عنه نشر فيها أصل مذهبه والقواعد التى بنى عليها رأيه فى الطوتمية . ولم يكد ينشر رأيه حتى تصدى علماء الاجتماع لانتقاده ، وفى مقدمتهم الفيلسوف سبنسر والسير جون لبك العالم الاجتماعى الشهير ، ولا سيما الاول فانه افاض فى نقد هذا المذهب بكتابه « أصول العمران » وكتاب « أصول التمدن » وغيرهما مما لاشأن لنا به . وانما ننظر الآن فى الأمر من حيث ما يهمنا ونغض الطرف عن صحة هذا المذهب أو فساده ، ونبحث فيما أراده الاستاذ روبرتسن سميث من تطبيقه على العرب قبل الاسلام

رأى سميث فى طوتمية العرب :

يرى سميث أن العرب كانوا فى اقدم أزمانهم ينتسبون الى آباء من الحيوانات أو النباتات كانوا يعبدونها أو يقدسونها ويتسمون بأسمائها ، وكان شأنهم فى الزواج والامومة وغيرها مثل شأن القبائل المتوحشة فى استراليا وامريكا وافريقيا ، وان المشهور من انتساب العرب الى اسماعيل وقحطان من آباء التوراة ، وتسلسل القبائل على الصورة المعروفة انما هو حادث وضعه أهل الاغراض فى زمن حديث لا يتجاوز القرن الاول للهجرة ، مبنيا على ديوان الامام عمر بن الخطاب من حيث حقوق المسلمين فى العطاء بالنظر الى القبائل وأنسابها (صفحة ٦ من كتابه)

ولتأييد هذا الرأى بدأ أولا باثبات الأمومة عند العرب ، فقال ان العرب فى الزمن القديم لم يكن عندهم عائلة رئيسها الأب ، ولا كانت الانســاب تتصل بالآباء ، بل كان الزواج عنـــدهم نحو ما هو فى بلاد التبت اليوم ويعرف بالزواج التيبتى ، وذلك أن المرأة تتزوج برجلين فأكثر ، وأولادها لاينتسبون لأحدهم وانما ينتسبون الى القبيلة ويسمون بطوتمها كما تقدم. فعمد أولا الى ايراد الأدلة على اثبات الأمومة وشيوعها عند العرب القدماء ، ولما ظن نفسه أثبتها عمد الى اثبات الطوتمية ، فبذل قصارى جهده فى استخراج الأدلة والشواهد مما سنفصله ونبين وجه الخطأ فيه

٢ ـ العرب القدماء وأنسابهم وأخبـارهم

وقبل التقدم الى البحث فى أدلة الاستاذ سميث ، نقول كلمة اجمالية فى العرب وانسابهم ورواياتهم تمهيدا للبحث

ان من يطالع رأى صاحب طوتمية العرب ، ومن يقول قوله من المستشرقين، يدرك لأول وهلة انهم انما حملهم على ذلك أمران : الاول ضـــعف ثقتهم بأقوال مؤرخى العرب وبما حفظ من خرافاتهم القديمة ، والثانى نهوض اهل القرن الماضى لتحدى ما ثبت من مذهب الارتقاء فى قواعد العمران ، لأن شيوع هذا المذهب فى أواسط ذلك القرن حمل أدباء الافرنج على رد كل شيء الى أسباب طبيعية ، كما فعل سبنسر فى رد العبادات وأكثر العادات الى مثل هذه الأسباب . وهكذا أراد صاحب طوتمية العرب فانه لما اطلع على ما كتبه مكلينان عن الطوتم فى القبائل المتوحشة ـ وهو مستشرق مطلع على أخبار العرب سيء الظن فى جاهليتهم يحتقر أقوال رواتهم ونسابيهم ـ ورأى بين أسماء آباء القبائل والبطون ما يشبه أسماء الحيوانات ، سبق الى وهمه أنها من آثار الطوتمية عندهم . فوضع هذا الحكم نصب عينيه ، وأخذ على نفسه أن يبرهنه . ولما كانت الطوتمية مبنية على الأمومة ، عمد الى اثبات هذه . فأتى بأدلة ضعيفة تجاوز بها حد التكلف ، واستشهد بنوادر من أخبار العرب ، فجعل الشاذ قاعدة وأغفل القواعد العامة الثابتة التى أجمع عليها النسابون والرواة ، مما يخالف أصول البحث . وهذا غـريب من عالم اطلع على أخبار الأمم وخرافاتهم ، وعلم أن التاريخ القديم أكثره مأخوذ من الخرافات المأثورة عن الاسلاف ، يمحصها المؤرخون ويستخرجون صحيحها من فاسدها فلا يحتقرون خرافة ولا ينكرون قولا . فان ما فى الياذة هوميروس من أخبار الآلهة وخرافاتهم ، لم يمنع العلماء من تمحيصها والتمييز بين التاريخ والدين والخرافة فيها . ويقال نحو ذلك عن أخبار الهنود القدماء ، منذ نزل جماعة الآريين الى بلاد الهند على ما هو مدون فى كتبهم السنسكريتية . وهكذا ينبغى أن يقـال فى خرافات العرب ، من

أخبار عاد وثمود وطسم وجديس ، واخبار سيل العرم ونحوها . فانها — مع بعدها عن مألوفنا — لا تخلو من حقائق تاريخية ذات بال ، قد كشف الزمان صدق كثير منها ، فنأتي بشذرات من ذلك على سبيل المثال :

عاد وثمود :

ان أعرق خرافات العرب فى القدم وأبعدها عن المألوف أخبار القبائل البائدة . وما زال الباحثون الى عهد غير بعيد يعدونها من الخرافات الموضوعة قبيل الاسلام ، وظنها آخرون لبعض الأمم الاخرى وقد حفظها العرب ونسبوها لأنفسهم . ثم تبين لهم أنها لا تخلو من حقيقة ثابتة ، لما وجدوه من ذكرها فى كتب مؤرخى اليونان أو جغرافييهم القدماء كاسترابون وبطليموس وغيرهما . وأهم القبائل البائدة عاد وثمود . أما عاد فقد كان المظنون أنها لم تذكر فى كتب اليونان ، لأنهم لم يعثروا بين أسماء قبائل العرب على لفظ يشبهها ، ولكننا بينا فى مقالة لنا بهذا الموضوع (الهلال ٢٣ سنة ٦) أنهم ذكروها باسم « عاد ارم » فكتبوها Adramitae ، تمييزا لها عن حضرموت واسمها عندهم Xatramotitae ، ورجحنا هناك أنها وقبيلة هدورام المذكورة فى التوراة بين العرب القاطنين بلاد اليمن قبيلة واحدة

وأما ثمود فقد ذكرت مرارا فى كتب اليونان والرومان ، وعثروا على آثارها فى أعالى الحجاز وحلوا بعض ما نقش على أحجارها ، وكانوا مع ذلك يحسبون تاريخها لايتجاوز فى القدم ما وراء تاريخ الميلاد الا قليلا ، حتى عثر المنقبون على ذكرها فى أنقاض أشور حوالى القرن الثامن قبل الميلاد (١) فى عرض اخبار الحروب والفتوح ، مما يدل على أن تلك القبيلة كانت ذات شأن فى هذا العهد . وقس على ذلك سائر أخبار القبائل البائدة ، مما ضاع خبره لتقادم عهده أو اشتبه اسمه عند اليونان بالتصحيف أو نحوه ، كما أصاب قبيلة « جديس » فان اليونان كتبوها Jolisitai والغالب فى أصلها على اعتقادنا Jodisitai بابدال الدال لاما وهما متشابهان فى اللغة اليونانية فاللام تكتب هكذا Λ والدال هكذا Δ وقس عليه

ناهيك بما يؤيد أخبار العرب وانسابهم من نصوص التوراة ، وما عثروا ويعثرون عليه فى آثار اليمن وغيرها

النسابون العرب

اذا كان هذا شأن خرافات العرب القديمة ، فكيف بأخبارهم المدونة فى الكتب مما أجمع عليه النسابون فى صدر الاسلام ، والرواة يومئذ لايقبلون رواية الا بعد تحققها بالاسناد الصحيح ، لما تعودوه من تحقيق الاحاديث

(1) Glaser Sk. der Geschichte und Geographie Arabiens II. 259

النبوية أو نحوها من الاخبار الدينية فى ذلك العصر ؟ فالعرب يعدون من أكثر الأمم تحقبقا فى الرواية ، وأكثرهم تدقيقا فى حفظ ما يروونه ، ولا سيما فى صدر الاسلام لاعتمادهم على الذاكرة واغفالهم الكتابة ، لأسباب بيناها فى الجزء الثالث من كتابنا « تاريخ التمدن الاسلامى »

ولا ننكر ما يتخلل تلك الروايات من الامور الموضوعة أو المختلف فيها أو غير المعقولة ، ولكن لا يعقل أن تكون كلها موضوعة ، اذ لايتأتى التواطؤ الى هذا الحد . وان جاز لنا تصديق هذا التواطؤ لم يكن لنا بد من السؤال عن الزمن الذى حصل فيه ، أهو قبل الاسلام أو بعده ؟ فاذا قيل قبل الاسلام ، فما الذى دعا الى حصوله ؟ ولا نعلم سببا يدعو الى ذلك ، ولا نظن صاحب طوتمية العرب يعلم . واذا قيل بعد الاسلام — وهو رأيه — فقد زعم أن النسابين وضعوا الأنساب فى صدر الاسلام فقسموها الى قحطانية وعدنانية ، وقسموا كلا منها الى فروع ، وان الغرض من هـذا التقسيم بيان حقوق القبائل بالنظر الى العطاء الذى فرضه عمر — فكيف يجوز ذلك وهذه أشعار العرب الجاهلية وأقوالهم وأمثالهم وأخبارهم شاهدة بمحافظتهم على النسب وعنايتهم بالرجوع الى أجدادهم من قحطان وعدنان ؟ بل كيف يقال هـذا والاسلام من ظهوره الى انتشاره مبنى على النسب القحطانى والعدنانى ، والخلفاء يحرضون المسلمين على حفظ انسابهم والتدقيق فيها ؟ ومن أقوال عمر بن الخطاب : « تعلموا النسب ، ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدهم عن أصله قال : من قرية كذا » (١) فهل يصح ذلك والعرب قبائل طوتمية لا رابطة بينها ولا نسب ؟

واذا افترضنا صحته وأن النسابين وضعوا هذه الأنساب فى أول الاسلام للعطاء ، فكيف ترضى القبائل التى أبعدها النسابون عن النسب النبوى فقل عطاؤها أو ضعفت حقوقها ، وكيف لا تحتج على ذلك ، بل كيف لايشتم رائحة ذلك الاحتجاج من كلام المؤرخين ؟ على أن تواطؤ النسابين على الوضع بعيد الامكان ، لأنهم لم يأتوا بشىء من عند أنفسهم ، وانما كانوا يطوفون البادية ينقلون النسب عن السنة الحفاظ ويدونونه أو يحفظونه . وقد يجمع النسابة أخباره من أهل نجد والحجاز واليمن بالسؤال من الثقات فى تلك الاصقاع المتباعدة الاطراف ، فهل يمكن تواطؤهم على ذلك ؟

الشعوبية وأنساب العرب :

واذا سلمنا بامكانه ، وان العرب لم يبدوا معارضة احتراما للخليفة أو خوفا منه ، فكيف سكت الشعوبية ولاسيما الفرس عن هذا الاختلاف ، مع ما يفاخرهم به العرب من شرف النسب العربى ، والشعوبية يبحثون عن

---

(١) ابن خلدون ١٠٩ ج ١

حجة يضعون بها من شرف العرب المتصل اليهم من انتسابهم الى اسماعيل وقحطان ؟ وقد تجرأ الفرس فى صدر الاسلام حتى نسبوا العرب الى الوحشية وقالوا : « انهم كالذئاب العادية والوحوش النافرة ، يأكل بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض ، فرجالهم موثقون فى حلق الأسر ، ونساؤهم سبايا مردفات على حقائب الابل » . ولم يطعن أحد منهم فى نسبهم تلميحا ولا تصريحا ، ولو استطاعوا ذلك لكان فيه أقوى انتقام لهم . ولا يقال انهم سكتوا عنه اهمالا ، أو انهم لم ينتبهوا له ، فقد طعنوا فى اختلاف العرب بالنسب وفى استلحاقهم الأدعياء ونحو ذلك مما يتعلق بالانساب . قال بجير يعير العرب باستلحاق الأدعياء :

زعمتم بأن الهند أولاد خندف وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم وأولى بقربانا ملوك الأكاسر
أتطمع فى صهرى دعيا مجاهرا ولم تر سترا من دعى مجاهر
وتشتم لؤما رهطه وقبيله وتمدح جهلا طاهرا وابن طاهر (١)

ومع ذلك لم يتعرضوا لصحة أنسابهم أو فسادها . وأمة الفرس بلغت أوج تمدنها قبل الاسلام بقرون ، وكان العرب ينزحون اليهم ويقيمون بينهم، وجرى لهم معهم حروب ومنافسات قبل الاسلام ، وقد استولى الفرس على اليمن وأقاموا بين ظهرانى العرب وعاشروهم وخالطوهم قبيل الاسلام — فهم أولى الناس بمعرفة أحوالهم فى جاهليتهم ، فلو وجدوا فى ضبط انسابهم شكا ماسكتوا عنه ، وقد بدأوا بالنقمة عليهم من أوائل القرن الاول للهجرة . وأغرب من ذلك أن النسابين انفسهم كان أكثرهم من العجم ، فهل يضعون شيئا يكون سلاحا عليهم فى أيدى أعدائهم ؟

اختلاف بعض الانساب :

فكل ما لدينا من أخبار العرب يرجع الى ترتيب النسب على ما ذكروه فى كتبهم أو رووه فى أشعارهم ، وليس عندنا ما يخالف ذلك الترتيب نصا ولا اشارة ، فكيف يجوز لنا نقضه ؟ ولا عبرة فى ما ذكره صاحبنا من اختلاف النسابين فى نسبة بعض القبائل الى قحطان أو عدنان أو الى قيس أو كلب أو نحو ذلك ، لأن النسب كما قدمنا منقول فى الاصل عن أفواه الناس على اختلاف الاصقاع ، والانسان غير معصوم من الخطأ . ولا يخلو أن يكون ديوان عمر بن الخطاب وفرض العطاء على النسب أوجب بعض التشويش ، وانتماء بعض البطون الى غير قبائلها ، والنسابون المحققون يبينون الصحيح من الفاسد على ما يبلغ اليه امكانهم . ولكن وجود هذا

(١) العقد الفريد ٧١ ج ٢

الاختلاف لايدل على فساد النسب من أساسه ، كما أن اختلاف الرواة فى تفاصيل احدى الوقائع التاريخية لايدل على أنها لم تقع . فلو اختلف جماعة فى فتح عمرو بن العاص مصر ، فقال أحدهم انه فتحها صلحا ، وقال آخرون انه فتحها عنوة ، وقال غيرهم انه جاءها بأربعة آلاف مقاتل ، وقال آخرون بل جاءها بعشرة آلاف ، واختلف آخرون فى هل جاءها العرب على الخيل أو على الابل — فهل يدل ذلك على أن مصر لم تفتح ، واذا قال ذلك قائل ألا تنسبه الى الشذوذ فى أحكامه ؟

على ان اختلاف النسابين قد يكون سببه تشابه القبائل بالاسماء لفظا واختلافها معنى ، وهذا كثير فى أنسابهم قد وضع له النسابون كتبا مستقلة ، ككتاب مختلف القبائل ومؤتلفها لأبى جعفر محمد بن حبيب المتوفى فى أواسط القرن الثالث للهجرة ، وقد طبع فى جوتنجن سنة ١٨٥٠ . ولو راجعت معجمات القبائل لرأيت عدة منها باسم واحد ، بعضها من قحطان والبعض الآخر من عدنان وفيها بطون من اليمنية وبطون من القيسية . فبنو أسد بطن من الأزد من كهلان من القحطانية ، وبنو أسد أيضا بطن من قضاعة من حمير ، وبنو الأوس بطن من الأزد من القحطانية ، وبنو الأوس بطن من العدنانية ، وبنو الحرث عدة بطون من قبائل مختلفة ، وبنو بكر عدة بطون بعضها من العدنانية والبعض الآخر من القحطانية ، وبنو تغلب حى من وائل ابن ربيعة من العدنانية ، وبنو تغلب بطن من قضاعة من القحطانية ، وبنو تميم من طابخة من العدنانية ، وبنو تميم بطن من هذيل من العدنانية ، وبنو ثعلبة بضعة عشر بطنا من قبائل مختلفة (١) ومثلهم بنو ربيعة ، وبنو سليم ، وبنو عامر ، وبنو عدى ، وبنو كعب وغيرهم . فالاسم الواحد تشترك فيه عدة بطون ترجع الى أصول مختلفة . وقد وجدوا بطونا كثيرة باسم بنى أمية ، ففى قريش أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وفى اياد ابن نزار أمية بن حذافة ، وفى الانصار أمية بن زيد بن مالك من الأوس ، وفى طى أمية بن عدى بن كنانة بن مالك ، وفى قضاعة أمية بن عصبة بن هصيص ، وقس عليه

وقد تتشابه أسماء القبائل صورة وتختلف لفظا ومعنى ، مثل جسّاس بسين مشددة وجساس بسين مخففة ، وأكثر ما يكون الاشتباه فى الاسماء المتشابهة بصور الحروف مع غض الطرف عن النقط ، وقد كان ذلك سببا كبيرا للالتباس قبيل الاسلام وفى صدره . ففى مذحج عنس (بالنون) ابن مالك بن أدد ، وفى غطفان عبس (بالباء) ابن بغيض ، وفى الأزد عبس (بالباء) ابن هوازن بن أسلم . وقس عليه عنزة ، فانها بهذا اللفظ فى ربيعة وهى

---

(١) نهاية الارب من قبائل العرب (خط)

عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، وفى خزاعة عيرة (بالياء) ويقال أيضا عنز ، وفى الأزد عنترة بن عمرو بن عوف بن عدى بن الأزد ، وفيها أيضا عبرة (بالباء) اما مضمومة العين أو مفتوحتها ، ومنها غيرة بالغين والياء باختلاف الحركات . ومن هذا القبيل عنز من ربيعة وعتر من ربيعة أيضا ، ومثلها غبر . وقس على ذلك اجرم واخزم واخرم ، وكل منها من أصل غير أصل الاخريين (١)

فهذه الاختلافات بالصورة واللفظ أوجبت بعض الالتباس فى أنساب القبائل . ويقال نحو ذلك فى قلة عدد الآباء بالنظر الى الزمن ، فقد يكون سببه ضياع بعض الأجداد لنسيان أو غيره ، أو اعتبار الجد قبيلة برأسها وليس رجلا فردا ، كما هو المظنون فى بعض اجداد اليهود آباء التوراة . وهذا أيضا من الأدلة على قدم الأنساب من عهد الجاهلية ، اذ لو وضعها واضع بعد ذلك لأتقن صناعة التزوير وأكثر من الآباء حتى لايبقى مكان لظهور التزييف ، ولكن النسابين لم يأتوا بشىء من عند أنفسهم ، وانما نقلوا ما كان شائعا على ألسنة العرب محفوظا فى أذهانهم على علاته

وزد على ذلك أن من القواعد الاساسية فى تمييز الحقوق « أن الاصل براءة الذمة » ، فالاصل فى أنساب العرب أن تعتبر كما وصلت الينا ، ولا يجوز لنا الاعتراض عليها أو نقضها الا بما لايقل ثقة عن النصوص الصريحة والقرائن الثابتة بالتواتر أو نحوه . أما الاعتماد على الاقوال النادرة ، أو الرجوع الى شوارد الاخبار ، واتخاذ الشواذ قواعد ، فلا يصح الاعتماد عليه ، أو هو استقراء ناقص ، بل هو ليس من الاستقراء فى شىء ، وانما هو من قبيل التحكم على خلاف القاعدة المتبعة فى البحث والنقد . والاقرب الى الصواب فى اثبات قضية أن نتدرج فيها من الجزئيات الى الكليات ، فمتى ثبتت الجزئيات ثبتت الكليات . وأما صاحبنا فانه افترض القضية الكلية وحاول اثباتها ، فلم يعدم من الحوادث المبعثرة من أخبار العرب ما يتخذه أساسا يبنى عليه بناء ضعيفا يظهر ببراعته كأنه صحيح

فالاستاذ روبرتسن سميث صاحب طوتمية العرب اطلع على رأى مكلينان فى طوتمية هنود استراليا وأمريكا ونحوهما ، ورأى لبعض قبائل العرب أسماء حيوانية ، ووجد النسابين مختلفين فى أصول بعض القبائل ، فتبادر الى ذهنه أنها بقايا الطوتم كما قدمنا ، فوضع القضية الكلية : « أن العرب كانوا من أصحاب الطوتم » ثم أخذ يبحث فى كتبهم عما يؤيد هذا القول ، ولا يخفى عليك ما هنالك من النوادر الشاذة والحوادث المتضاربة ، فاختار ما ظنه يؤيد قوله وأغفل الباقى . فلو كان السير على هذه الخطة فى الاستدلال

---

(١) مختلف القبائل ومؤتلفها

والبرهان جائزا لما أعجزنا اثبات أى قضية فرضناها ، مهما يكن من غرابتها فلو أردنا الذهاب الى أن المرأة فى الجاهلية كانت مطلقة الحرية ذات شـــأن فى الهيأة الاجتماعية مثل شأنها فى أمريكا اليوم ، لما عدمنا من أخبار العرب ما يسند هذا القول . وكذلك لو قلنا انها كانت تعامل عندهم معاملة البهائم فاننا نجد ما يشاكل زعمنا . ولكن القاعدة فى مثل هذا البحث أن ينظر فى مجمل الأدلة ويؤخذ الراجح بالاجماع أو الاغلبيـــة ، ولم يجمع العرب فى أخبارهم أو خرافاتهم أو أشعارهم أو تواريخهم أو عاداتهم على شىء مثـــل اجماعهم على تلك الانساب ، أفننكرها بمجرد الظن ؟ وهـــل يزال اليقين بالشك ، ثم نلتفت الى رأى ليس فى أخبار العرب ولا فى تواريخهم ولا تواريخ سائر الأمم السامية ما تشتم رائحته منه ؟

ثم أن تلك الانساب وصلت الينا بالتسلسل من النسابين الى المؤرخين على اختلاف أماكنهم وعصورهم ، وهى مع ذلك مطابقة فى أكثر رواياتها ، فكيف تتفق هذه المطابقة ان لم يكن أصلها صحيحا ؟ وان قيل ان ذلك الاصـــل وضع بعد الاسلام ، فلا بد من أن يكون واضعه رجلا ذا سلطان ، فمن هو هذا يا ترى ؟ وكيف يخفى خبره مع كثرة أعداء العرب فى ذلك العصر ؟

والصحيح أن النسب قديم عند العرب ، مثل قدمه عند ســـائر الأمم السامية ، والعرب أشد تمسكا به لبداوتهم وتنقلهم مع فراغ أيديهم من جامعة أخرى يرجعون اليها . وقد بالغوا فى المحافظة على الانساب ، حتى حفظوا أنساب خيولهم الى أجيال كثيرة ، فيلحقونها بما اشتهر منها فى اللحاق أو السباق من جياد الخيل ، كأعوج والوجيه ولاحق والغراب واليحموم(١) . ولو راجعت ما وصل الينا من أخبار النسابين لعجبت من عنايتهم بحفظ الانساب وتدقيقهم فى ضبطها . وكان أحدهم اذا نسب واحدا تتبع نسبه من أبيـــه الى رهطه فالفصيلة حتى يصل الى القبيلة ، أو بالعكس من القبيلة الى الفرد

الشعوب السامية :

وقد ذهب صاحب طوتمية العرب فى مقدمة كتابه « أديان الساميين » وفى كتاب « أنساب العرب » الذى نحن فى صـــدده الى أن الســـاميين نشأوا أولا فى جزيرة العرب ثم تفرعوا ، فخرج العبرانيون والآراميون منها وعمروا ما حولها من البلاد وظل العرب فيها على بداوتهم ، فكان ينبغى أن تكون الطوتمية عندهما كما هى عند العرب . ولكنه لم يقل ذلك ، واذا قاله فلا نظنه يوفق الى ما يسند قوله ولو فى الظاهر مثل توفيقه فى طوتميـــة العرب ، لأن اليهود قلما تسموا بأسماء الحيوانات لبعدهم عن البـــداوة

---

(١) الكامل للمبرد ٤٥٤

الخشنة ، فلا يجد بين أسماء القبائل ما يساعده على هذا الزعم . وهب انه وفق الى بعض الاسماء كما وفق الاستاذ كوك فى مقالة نشرها فى المجلة الاسرائيلية الانجليزية سنة ١٩٠٤ (١) مثل كالب ويعقوب وعورب — فهى أسماء أشخاص لا أسماء قبائل ولا يصح الرجوع اليها فى اثبات الطوتمية

على انه لو ترك الافتراض والظن ونظر فى الامر على بساطته ، لرأى هذه الأمم السامية تتشابه فى أمر حقيقى واضح لا التباس فيه ، وهو الانتساب الى آباء التوراة . وانتساب العرب الى اسماعيل وقحطان ثابت مما جاء فى التوراة من أنساب الأمم ، اذ يظهر للمتأمل أن أنساب العرب فرع من أنساب الساميين ، وقد حقق ذلك وأثبته جورج رولنسن فى كتابه أصل الأمم (٢) وادوار جلازر فى كتابه تاريخ العرب وجغرافييهم (٣) ولنا مقالة فى أنساب العرب منشورة فى (الهلال) العشرين من السنة الخامسة ، بينا فيها أنساب القبائل البائدة فضلا عن القبائل الباقية ، بالاسناد الى التوراة ومؤرخى العرب ، والتوفيق بينهما وبين الآثار التى كشف عنها المنقبون ونصوص مؤرخى اليونان

فالنسب العربى ثابت بثبوت أنساب التوراة ، مع اعتبار ما يراه أهل النقد من الباحثين أن أسماء بعض الآباء الاولين يراد بها القبائل لا الاشخاص ، فاذا نقضنا هذه لم يبق بيدنا شىء . وهل يجوز أن نغفل هذه الانساب الثابتة بتوالى القرون ، ونرجع الى رأى لا أساس له فى كتب المشارقة ولا اشارة اليه فى خرافاتهم ولا عاداتهم ولا أديانهم ولا شىء من آثارهم ؟

ومما لايحسن الاغضاء عنه ان العرب لايصح قياسهم فى أحوالهم وأنسابهم بأصحاب الطوتم من الأمم المتوحشة من هنود أستراليا وأمريكا وزنوج افريقيا ، لأن العرب من أرقى الأمم عقلا ونفسا ، وهم أهل تمدن قديم مثل تمدن أرقى الشعوب القديمة ، وقد ذهب بعض الباحثين فى آثار اليمن وحضرموت الى أن التمدن العربى القديم أصل التمدن المصرى القديم ، أى ان الفراعنة اخذوا تمدنهم من بلاد اليمن — ومهما يكن من منزلة هذا القول من الصحة فانه يدل على اعراق العرب فى المدنية منذ آلاف من السنين . دع عنك ارتقاء لغتهم فى تركيبها وألفاظها ، وهو يشهد بارتقاء عقول أصحابها من أقدم أزمنة التاريخ وقبله ، فهل يعقل أن يتخذوا آباء من النبات أو الحيوان كما يفعل أعرق الأمم وحشية اليوم ؟ على أن القول بالطوتمية بحد ذاتها من الغرابة بحيث يصعب علينا تصديق وجودها فى الأمم المتوحشة ،

---

(١) The Jewish Quarterly Review

(٢) Rawlinson's Origin of Nations, 228

(٣) Glaser Gesch. & Geogr. Arabiens II. 266 & 424

ونخشى أن يكون القول بها مبنيا على الاستقراء الناقص . ولنتقدم الآن الى النظر فى أدلة صاحبنا فننظر فيما يختص منها بالأمومة ، ثم ما بناه عليها من الطوتمية عند العرب فنقول :

٣ ــ الأمومة عند العرب

الامومة على الاجمال :

الأمومة الانتساب الى الأم ، ويراد بها انتساب اهل القبيلة او الأمة الى أمهاتهم بدلا من آبائهم ، فيقال : فلان بن فلانة كما يقال فى الأبوة : فلان بن فلان . والأمومة من الابحاث التى حدثت فى أواسط القرن الماضى بعد شيوع مذهب الارتقاء ، وأول من استلفت الانظـــار اليها عالم المانى اسمه باخوفن فى كتاب نشره سنة ١٨٦١ ، فاهتم به علماء العمران لاختلافه عما تعودوه من نظام العائلة المألوف . ومرجع بحثه أن الأمومة سابقة فى تاريخ العائلة للأبوة ، فعنده أن الزواج كان عند الاقدمين فوضى بلا شرط ، وهو زواج المشاركة . فاذا ولدت بعض النساء غلاما لايمكن تعيين والده وهو ملازم أمه للرضاع فينتسب اليها ويعرف بها ، فيصير الانتساب الى الأمهات قاعدة عامة . فأصبح للمرأة المقام الاول فى الهيئة الاجتماعية وهى صاحبة النفوذ ، كما هو حال الرجل اليوم

***

ثم ظهر كتاب مكلينـــان الانجليزى فى الزواج عند القدماء Primitive Marriage نشره سنة ١٨٦٥ فذهب فى الأمومة مذهبا جعل أساسه الزواج الخارجى ، أى تزوج الرجال ببنات من غير قبيلتهم بالغزو لقلة البنات عندهم بالوأد (على زعمه) فنشأ عن ذلك فى اعتقاده زيادة عدد الرجال ، فاضطر كل جماعة منهم الى الاكتفاء بامرأة واحدة وهو تعدد الأزواج ، وانحصر النسب فى الأم وعلت منزلتها . وهو قول ضعيف الاسناد متناقض المعنى ــ كيف يمكن حفظ النسب بالأمهات وكل منهن مجلوبة من الخارج ولها نسب خاص؟ على أن مذهب مكلينان فى أصل العائلة ما لبث أن سقط بما كتبه فيه المنتقدون ، وخصوصا مورجن العالم الأمريكى صاحب كتاب نظام الاجتماع عند القدماء ، فقد برهن أن الزواج الداخلى لاينافى الأمومة . وكتب فى الأمومة ونظـــام العائلة غير واحد من علماء الاجتماع الالمان والفرنسيين والانجليز والروس وغيرهم، مثل باجيهوت ودارجون واميرا وويلكن وستارك وبريد وجيرو وسميث ووسترمارك وغيرهم مما يطول بنا تعداده ، فنكتفى بآخر من خاض هذا العباب وهو الاستاذ ويلكن المستشرق فى كلية ليدن ، فانه وضع كتابا فى الأمومة عند العرب على الخصوص ، كتبه بعـــد مطالعة

كتاب الاستاذ روبرتسن سميث فى طوتمية العرب ، فوافقه من وجوه وانتقده من وجوه ، ولكنه يرى رأيه فى أن الأمومة كانت سائدة عند العرب قبل الاسلام ، وأن الانساب التى يتناقل العرب أخبارها موضوعة . واستشهد بقول لوندكى المستشرق الالمانى الشهير فى هذا الشأن ، وخلاصة قوله أن الانساب العربية وضعها ابن الكلبى وغيره بعد الاسلام لفقوها تلفيقا (١) وهو قول قد بينا بعده عن الامكان وستأتى تتمة الكلام

ولو أردنا الاتيان على أقوال الباحثين فى هذا الموضوع لضاق بنا المقام ، فنتقدم الى النظر فى أدلة سميث التى نحن فى صددها ومن قال قوله :

أدلتهم على أمومة العرب :

ليس فى أدلة سميث ولا غيره على الأمومة عند العرب قول صريح أو دليل ثابت ، وانما هى قرائن أو اشارات لو ثبتت أمومة العرب لكانت مؤيدة لها لا أن تكون هى وحدها دليلا عليها . فانتساب بعض القبائل أو البطون أو العشائر الى أمهاتهم ، وتأنيث أسماء القبائل ، واشتقاق لفظ الأمة من الأم ، واطلاق لفظ الخال على أهل الأم جميعا ، وامتلاك بعض النساء عصمتهن بالطلاق ، وغير ذلك مما عول عليه صاحبنا فى اثبات قوله على ما سنبينه .. هذه كلها ــ اذا فرضنا ثبوتها ــ لايجوز اتخاذها دليلا على أن العرب كانوا ينتسبون الى أمهاتهم أو أن أساس العائلة عندهم المرأة . لأن وجود هذه الاحوال فى جاهلية العرب لا ينافى انتسابهم الى آبائهم ، بل هى تعد من قبيل الشواذ ، أو انها وقعت على سبيل الاتفاق . ولو جاز لنا أن نجعل الشواذ قواعد لفسدت أحكامنا وضللنا فى أقوالنا وعقائدنا . فالثابت منذ قرون عديدة أن العرب وغيرهم من الشعوب السامية كان نظام الاجتماع عندهم كما هو الآن ، أى ان الرجل رأس العائلة وهو سيدها ، ويؤيد ذلك لفظ « البعل » للزوج والسيد جميعا . ناهيك بشهادة التوراة ، فانها مع قدم عهدها لم يرد فى نص من نصوصها فقرة تشير الى الأمومة أو تدل على وجودها أو أثر شيوعها عند الساميين أو غيرهم ، ولو على سبيل النقد أو النهى أو الاصلاح . ولا ورد شىء من ذلك فى القرآن ، ولا شوهد منقوشا على الآثار فى مملكة من ممالك الشرق قديما ولا حديثا ، بل كل ما جاءنا من هذه السبيل يؤكد سيادة الأبوة عند الساميين . ولو افترضنا وجودها لاقتضى أن يكون ذلك قبل أسفار موسى بمدة لا نعلم مقدارها ، لأن هذه الاسفار لما كتبت لم يكن للأمومة أثر على الاطلاق . بل ينبغى أن تكون قد أمحت آثارها قبل موسى بعدة قرون ، لأن شريعة حمورابى التى اكتشفوا

---

(1) Zeitsch. der Deutch. Morg. Gesl. Bd. XVII, 707

نصها مؤخرا دونت نحو القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد (١) وكل ما جاء فيها عن الزواج والطلاق ونحوهما يدل على أن نظـــام العائلة كان فى عصر حمورابى نحو ما هو عليه الآن : الرجل رب العـــائلة . وليس فى نص من نصوص شريعته أو موادها لفظ أو عبارة أو قرينة تدل على وجود الأمومة ، لا تصريحا ولا تلميحا . ولا اطلعنا على ذكر الأمومة أو الاشارة اليها فى كتاب من الكتب القديمة المتصلة بالخرافات ، مع ما تتضمنه من أقاصيص الآلهة ونحوها . ولا اكتشف المكتشفون نقشـــا من نقـــوش الأطـــلال فيـــه اقل اشارة الى ذلك ، فكيف يجوز القول بوجودها والاستناد فى اثباتها الى بعض القرائن الضعيفة ؟

قول استرابون :

والظاهر أن القائلين بالأمومة عند العرب نبههم اليها ما طالعوه فى كتب السياح عن وجود زواج المشاركة عند بعض القبائل المتوحشة بين هنـــــود أمريكا وأستراليا وفى بلاد التبت ونحوها ، وان العرب الجاهلية كان عندهم نوع من هذا الزواج ، فذهبوا الى شيوعها قبل الاسلام ، وخصوصا بعد أن قرأوا ما قاله الرحالة استرابون عن الزواج عند العرب فى عصره ، أى نحو القرن الاول قبل الميلاد . فقـــد جاء فى الكتاب السادس عشر من رحلته ما ترجمته : « والزواج عندهم مشترك بين الاخوة ، فللأخوة جميعا امرأة واحدة ، والذى يدخل منهم اليها أولا يترك عصاه بالباب . وأما الليل فهو خاص بأكبرهم . وقد يأتون أمهاتهم ، والزناة يعاقبون بالقتل ، وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم » (٢) فقد يتبادر الى ذهن المطالع لأول وهلة أن هذه الفقرة تؤيد الأمومة ، وليس الأمر كذلك . لأن هذه القصة انما تشير الى اشتراك الاخوة فى الزواج بامرأة واحدة ، وليس أهل العشيرة جميعا . فهى تدل على وجود العائلة واستقلالها ، مما يخالف شروط الأمومة . وتشير أيضا الى تحريم الزواج الخارجى ، وهو من أسس الأمومة عند أصحابنا ، ويقول استرابون ان العرب كانوا يعاقبون مرتكبه بالقتل

وهب أن نص هذه الحكاية لايخالف ما يريدونه بالأمومة ، فتكون الأمومة شائعة عند العرب حوالى تاريخ الميلاد . وقد تقدم قول الاستاذ سميث أن العرب والعبران والآراميين كانوا فى أقـــدم أزمانهم عائشين معا فى جزيرة العرب ثم خرج العبرانيون والآراميون وظل العرب مكانهم . وبينا قبلا أن العبرانيين لا ذكر لهذا الزواج عندهم على الاطلاق ، ولا سمعنا بمثله عند الآراميين ، واغفال حمورابى ذكره فى نصوص شريعته يدل على أنه لم يكن

(١) الهلال سنة ١٣ (٢) Strabon, Trad. A. Tardien, Livre XVI, 25

معروفا فى عصره فى بلاد ما بين النهرين أو ما يجاورها ، فكيف نصدق وجوده عند العرب نحو تاريخ الميلاد ؟ فالأرجح عندنا أن يكون استرابون قد شاهد حادثة من هذا النوع عند بعض الناس فأطلقها على سائر العرب ، أو سمعها من بعض الرواة فصدقها لغرابتها ، فأوردها على علاتها كما يفعل كثيرون من أمثاله ، الذين يرحلون الى بلاد الشرق فيعولون فى وصف أهله وعاداتهم على ما يلقيه اليهم بعض التراجمة أو عابرى السبيل ، بما فيه من المبالغة أو الاختلاق ، وهم أرغب فى نشر الغريب استجلابا لاعجاب قرائهم ، كما حدث فى الأجيال الوسطى وما بعدها على اثر انتشار الاسلام

ومع اشتغال الافرنج بنقل العلم عن الكتب العربية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد ، واختلاطهم بالمسلمين فى قرطبة وطليطلة وغيرهما ، فقد ظلوا يجهلون تهجئة اسم النبى فيكتبونه تارة مفمت Mophomet ، وآونة بفمت Bophomet ، وحينا بافون Bafon ، وكانوا يظنون محمدا صنما يعبده المسلمون . حتى يولوجيوس أحد كهنة قرطبة العلماء ، مع مخالطته المسلمين فى تلك العاصمة ، فقد كتب عن الاسلام مفتريات لا أصل لها فى كتبهم ولا فى تعاليمهم ، كقوله مثلا ان النبى (صلعم) أعلن أصحابه أن الملائكة ستحمله الى السماء بعد موته بثلاثة أيام ــ زعم أنه نقل ذلك من مسودات لاتينية عثر عليها فى بمبلونة . فقس عليه ما قد يختلقه غير العارفين ، كما حدث ويحدث كل يوم الى عهد غير بعيد . حتى الذين يقيمون بين اظهرنا أعواما فقد ينقلون عنا الأكاذيب التى ما أنزل الله بها من سلطان ، وربما رأوا حادثة غريبة ارتكبها بعض الناس عن جهل أو اتفاق فيعدونها من القواعد المرعية عند سائر أفراد الأمة . وبين يدينا رحلات عديدة كتبت ونشرت فى أثناء القرنين الماضيين عن سوريا ومصر ، وفيها من المفتريات ما لا أصل له الا فى ذهن الكاتب أو ملقنه . ولولا انتشار الطباعة وخروج الناس الى نور العلم وتصحيح تلك المفتريات ، لرسخ فى أذهان أهل الغرب أن الشرقى يكدن امرأته للحراثة ، وأنه يزرع القوارما (اللحم المقلى) وهو يعتقد أنه سيستغل خرفانا ، ويزرع الفحم ليستغل عبيدا . . فكيف فى عصر استرابون منذ نيف وتسعة عشر قرنا وهو يكتب عن قوم لايعرف لسانهم ولا أقام بينهم ؟ ويؤيد ذلك أن تتمة قوله فى هذا الموضوع تدل على أنه أورده على سبيل الحكاية ، ولم يغفل الاشارة الى ضعف اسناده بقوله يزعمون On dit فلا عبرة بما ذكره استرابون فيما يختص بالأمومة ، وهو بظاهره أصرح أدلة صاحب طوتمية العرب . وأما سائر أدلته فانما هى قرائن ضعيفة لا يصح الاعتماد عليها . وحتى لايقال اننا لم ننصفه نأتى بتلك الأدلة وننظر فى كل منها على حدة وهى :

١ ــ الانتساب الى الامهات (صفحة ٢٧ و ٣٠ من كتابه) :

كقولهم بنو خندف وبنو ظاعنة وكلاهما اسم امرأة نسبت القبيلة اليها ــ

ولو نقبنا بين المئات من أسماء القبائل والبطون والأفخاذ ما وجدنا بينها من ينسب الى أمهم الا بضعة قليلة . فأى غرابة فى ذلك وبين العائلات اليوم نحو عشرة فى المئة ينسبون الى الأمهات ، كآل ظريفة وآل تقلا وآل نور وآل نائلة وآل مارية ، وقس عليه أهل اللغات الاخرى ؟ فهل يجوز الذهاب الى ان هـــذه الاسماء من آثار الامومة عند أسلافنا ؟ أم نأتى على تعليلها من الطريق الاقرب ، وهو أن بعض هذه العائلات نسبت الى امرأة هى جدتهم العليا ، لأن جدهم مات وهى كفلتهم وربتهم فعرفوا باسمها . وقد يكون الأب مجهولا لحصول الحمل من السفاح مما يحدث فى الجاهليـــة وغيرها ، فيولد الولد لايعرف أبوه فينسبونه الى أمه ، كما وقع لزياد ابن أبيـــه الصحابى الداهية ، فقد كان يعرف بأمه سمية فيقال زياد بن سمية ، ولولا استلحاق معاوية اياه بنسبه لعرف أعقابه بآل سمية ، ولو تقادم عهد هــذه العائلة وتنوسى خبر أمها لأضافها صاحبنا الى أسماء أمهات القبائل وعدها من بقايا الأمومة

ويكثر الانتساب الى الأمهات على الخصوص فى الأمم التى يتزوج رجالهـا امرأتين فأكثر ، فيولد للرجل ولدان من والدتين يسميهما باسم واحد ، فينسب كل منهما الى أمه فضلا عن انتسابه لأبيه تمييزا له عن ابن الأم الاخرى ، وقد يشتهر بنسبته الى أمه دون أبيه ، وأمثلة ذلك كثيرة قبل الاسلام وبعده . فقد كان لعلى بن أبى طالب غير امرأة ، ولد له منهن عدة أولاد من جملتهم ثلاثة كل منهم اسمه محمد ، فنسب أحدهم محمد الاكبر الى أمه خولة بنت جعفر من بنى حنيفة فسماه محمد ابن الحنفية ، فلوعاش هذا فى الجاهلية لعرف أعقابه ببنى الحنفية بطن من هاشم او من قريش ، كما عرف بنو العدوية نسبة الى أمهم من قبيلة عدى

وقـــد يشتهر الرجل باسم أمه وان لم يكن له سمى من اخوته ، وانما يقع ذلك لشهرة والدته . فمحمد الأمين بن هرون الرشيد اشتهر بابن زبيدة ، لفضل أمه على سائر أمهات الخلفاء وشهرتها ، وقس عليه . فهل يجوز أن تؤخذ هذه الحوادث أدلة على الأمومة ؟ وزد على ذلك أن القبائل العربية التى تنسب الى امرأة ترجع أخيرا الى النسب الأبوى ، وهو العام الشامل . فبنو ظاعنة مثلا نسبوا الى أمهم ظاعنة وهم ينتسبون أيضا الى أبيهم ، فيقال لهم بنو ثعلبة بن مراد بن أد . وبنو خندف هم أيضا بنو الياس بن مضر ، وقد نسبوا الى أمهم امرأة الياس واســـمها خندف . وبنو طهية نسبوا الى أمهم ، وهم بنو سود بن مالك ، وقس عليه (١)

---

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٥

٢ ــ تأنيث أسماء القبائل (صفحة ٢٨) :

أى أن العرب تقول : جاءت مضر وسطت قيس الخ ، ولا يقولون : جاء مضر، وسطا قيس ــ فلا ندرى العلاقة بين تأنيث الاسم والأمومة ، والتأنيث والتذكير فى العربية لا قياس لهما ، ولو صحت الأمومة لما ضرها أن تكون أسماء القبائل مذكرة ، كما أن تأنيثها لايثبت وجود الأمومة . على أن لتأنيث القبائل سببا مبنيا على قاعدة من قواعد اللغة ، وهو تقدير لفظ « القبيلة » قبل كل اسم ، فقولنا « مضر » يراد به « قبيلة مضر » ، وقولنا « قيس » يراد به « قبيلة قيس » ، فالتأنيث للفظ القبيلة المحذوف . والحكمة فى ذلك دفع الالتباس بين أن يكون المراد بالفاعل رجلا اسمه قيس أو مضر او القبيلة . فاذا كان الفعل مؤنثا انصرف الذهن الى القبيلة . وعلى هذا المبدأ يؤنثون أسماء المدن وان لم يكن لفظها مؤنثا ، فنقول : فتحت بغداد وعمرت مصر أو الشام بتقدير لفظ « مدينة » . ونحن نقول اليوم : روت المقطم ، وذكرت المؤيد ، وقالت الهلال ــ فنؤنث الفعل ، والفاعل مذكر لفظا ومعنى ، وانما نقدر قبله كلمة الصحيفة أو المجلة

٣ ــ التعبير عن القرابة بالبطن (صفحة ٢٨) :

فيزعم أن تسمية القبيلة بالبطن يؤيد اعتماد العرب على قرابة الأم ، والواقع أن البطن فرع من فروع القبيلة على سبيل التشعب كالشجرة ، وانما جعلوا أسماءها شبيهة بأسماء أجزاء البدن بالنظر الى علاقتها بعضها ببعض ، أو تفرعها بعضها عن بعض . فالمجموع الاكبر عندهم « الحى » كناية عن الانسان كله ويراد به الجماعة النازلون بمربع . وهو ينقسم الى « الشعوب » أى الفروع ، والشعبان النصفان، كأنهم أرادوا انقسام الجسم الى شطرين متساويين : أيمن وأيسر . ويليها « القبائل » وهى قطع عظم الراس المشعوب بعضها من بعض . ثم « العمارة » كناية عن الصدر ، ثم « البطن » ، وبعده « الفخذ » ، وأخيرا « الفصائل » . فترى استخدام البطن للقبيلة أو بعض فروعها لا علاقة له بالأمومة ، وانما هو فرع من فروع النسب لما يقابله من أعضاء الجسد . واذا عدلنا عن هذا التعليل واعتبرنا كل اسم مستقلا ، وقبلنا التعليل الذى تبادر الى ذهن حضرته ، لاقتضى أن يدلوا بالبطن على العائلة التى هى من بطن واحد ، ولكنهم يريدون به القبيل المؤلف من عائلات

٤ ــ اشتقاق لفظ الامة من الام :

وهو عنده دليل على أن الاصل فى النسب الأم ، وخصوصا لأن الأم فى العبرانية تدل على القبيلة أو الجماعة ، ولكن هذا التعبير انما هو من قبيل المجاز ، مما لا يخفى على العارف بأساليب اللغة العربية ، كقولهم : أم القرى،

وأم المدائن ، والأمهات للعناصر . وعندهم الأم الاصل ، فأم كل شيء أصله وعماده ، وكل شيء انضمت اليه أشياء فهو أم لها . والاصل في هذه المعاني اتباع الأطفال أمهم ، لأنها هي المكلفة بتربيتهم في طفولتهم ، فيتبعونها وينقادون لأمرها لا لأنها أصل النسب . ولهذا السبب قالوا أم الكتاب أصله ، وأم القرى مكة ، وأم الدنيا مصر لكثرة أهلها . وأما اشتقاق الأمة من الأم فيعلل بنفس هذه الكيفية ، لاستعارة الأمومة للرئاسة أو من التوليد ، لظهور ذلك في النساء دون الرجال ، لأن المرأة تضع النسل وهي تتولى الحضانة والتربية . فاذا ذكرنا الولادة سبق الى أذهاننا الأم ، ولذلك غلب التعبير عن القرابة بعضو التوليد بالنساء كالبطن أو الرحم ، وليس لأن الأم أصل القرابة . ولو تتبعت معاني ما يقابل لفظ الأمة في سائر اللغات لرأيت لها نفس هذا المعنى ، فلفظ nation في اللغات الافرنجية معناه الأمة وهو مشتق من فعل في اللاتينية بمعنى « ولد » ، والانجليز يقولون Motherland ويريدون بها وطن الأبوين مع أن اللفظ يقتضي أن تكون وطن الأم فقط . فعلى تعليل صاحبنا تكون هذه اللفظة دليلا على شيوع الأمومة عند الانجليز الآن !

٥ ـ الخال والعم والكنة :

وذلك أن لفظ « الخال » بالعربية لا يراد به أخو الأم على الخصوص ، ولكنه يطلق على كل رجل من أهلها . وكذلك لفظ « العم » وان هذه اللفظة أصل معناها « الشعب » ، وذلك هو مؤداها في العبرانية الى الآن. وعليه فلا تكون عند العرب عائلة خصوصية وانما الولد يكون ابن الجماعة أو القبيلة على ما تقتضيه الأمومة أو الطوتمية ـ وهو قول غريب اذا صح الاعتماد عليه تشوشت أحكامنا في أنساب الانجليز والفرنسيين وغيرهم ، لأنك ترى عندهم نفس هذا الاطلاق أو الاشتراك ، فلفظ Cousin في ألسنتهم يدل على كل قرابة عصبية أبعد من الأخوة ، فهو ابن العم ، وابنة العم ، وابن العمة ، وابنة العمة ، وابن الخال ، وابنة الخال ، وابن الخالة ، وابنة الخالة ، وابن ابن العم ، وابن ابن الخال الخ . . . مما لامثيل له في العربية . والاصل فيه ابن الخالة ، لأنه منحوت من Consobrinus في اللاتينية أي ابن أخت الأم ـ فهل يفيدنا اطلاقه على كل الأقرباء أن الاصل في القرابة الأم ؟ وقس على ذلك لفظ uncle في الانجليزية وما يقابلها في اللغات الافرنجية الاخرى ، فانها تدل على العم أو الخال واصلها avunculus في اللاتينية ومعناها الخال ثم أطلقت على العم . والحقيقة أن لا عبرة في هذا الاختلاف فيما يختص بالأمومة ، فان اللغات تختلف في طرق الدلالة بما لا قياس له ، وخصوصا من حيث درجات القرابة . ففي بعض اللغات لفظ يدل على قرابة لا يعبر عنها في لغة أخرى الا بعدة ألفاظ : فالصهر في العربية لا يمكن التعبير عنه في

اللغة الانجليزية الا بثلاثة ألفاظ brother-in-law ، وكذلك الحمو فهو عندهم father-in-law ، والجد يعبر عنه فى اللغة الانجليزية بلفظين grand father ، وكذلك حفيد Grandson وبعكس ذلك لفظ Nephew فى الانجليزية فلا يمكن التعبير عنه فى العربية الابلفظين : ابن الأخ أو ابن الأخت ، ومثلها Niece بنت الأخ أو بنت الاخت — فدلالة كل من هذين اللفظين على أولاد الاخ والاخت معا قد يتخذها أصحابرأى الأمومة من جملة الأدلة عليها !

ولفظ « الكنة » فى العربية يراد به فى اللغات السامية الكنة والزوجة على السواء ، فاستدل صاحبنا بذلك على أن الرجل كان يتزوج كنته (أى امرأة ابنه أو امرأة أخيه) فلا رابط للزواج بين الرجل وامرأته . والجواب علىذلك يدخل فيما تقدم بيانه من اختلاف معانى الالفاظ توسعا ومجازا . ومثلها لفظ « صهر » يراد بها زوج بنت الرجل وزوج أخته ، ويراد بالصهر أيضا القرابة على العموم ، والاصـــهار أهل بيت المراة . ومنهم من يجعل الصهر من الاحماء ، فهل يصح الاعتماد على مثل هذا التوسع فى اثبات مبدأ أو رأى ؟

٦ — زواج المتعة :

وهو الزواج الوقتى ، أى أن يعقد الرجل على امرأة عقد زواج الى أجل مسمى فمتى انقضى الأجل بطل الزواج . فيرى صاحبنا ان هذا الزواج كان شائعا عند ظهور الاسلام ، وهو يحسبه يؤيد رأيه فى الأمومة ، وهى تقتضى اباحة نساء القبيلة لأهل القبيلة بلا عقد ولا شرط ، والمتعة لا تكون بدون عقد فهى تناقض ما أراد اثباته . فالمتعة ضرب من ضروب الزواج التىكانت شائعة فى الجاهلية ، وكلها تنفى الأمومة لأن الرجل فيها صاحب الســيادة وصاحب العصمة

٧ — الوأد :

يرى صاحب طوتمية العرب ان شيوع الوأد فى الجاهلية قلل البنـــات فاضطروا الى الاشتراك فى النساء ، فكان يشترك عدة رجال فى امرأة واحدة يستولدونها ويكون الانتساب اليها . وقد بالغ بعض الباحثين فى مسألة الوأد وتوهموها عادة شائعة فى بلاد العرب كلها ، والناقد يرى أنها كانت منحصرة فى مكان معين وزمان معين تحت أحوال مخصوصة ، والا فلا يعقل أن يعمد الناس الى دفن بناتهم ثم يضطروا الى المشاركة فى الأزواج وفى طاقتهم أن يتخلصوا من ذلك الضيق . وقد ذهب بعضهم الى أن العرب كانوا يئدون بناتهم خوف الفقر ، وهم فى حل من هذا الفقر لو استبقوهن على قلة البنات لما يجدون من اقبال الأزواج عليهن بالمهر والهدايا . وقال آخرون انهم كانوا يئدونهن خوف العار ، واذا صحت الأمومة لم يكن ثمة عار يخافه الآباء .

وخوفهم العار على بناتهم دلالة على الغيرة ، وهى لاتكون فى زواج المشاركة ، وفى الحالين فان دليله فى الوأد ساقط

٨ ــ العصمة فى يد المرأة :

وقد اتخذ امتلاك بعض نساء الجاهلية عصمتهن فى الزواج والطلاق دليلا على سيادة الأمومة ، وان المرأة هى رئيسة العائلة ــ فما أغرب هــذا الاستنتاج وما أنقص هذا الاستقراء . . ان المرأة فى الجاهلية لم تكن عصمتها فى يدها الا فى أحوال مخصوصة وحوادث نادرة ، فهل نجعل الشاذ قاعدة تبنى عليه ، والنادر قياسا نقيس به ؟ وأما القاعدة فى زواجهم فهى ان تكون العصمة فى يد الرجل . وهب أنها فى يد المرأة ، فلا تكون الا بعقد مقيــد بشروط وقوانين ، وليس على ســبيل الاباحة والاشتراك كما يريدون بالأمومة . وقس على ذلك سائر أدلته لاثبات الأمومة ، فان مرجعها الى تأويل الالفاظ والاعتماد على الاستقراء الناقص كقوله ان الأب معنــاه المربى ، وكاستخراجه الحى من حواء وذكره القرابة بالرضــاعة أو المؤاكلة وتأويل لفظ آحاب الى أخ أب ، ونحو ذلك مما يقاس فى رده بما قدمناه

الخلاصة :

فالقول بشيوع الأمومة فى العرب الجاهلية لايستطاع اثبــاته بالقرائن الضعيفة ، لأن اليقين لايزال بالشك ، الا اذا جاز الاعتماد على الشاذ واغفال القــواعد العــامة . فقــد رأيت فى شروط الأمومة أن يكون الزواج من الخارج بالغزو أو السبى ، لأن بنات القبيلة فى زعمهم تقل بالوأد أو بغيره ، وأن تكون المرأة زوجا لعدة رجال معا وأولادها ينسبون اليها ، فلم نفهم كيف يكون الزواج بالغزو ، وكيف يمكن الرجوع بالأنساب فى القبيلة الواحدة الى الأم ، ولماذا تقل البنات حتى تضطر القبيلة أن تغزو غيرها للحصول على النساء . والقاعدة الطبيعية فى تاريخ الانســان فى أدواره الاولى أن يكون النساء أكثر من الرجال ، لتعرض هؤلاء للقتــل ونحوه بالغزو والسطو ، والاولى أن يكثر النساء حتى يتزوج الرجل عدة منهن . على أن الحصول على النساء بالغزو يبعث على الرجوع الى النسب الأبوى ، لأن الآباء يبقون فى القبيلة . ويشبه ذلك ما كان من كثرة السبايا والجوارى فى صدر الاسلام ، فانهن تكاثرن حتى اختص الرجل بعشرة أو عشرات منهن ، وظل النسب فى الرجال ــ ولايمكن غير ذلك كما يظهر للمتأمل. ولوفرض أن النساء يحاربن القبائل للحصول على الأزواج بالسبى ، لكان ذلك أقرب الى حفظ النسب فيهن ، أى الانتساب اليهن أو الى قبيلتهن

فالقول بتسلط الأمومة على الاجمال يفتقر الى اثبات أو تعديل ، لأن وجودها على هــذه الكيفية غير معقول ولايوافق قواعد العمران ، أو هو

لايوافقها على الأقل عند العرب ، لأن القاعدة فى الزواج عندهم وعند سائر الساميين أن تكون داخل القبيلة ، واذا جنح أحدهم الى الخارج فلسبب طارىء . هذا هو حالهم فى أقدم ما نعلمه من أخبارهم فى التوراة وغيرها ، والعربى يسمى امرأته ابنة عمه وان لم تكن كذلك ، لأن الغالب فى الزواج عندهم أن يكون بين أبناء العم على تفاوت درجات العمومة . واليهود أكثر الأمم محافظة على أنسابهم ويمنعون الزواج من غير قبائلهم ، ويعاقبون من يخرج عن ذلك عقابا صارما ، واذا تزوج اسرائيلى بغير اسرائيلية فزواجه سفاح ، ويسمون المولود من ذلك الزواج « نغلا » كما يسميه العرب « هجينا » أى لئيما ، فكيف نزعم مع ذلك ان العرب القدماء كانوا يتزوجون من الخارج بالغزو ، واذا فرضنا انهم كانوا كذلك فمتى انتقل الزواج الى الداخل ، وكيف انتقلت الأمومة الى الأبوة أو البعولة ، ومتى ؟ كلها مسائل مهمة لايمكن الجواب عليهـا ، وأصحاب مذهب الأمومة أنفسهم يعترفون بعجزهم عن ذلك ، فما أغنانا عن الذهاب اليه . ومن يطالع تاريخ الزواج من أول أحوال العمران الى الآن لايرى فيه الا ما ينقض الأمومة

٤ ــ الطوتمية عند العرب

واذا نقض القول بالأمومة عند العرب نقض معه القول بالطوتمية عندهم ، لأنها أساسها وأول شروطها . ومع ذلك فاننا ننظر فى أدلة صاحبنا من حيث الطوتمية على حدة ، فنذكر شروط الطوتم كما فسره هو ، ثم ننظر فى تطبيقها على أحوال العرب

فالطوتمية يشترط فيها « أن يتفق أهل القبيلة الواحدة على حيوان أو نبات أو كائن آخر يعتقدون انه جدهم الأعلى يتسمون باسمه ويعبدونه أو يقدسونه » ، فهل ينطبق ذلك على أحوال العرب الجاهلية انطباقا كليا أو جزئيا ؟ ولكى ينجلى الموضوع ويتضح البرهان نحلل القضية الى أجزائها الاصلية ، وعليه فالطوتمية تقتضى :

أولا ــ أن يتفق أهل القبيلة على حيوان أو نبات يعتقدون انه جدهم الأعلى

ثانيا ــ أن يتسموا باسمه أو ينتسبوا اليه

ثالثا ــ أن يعبدوه أو يقدسوه

ولا تثبت الطوتمية ما لم تجتمع هذه المقدمات الثلاث عند العرب . ولو أنك بحثت فى أخبارهم قديمها وحديثها ، من الخرافات والحقائق الثابت منها وغير الثابت ، وفيما رواه غير العرب عن أحوالهم القديمة فى كتب اليونان والرومان فضلا عن التوراة ، وما قرىء من أخبارهم على آثار أشور وآثار

ثمود وآثار اليمن وحضرموت ، لما وفقت الى العثور على ما يشــير الى وجودها . واذا درست أحوال العرب الآن فى الصحارى والمدن والأودية والجبال ، لا تجد بينهم قبيلة ولا بطنا ولا رجلا يعتقد أنه متسلسل من أسد أو ثور أو ثعلب أو جميزة أو وردة . ومهما أجهدت نفسك فى التنقيب والمراجعة والتأويل فانك لا تجد أثرا لهذا الاعتقاد على الاطلاق ، ولو على سبيل الخرافة أو فى معرض التكذيب أو الطعن — فالمقدمة الاولى سقطت

أما الثانية فبعضها صحيح ، أى ان بعض القبــائل تسمى بأســماء الحيوانات ، كبنى أسد وبنى النمر وبنى كلب ونحوها ، ولكنها لا تعتقد أن أولئك الأجداد حيوانات ، بل هى تعدهم أناسا لهم أنساب متصلة بالآباء الأولين

والمقدمة الثالثة ظاهرها صحيح وباطنها فاسد ، لأن بعض قبائل العرب كانت تعبد آلهة على شكل الحيوانات ، مثل عبادة سائر الأمم الوثنية القديمة فى مصر وأشور وفينيقية ، ممن كانوا يعبدون أصناما يمثلون بها القوى العلوية — لا انها تعبد حيوانا خاصا تقدسه وتجتنب أذاه وتعتقد انه جدها كما يفعل أصحاب الطوتم . فبنو أسد مثلا يتسمون باسم الأسد ، ولكنهم لايعتقدون انه جدهم ولا يقدسون الأسد أو يعبدونه ، واذا عرض لهم الأسد قتلوه . وقد يكون معبودهم من الحيوانات بشكل نسر أو فرس أو غيرهما من الاصنام الحيوانية . وشرط الطوتمية انما هو أن يعتقد بنو أسد أن الأسد جدهم ، وأن يقدسوا كل أسد أو يعبدوه أو لا يؤذوه . وبنــو ثور يجب أن يعتقدوا أن الثور جدهم ، وأن يعبدوا الثيران أو يقدسوها ولا يذبحوها أو يؤذوها . وبنو جراد حقهم أن يعتقدوا تسلسلهم من الجراد ، ويقدســوه ولا يأكلوه كما رأيت فيما تقدم من شروط الطوتمية عند الأمم المتوحشــة اليوم . ولا يكفى أن تسمى القبيلة باسم الثور مثلا وتقدس الجراد ، أو تتسمى باسم الأسد وتقدس الفرس . ولو فرض واتفق لقبيلة أن تسمى بحيوان وتقدسه أو تعبده فليست من الطوتمية فى شىء ، لأن الشرط الأول أن تعتقد تسلسلها عنه . وهذه الشروط الثلاثة لم يتفق وجودها فى قبيلة من قبائل العرب ، ولا فى بطن من بطونها ، ولا فى فصيلة ولا فرد منأفرادها ولو على سبيل الخرافة أو الأكذوبة . حتى اجتماع الشرطين الأخيرين فانه متعذر ، اذ ليس بين قبائل العرب قبيلة تسمى باسم حيوان وتعبده ، ولا يكفى أن تعبد صنما بشكل ذلك الحيوان ، بل الشرط أن تقدس جنس هذا الحيوان وتتجنب أذاه ، كما كان المصريون يقدسون الهر أو الجعلان. والعرب لايقدسون حيوانا الا نادرا وفى أحوال مخصوصة . على أن صاحبنا لم يتفق له ، مع ما أجهد نفسه وتوسع فى برهانه من التأويل والتفسير ، أن يأتى بدليل على أن قبيلة من القبائل المسماة بأسماء حيوانية كانت تعبد صنما

بشكل الحيوان الذى تتسمى به ، وان كان توفيقه الى ذلك لاينفعه شيئا ، لأن المطلوب ان القبيلة التى تتسمى باسم حيوان يجب أن تقدس جنس ذلك الحيوان لا صنما بشكله

فمذهب الطوتمية عند العرب ساقط بسقوط الأمومة ، ثم هو ساقط أيضا لبعد أحوال العرب عن شروط الطوتمية كما رأيت ــ ومع ذلك فلا ينبغى لنا الاغضاء عن الأدلة التى اعتمد عليها صاحب طوتمية العرب فى اثبات هذا الرأى وسبب ذهابه اليه مع غرابته فنقول :

٥ ــ أدلته على طوتمية العرب

ان من يطالع تلك الأدلة فى كتابه يتضح له من مجملها انه لما اطلع على أحوال الطوتمية عند القبائل المتوحشة كما ذكرها مكلينان وغيره ــ وهو مستشرق يعرف أحوال العرب الجاهلية وقبائلها وانسابها ومعبوداتها ــ ورأى بعض القبائل أو البطون تسمى بأسماء حيوانية ، وكان العلماء يومئذ مولعين بالحقائق الطبيعية على مذهب الارتقاء يشتغلون برد كل الحوادث اليه كما قدمنا ، ورأى النسابين العرب مختلفين فى تحقيق أنساب بعض القبائل ، تبادر الى ذهنه أن أسماء هــذه القبائل من بقايا الطوتمية عند العرب ، فأخذ يفتش عن شروطها الاخرى ، فرأى بعض القبائل تعبد أصناما بشكل بعض الحيوانات ، فتمكن ذلك الرأى من ذهنه ونسى أن الشرط ليس عبادة صنم حيوانى الشكل وانما المراد تقديس صنف من الحيوانات اسمه كاسم القبيلة . أو لعله انتبه لذلك وظن نفسه قادرا على الاتيان بحادثة يمكن تأويلها أو قرينة يستدل بها على شىء ، وأخبـار العرب كثيرة وفيها الغث والسمين والناقض والمنقوض ، وهو قوى الحجة لطيف الاسلوب فوفق الى أدلة توهم غير المتأمل أنه أصاب بها المرمى وهو بعيد عنه كما سترى . واليك أدلته وبيان فسادها :

تسمية القبائل باسماء حيوانية (صفحة ١٨٨) :

ليس بين ادلته على الطوتمية ما يصح اعتباره من قبيل القول الصريح الا أسماء القبائل ، وان كانت هذه الاسماء لاتكفى وحدها لاثبات رأيه لأسباب تقدم بيانها . ولكنه يحتج بأن تسميتها بأسماء حيوانات ليست من قبيـل العبث ولا بد لذلك من سبب . فعلينا أن ندفع حجته بأن هذه التسميات طبيعية لا غرابة فيها

ان صاحبنا الاستاذ أورد من أسماء القبـائل كل ما يشتم منه رائحة الحيوانية ، ولم يزد عدد ما أورده منها على ثلاثين اسما ، بعضها قبـائل وبعضها عمائر وبعضها بطون أو فصائل وهى :

بنو أسد	بنو جعدة	بنو ضب	بنو قهد
بنو بدن	بنو جعل	بنو ضبيعة	بنو كلب
بنو بكر	بنو حداء	بنو عضل	بنو نعامة
بنو بهثة	بنو حمامة	بنو عنز	بنو نمر
بنو ثعلب	بنو حنش	بنو غراب	بنو وبر
بنو ثور	بنو دؤيل	بنو فهد	بنو هوزن
بنو جحش	بنو دب	بنو قرد	بنو يربوع
بنو جراد	بنو ذئب	بنو قنفد	

ولو عددنا أسماء القبائل العربية وفروعها من العمائر والبطون والافخاذ والفصائل لزادت على بضع مئات ، وربما ناهزت الألف . فلو كانت التسمية طوتمية لوجب أن يزيد عدد القبائل الطوتمية على سائرها ، ثم ان بعض ما أورده من الاسماء له غير معنى الحيوانية ، ولكنه اختار الحيوانية ليزيد أسباب برهانه . فبكر مثلا تفسر بولد الناقة ، ولكن لها معنى « العذراء » ، و « أول كل شيء » ، والسحابة ، والكرم أول حمله ، وغير ذلك . على أننا لو رجحنا معناها الأول ، اى ولد الناقة ، لما كان فى التسمية شيء من الطوتمية ، لأن العرب لو جاز أن يتسموا بحيوان ويعبدوه لكان « الجمل » أو « البعير » أولى من سواه ، نظرا لاضطرارهم اليه وقدم عهده عندهم ، وليس من القبائل ما يسمى به الا بكر هذا ، وهو أقرب أن يكون لقبا لقب به رجل فتى نشيط كأنه ولد الناقة . و «البهثة» البقرة الوحشية ، وابن الزناء . و « الجعدة » الانثى من أولاد الضأن ، والمرأة فى شعرها جعودة ، فلماذا لايكون المراد بها المعنى الثانى لو لم يسبق الى ذهنه الطوتمية ؟ و « العضل » الجرذ ، ولكنه أيضا يدل بكسر العين على الداهية من الرجال أو القبيح منهم ، فلماذا لايكون المراد أحد هذين المعنيين ؟ و « القهد » نوع من ضأن الحجاز ، ولكنه يدل أيضا على الرجل الابيض اللون نقيه . وقس على ذلك — فالقبائل التى تثبت تسميتها بأسماء الحيوانات لا تزيد على بضعة وعشرين قبيلة أو فرع قبيلة .

فاتفاق هذا العدد القليل بين مئات من الاسماء لايصح عزوه الى الطوتمية ، فان الناس ما برحوا منذ القدم يتسمون بأسماء الحيوانات ، أو يتلقبون بها ثم يذهب الاسم ويبقى اللقب كما سنبينه

التسمية :

ان لأسماء الأعلام تاريخا طويلا فى علم العمران ، وهى تختلف صورة ومعنى باختلاف العصور وباختلاف الأمم . فكل أمة تختلف التسمية فيها عما فى سواها ، وتختلف فى الأمة الواحدة باختلاف أدوار تمدنها . على أنها

فى كل حال تقتبس مما يقع فى النفس موقع الاعتبار من الكائنات على اختلاف طبقاتها ، فتختار من أسمائها ما يلائم عاداتها ومعتقداتها . فاذا تدينت انتسبت الى الاله أو الآلهة ، سواء كانت تلك الآلهة اجراما سماوية أو حيوانات أو أصناما أو غير ذلك . اما قبل التدين أو فى حال البداوة الخشنة ، فالغالب أن يختار الناس لأبنائهم أسماء ما يعجبون به أو يخافونه من الاجسام الطبيعية ، ولاسيما الحيوانات على ما يتوسمونه فى المولود من القوة أو الشجاعة أو الدهاء أو الدعة أو الخوف . فيختارون له اسم حيوان فيه مثل هذه الطباع ، فيسمون الرجل الشجاع بالأسد ، والسريع الوثوب بالنمر ، ويسمون الفتاة اللطيفة بالغزال أو الحمامة . وقد جرى على ذلك معظم الأمم القديمة فى كل أنحاء العالم ، ولا سيما الأمم الحربية أو أهل البداوة والغزو الذين يعيشون فى البرارى ويرحلون من نجع الى آخر والحيوانات عشراؤهم ، كما كان شأن العرب فى أيام جاهليتهم فقد كانوا يعيشون بين الحيوانات حتى درسوا طبائعها ووصفوا كلا منها بوصف خاص ، فاذا ولد لهم ولد هان عليهم تشبيهه بواحد منها بشكله أو طباعه ويسمونه به

وليس هذا خاصا بالعرب ، بل هو يتناول سائر أهل البادية أو من جرى مجراهم قبل تعلقهم بالدين . فاليهود كانوا فى أوائل أدوارهم يجرون فى التسمية على هذا النمط ، ولذلك رأيت بين أسمائهم القديمة كثيرا من أسماء الحيوانات ، كقولهم دبورا (نحلة) وأربه (أسد) ويونا (حمامة) وراحيل (نعجة) وشوال (ثعلب) وكالب (كلب) وديسان (غزال) ، أو أسماء الاجرام السماوية مثل حودش (الهلال) . ومن الاوصاف الطبيعية أشور (أسود) وايدوم (احمر) وعيسو (كثير الشعر) وكوره (شجاع) . وقس على ذلك سائر الأمم القديمة ، ولاسيما قبل تدينها فقدماء الانجليز كانوا يتسمون بأسماء الحيوانات أيضا ، ومن أسمائهم القديمة Ethelwolf (الذئب الشريف أو ذئب الحرث) وقد تسموا بالاوصاف الطبيعية كالابيض والاسمر والطويل والقصير ، ثم تدرجوا الى الصناعات كالحداد والنجار والنقاش والسروجى . وانما يهمنا فى هذا المقام الاسماء الحيوانية ، وهذه لم تخل أمة من التسمية بها ، على تفاوت فى ذلك بتفاوت أحوالهم من البداوة والحضارة . ولا يزال عند الأمم المتمدنة حتى الآن عدد كبير منها أو ما يقابلها من أسماء الكائنات الطبيعية كالحجارة والاشجار ، واليك أمثلة من ذلك :

فمن الأسماء اليونانية والرومانية :

كالأسد أو الأسد	Leonidas
أسد الغاب	Napoleon

صخر	Peter
محب الخيل	Philip
غزال	Darcas
أسد	Leo

ومن الاسماء الجرمانية والسكسونية والتيوتونية :

النسر أو قوى كالنسر	Arnold
الحجر الشريف	Athelston
الذئب أو قوى كالذئب	Bernard
العقاب أو قوى كالعقاب	Bertram
الخنزير البرى	Everard
نعجة	Giles
عقاب	Ingram
أســـد	Leonder
كالأسد أو كالعقاب	Leonard
خروف	Oven
ذئب المنازل	Randal
الذئب المشهور	Rodolph
الحية الشريفة	Ethelnid

ومن الأسماء الفارسية القديمة :

شيركوه	اسد الجبل
ببر أو بابر	الأســـد
جمشيد	وجه الشمس
أردشير	الاسد الغضوب
بلاش	نوع من النمر
سيمورغ	السمك الفضى
زرسب	الجواد المذهب
بهرام	المريخ
الضحاك	الثعبان

فترى مما تقدم أن التسمية بالاسماء الحيوانية من القواعد الطبيعيــة المرعية عند سائر الأمم ، وربما كان العرب أكثر تمسكا بها لما تقتضيــه بداوتهم وخشونتهم ، ولذلك كثرت عندهم الأسماء المتعلقة بالحروب أيضا ، كحرب ونصر وسعد وعدوان وعبس واشجع وسهم وصخر ونحوها — قيل لأبى الدقيش الاعرابى : « لم تسمون أبناءكم بشر الاسماء نحو كلب

وذئب وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ » فقال : « انما نسمى ابناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا » (١)

على ان المتعبدين من العرب للأصنام كانوا يتسمون عبيدا لها كعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس وعبد سعد وعبد تيم وغيرها . ولما أسلموا كثرت أسماؤهم المنسوبة لله أو بعض صفاته ، كعبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم وعبد الأحد وعبد الصمد . وذلك شأن الأمم المتدينة فى كل مكان وزمان ، فالاشوريون كانوا يتسمون بالنسبة الى آلهتهم مثل « تغلاتنين » عبد الاله تنين ، و « متاغل نبو » عابد نبو ، وكذلك البابليون فانهم يضيفون أسماءهم الى الههم « بل » أو « نبو » ، فيقولون « بل ابنى » بل صنعنى ، و « نبو نصر » أى نبو ينصر ، و « عبد نبو » أى عبد الاله نبو ، و « نبو بالوزور » نبو يحمى ابنى (٢) وكذلك اليونان بعد تنصرهم ، ومن أسمائهم « ثيودسيوس » عطية الله ، و « ثيودورس » عبد الله وغيرهما

فتسمية العرب الجاهلية رجالهم بأسماء الحيوانات أمر طبيعى يؤيده تصغير تلك الاسماء للتحبب ، كقولهم ذؤيب وأسيد وكليب ونحو ذلك ، مما لايفسر الا اذا كانت تلك الاسماء ألقابا للناس . وظل العرب على ذلك فى بداوتهم حتى تدينوا وتسموا بالأسماء الدينية كما تقدم . ولما تمدنوا تسموا بأسماء الصناع كالنحاس والصيدلانى والكحال والنجار والاسطرلابى ، ولما ضعفت عصبية النسب عندهم تسموا بالنسبة الى البلاد كالدمشقى والبغدادى والبصرى والبخارى والنيسابورى وغيرها — فبقاء بضعة وعشرين من القبائل القديمة على أسماء الحيوانات ليس أمرا غريبا

قال الجاحظ فى كتاب الحيوان : « والعرب انما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فان سمع انسانا يقول حجر أو رأى حجرا ، سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانه يحطم ما لقى ، وكذلك اذا سمع انسانا يقول ذئب أو رأى ذئبا تأول فيه الفطنة والمكر والكسب ، وان كان حمارا تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، وان كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب ، ولذلك صور عبيد الله بن زياد فى دهليز كلبا وكبشا وأسدا وقال: كلب نابح وكبش ناطح وأسد كالح ، فتطير على ذلك فطارت عليه »

التلقيب :

هذا على فرض انها أسماء سمى بها آباء تلك القبائل ، ولكن كثيرا منها

---

(١) الدميرى ٢٤٢ ج ٢

(٢) Rawlinson's Ancient Monarchies, II. 539 & III, 527

كان فى الاصل لقبا ألحق بالاسم الاصلى ، ثم ذهب الاسم وبقى اللقب ، مما يقع دائما وخصوصا عند العرب ، لأنهم مفطورون على التلقيب والتكنية ، ويتضح لك ذلك من مراجعة معجماتهم ، فانك ترى للأسد مئات من الاسماء أكثرها ألقاب لقبوه بها ثم صارت أسماء ، وكذلك الديك والغراب والفرس والبعير والذئب والحية والجراد وغيرها من حيواناتهم ، غير أسماء الاسلحة ، ناهيك بالمترادفات من أسماء الشمس والمطر والبحر والبئر واللبن والعسل والخمر والنار . ومن الألقاب كالطول والقصر والشجاعة والجبن والكرم والبخل والحمق ونحوها (١) ولكل منها مئة أو مئات من المترادفات وأكثرها ألقاب أو كنايات تدل على أن ميل العرب الى التلقيب والتكنية من فطرتهم

وكانوا يضربون الأمثال غالبا بالبهائم ، فلا يكادون يذمون أو يمدحون الا بذلك ، لأنهم جعلوا مساكنهم بين السباع والأحناش والحشرات ، واستعملوا التمثيل بها لما ألفوه من طبائعها ، وخصوصا القبائل العدنانية لسكناهم فى صحارى نجد والحجاز ، وبلادهم أكثر وعورة وخشونة من القحطانية ، ولذلك كانت أسماء الحيوانات أكثر فى قبائلهم مما فى القبائل القحطانية . وقد درسوا تلك الطبائع بالمزاولة واختصوا كل حيوان بطبيعة نسبوها اليه ، كالروغان للثعلب ، والشجاعة للأسد ، والصبر للحمار ، والأمانة للكلب ، والغضب للنمر ، والثقل مع الخساسة للفيل ، ونحو ذلك وصاروا يعوضون عن الالقاب بأسماء تلك الحيوانات ، فبدلا من قولهم : « شجاع » يقولون : « أسد » ، وبدلا من صبور يقولون : « حمار » ، ويكنون عن المراوغ بالثعلب ، واذا أرادوا أن يقولوا غضب فلان قالوا : « تنمر »

وكانوا من الجهة الاخرى يلقبون الحيوانات بأسماء الناس أو كناهم ، فالفيل كنيته أبو حجاج ، والأسد أبو الحارث ، والذئب أبو جعدة ، والدب أبو رباح ، والخنزير أبو قادم ويقال أبو عقبة ، والثعلب أبو الحصين ، والكلب أبو خالد ، وأبو ناصح عند بعضهم ، والسنور أبو خراش ويقال أبو غزوان ، والغزال أبو الحسين ، والجمل أبو صفوان ويقال أبو أيوب وأبو مزاحم ، والثور أبو حاتم ، والكبش أبو المطرف ، والنمر أبو وثاب ، والفهد أبو قرة ، والفرس أبو طالب ، والبرذون أبو مضاء ، والبغل أبوالمختار، والحمار أبو زياد . وعندهم أم حبين الجرادة ، وأم عوف الحمامة ، وأم مهدى الدجاجة ، وأم حفص الهدهد ، وأبو الميت الجعالة ، وأبو الصراة القملة ، وأم عقبة الحية ، وأم يقظان العقرب ، وقس عليه

وكان التلقيب عاما فى الشعوب السامية ، اعتبر ذلك بما جاء فى التوراة

---

(١) لطائف اللغة العربية

عن تلقيب يعقوب لأولاده لما جمعهم فى آخر أيامه ، فعبر عن أوصاف بعضهم بأسماء الحيوانات ، فسمى يهوذا شبل أسد ، ويساكر حمارا ، ودان ثعبانا ، ونفتالى ايلة ، وبنيامين ذئبا . وترى أمثال التلقيب فى أماكن كثيرة من التوراة ، ويدل ذلك على شيوع هذا التلقيب عند الساميين قديما ، ثم قل عند العبران والسريان لما سكنوا المدن وأخلدوا الى السكون ، وظل عند العرب لبقائهم على البداوة . وما زال ذلك شأنهم الى صدر الاسلام وما بعده ، ولا تزال بعض أسماء الحيوانات تستخدم للتكنية الى اليوم ، وقد تنوسى معناها الاصلى كالقرم للسيد العظيم ومعناه فى الاصل « الفحل » ، وكذلك « الرت » للباسل وهى اسم للخنزير ، و « الاصيد » للملك وهو البعير . على أنهم كثيرا ما كانوا يلقبون بأعضاء الحيوانات المفترسة كالناب والانف والقرن فانها من ألقاب الشجاعة والقوة عندهم (١) ومن عادات العرب اذا مات لأحدهم أولاد وخاف انقطاع ذريته أن يسمى أولاده بأسماء الحيوانات المفترسة ، كالذئب والنمر وغيرهما ، ولا تزال هذه العادة جارية فى سوريا الى اليوم

فترى أن التلقيب بالحيوانات كان شائعا عند العرب قبل الاسلام ، على انهم ساروا عليه بعد الاسلام فسموا حمزة عم النبى (صلعم) « أسد الله » أو « أسد رسول الله » ، وكذلك على ابن أبى طالب لشجاعتهما (٢) وقد سموا مروان بن محمد بالحمار لصبره . ويكون التلقيب للمدح كما رأيت أو للذم ، كتسميتهم عثمان بن عفان « نعثل » وهو ذكر الضباع ، وتسمية عبد الملك بن مروان « أبا زبان » لبخره و « رشح الحجر » لبخله (٣) ، وتلقيب بنى عمرو بن عمر أفواه الكلاب لبخر أفواههم

ومن أدلة رغبتهم فى التلقيب أنهم يلقبون الرجل ببيت شعر نظمه أو لفظ قاله أو حادثة جرت معه مما لا ضابط له ، فالمرقش الشاعر أصل اسمه عوف بن سعد فنسى الاسم وبقى اللقب ، والمتلمس اسمه جرير بن عبد المسيح ، والنابغة اسمه زياد بن معاوية ، وكذلك المخرق وتأبط شرا واعصر والمستوعر وغيرهم ممن ذهبت أسماؤهم وبقيت القابهم — فماذا يمنع حدوث ذلك قبل التاريخ ، فيلقب أبو القبيلة بما يناسب خلة من خلاله مدحا أو ذما ثم يتناسى الاسم ويبقى اللقب ؟ وفى أخبار العرب أمثلة كثيرة من هذا النوع ، فقيس عيلان أصل اسمه قمعة ولكنه اشتهر بلقبه ، وكذلك قريش وغيره . وقد يكون للتلقيب سبب متصل بحادثة ، فعنزة أبوالقبيلة المعروفة سمى بذلك لأنه قتل رجلا بعنزة وأصل اسمه عامر . والحظائر

---

(١) الالياذة العربية (المقدمة)
(٢) والافرنج يلقبون جوستافوس ادولفوس ملك السويد بأسد الشمال
(٣) المعارف ١٢١

سمى بذلك لأن المنذر بن امرىء القيس كان جمع أسارى بكر فى الحظائر ليحرقهم ، فكلمه فيهم فشفعه وأصل اسمه كعب . والزبرقان سمى بهذا الاسم لجماله وسمى القمر أيضا ، وكلاهما غير اسمه ولا يعرف الا بهما . وقصى أصل اسمه زيد ، وعبد المطلب اسمه عامر وكلاهما يعرف باللقب فقط . وقد يكون اللقب اسم حيوان أو لقبا من القابه ، مثل جساس اسم الرجل المشهور ، فمعناه فى اللغة الأسد المؤثر فى الفريسة ببراثنه وأصل اسمه عمرو بن مرة البكرى ، وقس على ذلك ألقاب الخلفاء بعد الاسلام ، فان أكثرهم يعرف بلقبه كالفاروق والصديق والمنصور والرشيد والمأمون وغيرهم

فاذا اعتبرنا شيوع التسمية بأسماء الحيوانات أو التلقيب بها ، وامكان بقائها وذهاب الاسماء الاصلية ، مع ميل العرب من فطرتهم الى ذلك ، فوجود بضعة وعشرين اسما حيوانيا بين مئات من أسماء القبائل لا يعد شيئا غريبا

التلقيب بصيغة الجمع :

على أننا رأينا صاحب طوتمية العرب يعلق اهمية كبرى على تسمية بعض القبائل بجمع أسماء الحيوانات ، مثل الانمار والكلاب والأراقم والضباب ، فعنده أن وجود هذه الاسماء بصيغة الجمع لاينطبق على تفسيرنا من حيث تلقيب ابى القبيلة بلقب يبقى ويذهب اسمه الاصلى . ويرى أن هذه الصيغة دليل قوى على الطوتمية ، لأن ابناء قبيلة النمر يعدون أنمارا ، وأبناء قبيلة كلب يعدون كلابا على مقتضى شروط الطوتمية

والجواب على ذلك ان التلقيب بصيغة الجمع للقبيلة كان شائعا عند العرب مثل شيوع التلقيب بصيغة المفرد للفرد . وكانوا يلقبون القبيلة بصفة عامة تشترك فيها أو يغلب شيوعها بين افرادها ، كالكرم والبخل والحلم والغدر ونحو ذلك . فلما انتشر الاسلام وضعوا لأهل الاقاليم أوصافا يمتاز بها بعضهم عن بعض

فمن أمثلة أوصاف القبائل فى صدر الاسلام أن معاوية سأل دغفلا النسابة : ما تقول فى بنى عامر بن صعصعة ؟ قال : اعناق ظباء ، وأعجاز نساء . وقال : فما تقول فى بنى أسد ؟ قال : عافة قافة ، فصحاء كافة . قال : فما تقول فى بنى تميم ؟ قال : حجر خشن ، ان صادفته آذاك وان تركته أعفاك . قال : فما تقول فى خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث . ومن هذا القبيل أن الحجاج سأل ابن القرية عن قبائل العرب فوصف كلا منها بما امتازت به ، وليس فى وصفه مجون . قال :

قريش : أعظم القبائل أحلاما وأكرمها مقاما
بنو عامر : أطولها رماحا وأكرمها صباحا
بنو سليم : أعظمها مجالس وأكرمها محابس
ثقيف : أكرمها جدودا وأكثرها وفودا
بنو زبيد : ألزمها للرايات وأدركها للثارات
قضاعة : أعظمها اخطارا وأعظمها نجارا وابعدها آثارا

وهكذا حتى أتى على معظم القبائل ثم وصف الاقاليم مما لا محل له هنا

وعلى هذا النمط كانوا يلقبونهم بأسماء حيوانات يغلب فى طباعها الخلة التى اشتهرت تلك القبيلة بها ، وقد يذهب الاسم الاصلى ويبقى اللقب وحده وتعرف القبيلة به ، كما حدث بالانمار فانها قبيلة من نزار لقبت بذلك لاشتهار أهلها بالقنص كأنهم انمار فى الوثوب على الفريسة ، قال النابغة من معلقته :

اهوى له قانص يسعى بأكلبه عارى الاشاجع من قناص أنمار (١)

وكذلك الاراقم — قبيلة من بنى تغلب — لقبوا بذلك لأن عيونهم شبهت بعيون الحيات الاراقم فعرفوا بهذا الاسم(٢) والعنابس — أى الاسود — لقبوا بذلك لشجاعتهم . وقد يطلق لقب واحد على غير رجل أو غير قبيلة ، وتعرف كل قبيلة باسمها الاصلى كالاراقم المتقدم ذكرها ، فانها لقب لجشم ومالك وعمرو وثعلبة والحرث ومعاوية بنى بكر بن حبيب من تغلب (٣)

وليس تلقيب القبائل على هذه الصورة خاصا بالعرب الجاهلية بل هو شائع فى عرب هذه الايام . واشهر ما تداولته الألسن من هذا القبيل تلقيب النقاش لأهل لبنان فى أواسط القرن الماضى ، اذ أرسلته الدولة العثمانية لمسح لبنان واحصاء سكانه ، وكان ظريفا وفيه دعابة فكان اذا نزل القرية أو البلد لقب أهله بأول تشبيه يتبادر الى ذهنه عند اقباله على ذلك البلد — واليك القاب بعض أهل القرى من أقاليم الغرب ، وأكثرها أسماء حيوانات بصيغة الجمع :

اسم البلد	لقب أهله
أهل نجباع	الشواح
أهل نيحة	النور
أهل بعذران	الثعالب
أهل المختارة	الذئاب

---

(١) جمهرة اشعار العرب ٥٤ (٢) الكامل للمبرد
(٣) المعارف ١٢١

لقب أهله	اسم البلد
الشواح	أهل عين قنية
الديوك المزهرة	أهل عماطور
البقر	أهل المزرعة
الجحاش	أهل عينبال
الغنم	أهل بعقلين
الـكلاب (١)	أهل جديدة الشوف

وليس هذا خاصا بالعرب بل يتناول بعض الامم المتمدنة ، ففى الولايات المتحدة لاهل كل ولاية لقب خاص على هذه الصورة :

لقب أهلها	اسم الولاية
Luchers	Illinois
Pipers	Missouri
Webfoot	Oragon
Buckeye	Ohio
Hoosiers	Indiana
States Yankees	New England
Yellow Limnor	Alabama
Badger	Wisconsin

وجملة القول أن تسمية بعض القبائل بأسماء حيوانية أفرادا أو جماعات لا أهمية لها فيما نحن فيه ، لأنه عادى وطبيعى فى الاجيال القديمة والحديثة. وبالطبع لم تبق أهمية لما ذكروه من عبادة الحيوانات التى كانت شائعة فى الجاهلية ، وان كانت فى الحقيقة ليست من قبيل عبادة الحيوانات الطوتمية ، بل هى عبادة أصنام اقلها بشكل بعض الحيوانات وأكثرها بأشكال أخرى . فهى من قبيل عبادة الأوثان وليست من الطوتمية فى شىء ، لأن أهل الطوتم لايعبدون صنما بشكل الحيوان ، بل يعبدون الحيوان نفسه ويقدسونه ويتجنبون اذاه كما تقدم ، وليس عند العرب شىء من ذلك ــ على أننا نقول كلمة فى أصنام العرب لا تخلو من فائدة . .

أصنام العرب :

من المشهور أن العرب وسائر الأمم السامية أهل توحيد من فطرتهم ، واذا عبدوا صنما فيغلب أن يكون ذلك الصنم دخيلا عندهم ، ويصدق ذلك على العرب بنوع خاص لتوسطهم بين الأمم الوثنية القديمة ، فقد كانوا فى عهد جاهليتهم محاطين بالفراعنة فى مصر ، والفينيقيين فى الشام ،

(١) الهلال ، صفحة ٩٥ سنة ١٣

والاشوريين فى العراق ، والاحباش فى الحبشة . وكانت جزيرتهم طريق اهل الهند فى التجارة الى مصر والشام . وكانوا اذا ذهبوا الى بلد مما يجاورهم للتجارة أو للغزو ورأوا أهل ذلك البلد يعبدون صنما يعتقدون فيه الكرامة حملوه معهم فى رجوعهم ونصبوه فى الكعبة أو غيرها من مجتمعاتهم . واذا مرت بهم قافلة هندية ومعهم صنم يعبدونه فى أثناء أسفارهم فربما أعجب العرب فأخذوه منهم او اصطنعوا صنما على مثاله . ولم يصل الينا من أخبار هذه الاصنام الا نتف مشتتة يمكن الاستدلال بها على غيرها

وأشهر من نقل الاصنام الى مكة فى عهد الجاهلية رجل يسمونه عمرو بن لحى ، ذكروا انه غلب على مكة واخرج منها جرهما وتولى سدانتها ، وكان كاهنا فحمل اليها الاصنام من الآفاق فنقل هبل واساف ونائلة من البلقاء (١) ونقل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر من ساحل جدة (٢) واختصت كل قبيلة من القبائل المشهورة يومئذ بواحد منها ، فأصبح ود لقبيلة كلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير . وكان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر . ولو جمعت أصنام العرب لزاد عددها على مئة صنم ، ليس منها على صور الحيوانات الا بضعة قليلة جدا. على أنها اذا كثرت فقلما تؤيد برهانا للأسباب التى قدمناها ولأنها دخيلة كما رأيت — ولا نقول ذلك اعتمادا على رواية العرب فقط لان صاحبنا الاستاذ لايثق من أقوالهم الا بما يؤيد برهانه ، ولكننا ننظر فى هذه الاصنام نظرا تحليليا عسانا أن نتوصل الى نتيجة فنقول :

هبل :

هو أكبر أصنامهم ويسمونه الصنم الاكبر ، وذكروا انه كان مصنوعا من نحاس — وقيل من قوارير أى زجاج — على هيئة رجل ضخم ، وكانوا يذبحون له ويستخيرونه فى أسفارهم وحروبهم وسائر أعمالهم . ويظهر لنا أن هذا الصنم من آلهة الفينيقيين أو الكنعانيين والأدلة على ذلك :

أولا — قول العرب انه جاءهم من مواب بأرض البلقاء ، حمله اليهم عمر ابن لحى الذى ذكرناه

ثانيا — ان لفظ هبل لا اشتقاق له فى العربية من معناه ، فهو غير مشتق من لفظ عربى ، وعندنا انه عبرانى أو فينيقى أصله « هبعل » وهو اسم أكبر أصنام الفينيقيين او الكنعانيين ومن جاورهم من أمم الشام كالموابيين والمديانيين والبابليين والليبيين . وكان للفينيقيين عشرات من الآلهة يميزون

---

(١) ابن هشام ٢٧ج١ (٢) ياقوت ٩١٤ ج ٤

منها الهين ، أحدهما ذكر والآخر أنثى ، ويسمون الذكر « هبعل » والانثى « عشروت » ، ومعنى « بعل » فى لسانهم السيد والاله ، والهاء فى العبرانية أداة التعريف مثل « ال » العربية ، فباضافة هذه الأداة الى بعل يريدون الاله الاكبر . والظاهر أن عمرا المذكور لما قدم مواب أعجبته عبادة الموابيين لهذا الصنم ، وكانوا يستمطرونه ويستنصرونه ، فحمله الى مكة باسمه العبرانى « هبعل » ، وأما العين الزائدة فيسهل اهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال ، وخصوصا فى لفظ « بعل » لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » باهمال العين ، وهو اسم هذا الاله عندهم . وربما كان الموابيون يلفظونها « هبل » فنقلها عمرو بن لحى كما كان يسمعها

ثالثا — ان أساليب عبادة العرب هبل تشبه أساليب عبادة الموابيين هبعل . فقد كان الموابيون ينصبون هذا الصنم على التلال المرتفعة أو سقوف البيوت ، ويذبحون له الذبائح من الحيوانات والآدميين ، ويحرقون له المحرقات ويستخيرونه ويفضلونه على سائر آلهتهم ، وكذلك كان يفعل العرب لهبل . وكما أن هبعل أكبر أصنام الموابيين ومن جرى مجراهم ، فهبل أكبر أصنام العرب وكانوا ينصبونه فوق الكعبة

اساف ونائلة :

ذكروا أنهما صنمان ، الاول على صورة رجل والثانى على صورة امرأة ، حملهما عمرو بن لحى أيضا من البلقاء فوضعهما على بئر زمزم بالكعبة ، ثم وضع أحدهما على الصفا والآخر على المروة ، فربما كان هذان وهبل مثلثا وثنيا ، والمثلثات الوثنية كانت شائعة عند الوثنيين فى الازمنة القديمة . والغالب فى هذه المثلثات أن يكون كل منها مؤلفا من رجل وامرأة وغلام . وأمثلة هذه المثلثات كثيرة عند المصريين القدماء والكلدانيين وغيرهم

يغوث :

جاء فى تفسير الزمخشرى أنه على صورة أسد ، وأن عمرو بن لحى نقله من جدة على ساحل البحر الى مكة . فاذا كان مجلوبا من الخارج فالغالب انه من الحبشة أو مصر ، لأن جدة محطة المسافر من احداهما الى الحجاز . وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنما على صورة أسد أو لبؤة يسمونه « تغنوت » ، ولا يخفى مابين هذه اللفظة ولفظ يغوث من المشاكلة الصورية اذا اعتبرنا أن العرب كانوا يكتبون بلا نقط ، فاذا كتبوا « ىعوٮ » التبس عليهم بين أن تقرأ يغوث أو تغنوت أو تعوت ، وكثيرا ما وقع لهم ذلك حتى بعد تدوين التاريخ فى ابان التمدن الاسلامى ، فامبراطور الروم الذى حاربه هرون الرشيد يسميه بعض المؤرخين يعفور ، والبعض الآخر نعفور ،

والآخر نقفور وهوالصوابلأناسمه الرومانى Nicephorus ألا يعقلأن يحدث مثل هذا الالتباس فى عصر الجاهلية ؟ وعلى هذا المبدأ تحول اسم قايين الى قابيل ، وشاول الى طالوت ، وجليات الى جالوت ، وقورح الى قارون

ود :

وهذا الصنم قد وصفه ياقوت فى معجمه فقال : « انه على مثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد دبر عليه ــ أى نقش عليه ــ حلتان ، متزر بحلة ومرتد بحلة . عليه سيف وقد تنكب قوسا ، وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها سهام » ، فما أشبه هذا الوصف بوصف ملك من ملوك الفراعنة ذاهب للحرب على مركبته . وهو يشبه الها فينيقيا اسمه اشبو (١) أو سيس اله مصرى . ولايمكننا الجزم فى ذلك وانما يظهر من وصفه انه اله غريب

وقس على ذلك سائر الاصنام ، وانكنا لانطمع فى ردها كلها الى أصولها ، ولا أن يكون كلامنا فيها يقينيا أو قطعيا ، وانما هو من قبيل الترجيح ، وهذا يكفى فى هذا المقام

الثأر والعائلة والحلف :

ورأينا صاحب طوتمية العرب قد علق اهمية كبرى على اجتماع العرب للمطالبة بالثأر باسم القبيلة ، فعنده أن ذلك من بقايا الطوتمية ، لأن القبيلة كانت قديما اذا قتل أحد أفرادها اشتركت كلها فى المطالبة بدمه ، لأنها تطالب بحق الاله الذى هو جدها الأعلى وان العرب ليس عندهم عائلة وانما آخر انسابهم الحى ــ ولا حاجة بنا الى التطويل فى بيان فساد هذا التأويل بعد أن ظهر فساد المقدمات الاخرى . فالطلب بالثأر باسم القبيلة طبيعى فى أمم البادية ، وضرورى لحفظ جامعة النسب ، ولولاها لم يكن لتلك الجامعة معنى . ولكن صاحبنا أجهد نفسه كثيرا فى التفسير والتعليل، للتوفيق بين المطالبة بالثأر عند العرب ومطالبة أصحاب الطوتم بحق جدهم الأعلى . وهيهات أن يتأتى له ذلك الا اذا ثبتت الطوتمية عند العرب فيمكن تفسير الثأر بما فسره ، لا ان يكون هو من أدلة تلك الطوتمية يستعان به فى اثباتها

واما عدم وجود العائلة عند العرب فالقول به غريب ، وانكار العائلة عند العرب يقرب من انكار البديهيات ، أو هو انكار ضوء الشمس فى رابعة النهار . واغرب من ذلك استدلاله على طوتمية العرب بما يحدث عندهم من الترابط أو التعاون بواسطة الحلف ونحوه ، فالتحالف قاعدة سياسية لا تزال جارية الى الآن عند أرقى الأمم المتمدنة ، وانما يختلف عن الحلف عند قبائل العرب كما تختلف بداوة هؤلاء عن حضارة أولئك

فهرس

الموضوع	الصفحة

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة